علي رضا

قصة
الكفاح الوطني في سورية
عسكريا وسياسيا حتى الجلاء

علي رضا

قِصَّـــــــةُ

الكفَاح الوطنيّ في سُورية

عَسكرياً وسِياسياً حتّى الجـــلاء

الكتـــاب : قصة الكفاح الوطني في سورية
المـؤلـــف: علي رضا
الإشـــراف: مريم خير بك
النـاشـــر : دار الحارث
العـــام: ٢٠٠٩
الطبعـــة : الثانيـــة
عـدد النسـخ: ١٠٠٠ نسخة

المـطبعـة : دار الجمهوريـة للطباعـة ((بيتموني وشركاه))

دار الحـارث
سوريـة – دمشـق – اليرمـوك – شـارع ١٥ / الجليـل
ص.ب: ٤٩٤٤ / هاتف: ٦٣٣٠٤٣٨ – ٦٢٤١٤١٩ للفاكس: ٦٢٢٥٥٤٠
e.mail: maryam_K١٠٦@ yahoo.com

الإهــداء

إلى المجاهدين الصابرين، والشهداء المكرَّمين الــذين بنــوا بأشلائهم ودمائهم مجد الوطن، واستنقذوا بسواعدهم استقلاله وحريته وكرامته.

إلى كل من رفع السلاح في وجه أعداء العروبة أقدِّم هذا الكتاب تحيةً وتكريماً.

٢٤ / ٥ / ١٩٧٧

المؤلف

علي رضا

سطور عن حياة المؤلِّف

ولد المؤلف عام ١٩١٠ في مدينة حلب، التي كانت آنذاك مركزاً لولاية حلب العثمانية، في عائلة فقيرة من سكان حي المشارقة الواقع خارج سور المدينة إلى الغرب من باب أنطاكية.

كان أبوه يبيع اللبن في سوق (السويقة) في وسط المدينة، ليس بعيداً عن قلعة حلب وسوقها الرئيسية الذي يدعى (سوق المدينة).

كان الطفل علي يذهب أحياناً إلى الدكان في السويقة، فكان يشاهد الناس في ذهابهم ونشاطهم اليومي، فتنطبع هذه المشاهدات في ذهنه، حافلة بصور الفقر، ولعل أقسى صورة انطبعت في ذهنه كانت صورة عربات النقل التي تجرها الخيل، والتي كانت تحمل أجساد بعض المتسولين ضعاف الجسم الذين لا مأوى لهم، فيُجمَعون من الطرقات، ليُكدَّسوا في أحد خانات حلب القريبة من السويقة، وهناك كانوا يُترَكون دون طعام حتى الموت. كان ذلك في أعوام المجاعة التي تفشت في وطننا أواخر أيام الحكم العثماني. هذه الصورة لم تغادر ذهن الطفل علي رضا، وكانت تكرس بالإضافة إلى صور أخرى عايشها، والتي تبرز شقاء الإنسان في مواجهة الحياة القاسية، كانت تحرض عنده رفضه لحالة الفقر، وتعزز توجهه الإنساني، الذي رافقه طوال حياته.

تمكن علي رضا بسبب تفوقه في الدراسة من الحصول على منحة لدخول دار المعلمين، ليكفي أهله مؤونة إعالته. وبعد تخرجه منها عين معلماً في قرية (الدانا) غربي حلب. وكان الفرنسيون آنذاك قد تمكنوا من قمع ثورات الشعب السوري ضد الانتداب. إلا أن جذوة النضال لم تَخبُ، بل كانت مستمرة في النفوس. فكان له نصيب في ذلك حيث أُتُهم من قبل السلطة الفرنسية بالتحريض ضد الانتداب فَطُرِد من عمله وأدخل السجن ليبقى فيه عاماً ونصف العام تقريباً في أوائل الثلاثينات من

القرن العشرين. ثم ما لبث أن أعيد إلى التعليم، لمتابع نشاطه الوطني من خلال مؤازرة الكتلة الوطنية التي كانت تعزز النضال السياسي.

وجاءت سنوات الحرب العالمية الثانية التي كوت السوريين بنارها فقراً وجوعاً، فأصبحوا أشد كرهاً للاستعمار، وقد تمكنوا بعد نهاية الحرب من تحقيق الاستقلال بما بذلوه من التضحيات. وكان من الليالي التي لا تنسى، ليلة خروج آخر فلول القوات الفرنسية من قلعة حلب، حيث احتشد المواطنون حول سورها، ثم صعدوا إلى القلعة، ثم صدح صوت المؤذن من مئذنة جامع القلعة بالأذان، لأول مرة منذ دخول الفرنسيين إلى حلب. فهلل الناس وكبَّروا، وكان المؤلف بين الداخلين إلى القلعة، ومعه عدد من طلابه في مدرسة الصنائع بحلب المجاورة للقلعة، وتمكنوا من الدخول إلى السجن المسمى (حبس الدم) فوجدوا فيه سجيناً مشرفاً على الموت تبين أنه أحد طلاب المدرسة، وإلى جانبه سجين آخر توفي قبل أيام، وكان أحد الجنود المغاربة في الجيش الفرنسي رفض الأوامر بإطلاق النار على المتظاهرين السوريين فوضعه الفرنسيون في حبس الدم ليموت هناك.

تابع المؤلف حياته مدرِّساً في مدارس حلب، فكان كما قال أحد طلابه، مربياً، لاينى، يحض على الوطنية والإخلاص في العمل، وعلى رفض الأذى بكل أشكاله.

التفت علي رضا إلى التأليف منذ أربعينيات القرن الماضي فكانت له مسرحية (فلسطين الدامية) التي عرضت في دار الكتب الوطنية بحلب ١٩٤٦، وبعض المخطوطات الأخرى التي طبع بعضها، وبقي بعضها دون طباعة، كما كتب الشعر، ولعل الزمان يسمح بطباعة ديوانه (حصاد السنين).

توفي علي رضا – رحمه الله – عام (٢٠٠٢) عن اثنين وتسعين عاماً قضاها جلها في نضال صامت من أجل سواد الخير ودحر الشر، مستخدماً سلاحه الذي يتقنه وهو الكلمة..

بقلم: عمر علي رضا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ أعوام طويلة نويت أن أخرج للناس هذا الكتاب التاريخي الذي يؤرخ فترة عزيزة علينا هي فترة كفاحنا ضد الاستعمار الفرنسي البغيض، ولقد سلكت في تحقيقاتي نهجاً موضوعياً رصيناً، وأسلوباً علمياً مجرداً من كل هوىً.

لقد قابلت الكثيرين ممن تحدث عنهم الكتاب، وسجلت ما قالوه بأمانة ودقة، كنت أتوخاهما في عملي هذا في جميع مراحله، فالمعلومات دقيقة، وكثير منها لا يعرفه إلا قلة قليلة ممن بقي على قيد الحياة. ولم يكن غرضي من وضع الكتاب إلا إبراز ما قام به المناضلون والمقاتلون من ضروب البسالة والتضحية والفداء مع إنكار للذات وتواضع يصل إلى حد يعجز عنه الوصف. وتحاشيت كلّ ما يسيء إلى من ساروا ضد التيار الوطني، بعضهم كان يسعى وراء مكاسب فانية، وبعضهم كان يتبع اجتهاداً يؤثره على النهج النضالي المتعارف عليه، فهؤلاء كانوا يرون أنه يمكن الخلاص من الاستعمار على مراحل دون التصادم معه، ولكل امرئ اجتهاده فلن أخوض في تفاصيل لا أجد الآن لها جدوى.

لقد سعيت بأمانة أن يكون كتابي ناطقاً بالحق، بلا مغالاة، فلم أنسب إلى أحد بطولة لم يقم بها ولم أغفل مأثرة صدرت عن مواطن ولو كان من أبسط المواطنين، فكفاحنا كان كفاحاً شعبياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى. كما لم أدع حقيقة نافعة إلا أبرزتها، واتبعت في ذلك أفضل السبل وأدقها وأثبتها بالشواهد والمستندات، دون أن استجيب للهوى فكم من مؤلف أضله ميله وهواه، وأزاغته عن الصواب آرابه وغاياته.

وكنت في عرضي للحوادث ونقاشي القصير أحياناً، أتوخى التثبت من الحوادث مهما طال عليَّ الوقت واشتد التعب والإعياء، لا أنشد غير الصدق، ولا استهدف غير الحقيقة، بأمانة علمية، ونزاهة لا تعرف الهوادة ولا الشطط، مستعيناً بصبر لا ينفد، وجَلَدٍ لا يعرف الكلال، وجعلت همي أن تبدو الحقائق ماثلة صحيحة واضحة، كالصبح الذي لا يخفى على أحد، ولا يرتاب فيه مبصر.

ولقد قصرت الكتاب على المدة التي هي بين عام ١٩١٨ وبين عام ١٩٤٦ أي بدءاً من انتهاء الحرب العالمية الأولى وتوقيع الهدنة في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ حتى ١٧ نيسان ١٩٤٦ يوم انحسار الاستعمار الفرنسي عن سورية الحبيبة.

واستعنت ببعض المراجع إضافة إلى المستندات المصورة، ومذكرات كبار الثوار والقادة الثوريين، وذلك للإلمام بكل ما نشر عن هذه الفترة من تاريخ سورية، وما ظلَّ طيَّ مذكرات لم تنشر.

إن الذي حملني على وضع هذا الكتاب هو أن الكثيرين من الذين تصدوا للكتابة عن هذه الفترة لم يبرزوا جيداً الكفاح الشعبي، كفاح الناس البسطاء، الفلاحين، والباعة، والعمال، والطلاب، ورجال العلم ولم أغفل نضال الآخرين قلَّ هذا النضال أو كثُر.

والكتاب الذي أقدمه هو حصيلة تحقيق واجتهاد أعوامٍ طويلة، قضيت أعواماً منها في السفر إلى القرى والمدن ومواطن المعارك، شاهدتها مع بعض من اشترك فيها، وأنني لأكون سعيداً إذا تلقيت من القراء آراءهم وملاحظاتهم الصادقة الصحيحة والمجردة من الأهواء والميول والأغراض الذاتية، لأن تلك

ليس لها مكان في هذا الكتاب، فطريقتي في تأليفه علمية تعتمد على الصدق والأمانة والمنطق والعقل السليم، والهدف هو التوصل إلى حقيقة الحوادث النضالية التي تمت في بلادنا خلال هذه الفترة التي امتدت حوالي ثمانية وعشرين عاماً، وهي أغلى وأهم فترة مرت بالبلاد.

لقد عزَّ عليَّ ألا يعرف المواطنون (والنشء الصاعد بخاصة) ما تم في هذه الفترة معرفة كاملة واضحة، كما عزَّ علي أن تغفل البلاد ذكرى مناضلين شعبيين من بسطاء الناس كان لهم الأثر الفعال في زعزعة بنيان الاستعمار، وزلزلة أركانه، وبث اليأس والذعر في نفوس رجاله وعملائه، حتى تم في ١٧ نيسان ١٩٤٦ كنسه نهائياً عن أرضنا العزيزة، فخرج مذموماً مدحوراً، يلعنه الناس حتى الحجارة وكل ما هو فوق هذه الأرض الطيبة الخيرة المسالمة.

ولقد عنيت بضبط تاريخ الحوادث، وسرت وفق تسلسل تاريخها حتى يسهل على القارئ متابعة هذه الحوادث وتتبع مسارها، دون أن يشرد ذهنه أو يتيه تفكيره، أو يتعثر فهمه، أو يتعسر عليه استيعاب ما يقرؤه، لهذه الأسباب جعلت همي أن أسجل الحادثة بتاريخها الصحيح لكي يكون ذلك عوناً للقارئ على الإلمام إلماماً جيداً بفترة عزيزة من تاريخنا العربي المجيد.

وقد وضع بعض الفرنسيين كتباً عن وجودهم في سورية، وضمنوا ما كتبوه تشويهاً للوقائع كثيراً، ولم يعرضوا وجهة النظر الوطنية بصدق ولا بإخلاص للتاريخ والعلم، واستخفوا بالرأي العام العالمي، وزيفوا الحقائق تزييفاً وضللوا الرأي العام الفرنسي بخاصة، وكتبوا ما راق لهم وحسب هواهم، ضاربين بالحق والعدل والصواب عرض الحائط.

إني عاصرت الأحداث بل عشت بعضها، ووجدت الواجب الوطني يدعوني إلى تدوين ما حدث، وتجاوزت عن الغث التافه، ودونت الصحيح الثابت، ذاكراً المسؤولية العلمية والقومية والوطنية والتاريخية التي يتحملها من يتصدى لمثل هذا العمل.

وكل ما أتمناه أن يكون فيما فعله المناضلون الشرفاء في هذه الفترة الغالية من حياة الأمة دروس لما ينتظرنا في حاضرنا ومستقبلنا، ضد استعمار

استيطاني سفّاك لا يرحم، هو أشد ضراوة من الاستعمار الفرنسي دون شك، فالمجازر البربرية إن تشابهت في الشكل ولكنها تختلف في النزعة الاستيطانية التي يحملها الصهيونيون، هذه النزعة التي تستهدف طرد العرب من ديارهم، وصنع دولة إسرائيلية كبرى تضم فلسطين كلها، وسيناء حتى ضفة السويس، والجولان، ودرعا والمملكة الأردنية كلها.

ويبرز سؤال عقب هذا الكلام وهو ((هل أدرك العرب هذا الخطر تماماً؟.. وهل أدركوا أبعاده كلها؟.. وهل هم يعدون قواتهم لمحو هذا الخطر؟.. وهل وضعوا ثوراتهم الطبيعية في الحساب كسلاح لا يُفَلُّ حَدُّه))؟.. إنني حتى الآن لست مطمئناً إلى أن العرب قد وعوا قضيتهم وعياً جيداً، ولو كان ذلك قد تحقق لكانت الشوارع تعج بالجنود المؤمنين بأن القتال هو السبيل الوحيد لنجاتنا، وإلى أن يدرك العرب قوة وامتداد الخطر الصهيوني ومكره ودهاءه حينئذٍ يمكن أن يسيروا في الخط الصحيح.

على كل حال سيرى القارئ في تضاعيف الكتاب أن المواطنين في سورية ما وثقوا يوماً بالمستعمرين وحين وافقوا على عقد معاهدة عام ١٩٣٦ وتم توقيعها في باريس ظلت حبراً على ورق ثم ألغاها الفرنسيون مرة واحدة، ولم نستقلّ إلا بالنضال العسكري والسياسي الذي لم يترك للفرنسيين فرصة لأخذ النفس وتم جلاء المستعمرين بفضل تصميم الشعب وعناده على وطنيته، وإيمانه الذي لا يتزعزع بأن العدو هو العدو ولن يكون العدو صديقاً ولن يكون العدو موالياً، ولا مهادناً.

أرجو أن يمدنا الله بالعون لخدمة وطننا وأمتنا، ووطننا العربي الموحد وأمتنا العربية الموحدة.

المؤلف

علي رضا

سورية في نهاية الحرب العالمية الأولى

١

في عام ١٩٠٨ خُلع السلطان عبد الحميد عن عرش الدولة العثمانية التي كانت تحكم شعوباً إسلامية متعددة القوميات، ومنها الأمة العربية، فانزاح كابوس الظلم عن هذه الشعوب ودبّ فيها الأمل، وتطلعت إلى عهد جديد، يحمل إليها الحرية والعزة والاستقلال الوطني.

ولكن الذين تولوا الحكم بعد إزاحة السلطان عبد الحميد لم يكونوا أقلّ منه تعسفاً، ومحاربة للتطلعات القومية والوطنية عند الشعوب غير التركية، فنكلوا بالأحرار العرب، وزجوا بالثوريين في السجون، وضيقوا على الحريات، فتألفت جمعيات عربية أخذت على عاتقها مهمة الكفاح حتى تتحرر البلاد العربية من النير الاستعماري التركي، والعمل على إقامة دولة عربية واحدة تضم كل الأقطار العربية.

واتصل عدد من الزعماء العرب بالأمير فيصل، ثم بأبيه الحسين بن علي، واتـُفقَ على أن يتزعم الحسين التحرك الثوري العربي متى لاحت الفرصة المواتية.

وفي ٢١ آب ١٩١٥، أي في العام الثاني من الحرب العالمية الأولى أصدر القائد التركي جمال باشا حكماً بالإعدام على عدد من الزعماء العرب منهم: عبد الكريم خليل، صالح حيدر، مسلم عابدين، نايف تِلّو، محمد ومحمود محمصاني،

نور الدين القاضي، علي الأرمنازي، عبد القادر الخرسا، محمود العجم، سليم الأحمد، وأعدموا في ساحة المرجة في دمشق.

ولم يكتف هذا السفاح بهؤلاء الضحايا تروي نفسه العطشى إلى الدماء، بل أردف هذه القافلة من الشهداء بقافلة ثانية، فأعدم في السادس من أيار عام ١٩١٦ في دمشق وبيروت عدداً آخر، منهم: عبد الغني العريسي، عمر حمد، سعيد عقل، جرجي خياط، توفيق البساط، أحمد طبارة، محمد الشنقيطي، بترو باولي، أمين لطفي الحافظ، سليم الجزائري، شفيق المؤيد العظم، عبد الوهاب المليجي (الملقب بالانكليزي)، شكري العسلي، عبد الحميد الزهراوي، الأمير عمر الجزائري، رفيق رزق الله سلوم، عارف الشهابي، سيف الدين الخطيب، رشدي الشمعة، على الحاج عمر، جلال البخاري.

وضاق العرب ذرعاً بهذا الظلم والاضطهاد، ولم يجدوا مفراً من إعلان الثورة على الدولة العثمانية، فأطلق الحسين بن علي الرصاصة الأولى وأعلنت الثورة العربية في ٢ حزيران ١٩١٦.

وكانت بريطانيا قد وعدت الحسين بن علي بمساعدته على إنشاء الدولة العربية الموحدة المستقلة، دون أن يدرك ما ينطوي عليه نفس هذه الدولة الغادرة من خداع ومكر، لأن بريطانيا كانت قد وَقّعت (قبل شهر واحد من إعلان ثورة الحسين) على اتفاقية سايكس بيكو (٦ أيار ١٩١٦)، وقعها عن فرنسا جورج بيكو، ووقعها عن انكلترا مارك سايكس، **وقد جاء في هذه الاتفاقية: تقسيم البلاد العربية إلى مناطق نفوذ تحت حكم الدولتين المذكورتين.**

وبعد إعلان الثورة، حرر الأمير فيصل بن الحسين الأردن، ثم دخل سورية فوصل في ٢٨ أيلول ١٩١٨ إلى مدينة درعا، ودخلت الجيوش العربية المحررة دمشق في ١ تشرين الأول ١٩١٨ بينما كان الجيش الانكليزي بقيادة الجنرال اللنبي يحتل مدن فلسطين، وقد أشارت اتفاقية سايكس- بيكو على أنها ستكون تحت النفوذ البريطاني، الذي سيعدها لقمة سهلة تقدم إلى الصهيونيين،

وكان العرب عن ذلك غافلين، أو متغافلين إذ كان عليهم الا يحسنوا الظن بالدول الاستعمارية.

وبعد لحاق البريطانيين بالجيش العربي في دمشق، واستقرار الأحوال تقدم الجيش العربي لتحرير بقية المقاطعات السورية من فلول الجيش التركي، حتى تم تحرير سورية بأجمعها.

قيام الدولة العربية

٢

أعلن الأمير فيصل بن الحسين قيام الدولة العربية في دمشق في الخامس من تشرين الأول بالنيابة عن والده، غير أن المستعمرين لم يمهلوه فعمدوا إلى تنفيذ اتفاقية (سايكس بيكو).

في العاشر من تشرين الأول ١٩١٨ هاجم الفرنسيون المرافئ السورية واللبنانية، ولم ينته عام ١٩١٨ حتى كان الفرنسيون قد احتلوا جميع هذه الموانئ من طرابلس حتى اسكندرون بينما كانت بيروت ما تزال تحت الاحتلال الانكليزي.

وانخدع العرب بأقوال المستعمرين ووعودهم، حتى أن الأمير فيصل ألقى خطبة في حلب يوم ١١ تشرين الثاني أثنى فيها على الحلفاء، وأشاد بفضلهم وحسن نواياهم.

قررت عصبة الأمم في جلستها المنعقدة في ١٩١٩/١/٣٠ فصل البلاد العربية عن السلطنة العثمانية، واستفتاء سكانها في تقرير مصير بلادهم، وتكلم الأمير فيصل مدافعاً عن وحدة البلاد العربية، منددا بالاتفاقات السرية التي أبرمت بين فرنسا وانكلترا وبخاصة اتفاقية (سايكس بيكو) التي قضت بتمزيق الوطن العربي، وتوزيع الأقطار العربية بين الدولتين فرنسا وانكلترا.

لجنة كراين

في السابع من حزيران عام ١٩١٩ انعقد مؤتمر في النادي العربي بدمشق، افتتحه الأمير فيصل بخطاب أوضح فيه للحاضرين وهم ممن كانوا نواباً عن الشعب في المجلس العثماني المنحل، أوضح لهم أن لجنة الاستفتاء الفتها الولايات المتحدة برئاسة (تشارلس كراين) ستصل إلى البلاد في غضون أيام وعليهم أن يعرضوا مطالب البلاد عرضاً يحفظ للبلاد استقلالها وكرامتها.

ووصلت لجنة كراين إلى دمشق في ٢ تموز ١٩١٩ فقابلها رجال المؤتمر السوري الذي تحدثنا عنه وسلموه قرار المؤتمر مطالباً بالاستقلال التام الناجز للبلاد بحدودها الطبيعية، من جبال طوروس شمالاً إلى العقبة جنوباً، والبحر المتوسط غرباً ومدينة البوكمال شرقاً، وبدون حماية ولا وصاية.

وطُوِيَ تقرير لجنة كريان بضغط من حكومتي فرنسا وانكلترا، فلم ير النور.

وأخذ الأمير فيصل يسعى بين العاصمتين لندن وباريس ويتصل بالشخصيات الرسمية ولكن دون جدوى، وأعطيت الأوامر إلى الجنرال غورو الفرنسي فدخل لبنان في ١٨ تشرين الثاني ١٩١٩.

واستعمل الأمير فيصل الأساليب الدبلوماسية فلم تفد شيئاً في صد (غورو) عن عزمه في احتلال لبنان وسورية، والتأم المؤتمر السوري في الأول من كانون الأول ١٩١٩، وقرر رفض الاحتلال الفرنسي، كما أقر الخدمة العسكرية الإلزامية.

إعلان استقلال سورية

في ٦ كانون الثاني ١٩٢٠ تم الاتفاق على مشروع بين الأمير فيصل وفرنسا، شريطة أن يقره الشعب السوري، ولكن سورية رفضت المشروع، وأعلنت استقلالها التام، ونادت بفيصل ملكاً على سورية، وذلك في ٧ آذار ١٩٢٠. وتوج الأمير فيصل ملكاً على سورية في اليوم التالي أي الثامن من

آذار، فما كان من الحلفاء إلا أن عقدوا مؤتمراً في (سان ريمو) وقرر المؤتمر فرض الانتداب على سورية وذلك في ٢٤ نيسان ١٩٢٠.

وأبلغ الجنرال (اللنبي) الانكليزي الملك فيصل في ٢٧ نيسان ١٩٢٠ رسمياً قرار الحلفاء، بجعل مهمة الانتداب على لبنان وسورية لفرنسا، والانتداب على العراق وفلسطين لانكلترا.

الوزارة السورية الأولى

تألفت وزارة جديدة برئاسة السيد هاشم الأتاسي، وأخذت على عاتقها الدفاع عن الوطن، فبدأت تستعد للمعركة ضد فرنسا الباغية.

وكان الجنرال غورو قد احتل لبنان ووصل جيشه إلى مشارف سورية فأرسل إنذاراً إلى الملك فيصل في ١٤ تموز ١٩٢٠ يطلب فيه تنفيذ ما يلي:

١- الاعتراف بالانتداب الفرنسي رسمياً بلا قيد ولا شرط.

٢- قبول التعامل بالأوراق النقدية التي أصدرها البنك السوري في المنطقة الشرقية (وهو بنك أسسته فرنسا).

٣- إلغاء التجنيد الإجباري وتسريح المجندين.

٤- وضع سكة حديد (رياق - حلب) تحت تصرف الجيش الفرنسي.

٥- معاقبة من وقفوا ضد فرنسا وحاربوها.

وأعطيت مهلة أربعة أيام لقبول هذا الإنذار تنتهي في الساعة الثانية عشرة من ليلة ١٨ تموز ١٩٢٠.

رفض المؤتمر السوري الذي كان من أعضائه الزعيم الثائر إبراهيم هنانو قبول الإنذار، ونادى بالدفاع عن استقلال البلاد وقرر ما يلي:

١- الاستقلال التام والوحدة السورية، ورفض الهجرة الصهيونية.

٢- إقرار ملكية فيصل على الأساس النيابي الدستوري.

٣- إبقاء المؤتمر منعقداً.

ولكن الملك وحكومته قبلا الإنذار لفقدان الأسلحة والذخائر، غير أن وزير الحربية يوسف العظمة أصر على الدفاع عن الاستقلال، على الرغم من أن الجيش لم تكن لديه الأسلحة والذخائر الكافية.

في ١٩ تموز ١٩٢٠ جاء كتاب من الجنرال غورو يطلب فيه تنفيذ الشروط، لا الاكتفاء بقبول الإنذار، فأرسلت حكومة الملك برقية تنبئ غورو بأنها جادة في تنفيذ الشروط، غير أن ضابط الاتصال طوى البرقية وأخرها حتى مضي الوقت المضروب للإنذار، فاجتاز الجيش الفرنسي حدود سورية في ٢١ تموز ١٩٢٠.

وكان الفرنسيون قد احتلوا قبل ذلك اسكندرون وأنطاكية وتقدموا قاصدين حلب.

أما في دمشق فإن الناس تنادوا للدفاع عن البلاد وسلاحهم البنادق القديمة والسيوف والمسدسات والعصي.

وحاول الملك أن يثني الجنرال (غورو) عن عدوانه ولكن دون جدوى، فأرسل لجنة برئاسة السيد ساطع الحصري للتفاوض مع الجنرال (غورو) ولكن اللجنة عادت دون أن تصل إلى حل.

واجتمع الملك بأركان الحكومة في ٢٣ تموز وكانت الجيوش الفرنسية قد احتلت حلب في يوم الجمعة ٢٣ تموز ١٩٢٠ بقيادة الجنرال (دي لاموت).

واستعد وزير الحربية (يوسف العظمة) للمعركة بما لديه من الرجال، مودّعاً رفيقه السيد ساطع الحصري قائلاً: إني أترك ابنتي الوحيدة ليلى أمانة لديكم، ثم خرج فدخل على الملك مستأذناً ومودعاً فقال له الملك: أيها القائد الشجاع، بعد أن انتهت الأمور إلى هذا الحد يجب أن نموت جميعاً شرفاء، وننقذ البلاد، وأدى الوزير البطل التحية العسكرية للملك وخرج ميمماً وجهه شطر ميسلون.

معركة ميسلون

كانت القوة العربية السورية تتألف من ثلاثة آلاف عسكري ومدني بقيادة السيد (تحسين الفقير) يعاونه العقيد (شريف الحجار)، وتضمنت هذه القوة فيما

تضمنت الحرس الملكي يقوده الضابط (مرزوق الخيمي)، وفرقة رشاشات يقودها الضابط (صبحي العمري).

أما القوة الفرنسية فكانت تتألف من تسعة آلاف جندي بقيادة الجنرال (غوابييه) يعاونه الكولونيل (بيتيلا) مع مدفعية ميدان، وفي الجنود سنغاليون وأفريقيون آخرون ومغاربة وخيالة ودبابات وثلاثة أسراب طائرات.

صباح ٢٤ تموز نشبت المعركة في (ميسلون). وكان الشهيد البطل يوسف العظمة يشرف على المعركة، وظهر له أن القوات الفرنسية تتفوق في العدد والعتاد تفوقاً كبيراً، فنصحه مرافقه (ياسين الجابي) بالتراجع، فلم يجد أنَّ التراجع يليق بالمناضلين الذين يقاتلون من أجل هدف مقدس، وظلّ يقاتل حتى أصيب فسقط شهيداً في نفس اليوم.

وتراجع المقاتلون نحو دمشق وفي إثرهم الفرنسيون، الذين خسروا ٤٢ قتيلاً و١٥٢ جريحاً وخسر مقاتلونا ٤٠٠ قتيلاً.

لم يفد الأسلوب الدبلوماسي المرن الذي مارسه الملك فيصل مع المستعمرين فانتهت الملكية وغادر الملك فيصل دمشق، وسلّم اللواء نوري السعيد دمشق للفرنسيين في ٢٥ تموز ١٩٢٠ ليظلوا في سورية ربع قرن ذاق فيه العرب السوريون خلالها أشدَّ أنواع النكال، وظلوا يناضلون حتى تم جلاء الاستعمار عن أرض الوطن في عام ١٩٤٦.

تبدى هذا النضال الدامي في أسلوبين: أحدهما: النضال العسكري، وقد امتد من عام ١٩١٩ حتى نهاية عام ١٩٢٧ تقريباً.

والثاني: النضال السياسي الذي بدأ عقب الحرب العالمية الأولى، واستمر حتى يوم الجلاء ١٧ نيسان ١٩٤٦.

ولقد ذكرنا سابقاً أن الفرنسيين اهتموا باحتلال الساحل، ومنه تسربوا إلى الداخل يوماً بعد يوم وجعلوا لهذا الأسلوب برنامجاً نفذوه بدقة متناهية.

الكفاح المسلح

٣

ثورة المنطقة الساحلية وجبال العلويين

دعيت هذه الثورة بثورة الشيخ صالح العلي مُوقدها وبطلها، وهو ابن الشيخ علي سليمان، وقد عرف هو ووالده بالتقوى والصلاح. ولد في عام ١٨٨٣ ميلادية في قرية (المريقب) ناحية الشيخ بدر، منطقة طرطوس، وكان والده يتبوأ مركزاً دينياً مرموقاً، ويُعدُّ زعيماً لعشيرة البشارغة.

خلف الشيخ صالح والده في رئاسة العشيرة، وحين نزل الفرنسيون في طرطوس أواخر عام ١٩١٨ أحس الشيخ صالح بأن على العرب أن يبادروا إلى طرد العدو فوراً وإلا يدعوه يثبت قدمه في أرض الساحل السوري، فأعلن الثورة في منطقته في قرية الشيخ بدر.

وفي ١٩١٨/١٢/١٥ بدأ الشيخ صالح العلي ثورته المجيدة التي كانت الصرخة الأولى في وجه الاستعمار الفرنسي البغيض، وكان الرجل من أمهر القادة الثوريين، وأفطنهم لاتخاذ أساليب الكر والفر، والتمويه واستخدام الكمائن والمباغتة، وغير ذلك من أساليب حروب الأنصار والثوريين.

ولقد عقد الشيخ صالح مؤتمره الأول المؤلف من زعماء المنطقة الساحلية ووجوهها من سنيين وعلويين في (قلعة الخوابي) في منزل السيد مصطفى محمود.

وعقد اجتماع آخر في قرية الشيخ صالح العلي وهي قرية (الشيخ بدر) تكلم فيه القائد الثوري عن نوايا الفرنسيين نحو سورية ونحو الحكومة الفيصلية التي تألفت في دمشق، ودعا ممثلي الشعب إلى الثورة على المستعمرين، فصدر القرار ببدء الثورة بقيادة الشيخ صالح العلي، وذلك في ١٩١٨/١٢/١٥.

ونظم القائد الشجاع رجال الثورة تنظيماً عسكرياً رائعاً، بحيث بدت هذه التنظيمات شاملة لجميع النواحي، سواء منها الانضباط الثوري والتسلح، والمحكمة الثورية، أو المراتب والرتب والقادة والرؤساء وديوان للمحاسبة، ولم يترك ناحية تنظيم لم يعرها العناية التامة.

وسمع الفرنسيون بما يجري في الشيخ بدر، فاستدعوا السادة، أحمد المحمود، ومحمد إسماعيل، وأسبر زغبي إلى بانياس، وزجوهم في السجن.

معركة الشيخ بدر الأولى

أرسل الفرنسيون يدعون الشيخ صالح العلي إليهم فلم يتمكنوا من إيقاعه في الشرك، فأرسلوا حملة لاحتلال الشيخ بدر، ودارت معركة بين الثوار والفرنسيين قرب قرية (النيحا) غربي (وادي العيون).

وتراجعت القوات الفرنسية تاركة (٣٥) قتيلاً في ساحة المعركة، وسميت المعركة معركة (الشيخ بدر الأولى).

وعلى إثرها أقبل الرجال من كافة أنحاء جبال العلويين، وأقبل ضباط من الجيش الفيصلي من دمشق فانضموا إلى اخوانهم في الشيخ بدر يستعدون لمقارعة الاستعمار مهما غلا الثمن.

معركة الشيخ بدر الثانية

أعاد الفرنسيون الهجوم على قرية الشيخ بدر، مقر قيادة البطل الشيخ صالح العلي في ٢ شباط ١٩١٩ بقوة كبيرة، ودارت رحى معركة ضارية،

وعندما حلَ المساء حلـَت بالفرنسيين الهزيمة، ففروا تاركين عشرين قتيلا، ومعدات وذخائر وأسرى.

وأظهر الشيخ صالح مهارة كبيرة في إدارة دفة المعارك التي خاضها مع رجاله الشجعان، ضد قوات تفوقهم عدداً وعدة، ولكنها لا تفوقهم تنظيما وإيمانا بعدالة ما يقاتلون من أجله.

ثورة قضاء بابنّا والتحاقها بثورة الشيخ صالح العلي

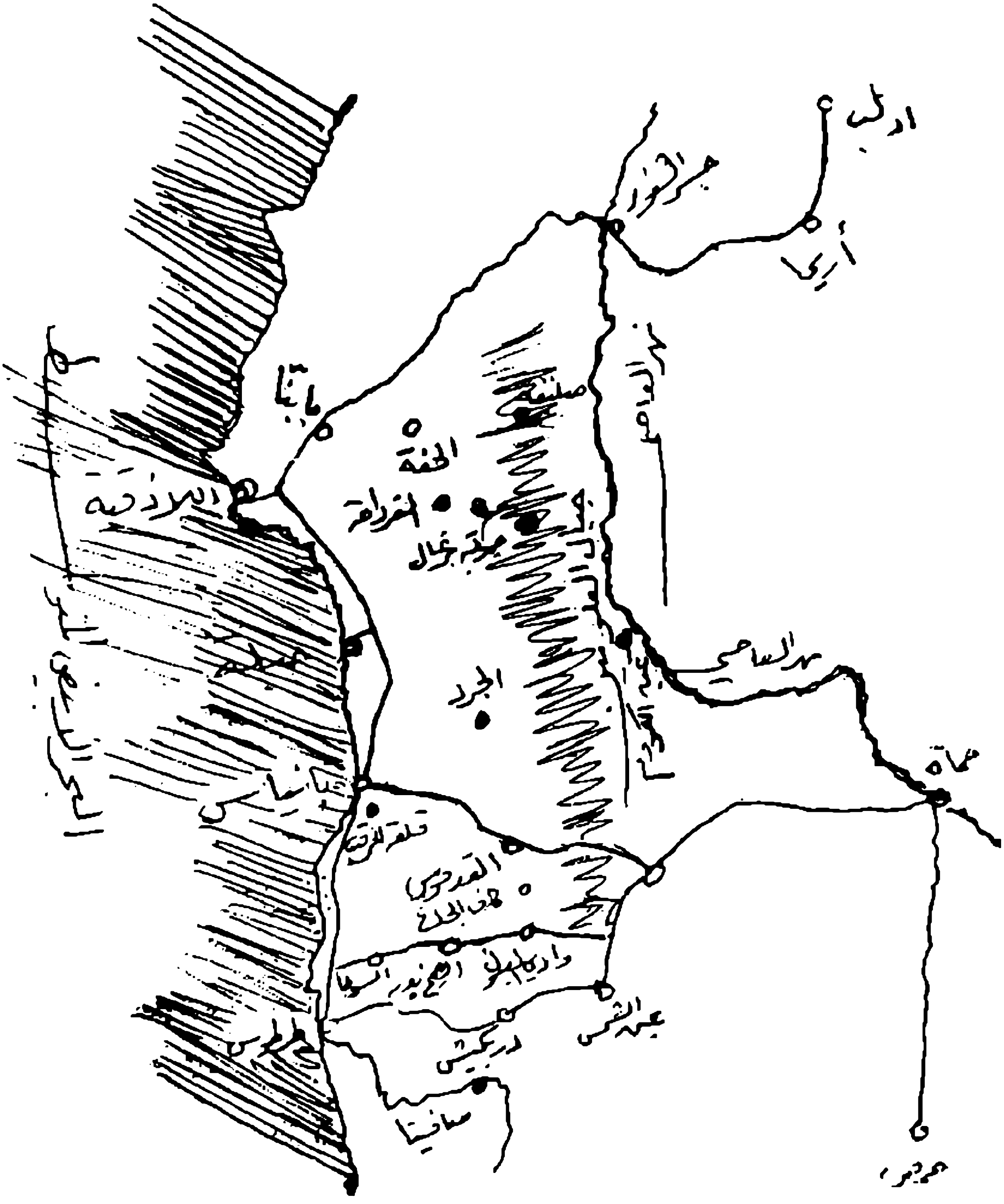
٤

في قضاء (بابنّا) في جبال اللاذقية سمع الناس بثورة الشيخ صالح العلي، فتنادوا إلى الثورة وعلى رأسهم (آل البيطار) بزعامة الثائر الكبير السيد عمر البيطار والثائر البطل مصطفى إسماعيل، فعقدوا اجتماعاً، كان فيه إبراهيم أبو سليمان الجندي، وشحادة زكريا، وعبد الرؤوف طيبة، الحاج مصطفى المجبور، محمد عبد الجليل، محمود عطور، أحمد كليه وغيرهم.

وقرر المجتمعون مناهضة المشاريع الاستعمارية، فأرسلوا وفداً إلى حلب للاجتماع بأركان الحكومة العربية فيها، ولكن الفرنسيين استطاعوا أن يوقفوا الوفد ويعيدوه إلى (بابنّا) مع بعض الخسائر من الطرفين.

كما استولى الفرنسيون على قافلة تجارية ذاهبة من (بابنّا) إلى حلب، فاشتعلت الثورة إثر هذا الاعتداء، واشتبك الثوار مع الفرنسيين في قرية (خان عطا الله) واسترد الثوار القافلة المغصوبة.

وسارع الفرنسيون للانتقام من الثوار فأرسلوا كتيبتين احتلتا (الحفة، وبابنّا) وعززوا قوتهم في المنطقة.



مواقع الثورة في الساحل وجبال العلويين

الهجوم على الفرنسيين في اللاذقية

قام الثائر الشهيد الشيخ عز الدين القسام، وهو من مدينة جبلة، بهجوم صاعق على الثكنة الفرنسية في اللاذقية، إذ أرسل عددا من خيرة الثوار منهم: الشيخ أحمد إدريس، وخيرو اللاذقاني، وصبحي حليمة اللاذقاني، وحسن سعدية اللاذقاني، وإسماعيل السيد، وعلي السعد، وإبراهيم علي إبراهيم، وكلفهم بمهاجمة الثكنة الفرنسية، ولكنَّ الحرس شعروا بالثوار، فنشبت معركة حامية بين الفرنسيين والأخوة الثوار، ولما رأوا استحالة اقتحام الثكنة، عادوا إلى الجبال المشرفة على اللاذقية.

وقام الفرنسيون بحملة انتقامية لاسترداد هيبتهم فهاجموا (الحفة) وما حولها، وفرضوا على أهلها غرامة مقدارها خمسمائة ليرة ذهبية، ثم عادوا إلى اللاذقية، ومعهم أربعة من زعماء المنطقة وهم: إبراهيم أبو سليمان، أحمد مصطفى البيطار، علي أحمد كليه، شحادة زكريا، وسجنتهم السلطة أياماً، ثم أطلقت سراحهم خشية أن تستفحل الثورة ويمتد لهيبها إلى مناطق الجبل كله.

معركة بزفتا

واشتبك الثوار مع الفرنسيين في معركة قرب قرية (بزفتا) بقيادة خيرو القصاب، ومعه حسين سعدية، وصبحي حليمة اللاذقاني، وصبحي الشيخ خميس، وفيها سقط عدد من الجرحى الفرنسيين.

عاد الفرنسيون إلى (بابنـّا) مدحورين، وخسر الثوار عدداً من الشهداء منهم: صبحي الشيخ خميس من (بابنـّا) وعبدو سليمان من (شيرقات) وعثمان عبده ولدا الحاج إبراهيم.

ماغران المتوحش

في ١٥ نيسان ١٩١٩ أمر الكابتن ماغران وهو الحاكم العسكري في (بابنـّا) بإلقاء القبض على ثلاثة من شباب القرية وهم: محمد بن شريف الصباغة، وحميد بن عبد الوهاب البدوي، وسالم بن عابد مدنية، وشنقهم دون ذنب اقترفوه، وكان نفذ بنفسه حكم الإعدام بهؤلاء الشهداء ليرهب الاهلين ويخيفهم.

معركة (بابنّا)

كانت نتيجة الأعمال البربرية الوحشية التي ارتكبها الكابتن ماغران ازدياد النقمة على الفرنسيين، فقرر الثوار الانتقام للشهداء، وفي اليوم التالي كانت جموع من الاهلين قد اجتمعت في (بابنّا) وهاجمت الفرنسيين والمرتزقة والمتطوعين والدرك، وظلت المعارك محتدمة أياماً.

كان الثوار البواسل مثلاً رائعاً للرجال الشجعان، إذ هاجم (حسن طه) منزل الحاكم العسكري المجرم (الكابتن ماغران) وفتح فيه ثغرة ليَدخُله على الرغم من الرصاص المنصب عليه، فلم يستطع الوصول إلى هذا السفاك ماغران ليقتله، واستشهد.

وجاءت نجدة فرنسية، فأخرجت الجنود المطوقين في الثكنة، وانطلق الجنود جميعاً يقتلون الناس دون تمييز ويذبحون حتى الأطفال والنساء، وكان يوماً رهيباً مرَّ (ببابنّا).

وانسحب الثوار يوم ٢٣ نيسان ١٩١٩ مع أطفالهم ونسائهم وشيوخهم.

فراح الفرنسيون يعيثون فساداً في القرى المجاورة، حتى أنهم قتلوا امرأة نفساء مع ابنها، وقتلوا شقيقها الذي ظل بجانبها ليحميها من هؤلاء الوحوش، ثم أشعلوا النار في أجسادهم.

لقد أقدم الفرنسيون على قتل أكثر الشيوخ العاجزين الذين لم يتمكنوا من الخروج من قراهم، وخربوا المساجد والبيوت على أهلها، وأحرقوا أمتعتهم وغذاءهم ومؤونتهم.

واتجه النازحون إلى جسر الشغور ليستعدوا من جديد لقتال الفرنسيين والعودة إلى قراهم وتعميرها، وانضم إليهم جميعاً قائد فصيل درك (بابنّا) وبعض جنود الدرك، فأرسل إليهم الفرنسيون جنودهم ومرتزقتهم المحليين فخرج النازحون للقاء الحملة عند قرية (مرج شيلة) وجرت معركة ضارية وأنزل الثوار بالفرنسيين خسائر جسيمة، واستشهد عدد من الثوار.

التعاون بين ثوار قضاء بابنـًا والشيخ صالح العلي، وثورة هنانو في الشمال

٥

بعد هذه المعركة تقرر التعاون بين ثوار قضاء بابنـًا الذين نزحوا إلى جسر الشغور وبين ثورة الشيخ صالح العلي في جبل العلويين، ثم اتصلوا بثورة هنانو، فتم التعاون بين الثورات الثلاث، حيث دارت معارك: جسر الشغور، إدلب، أريحا، جبل الزاوية، كفر تخاريم.

كل هذه الانتفاضات الدامية تمت قبل أن يدخل الفرنسيون دمشق، ولكن عقب كارثة ميسلون وعقد اتفاق بين الفرنسيين والأتراك، نضب السلاح في أيدي الثوار، وتوجهت جيوش فرنسية بكاملها للقضاء على الثوار، ولجأ عدد من ثوار قضاء بابنـًا إلى تركيا، وكانوا ينقضون على الفرنسيين عبر الحدود السورية-التركية، في صورة حملات خاطفة برفقة إخوانهم ثوار المناطق الأخرى الذين لجأوا إلى تركيا يومئذٍ.

وسارعت فرنسا تستنجد بحليفتها الماكرة بريطانيا، لمساعدتها في مكافحة نيران الثورات اللاهبة في المنطقة الشمالية والساحلية.

وتدخل الجنرال (اللنبي) قائد جيوش الحلفاء يومئذ، وعُقِدَ مؤتمر عربي - فرنسي - انكليزي في قرية الشيخ بدر حضره من الجانب العربي: الشيخ صالح العلي وبعض وجهاء آل المحمود وآل عدرة، وحضر من الجانب البريطاني: الكولونيل (سمرست)، وعن الجانب الفرنسي: الكولونيل (نيجر)، وتم الاتفاق

على السماح لفرقة فرنسية بالمرور من قرية الشيخ بدر للتزود منها بالماء، على ألا تطول مدة نزولها فيها أكثر من ساعة واحدة.

وترك الثوار القرية، ورابطوا في التلال المحيطة بها، ومرّ الفرنسيون بالقرية، ولكن لا ليبقوا فيها ساعة واحدة، بل ليلقوا القبض على بعض زعماء آل محمود وآل عدرة، وأقامت الفرقة الفرنسية وحفرت تحصينات ومرابض لأسلحتها خارج قرية الشيخ بدر، موجهة إلى القرية المذكورة وإلى قرى أخرى.

وحين نقض الفرنسيون الاتفاقية أمر الشيخ صالح العلي الثوار بمهاجمة الفرنسيين، فانقضوا عليهم وهزموهم شرّ هزيمة بعد أن تكبد الفرنسيون (٣٥) قتيلاً وكميات كبيرة من العتاد والأسلحة.

واتصل الثوار بالأمير فيصل في دمشق فأمدهم بالمال والعتاد، وأرسل القائمقام السيد غالب الشعلان ليكون رئيساً لهيئة أركان حرب الشيخ صالح العلي ومستشاراً عسكرياً له، وضابط ارتباط بين الشيخ ودمشق.

معركة وادي ورور

هذه المعركة رائعة حقاً، ففي ١٥ حزيران ١٩١٩ استدرج الشيخ صالح العلي مفرزة فرنسية مؤلفة من ألفي جندي، بقيادة الكولونيل (جان)، ولما دخلت المفرزة وادي (ورور) في طريقها إلى قرية الشيخ بدر للقضاء على الثورة في مركزها، كان القائد البطل الشيخ صالح العلي قد وضع في أعالي الجبال المطلة على الطريق رجاله الأشاوس، وأمرهم بالا يطلق أحدهم رصاصة واحدة إلا حين يشاهد علم الثورة. واختارت المفرزة الفرنسية السير في هذه الطريق والمرور بوادي (ورور) لسهولة ذلك، وكانت طيارتان تؤازران الحملة وتكتشفان لها الطريق، ومواقع الثوار.

وبإشارة من القائد الشيخ صالح العلي انقض الثوار على جنود الحملة الفرنسية فأفنوا منهم (٨٠٠) فرنسي ومرتزق، واستشهد عشرات الثوار في هذه المعركة الخالدة.

ولم يكتف الثوار بهذا النصر الفريد، ففي ٢١ تموز ١٩١٩ هاجم الشيخ صالح قلعة المرقب وهي قلعة حصينة تقع قرب بانياس، وفيها سريتان فرنسيتان، واضطر الفرنسيون إلى الانسحاب من القلعة بعد أن سقط منهم عدد من القتلى والجرحى، واستولى الثوار على هذه القلعة الحصينة.

وقد استشهد في معركة وادي (ورور) العقيد الثائر مصطفى خير بك من قرية وادي العيون وابنته عزيزة التي كانت تخوض ساحة القتال ببسالة الأبطال.

وأراد الفرنسيون أن يحصلوا على هدنة ليلتقطوا أنفاسهم فطلبوا من الشيخ صالح الشروع بمفاوضات تحسم هذه الحرب وتنهيها، فطلبوا من السيد أحمد الحامد من زعماء الجبل العلوي أن يعرض على الشيخ صالح العلي رغبة الفرنسيين في إنهاء الحرب والدخول في مفاوضات، فقبل الشيخ ذلك على الأسس التالية:

١- الموافقة على ضم الساحل السوري إلى الحكومة العربية في سورية، وجلاء القوات الفرنسية عنه.

٢- إطلاق سراح الأسرى.

٣- دفع التعويض إلى السكان عن الأضرار التي ألحقها الجيش الفرنسي بأملاكهم.

ووافق الفرنسيون على هذه الشروط، وطلبوا تحديد المكان والزمان لإجراء المفاوضات.

ومرت فترة الهدنة، واطمأن الثوار إلى نوايا ووعود الفرنسيين. وفجأة وردت أنباء بأنَّ الفرنسيين يستعدون للحرب. وأنهم هاجموا قرية (كاف الجاع) جنوب (القدموس) إلى الشرق ونهبوا جميع ما فيها، وقتلوا عدداً من سكانها واحرقوهم، وربطوا النساء في جذوع الأشجار وعذبوهن، وقطعوا عشرة آلاف شجرة ودمروا وخربوا.

فاضطربت الحالة وأرسل الشيخ صالح إلى دمشق يستنجد بالأمير فيصل، فأمده الأمير بالسلاح والعتاد والمال وقررت القيادة مهاجمة طرطوس باعتبارها المركز الرئيسي للقوات الفرنسية.

معركة طرطوس

لقد أصاب الشيخ صالح في قراره بمهاجمة القوات الفرنسية في طرطوس، فبعد أن نقض الفرنسيون الاتفاقية لم يعد يأمن جانبهم أبداً **والمستعمرون هكذا، كلهم هكذا: أوغاد لا يعترفون بحق ولا يتقيدون بعهد ولا وعد.**

ففي ٢ شباط ١٩٢٠ صباحاً بدأ الثوار بالهجوم على طرطوس بقيادة العقيدين: سليم زغبي، وعزيز بربر وقادة آخرين، وطوقوا الفرنسيين، ودارت المعارك الطاحنة بين الثوار والمستعمرين حول الثكنات العسكرية.

ولما شعر الفرنسيون بأنهم سيبادون استنجدوا بالأسطول القريب من الساحل، فصارت قطع الأسطول تضرب تجمعات الثوار بالقنابل المحرقة الشديدة الانفجار.

ونزل عدد كبير من جنود البحرية الفرنسيين لمؤازرة جنود البر، ودمر الفرنسيون بعض بيوت المدينة، فوجد الثوار أن الانسحاب من طرطوس أجدى، فحملوا معهم كميات الذخيرة والأسلحة التي غنموها وعادوا إلى معاقلهم في الجبال القريبة.

معركة القدموس

في ٣ آذار ١٩٢٠ زحف الشيخ صالح العلي نحو القدموس، وكان الفرنسيون قد جعلوا منها حصناً لا يُنال، فطوق الثوار حاميتها، ومنعوا عنها الماء، فاستسلمت الحامية، وبذلك استطاع الثوار أن يضمنوا خلوّ المنطقة الجنوبية من أي عدو استعماري.

وجاء الفرنسيون بجنود من المستعمرات الأخرى في أفريقيا وآسيا واعتقلوا بعض المواطنين من آل المحمود ونفوهم إلى جزيرة كالدونيا الجديدة ومنهم: مصطفى المحمود، وحسن المحمود، ونفوا آخرين إلى جزر المارتينيك.

وفي ١٥ آذار ١٩٢٠، وصل القائد غالب الشعلان موفد الأمير فيصل مع بعض الضباط لمساعدة الثورة، منهم مصطفى الملاّ الذي اتخذ له مركزاً في قرية (الرستن) الواقعة في الجهة الشمالية الشرقية من الشيخ بدر وتبعد عنها كيلو مترين فقط.

وفي نيسان ١٩٢٠ تم تشكيل الفوج الملّي ويتألف من المتطوعين من جميع الطوائف والمدن السورية بقيادة الثائر البطل (عزيز هارون) من اللاذقية، كما تشكل فوج من الفدائيين يقوده الثائر البطل (جميل ماميش) من أهالي اللاذقية أيضاً.

معارك السودا الضارية

معركة السودا صورة عن معركة بدر الكبرى وإن اختلفت عنها في الزمان والمكان والعدد والسلاح.

لقد أخذ الفرنسيون يستعدون لهجوم ساحق على الثوار يستأصلون به شأفتهم وينهون الثورة الساحلية، فأعدوا جموعهم وسلاحهم، وتمركزوا حول قرية السودا وما حولها من القرى القريبة من طرطوس، والتي لا تبعد عنها أكثر من ١٥ كيلو متراً إلى شمالها الشرقي، إذ تبعد عن البحر (٧) كيلو مترات.

وتم استعداد الفرنسيين أو كاد، فقرر الشيخ صالح العلي أن يباغت الفرنسيين، ويدمر جيوشهم وما أعدوه فنظم رجاله ووضع على ميمنته العقيد سليم صالح، وعلى القلب جميل ماميش، وعيَّن آخرين على الميسرة.

وبدأ هجوم الثوار من قرية (بعزرائيل) شرقي السودا وتبعتها بقية الكتائب وذلك خلال شهر آذار ١٩٢٠ ولاح النصر للثوار، وكادوا يدمرون الفصيلة الفرنسية المؤلفة من فرنسيين وجنود المستعمرات والمرتزقة المحليين.

واشتد القتال وإذا بحركة التفاف يقوم بها ضابط من المرتزقة المحليين من شرقي اللاذقية، التف هذا الشقي بفرقة من المرتزقة خلف الميسرة التي اضطرت للانكفاء كي تطوق الملتفين خشية نجاحهم في ضرب الثوار من

الخلف فاتخذها الفرنسيون فرصة العمر واشتد هجومهم على الميسرة ثم ثنوا بالضغط على الجناح الأيمن، فاضطر أيضاً للتراجع وثبت القلب فأصبح وحده كرأس ممتد لا يحميه يمين ولا يسار فأمر بالتراجع وانتهت المعركة دون أن يظفر الثوار بهدفهم الذي استهدفوه وهو طرد الفرنسيين من الساحل كله.

ولقد كان العدو نذلاً فجمع الأسرى الذين وقعوا بين يديه وأعدم عدداً كبيراً منهم فوراً، وتكبد الطرفان خسائر فادحة في الأرواح والعتاد.

الهجوم المعاكس

لم ينم الفرنسيون لحظة عن الاستعداد لهجوم معاكس ففي صباح ٣ نيسان ١٩٢٠ أخذوا يقصفون مواقع الثوار قصفاً عنيفاً بالمدفعية والطائرات.

وكان الثوار بفعل الممارسة ومعرفتهم العقلية الفرنسية قد استعدوا للهجوم المعاكس وتهيئوا له.

ووثق الفرنسيون بأن الثوار قد فنوا، وأنهم يستطيعون الآن أن يمروا على أشلائهم، أو فوق الأرض التي أخلوها.

وتقدموا، وحين أوغلوا في التقدم انصبت عليهم النيران لم يُصْلَوا بمثلها. ودارت رحى حرب ضروس دامت أياماً عديدة، وأحرق الفرنسيون بعض القرى ثم غادروها، فعاد إليها أهلها مع الثوار ليبنوها من جديد.

وفي ٢٥ أيار ١٩٢٠ أغار الفرنسيون على قرية (كوكب الهواء) التي تبعد عشرة كيلو مترات عن السودا فاحتلوها وأحرقوها، وكرّ عليهم الثوار فانتزعوها منهم. ثم هاجم الثوار (قلعة الخوابي) معقل الثوار من آل عدرة التي احتلها الفرنسيون وأحرقوها من قبل، فطردوا الفرنسيين منها.

وزار وزير الحربية (يوسف العظمة) جبهة الثوار قرب مصياف والتقى بالشيخ (صالح العلي) ووعده بموازرة الحكومة للثورة.

الفرنسيون يطلبون الصلح

في حزيران حاول الفرنسيون أن يخدعوا الشيخ صالح، فعرضوا عليه الصلح بالشروط التي يريدها هو وهم يضمرون الغدر كعادتهم، وما لبث الفرنسيون طويلاً حتى هاجموا الثوار، فتبين للناس أن عدوهم ماكر غدار، ولا يمكن الركون إلى وعوده وعهوده.

الكولونيل نيجر يقود القوات الفرنسية

عهدت فرنسا إلى الكولونيل (نيجر) قيادة القوات الفرنسية وكلفته بإخماد الثورة بأي ثمن، ووضعت تحت إمرته ثلاثين ألف جندي من المشاة والخيالة، وفرقة مصفحات وسرب من الطائرات.

وبدأ نيجر هجومه على قرية (خربة الريح) ثم قرية (نهر الصوراني) وأخذ الثوار يتجمعون قرب قرية وادي العيون، وجاءت النجدات إلى الثوار من قرى كثيرة منها: عين الشمس، وعين الذهب وبجنه، والمعمورة، وبستان، والصبوح وغيرها. بينما كان الفرنسيون يتقدمون نحو مواقع الثوار، ويحرقون القرى والمزارع وقد مروا بقرية الشيخ بدر فأحرقوا مراكز القيادة فيها.

معركة وادي العيون

لم يكن يعتقد أحد من الفرنسيين أو من المرتزقة، وهم يمرون مع أسلحتهم وعتادهم في القرية الجميلة وادي العيون التي تبعد عن قرية الشيخ بدر عشرة كيلو مترات، أن الموت يترصدهم في فوهات البنادق والرشاشات التي يحتضنها الثوار البواسل وهم منتشرون فوق التلال المحيطة بوادي العيون.

واستطاب الفرنسيون المنطقة، وأنزلوا عتادهم وأمتعتهم، ونصبوا خيامهم بقصد الاستراحة وفجأة انهالت عليهم النيران تحصدهم حصداً.

طلب الفرنسيون النجاة متجهين إلى قرية (النيحا) فوجدوا الثوار أمامهم فحولوا اتجاههم إلى (القدموس) وهنا انصبت عليهم النيران وطاشت عقولهم إذ كانوا يجدون في كل ثنية كميناً، وفي كل شعب بنادق الثوار تحصدهم، حتى

وصلت فلولهم إلى الساحل حيث وجدوا الحماية من المعسكرات الفرنسية المنتشرة هنا وهناك على الساحل.

واستشهد في هذه المعركة عدد من الأبطال الثوار ومنهم: العقيد البطل (عزيز بربر)، إذ استطاع أن يستولي على ثلاثة مدافع رشاشة. لقد انكسر الفرنسيون في هذه المعركة شرّ كسرة.

العودة إلى طلب الصلح

اتصل الفرنسيون كعادتهم بحلفائهم الانكليز فوجه الجنرال (اللنبي)، قائد جيوش الحلفاء، كتاباً إلى الشيخ صالح العالي يطلب منه القبول بالمفاوضة، فرضي الشيخ صالح بذلك على أن يتم الاجتماع في قرية الشيخ بدر.

وتم الاجتماع بين الانكليز والفرنسيين والثوار، وفعل الخداع فعله، واستعمل الفرنسيون جميع أنواع الدس والخديعة والتغرير، وأخذوا يستعملون الترغيب تارة والتهديد تارة أخرى.

ولم تخف الخطة السافلة عن الشيخ صالح العلي، فانسحب من الاجتماع متجهاً إلى بيته في قرية (الرستن) وانسحب زعماء الثوار من الاجتماع والتحقوا بالشيخ صالح، ولم يبق في الاجتماع سوى بعض المرتزقة، فطلب المندوب الانكليزي، وكان برتبة جنرال، أن يزور الشيخ صالح في بيته فوافق الشيخ صالح على هذه الزيارة.

والتجربة مع الاستعمار ولو تكررت ألف مرة تظل هي هي، فعدة المستعمر المكر والغدر والخداع، ولا شي يثنيه عن ارتكاب كل خسيسة للوصول إلى غايته الإجرامية.

ونتابع حديثنا فنقول أن الشيخ صالح العلي سمح للضابط البريطاني بمقابلته وجرت بينهما مفاوضات حملها الجنرال البريطاني إلى الفرنسيين ثم جاء الرد بأن الفرنسيين قبلوها بمجموعها.

وفرح الثوار وعقدت الهدنة.

وبُدئ بتقدير الخسائر التي مني بها الأهلون لأجل التعويض عليهم.

وبدأ الفرنسيون من جهة أخرى يستعدون للوثبة على الثوار والفتك بهم.

وبدأ الشر حين اتخذ أحد القادة الفرنسيين قرية (عفر زيتي) مقراً له وصار يهين سكانها ويشتم الدين الإسلامي ويعيبه، فأرسل الشيخ صالح العلي كتاباً إلى ذلك القائد يؤنبه ويردعه، فما كان من القائد المتوحش إلا أن أعدم الرسول.

فنصب الشيخ صالح كميناً للقائد وأمر بعض رجاله أن يفتكوا به. ومر القائد بالكمين مع عشرة من الجنود فصُبَّ عليهم الرصاص وقتلوا جميعاً.

وتلكأت القيادة الفرنسية في الموافقة على شروط الصلح وراح الطرفان يستعدان للقتال.

وفي أول تموز ١٩٢٠ علم الشيخ صالح العلي أن الفرنسيين يحشدون جنودهم في بانياس لمهاجمة قلعة المرقب الحصينة.

احتلال بانياس

حين أحس الثوار بسوء نوايا الفرنسيين قرر الشيخ صالح العلي مهاجمة بانياس لضرب التجمعات الفرنسية.

وفي ليلة ٣-٤ تموز ١٩٢٠ زحف الثوار نحو بانياس بقيادة الشيخ صالح العلي نفسه واستولوا على المدينة.

تدخل الأسطول

وحينئذ تدخل الأسطول الفرنسي وراح يقصف البيوت ويقتل الأبرياء، وعزَّ على الشيخ صالح العلي أن تدمر (بانياس) فأمر رجاله بالانسحاب من بانياس حاملين الذخائر والعتاد والأسلحة التي غنموها من الفرنسيين. واستشهد عدد من الثوار بينهم الشهيد البطل سليمان المعلم من قرية (الحصان).

سقوط المدن الداخلية بيد الفرنسيين

ونعود إلى الداخل فقد سقطت دمشق في ٢٥ تموز ١٩٢٠، وكذلك حلب بعد أن استشهد يوسف العظمة في معركة ميسلون، فلم يعد لثورة الشيخ صالح

العلي من يشد أزرها بالمال والسلاح سوى بعض التبرعات البسيطة التي لا تقدم ولا تؤخر في الحركات الثورية الواسعة، ومع ذلك ظل الثوار صامدين.

معركة الشيخ بدر الرابعة

في تلك الفترة من تاريخ هذه البلاد كانت قد حدثت كارثة ميسلون ودخل الفرنسيون دمشق منتصرين كما قلنا فازداد زهو الفرنسيين وغرورهم فأعدوا سرية بقيادة الكابتن (ريساك) لاحتلال قرية الشيخ بدر من الجهة الجنوبية عن طريق (صافيتا) مارا بجبل (القليعات) وبوصول السرية إلى جبل القليعات ركزت هناك مدافعها وقصفت قرية (المريقب) ومواقع قرية (الشيخ بدر) و(الرستن).

وفوجئ الثوار بهذا الزحف، لأنهم لم يتصوروا أن يسلك الفرنسيون هذه الطريق الوعرة.

وقد صدّ الثوار هذا الهجوم المباغت بعمل حربي نادر المثال في البطولة والتضحية، إذ قام خمسة رجال هم: العقيد سليم صالح ومعه الثوار: أحمد الحسن، وسليم شاويش، وعبود وسّوف، وعلي سليم بالانحدار من جبل المريقب إلى أسفل الوادي، وعبروا النهر وتسلقوا جبل القليعات، وباغتوا (ريساك) وجنوده من مكان مرتفع وأصلوهم ناراً حامية، فذعر الفرنسيون وظنوا أن قوة كبيرة تحدق بهم وتطوقهم فولوا هاربين حتى إذا وصل (ريساك) إلى (دريكيش) عائداً تمركز فيها.

وعلم الثوار أن (ريساك) تمركز في دريكيش فلم يمهلوه وهاجموا القرية واحتلوها بقيادة العقيد: سليم صالح، وجابر الحطانية، وأسبر زغبي، ودخلوا دار الحكومة فيها وأسروا حاميتها وصادروا أسلحتها.

الفرنسيون يهاجمون الثوار من الشرق

بعد أن احتل الفرنسيون مدن الداخل، حلب وحماة وحمص بعد دمشق اتجهوا من حماة نحو مصياف، ومن مصياف زحفوا نحو الغرب للقضاء على الثورة من هذه الجهة، فاحتلوا جبال القماقم القريبة من مصياف.

لكن الشيخ صالح العلي لم يكن غافلاً عما يهمُّ به الفرنسيون فأرسل رجاله فشطروا الجيش الفرنسي إلى شطرين، فكر راجعاً يطلب السلامة في مصياف.

الهجوم على مصياف

واستعد الثوار للهجوم على مصياف، حيث يحتشد جنود العدو وحيث اتخذها منطلقاً له للقضاء على الثورة، واحتل الثوار المرتفعات المحيطة بمصياف، وفي منتصف كانون الأول ١٩٢٠ صبّ الثوار نيرانهم على مصياف، وكانوا بحاجة إلى مدفعية ثقيلة ليدكوا سورها، ولهذا فإنهم، على الرغم من النصر الذي أحرزوه، جعلوا الفرنسيين يلوذون بالأسوار لحمايتهم.

وهنا حاول بعض الثوار إحراق أحد أبواب السور والدخول منه إلى المدينة، غير أن الفرنسيين أصلوهم نيراناً حامية وصدوهم، ودام الحصار تسعة أيام، وفي اليوم العاشر جاءت قوات فرنسية كبيرة من حماة، فانسحب الثوار إلى الجبال منتظرين الفرصة السانحة للانقضاض على الفرنسيين.

احتلال الفرنسيين قرية الشيخ بدر

بينما كان الثوار منشغلين بمصياف وبمداهمة الفرنسيين فيها بين عشية وضحاها، كان الفرنسيون قد أعدوا جيشاً في الجنوب، كي يتجه شمالاً إلى قرية الشيخ بدر معقل الثورة.

وفعلاً تحرك هذا الجيش نحو الشيخ بدر وباغت الثوار، وهم على غير استعداد لملاقاته، فقد انشغل بعضهم بأعماله الخاصة لاطمئنانه أن المنطقة بعيدة عن متناول يد الفرنسيين، وأن الحرب دائرة حول مصياف، وكان الشيخ صالح العلي على رأس قواته هناك ثم اضطر للذهاب إلى (الصقيلبية) لفض نزاع دخلي هناك.

ولم يصعب على الفرنسيين احتلال قرية الشيخ بدر لخلوها ممن يدافع عنها، واحتلوا كذلك قرية (المريقب) وأحرقوها، كما أحرقوا المزارع القريبة منها.

واتخذت القيادة الفرنسية قرية الشيخ بدر مقراً لها، حيث اعتقلت بعض وجهاء الجبل باعتبارهم ساعدوا الثوار وحاكمتهم محاكمة صورية وأعدمتهم، وراح الجنود الفرنسيون والمرتزقة يعيثون فساداً في القرى والمزارع.

وسرت الأخبار إلى الشيخ صالح العلي فأغتم غماً شديداً، ولكنه صمم على الاستمرار في قتال الفرنسيين حتى النهاية، فاتجه شمالاً نحو قرية (بشراغي) من قرى جبلة، والتفَّ حوله أهلها وسكان القرى المجاورة، من آل عبد وآل سيف الدين من قريتي بشراغي والكنيسة.

أرسل الشيخ صالح العلي رسالة إلى الزعيم إبراهيم هنانو، قائد ثورة الشمال، بواسطة الثائرين حبيب محمود وهزاع أيوب، يطلب العون والمساعدة، وأخبره أنه بحاجة ماسة إلى السلاح وإلى الضباط، فأرسلت إلى الشيخ صالح المساعدات قدر ما تسمح به ظروف الزعيم هنانو، وانتعش الشيخ صالح العلي بمساعدة أخيه إبراهيم هنانو.

وفي السابع من كانون الثاني ١٩٢١ عقد الشيخ صالح العلي في قرية بشراغي مؤتمراً، لاستئناف الأعمال العسكرية وتنظيم العمل الثوري، وحين وصل نبأ ذلك إلى الفرنسيين خفت حملة مؤلفة من (٥٠٠) جندي لتطويق الثوار وإفنائهم وإنهاء الثورة، فأعد الشيخ صالح رجاله على هضاب (وادي فتوح) ومرّ الفوج الفرنسي وجنوده يرقصون طرباً لأن رؤساءهم أوحوا إليهم بأنهم سينهون ثورة الشيخ صالح، وستكون مكافأتهم جزيلة، وما أن توسطوا الوادي حتى صبت عليهم النيران من فوقهم، ولم تمض ساعات قليلة حتى انهارت قوى الفرنسيين وفرّ من تخطاه الموت وتركوا جثث قتلاهم تملأ الوادي.

معركة وادي جهنم

أغضب الفرنسيين انتصار الثوار الماحق، فسيروا حملة أخرى أقوى من سابقتها إلى (بشراغي) و(الشيخ حيدر الضهر) و(بقباس) وعلم الثوار بها فأرسل الشيخ صالح يستطلع تقدم الحملة، فلما اقتربت الحملة من وادي (بقباس)

كان الشيخ قد وزع الثوار، ووضعهم على طرفي الوادي بين الصخور، وترك جماعة يناوشون الفرنسيين عندما اقتربوا من الوادي، ثم تراجعوا أمامهم، وكانت رغبة الفرنسيين ألا يدخلوا الوادي كيلا يحل بهم ما حلَّ بهم في (وادي فتوح)، ولكنهم حين وجدوا أمامهم الثوار ينسحبون في طريق الوادي، تبعوهم ظانين أن المرتفعات خالية من الثوار وأن الثوار هم هؤلاء الذين ينسحبون أمامهم.

دخلت الحملة الفرنسية الوادي في إثر المنسحبين من الثوار وفي وسط الوادي وجدوا ماءً وكان قد بلغ بهم العطش والتعب فأسرعوا إلى الماء يروون غلتهم. وأسرع الثوار الكامنون في الهضاب بين الصخور يستعدون للانقضاض عليهم.

وفجأة سمع صوت الشيخ صالح يأمر بالهجوم، فانقض الثوار على الفرنسيين ودارت معارك ضارية صاعقة تمزقت فيها الحملة الفرنسية وعدد أفرادها ثلاثة آلاف، وفي هذه المرة تدخلت الطائرات، ولكنها لم تستطع أن تصنع شيئاً، وحين عجز الفرنسيون عن المضي في القتال كان الليل قد أرخى سدوله، وانتهت هذه المعركة بانتصار باهر للثوار، وهزيمة ساحقة للفرنسيين، وغنم الثوار عتاداً وأسلحة لا يحصيها عدّ في المواد الطبية، وسميت هذه المعركة معركة وادي جهنم.

معركة الدويلية

في ٢٣ كانون الثاني ١٩٢١ تصدى عشرة رجال من الثوار لمهاجمة مخيم للفرنسيين أقاموه قرب قرية (الدويلية) وهم في طريقهم من مصياف إلى بانياس، واستشهد ثائر واحد وقتل عدد من الفرنسيين.

معركة الديميس

في اليوم التالي حاصر الفرنسيون عدداً من الثوار في موقع يقال له (قلعة الدريكية) بالقرب من قرية (الديميس)، وكادوا يقضون عليهم لولا أن يبادر

بعض الثوار إلى مصادمة الفرنسيين ويضطروهم إلى فك الحصار عنهم، وقتل في هذه المعركة عدد من الفرنسيين، واستشهد سبعة من الثوار، وقد أظهر الثائر حبيب عباس من قرية (الأندروسة) بطولات رائعة في هذه المعركة الضارية.

معركة رأس ماسم

كان الفرنسيون منذ أوائل كانون الثاني ١٩٢١ قد رأوا أن يتخذوا لهم مخفراً في (رأس ماسم) للتمركز فيه، فسبقهم الثوار إليه وحين نفذ الفرنسيون فكرتهم وجاء الجنود للتمركز فيه، استقبلهم الثوار بنيرانهم الحاصدة، فتراجعوا عائدين بعد أن سقط منهم عدد كبير من القتلى والجرحى.

معركة البودي

حين عجز الفرنسيون عن التمركز في (رأس ماسم) عمدوا في الخامس والعشرين من كانون الثاني ١٩٢١ إلى مهاجمة منطقة (القراحلة) الشمالية فحشدوا جنودهم ودفعوا بها إلى قرية (عين شقاق) لاحتلالها، فتصدى لهم العقيد الثائر إبراهيم الصالح يرافقه عبد الهادي عباس وعدد من الثوار فصدوا الفرنسيين وشتتوهم وغنموا عتاداً وسلاحاً فيه ثلاثة مدافع جبلية.

وحين هُزِمَ الفرنسيون كما قدمنا طاشت أحلامهم فحشدوا كل ما لديهم من قوة ودفعوا بها نحو قرية (عين شقاق) فاحتلوها ثم احتلوا قرية (البودي)، وكانت مركز القيادة الثورية في هذه المنطقة، فتصدت مفرزة من الثوار بقيادة العقيد إبراهيم صالح للفرنسيين، وردوهم إلى جبلة بعد خسائر جسيمة تكبدها الفرنسيون.

محاولة العودة إلى احتلال البودي

وفكر الفرنسيون في أن يحتلوا البودي من جهة أخرى، وسارت قواتهم فهاجمت (القرداحة) فصمد أهلها أمام الفرنسيين، وقاوموهم مقاومة عنيفة، وطلب الفرنسيون نجدات جديدة، وحين اجتمعت لديهم الإمكانيات العسكرية الضخمة هاجموا (القرداحة) ثانية، فاحتلوها بخسائر فادحة.

ومنها انطلق الفرنسيون إلى (كنف البير) الموقع القريب من البودي، وراحوا يقذفونها بمدافعهم الثقيلة، حتى إذا ظنوا أنها لن تصمد أمامهم تقدموا لاحتلالها، فتصدى لهم الثوار بقيادة إبراهيم صالح، وطوّق الفرنسيون (البودي) وتمكنوا من احتلالها وإحراقها، وحين تعالت ألسنة اللهب من بيوتها المحترقة عزّ على الثوار أن يحل بهم هذا الأمر الجلل، فهاجموا الفرنسيين وأجبروهم على الانسحاب من (البودي) بعد أن كبدوهم خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات، واستشهد عدد من الثوار بينهم: محمد أسعد دوبا، حسن سليمان يوسف (من البودي) وصالح عمران يوسف من العرقوب.

معركة الأجرد

في ٢٠ كانون الثاني ١٩٢١ سيَّر الفرنسيون حملة كبيرة مسلحة بالمدفعية والدبابات، ومعززة بالطائرات لاحتلال (بشراغي) في شمال الجبل العلوي. وحين شعر الثوار بهم عاجلوهم بالالتحام معهم في معركة عنيفة جداً، وكثرت الخسائر في الطرفين وأطبق الفرنسيون على الشيخ صالح العلي، وتدخل رجال من الأنصار فانقلب انتصار الفرنسيين إلى انكسار واستشهد في هذه المعركة العقيد البطل أحمد عبد الحميد وخليل محمد، وعلي وطيفة وسليم بنوف، ومحمود محمود، وكان لتعاون الشيخ صالح العلي مع ثورة هنانو في الشمال أثر كبير في نتائج هذه المعركة الضارية.

تراجع الفرنسيين إلى الساحل

اعتصم الفرنسيون بالساحل، وتركوا الجبال للثوار، فكانت معسكراتهم بين جبلة وبانياس تصب حممها على قمم الجبال الشواهق، وكذلك تفعل طائراتهم، لا فرق بين المدنيين والثوار. وفي هذه الفترة بالذات بدأت المعونات تتضاءل وكذلك السلاح أصبح نادرا ومع ذلك لم تهن عزيمة الشيخ صالح ولم تضعف وظلّ يجالد الفرنسيين، وفي آذار عام ١٩٢١ زحف الفرنسيون نحو الجبل واحتلوا جبل (قرفيص) المطل على نهر السن واستشهد في هذه المعركة الثائر

البطل (أحمد عليا) وفي ١٥ آذار حاول الفرنسيون احتلال قرية (جور البقر) غير أن الثوار صدوهم بعنف وتصميم فتراجعوا مدحورين، واستشهد عدد من الثوار بينهم البطل علي فضل صارم.

الهجوم على مدينة جبلة

في شهر أيار ١٩٢١ ذهب الشيخ صالح العلي ليتفقد بعض المناطق الثائرة، فقام الثوار بقيادة الشيخ علي عبد الحميد عيد بهجوم مفاجئ على الفرنسيين على شكل مفارز يقودها العقداء: عبود المرشد، محمد سلمان، محمد صالح عيد، علي حسن زينة، جبور مفلح.

واستطاع الفرنسيون أن يطلعوا على خطة الثوار بواسطة مرتزقتهم وعملائهم وعندما اجتاز الثوار خطوط الفرنسيين الأولى وأصبحوا على مقربة من جبلة، وهم يجتازون الأسلاك الشائكة، إذ بالنيران تنصب عليهم فتراجع الثوار بعد أن تركوا عدداً من الشهداء منهم (عزيز حربا وسليمان محمد خليل) كما وقع بعضهم في قبضة الفرنسيين.

وأخذت الثورة الساحلية بعد شهر أيار تضعف، فقد قلّ النصير وتنكر الجار، وقوي العدو، وازدادت أسلحته وقواته، فحشد سبع كتائب من المشاة والخيالة والمدفعية الثقيلة.

وبدأ انحسار الثورة في يوم ١٧ أيار ١٩٢١ إذ احتل الفرنسيون جبل (القراحلة).

وفي يوم ٢٠ أيار احتلوا جبل (قرفيص) و(كتف البير) و(عين الكروم).

وفيما بين ١٢/١٩ حزيران ١٩٢١ احتل الفرنسيون جبل (السرامطة) بعد أن سقط عدد كبير من القتلى والجرحى الفرنسيين.

وفي ٤ تموز ١٩٢١ هاجمت القوات الفرنسية مجتمعة منطقة الشيخ بدر، واحتلتها في اليوم السابع منه، وقد دفعت لاحتلالها ثمناً باهظاً من جنودها، وحين دخلت القوات الفرنسية قرية الشيخ بدر وجدت القرية خالية

من السكان، فقد غادرها القائد الشيخ صالح العلي مع رجال القرية ونسائها وأطفالها، خشية انتقام الفرنسيين وبربريتهم.

وتوقعت السلطة الفرنسية أن تظفر بالقائد البطل، وحين عجزت عن تحقيق رغبتها حكمت عليه غيابياً بالإعدام، وهددت كل من يؤوي القائد الشيخ صالح بالموت، وجعلت مكافأة سخية لمن يخبر عنه، أو يأتي به، ولم يفارق الشيخ صالح العلي المنطقة أبدا، فخشي الفرنسيون أن تعود الثورة من جديد إلى المنطقة، فأصدرت السلطة عفواً خاصاً على الشيخ صالح العلي وأنصاره ورجاله، بشرط عدم عودتهم إلى الثورة فتم الاستسلام على هذا الأساس.

وحين تقدم الشيخ صالح للاستسلام قابل الجنرال (بيوت) قائد المنطقة الساحلية يومئذ، وحين سأله الجنرال عن السبب الذي أخره عن الاستسلام، أجاب الشيخ بكلمته الخالدة التالية:

((والله لو بقي معي عشرة رجال مجهزين بالسلاح والعتاد الكافيين لمتابعة الثورة لما تركت ساحة القتال)).

وقد استشهد في هذه الثورة الساحلية عدد كبير من الأبطال ذكرنا أسماءهم في معرض سرد الوقائع ومنهم إسماعيل جنيد وسليمان المعلم، العقيد أحمد عبد الحميد، علي الحاج علي، عثمان تميمة، سليم موسى، حسن سعدية عزيز صبوح، أسعد رقية، علي فاطمة، خليل محمد، أحمد الشيخ خميس، محمد علي إسماعيل، محمود ضو، خيرو قصاب، مصطفى خير بك، علي زاهر، أحمد عكيمار، حسن أبو النصر، محمود علي إسماعيل أبو محمد اقلاعي، خليل ومحمد ومحمود زريق، محمد المدنية، نورس طيبة (شنقه الفرنسيون) عبد بن درويش، حاج مصطفى مجبور، صبحي حليمة، جمال الأزهري، أحمد إدريس، أحمد كليه.

واعتكف الشيخ صالح العلي عسكرياً ليكون دائماً مستعداً لتلبية نداء الوطن فعمل في النشاط السياسي قدر استطاعته، وكان على استعداد دائماً للعودة إلى ساحة القتال إذا دعاه الوطن إلى الكفاح.

وعندما أمعن الفرنسيون في التنكيل بالوطنيين، حتى أنهم اعتدوا على المجلس النيابي فهاجموه وأحرقوه هب الشيخ صالح العلي إلى موازرة الحكومة الوطنية، وأعدّ رجاله لخوض المعارك، وأرسل برقية إلى رئيس الجمهورية السورية يومئذ السيد شكري القوتلي يقول فيها:

((سيوف المجاهدين تتململ في الأغماد، ونفوسهم في غليان واضطراب، لا نقبل أن تمتهن كرامة الأمة، وتخرق حرمة الاستقلال، إننا للمعتدين بالمرصاد، وسيرى الظالمون أي منقلب ينقلبون)).

فإلى الخلود أيها الشهداء الأبرار والمقاتلون الأخيار ممن لم يستشهد في ساحات المعارك في تلك الأيام الخالدة، ولئن قصر المواطنون في تخليدكم فليس ذلك ناشئاً عن نكرانهم لجميلكم الذي هو دين في أعناقنا جميعاً بل هو ناشئ عن أن الناس سرعان ما ينسون.

إن أعمالكم البطولية الخالدة التي ترفعت عن الأغراض الدنيوية الخسيسة ستظل خالدة أبد الدهر .. لأنكم قاتلتم لوجه الله والوطن وتخليتم عن كل مظاهر الدنيا لتتفرغوا لقتال عدوكم الذي حشد لكم كل وحوش الناس من جنسه، ومن أجناس أخرى لا يحصيها العدّ، حتى ممن باعوا ضمائرهم من مرتزقته الذين نبتوا في أرضنا الخيرة فآوتهم وأطعمتهم وكستهم وأمنتهم فكان جزاؤها منهم التنكر والغدر والإذلال...

وعفا الله عما سلف وإلى الله المرجع والمصير.

ثورة الشمال

٦

قلت في الصفحات السابقة أن الفرنسيين كانوا قد وصلوا إلى ساحل اسكندرون قبل أن يحتلوا دمشق، فانحدروا منها إلى انطاكية، ونشبت معركة في مرفأ السويدية، قرب مصب العاصي بين الفرنسيين وبين أبناء الشعب هناك، يقودهم السادة صبحي بركات، وكان يومئذ في صفوف الثوار، وأخوه ثريا وقريباهما السيد عاصم، والسيد حقي داده، وكانت خسائر الفرنسيين في هذه المعركة فادحة.

وهاجم السيد ثريا مخفر الحمام، فأسر حاميته الفرنسية، وقـتل عدد من الفرنسيين، وتوالت المعارك بين الثوار وجنود الاستعمار، وحين عجز الفرنسيون عن إخضاع المنطقة بقوة السلاح أخذوا يستميلون قادة الثورة إلى طرفهم، فاستسلم بعضهم، وبخاصة حين تم توقيع هدنة بين الفرنسيين وتركيا، فتفرغ الفرنسيون حينئذ لسحق الثورة في سورية، ولو بقي الأتراك في حرب مع الفرنسيين لكان بالإمكان تحرير بلادنا من الاستعمار منذ تلك الأيام.

وحين انسحب صبحي بركات وأخوه وأقاربه من قيادة الثورة، نظم الثوار صفوفهم، وراحوا يقاتلون الفرنسيين بقيادة المجاهد الشيخ يوسف السعدون (وسنعود للحديث عن المجاهد السعدون).

في منتصف عام ١٩١٩ تقدم الزعيم الخالد إبراهيم هنانو، وكان يومئذ رئيسا لديوان ولاية حلب، تقدم إلى والي حلب السيد رشيد طليع، وهو وطني

مخلص، بطلب تشكيل فرق صغيرة تمارس حرباً متقطعة هي أشبه بالحروب التي صارت تسمى فيما بعد بحروب الأنصار، أو حروب العصابات، تعمل في كل مكان وتنتقل بسرعة وتضرب المستعمرين ضربات موجعة. وأخذ الزعيم الخالد يذكي نار الثورة في نفوس من يتصل بهم من إخوانه في كفر تخاريم أولا، وكان الزعيم ذكياً بارعاً وقائداً باسلاً فتألفت قيادة مؤقتة برئاسته وعضوية السادة: محمد علي جمعة، مصطفى أبو درويش، عبد الرحيم الحاج قدور، مصطفى عويّد، علي المغربي، صالح الشغوري، الحاج ضرغام درّه.

وأخذت التشكيلات الثورية تتوسع عدداً وعتاداً وتألفت محكمة ثورية قوامها السادة: عزة هنانو، إبراهيم الصرما، محمد درويش كيالي نجيب عويد. كما قامت هذه اللجنة بجمع التبرعات المالية لتمويل الثورة، إذ أنه بدون المال لا تستطيع الثورة أن تقف على قدميها.

وأخذ الزعيم في تنظيم الثوار في فرق صغيرة، وعين على رأسها نقباء عرفوا بالشجاعة والإخلاص كما عُيّن السيد إبراهيم الشغوري، وهو بطل ثوري كان ضابطاً في الجيش الفيصلي في آخر الحرب العالمية الأولى، ثم التحق بإخوانه الثوار - أميناً للسر ومرافقاً للزعيم إبراهيم هنانو.

وكانت الثورة قد دربت عدداً كبيراً من الشباب على قتال الأنصار، كما دربتهم على الانضباط الثوري في أرفع مستوياته، ويكفي أن نعلم أنه حين اعتدى اثنان من الثوار على بعض المدنيين دون أي مبرر حوكما وأعدما فوراً.

معركة حارم

في ليلة ١٨/١٩ نيسان ١٩٢٠ قامت قوة باسلة من الثوار بالهجوم على حارم، فاحتلوا المدينة، واستعادوها من الجيش الفرنسي بعد أن كبدوا العدو اثنين وثلاثين قتيلاً وهرب قائدهم الكابتن (لروا) وتحصن بقلعتها، وكان عدد الثائرين يومئذ اربعمئة.

وألف الزعيم جهازا حكوميا لتسيير أعمال الإدارة، وتأمين مصالح الناس برئاسة القائممقام السيد علي كمال الجمالي، يساعده الضابط حسن الجسري. وظلت قلعة حارم محاصرة حتى سقوط العاصمة دمشق بيد الفرنسيين في ٢٥ تموز ١٩٢٠.

دخول الفرنسيين حلب

دخل الجيش الفرنسي مدينة حلب في يوم الجمعة ٢٣ تموز ١٩٢٠، وتعذر على الزعيم هنانو ورفاقه التواجد في حلب، فنضب المال من أيديهم ونزحوا إلى الجبال، ولكن الزعيم أخذ ينفق من ماله الخاص ومما كان يدفعه بعض الوطنيين القادرين.

وفي غربي حلب كان السيد صبحي بركات قد استسلم للفرنسيين، واستسلم معه عدد من الثوار، ولم يبق في الميدان سوى الثائر البطل الشيخ يوسف السعدون ورفاقه يقاتلون الفرنسيين بضراوة، وحين خرج هنانو إلى جبال كفر تخاريم، واتصل بالشيخ يوسف السعدون، وذهب إليه في جبال قصير أنطاكية مع عدد من رجاله، ولما أحس أن يد الخيانة أخذت تلعب دورها، وأن الفرنسيين قد أحدقوا به انسحب بقوته الصغيرة عائداً إلى كفر تخاريم.

احتلال كفر تخاريم

استطاع الفرنسيون أن ينزعوا سلاح الثوار، ويحملوهم على الاستسلام دون قتال، ثم سيروا حملة نحو كفر تخاريم في ١٣ آب ١٩٢٠. خرجت الحملة من حلب، ووصلت إلى مشارف كفر تخاريم، واحتلوها قبل أن يصل إليها هنانو عائدا من قصير إنطاكية، فاعتقلوا عددا من رجالها، وظلوا رهن الاعتقال يسامون أنواع العذاب في سجن حارم القريبة من كفر تخاريم.

وعاد هنانو فوجد كفر تخاريم وقد احتلها العدو، ولكنه لا يستطيع أن يصنع شيئا، لقلة العدد والعتاد، على الرغم من أنه كان قد انضم إليه الشيخ يوسف السعدون، وغيره من رجال الثورة البارزين، وكان من أبرزهم السادة: نجيب

عويّد، محمد ممّو، جميل عباس، الحاج ضرغام درة، محمد علي جمعة، عبد الرحمن قرّه دامور، مصطفى أبو درويش، إبراهيم عويد وغيرهم.

واجتمع الثوار في مؤتمر عقدوه للنظر في شؤون الثورة، فصدر قرار بضرورة اتصال الزعيم هنانو بالسلطات التركية، وكانت في حرب مع الفرنسيين في كيليكيا للحصول على العتاد والذخيرة، والدعم المعنوي، فالعدو واحد والمعركة واحدة.

سفر الزعيم إلى تركيا طلباً للعون العسكري

سافر الزعيم هنانو إلى تركيا يرافقه أخوه عقيل هنانو، وأمين سر الثورة الملازم إبراهيم الشغوري ونجيب عويّد، وعقيل السقاطي، وهزاع أيوب.

واتصل الزعيم بالسلطات التركية التي استجابت لطلب الزعيم ووقعت اتفاقية حول ذلك في ٦ أيلول ١٩٢٠، وعاد ومعه بعض العتاد الذي تم الاتفاق على تقديمه إلى الثورة.

التنظيمات العسكرية الجديدة

شكل الزعيم هنانو أربع فرق ضمت ما يقرب من ألف ثائر:

الأولى: في منطقة القصير (قصير أنطاكية) بقيادة الشيخ يوسف السعدون.

الثانية: في منطقة كفر تخاريم بقيادة السيد نجيب عويّد.

الثالثة: في منطقة جبل الزاوية بقيادة السيد مصطفى الحاج حسين.

الرابعة: في منطقة جبال الساحل بقيادة السيد عمر بيطار.

وفي ١٦ أيلول ١٩٢٠ أعلن الزعيم هنانو الثورة على الفرنسيين في الشمال رسميا، وأذاع على الشعب البيان التالي:

أيها العرب:

ما بالكم ترضخون صاغرين لحكم المستعمر الجائر، وأنتم خير أمة أخرجت للناس، أمة خلقت لتحكم بالعدل، ولقد سلطت فرنسا جيوشها ناقضة

العهود ونابذة الوعود، وسودت وجه تاريخها، مدَّعية بأنها جاءت لمساعدتنا وإرشادنا وحفظ كياننا، واستقلالنا، وما ادعاؤها هذا إلا كذب وزور وبهتان.

لقد حاربنا في صفوف الحلفاء وثرنا على الحكم التركي، فماذا كانت النتيجة؟ لقد خاننا الحلفاء، وتنكروا لقضايانا، وداسوا استقلالنا، وهزئوا بدماء شهدائنا، دون أي ذنب جنيناه، سوى مطالبتنا بالحفاظ على حريتنا وكرامتنا.

أيها العرب

إن أبناء الشرق - في شرع المستعمر الفرنسي - أحط من البهائم، يُقتَلون ليقام فوق أجسادهم عروش السفاهة في منتزهات الشانزيليزيه في باريس وأنتم غافلون.

لقد استولى على بلادكم وأجلى ملككم، وأقفل مؤتمركم، وبدد جندكم، واعتقل وجهاءكم، وهتك أعراضكم، وأحرق قراكم، وفرق شملكم، وكل هذا وأنتم بمواعيده تثقون، ولولايته راضون، ومن يتولهم منكم فإنه منهم أفلا تتذكرون.

أيها العرب

إن المستعمر يتخذ الأديان الطاهرة شعاراً لمطامعه، ويقول لإخوانكم المسيحيين أنه جاء لينقذهم من الظلم في الوقت الذي يسحق فيه الملايين من النصارى في ألمانيا وروسيا والنمسا، لأنه من أشد الملحدين.

التعاون بين الزعيمين هنانو والشيخ صالح العلي

بعد ذلك تم اتصال بين الزعيمين هنانو والشيخ صالح العلي، الذي ثار في جبال العلويين والساحل، كما قدمنا، واتفق على جعل منطقة جسر الشغور، الواقعة على نهر العاصي في وسط المنطقتين، مكاناً لتلاقي الثائرين.

دخول الثوار مدينة جسر الشغور

بعد اتفاق الزعيمين تقرر أن يهاجم الزعيم هنانو جسر الشغور ويحتلها. وفي ٢٧ تشرين الثاني ١٩٢٠ سارت مفارز هنانو وطوقوا المدينة ثم انقضوا عليها، رغم النيران الغزيرة التي كانت تصوب إليهم من المراكز الفرنسية، فاستسلم الفرنسيون مع أسلحتهم بعد أن قتل قائدهم، وكان عدد المستسلمين ٢٥ جندياً فرنسياً و(٥٧) جندياً مرتزقاً.

واحتفل الأهلون بنصر إخوانهم الثوار، واستقبلت جسر الشغور هنانو ورفاقه استقبال الأبطال، وأخذ الثوار يطهرون المنطقة من فلول الفرنسيين وأتباعهم من المرتزقة، ثم أطلق الزعيم هنانو الجنود المرتزقة بعد أن لقنهم درساً في وجوب الإخلاص لوطنهم، وترك التعاون مع العدو المستعمر.

وأبلى الثوار وقادة المفارز بلاءً حسناً ومنهم السادة: عمر البيطار والشيخ يوسف السعدون، ومحمد ممّو، وسعيد عباس، وعبد الرحمن قره دامور.

المعارك الدامية بين إدلب وكفر تخاريم

لم يستطع المستعمر أن يصبر طويلاً على الإذلال الذي لقيه في معركة جسر الشغور فسيَّر حملة من حلب تتألف من لواء كامل يضم ألفين وخمسمئة جندي مع عتادها وذخيرتها، واتجهت الحملة إلى إدلب لتنطلق منها إلى كفر تخاريم. فأرسل الزعيم هنانو معاونه السيد نجيب عويّد، ليعرقل سير الحملة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً كي يفسح المجال للزعيم للاستعداد والتعبئة.

وفي إدلب كمن الثوار برئاسة نجيب عويد، وحين همت الحملة بالخروج من إدلب في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٢٠ تصدى لها الثوار، واشتبكوا مع بعض سراياها، وقتلوا ٦٣ فرنسياً بينما خسر الثوار أربعة شهداء، وسقط من الطرفين عدد من الجرحى.

ومضت الحملة تغذ السير نحو كفر تخاريم، وحين وصلت إلى موقع (تلتيتا) فاجأها الثوار بنيران كثيفة، ورغم الخسارة الفادحة التي لحقت بالجيش

الفرنسي في (تلتيتا) فإنه استطاع أن يتمركز فيها وصار يستطيع ضرب كفر تخاريم بنيران مدفعيته الثقيلة.

وقاتل الثوار قتالاً عنيفاً وسقط من الفرنسيين عدد وفير من القتلى والجرحى، وحين شعر الفرنسيون أنهم لن يستطيعوا احتلال كفر تخاريم استنجدوا بمن في حارم من جنودهم.

وأمر الزعيم هنانو مرافقه الملازم إبراهيم الشغوري بملاقاة المدد الفرنسي المرسل من حارم، وإيقافه عن الزحف كي يتمكن الثوار من الانسحاب، ومعهم من يستطيع القتال لئلا يمكنوا الفرنسيين من إحراز النصر عليهم.

وفي يوم ٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٠ دخل الفرنسيون كفر تخاريم، فنكلوا بمن وجدوه فيها من الشيوخ والأطفال.

تحرير كفر تخاريم

لم تطل إقامة العدو المستعمر في كفر تخاريم فسرعان ما ندب الزعيم هنانو معاونه السيد نجيب عويّد لاسترجاع كفر تخاريم من أيدي العدو الماكر في معركة ضارية تُعدُّ من أروع معارك الثوار وأفخرها.

وقال القائد المغوار نجيب عويّد متحدثاً عن تلك المعركة:

((عند دخول العدو كفر تخاريم تفرق أهل المدينة أو كثير منهم بالجبال والأودية، وكنت ترى منظراً يفتت الأكباد، وتنفطر له المرائر من صراخ النساء وبكاء الأطفال، فلا ماء لهم ولا زاد، ولمَّا أمسى المساء ازداد بكاء الأطفال من شدة البرد، وحين رأيت هذا المشهد المؤلم ناديت بملء صوتي في الثوار: أين المروءة والشهامة والنجدة؟.. فلبوني مسرعين قائلين: ماذا تريد؟.. فقلت: أريد جماعة يبيعون أنفسهم في سبيل الله رحمة بهولاء النساء والأطفال، فقالوا: حاضرون. فقلت لهم: اتبعوني.

وفي أواخر الليل وصلنا أطراف كفر تخاريم فأحصيت من معي فإذا هم ثلاثون ثائرا، فجعلتهم في ثلاث فرق: فرقة تأتي العدو من الشرق وعليها (محمد ممو ومصطفى أبو درويش)، وفرقة من الجنوب وعليها (الحاج ضرغام درة)، والفرقة الثالثة قدتها بنفسي يعاونني (عقيل السقاطي)، وتم الاتفاق بيننا على إطلاق النار عندما يسمعون صوت المؤذن يتعالى بالأذان، وتوجهت كل فرقة إلى المكان المعين لها.

وعندما بزغ الفجر وقفت فوق أحد القبور الواقعة على مرتفع غربي المدينة، وناديت بصوت مرتفع أخاطب به من بقي من أهل البلدة في منازلهم:

يا أهل كفر تخاريم لا تخافوا، ها نحن المجاهدون ضربنا نطاقاً حول البلدة، ولا نطلب منكم معونة سوى الدعاء والتكبير لأن جمعنا يزيد على الثلاثة آلاف مجاهد.

وعندما رفع المؤذن صوته بالآذان كنت تسمع من كل بيت الآذان والتكبير، وبعد ذلك باشرنا بإطلاق النار وقذف القنابل اليدوية على الخيام التي فيها العدو، فتراكض الجند مذعورين لا يعرف الخصم من أين يأتيه، ولا الرصاص المتطاير متى يصيبه أو يرديه، والتهليل والتكبير يصم آذانه، وحركات الثوار من جهات ثلاثة تهدم بنيانه.

وما كادت الشمس تشرق وتضيء الكون بنورها، ويتبين الخصم خصمه، حتى كانت الفئات المدعوة لشدّ أزر المجاهدين من أبناء القصير وسلقين في طريقها إلى ميدان المعركة، تقترب منه وتستعد له، وكان العدو بنقص مستمر لكثرة ما يقتل أو يصاب من رجاله، والمجاهدون بازديادٍ مستمر بما يرد إليهم من نجدات.

وكلما تعالت الشمس كان الخناق يضيق على العدو حتى حشر حشراً في أرض منخفضة نسبياً، وأحيط من جهاته الثلاث على وجه التقريب ولم يبق له من منفذٍ إلا الشمال، وكان لا بد له من قبول أحد أمرين: إما الفناء المحقق، وإما التراجع، وليس له من طريق إلا من جهة الشمال فآثر الحياة والخذلان على

الموت المحتم، وانسحب شمالاً إلى الغرب، باتجاه حارم تاركاً وراءه ما يزيد على (١٣٠) قتيلاً، واستشهد من ثوارنا اثنا عشر شهيدا، وسقط منا عدد من الجرحى، وتحررت كفر تخاريم من طغيان العدو الغادر، حررها ثوار الشمال الأشاوس، ولقنوا العدو الفرنسي درساً في البطولة والتضحية والفداء لن ينساه)).

وطاشت عقول الفرنسيين ولم يعودوا يدرون ما يفعلون، وقرروا المسير إلى حلب عن طريق حارم، ولكنهم صدوا، فاتجهوا غرباً نحو قرية (سقاط) عرين الشهيد عقيل السقاطي، فنهبوا ما بقي في القرية ونكلوا بمن بقي من سكانها، ثم اتجهوا غرباً أيضاً نحو سلقين، وفعلوا فيها ما فعلوه في سقاط ولكن ما لبثوا أن طردوا منها طرد الكلاب.

وطاش صوابهم فهم يريدون الوصول إلى حلب بأي ثمن ولكنهم يرون أنفسهم يمضون غرباً، والطريق إلى حلب شرقي، فانحدوا إلى دركوش على نهر العاصي، فقتل منهم عدد كبير قبل أن يجتازوا جسر دركوش، ثم مضوا نحو جسر الشغور، فدخلتها فلول الجيش المنهزم.

وخسر الفرنسيون ألف قتيل في هذه الحملة الرعناء الشرسة. وفي السابع من كانون الأول ١٩٢٠ وصلوا حلب أذلاء مغلوبين مقهورين.

حملة دي بيوفر

بعد هذه الهزائم التي حلت بالجيش الفرنسي عقد الجنرال دي لاموت، قائد منطقة حلب العسكرية العزم على أن يرسل حملة ضخمة للقضاء على الثورة التي أقضت مضجعه، فأعد حملة كثيرة العدد والعتاد، يقودها الكولونيل (دي بيوفر).

توجهت الحملة نحو معاقل الثوار، متجهة في خطين بحيث تجعل الثوار بين نارين، ولكن الثوار استطاعوا أن ينزلوا بالحملة ضربات شديدة، فما حلّ يوم ٢٩ كانون الأول ١٩٢٠ أي بعد شهر واحد من انطلاقها من حلب، حتى

كانت قد خسرت العدد الكبير من ضباطها وجنودها، وضاع عتادها كله، لذا فقد أمرت بالعودة إلى حلب على جناح السرعة.

حملة الجنرال غوبو الأولى

بعد فشل حملة دي بيوفر عمدت السلطة الفرنسية إلى توجيه حملة قوية بقيادة الجنرال (غوبو) ومهمتها تمشيط المنطقة الممتدة شرقي نهر العاصي، ثم اجتياز النهر إلى الغرب للقضاء على ثوار جبل العلويين عن طريق القصير.

وكمن الثوار في تشكيلات صغيرة، لممارسة حرب العصابات، ضد المستعمرين في أقسى صورها وأشدها ضراوة، وقد استطاعت الحملة أن تدخل جسر الشغور، وما إن اجتازت المدينة حتى تصدت لها الكمائن تطعن في جنباتها حتى أطاشت عقول رجالها وقادتها، فالثوار منتشرون في الجبال على امتداد الطريق، وقد غيرت الحملة اتجاهها لتضلل الثوار غير أن ذلك لم يكن ليجديها نفعاً، لأنها حيثما اتجهت تجد الثوار أمامها وخلفها وعن يمينها وعن شمالها، حتى نفد عتادها أو كاد فأبرق (غوبو) إلى حلب طالباً النجدة.

وخرجت النجدة من حلب على وجه السرعة، وكانت تتألف من ثلاثمئة وخمسين جملاً محملة بالمؤن والذخائر، مع قوات من الجنود المشاة والخيالة، وعندما اجتازت النجدة إدلب تصدت لها كمائن الثوار، بقيادة الزعيم هنانو، وعندما وصلت إلى (الجبل الوسطاني) انقض عليها الثوار من كل صوب.

ونشبت معركة ضارية بين الثوار وبين الفرقة الفرنسية المرافقة للنجدة التي يقودها ابن الجنرال غوبو، انتهت المعركة بمصرع ابن الجنرال وعدد كبير من الجنود.

واستولى الثوار على الجمال والأقوات والعتاد، ولكن القتال لم ينقطع، وبعد ساعات من نشوب المعركة أقبلت كوكبة من الثوار، يقودها البطل نجيب عويّد، فاشتركت فور وصولها في المعركة، وأطلق فلول الجنود الفرنسيين سوقهم هاربين.

واستطاع الجنرال (غوبو) أن يتصل بالفرنسيين في أنطاكية، وحصل على المؤن والعتاد بعد أن بلغه نبأ مصرع ابنه، وضياع النجدة من الأقوات والعتاد، وتراجُع من بقي من الجنود إلى حلب، ثم أمر جنوده بالزحف نحو الشرق لينتقم من الثوار، فكان يمر بالقرى الآمنة كالإعصار العاتي، يقتل الآمنين ويحرق بيوتهم ويصادر أقواتهم وأموالهم فلا يزداد الثوار بذلك إلا استبسالاً فينقضون على جنوده من كل مكان ثم ينسحبون مخلفين وراءهم عشرات القتلى والجرحى من الفرنسيين.

وظل الجنرال غوبو متجهاً نحو حلب في هزيمة منكرة وانكسار مخز حتى وصلها مكدوداً ومغلوباً مقهوراً في ١ شباط ١٩٢١.

حملة (دي بيوفر) الثانية

أعدت حملة فرنسية ثانية بقيادة الكولونيل المجرم الجزار (دي بيوفر) خرجت من حلب في ٣ شباط ١٩٢١ وقد زودت بالمعدات الحربية الفتاكة والجنود الذين اشتهروا بالشراسة والقسوة من الفرقة الأجنبية وبعض الجنود السنغاليين، والفرنسيين الذين كانوا يؤملون أن يثأروا لمن قتل من رفاقهم.

سارت الحملة متجهة نحو قرية كللي، فقد بلغها أن الزعيم هنانو وعدداً كبيراً من الثوار قد حلّوا فيها، وأن الزعيم جعلها مركز قيادته الثورية.

مذبحة قرية كللي

٧

تبعد قرية كللي عن الطريق العام الذاهب إلى لواء اسكندرون مسافة ثمانية عشر كيلومتراً إلى الغرب، يمر خلالها المرء بمزارع خصبة التربة، كثيرة الماء، عليلة الهواء، فإذا مرّ بقرى الجينة، وإيين، وحزّانو أشرف بعدها على القرية الهادئة الوادعة المطمئنة.

وقبل مهاجمة القرية بأيام من قبل (دي بيوفر) كانت السلطة الفرنسية قد ضربت القرية بقنابل الطائرات ثلاث مرات فهدمت الكثير من البيوت.

ودخل (دي بيوفر) القرية في العاشر من شباط ١٩٢١ بعد أن طوقها بجنوده الوحوش. وحين وصل إلى ساحة واسعة في القرية أمر بأن يساق إليه عدد من شباب القرية، وسيق الشباب إلى (دي بيوفر) يُدفعون دفعاً بأعقاب البنادق، وجاء ضابط مغربي ونبه السكان إلى اختصار الكلام.

قال الثائر البطل عبد الرزاق المعدل يقص عليّ ما جرى يومئذٍ بالحرف الواحد: وكان (دي بيوفر) قد وضع أمامه ورقة فيها بعض أسماء الثوار من أهل القرية، فبدأ بأحدهم، وسأله عن اسمه، فقال له اسمي عندكم، قال هذا دون أن يرمي بقوله إلى غرض معين إلا الرغبة في التملص من الخطر الداهم هذا شيء له ما يبرره في مثل هذه اللحظات الخطرة.

فنهره المختار وقال له: اذكر اسمك ولا شيء غيره، فالتفت (دي بيوفر) وقد ارتاب في كلام المختار، التفت إلى المترجم، وأمره أن يطلق النار على

المختار، فدفع المترجم المختار خطوتين، وأطلق النار على رأسه، فأصابه في فكه، فتدلى الفك، وأخذ ينزف ولم يمت للتو.

وحين صرفنا من أمامه أمر المترجم أن يطلق النار على المختار ثانية، ففعل وأرداه قتيلاً.

ثم أمر (دي بيوفر) جنوده بقتل عدد من الشبان دون ذنبٍ جَنَوه، وقد بلغ عددهم سبعة وعشرين شاباً في زهرة العمر، ظلماً وعدواناً وإرهاباً للناس.

قال محدثي الثائر السيد عبد الرزاق المعدل، وكان بجانبه الثائر البطل محمد عبيلو، وهو من وجوه قرية كللي أيضاً: وانصرف الناس إلى دفن قتلاهم الذين طرح الفرنسيون جثثهم في بئر معروفة في القرية، ونهبت القرية حتى لم يعد فيها ما يسد الرمق، وأحرقت المؤن، وبحثوا عمَّن في داخلها من الأهلين الذين عمدوا وهم عزّل من السلاح وأكثرهم من النساء والأطفال والشيوخ إلى خزائن المؤن، فاختبئوا فيها، ليتقوا شرّ المغيرين وكان الجنود إذا شبعوا من الطعام ولم تعد تعوزهم الأغذية أتلفوا ما وجدوا منها عند الأهلين ليموتوا جوعاً خلال تطويق القرية.

الحملة في قرية زردنا

ودخل (دي بيوفر) قرية زردنا، فأمر جنوده بنسف بعض منازلها، فقد بلغه أن الثوار بقيادة الزعيم هنانو قد مروا بها، وتزودوا منها، وتلقوا المساعدة التي تفرضها الأخوة في الوطن.

وقد أرسل فدعا إليه مختار القرية محمود الدارة، وحين سأله عن مكان الثوار وكيف أواهم، نفى أن يكون على معرفة بمكان الثوار، أو بما ينوون أن يفعلوه، فأمر بإعدامه كما فعل بمختار قرية كللي.

نقل جانب من النشاط الثوري إلى جبل الزاوية

في هذه الظروف وجد الزعيم هنانو أنه من المفيد أن ينقل بعض النشاط الثوري إلى جبل الزاوية، فكلف بذلك القائد البطل مصطفى الحاج حسين،

فمضى هذا القائد الباسل يعد القوات والسلاح، ويستعد هو ورفاقه للمعارك الطاحنة المقبلة بينما توجه القائد الباسل الشيخ يوسف السعدون فالتحم بالفرنسيين قرب قرية الدويله، فدارت الدائرة فيها على الفرنسيين.

وخلال تقدم الفرنسيين نحو جبل الزاوية عقد مؤتمر في (مرعيان) ضم عدداً من رجال الثورة، وعلى رأسهم مصطفى الحاج حسين ساعد الزعيم هنانو الأيمن ومعاونه الوفي، حيث قرروا العمل جميعاً تحت لواء الزعيم هنانو وقيادته الحكيمة، وأعلنت الثورة رسمياً في جبل الزاوية في أوائل آذار ١٩٢١ وأقبل الشباب على الانخراط في صفوف الثوار، وضغط الفرنسيون على الحكومة المحلية المتواطئة مع دولة الاستعمار، فقررت تلك الحكومة أن ترسل إلى جبل الزاوية قوة من الدرك قوامها أكثر من مئتي دركي من أبناء البلاد.

خرجت هذه الحملة الدركية بعيد إعلان انضمام ثوار جبل الزاوية إلى ثورة الشمال العامة، ففي العاشر من آذار وصلت قوة الدرك إلى قرية (أورم الجوز) فبرز لها الثوار فجأة، وقبل أن يطلق الثوار النار على رجال الدرك أنذروهم، وطلبوا منهم الاستسلام والانضمام إلى صفوف إخوانهم الثوار، وكما قال أحد أبطال هذه الثورة السيد عبد الرحمن عيد: ((إنه لا عذر لهؤلاء في تعاونهم مع أعداء بلادهم وقومهم، لأن هؤلاء انضموا إلى الفرنسيين ليأكلوا اللقمة الحرام، وليقتلوا أخوانهم ومواطنيهم وليعينوا العدو على انتهاك أعراض نساء هُنَّ أخوات لهم بحكم الوطن الذي أنبتهم والعروبة التي إليها ينتمون. لم يكن هؤلاء بحاجة إلى رغيف الخبز. حتى ولو كانوا بحاجة إلى رغيف الخبز فهل يحق للمواطن أن يخون وطنه وأمته ليحصل على رغيف الخبز المصبوغ بدماء أخوته وأخواته، إن المثل العربي يقول: تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها. فكيف بمن يحصل على اللقمة الحرام مغموسة بالنجيع، نجيع المواطنين الأحرار، الذين هبوا للدفاع عن الوطن، عن العرض والكرامة.

ولم يجد تحذير الثوار لرجال الدرك نفعاً، وذهبت صرخاتهم سدى وأبى رجال الدرك إلا القتال إرضاءً لأسيادهم الفرنسيين، ولو شاؤوا لما قاموا بهذا

العمل المنكر، ولكانوا انضموا إلى صفوف الثوار بأسلحتهم، ولكنهم أبوا إلا أن يكونوا جنوداً للشيطان، فزحف كلّ نحو الآخر. وحين أبدى الشر ناجذيه، ولم يعد من الصدام مناص ولا مفر، ولم ينصت رجال الدرك إلى النداءات المخلصة دارت المعارك ضارية رهيبة، وكان الثوار يتقون إصابة هؤلاء الرجال في المقاتل ما وسعهم ذلك، وظل هذا الشر الذي أكرهوا عليه إكراهاً في استعاره، واحتدم القتال واشتد أواره حتى سقط قائد الدرك صريعاً، فاستسلم رجاله ورموا بسلاحهم كله وسيقوا أسرى لم ينفعهم الفرنسيون ولم ينقذوهم من المحنة التي دفعوا دفعاً إلى خوض لهيبها وقد صرع من رجال الدرك أربعون دركياً.

غير أن الفرنسيين بعد اندحارهم هم أنفسهم في معركة الدرك عزّ عليهم تحمل هذه الهزائم فجهزوا حملة تتألف من عدد من أبناء فرنسا، وعدد أكبر من المغاربة، (لا رعاها الله تلك الأيام التي كان فيها العربي يقاتل أخاه العربي بضراوة شرسة خدمة للاستعمار).

وعندما دخل الجنود الفرنسيون إلى جبل الأربعين انسحب الثوار وتركوهم يتوغلون في الجبل إلى المواقع التي قرروا منازلتهم فيها. هناك انقضوا عليهم، وعندما حلّ المساء انسحب رجال الحملة، تاركين وراءهم أكثرمن مئة قتيل، واستشهد عدد من الثوار، كان على رأسهم البطل المغوار (أبو عدلا) الذي كان اسمه وحده يلقي الهلع في قلوب الأعداء، وكانت أخت الشهيد (أبو عدلا) في مقدمة النساء اللواتي كُنَّ يساعدن الثوار ويحملن إليهم الذخيرة والزاد والماء.

ولعل أروع ما يروى عن هذه المعركة: أن الفرنسيين عندما أمروا بالانسحاب لما لحق بهم من الخسائر، أخذ الجنود المغاربة منهم يطمرون الذخيرة، وبخاصة رصاص البنادق، يطمرونها في التراب، ويتركون شارات تدل المجاهدين على مكان هذه الذخيرة المطمورة، ولقد كانت هذه الذخيرة عوناً عظيماً على مواصلة القتال ضد العدو المشترك وهو المستعمر الفرنسي.

معركة سرجه ووادي ترعان

ومن طباع المستعمرين أنهم كلما لحق بهم خزي الهزيمة في معركة حاولوا أن ينتقموا لهزائمهم بشتى الأساليب، فلقد هزم الفرنسيون في كفر تخاريم - ودركوش وخرجوا من القصير هاربين لكنهم حين وجدوا أن أركان الثورة تتوطد في جبل الزاوية جن جنونهم فأرسلوا جيشاً كثير العدد والعتاد يربو عدده على أربعة آلاف جندي ولديهم المدافع الجبلية والعتاد الفتاك.

وحاول قائد الحملة أن يضلل الثوار فأخذ يراوغ، ويغير اتجاهاته غير أن الثوار بقيادة الزعيم هنانو كانوا للعدو بالمرصاد، وتصدوا له بضراوة، وظلّ القتال مستمراً حتى ظن الثوار أنهم سيخسرون المعركة، وسقط العديد من القتلى في وادي (ترعان) وقرب قرية (سرجة)، ولقي الثوار من المدفعية الفرنسية أهوالاً جساماً، ولكنهم صمدوا حتى وافتهم النجدة بقيادة الزعيم هنانو نفسه.

وبلغ الزعيم هنانو أن مستودعاً ضخماً للذخيرة أعده الفرنسيون قريباً من مواقعهم فقرر نسفه، فانتدب لذلك البطل الثائر (مصطفى المحلول) من قرية (احسم) ففجر مستودع الذخيرة، وتطاير معها عدد من الجنود الفرنسيين أشلاء، واستشهد مصطفى في هذه العملية الرهيبة ولم يظهر له أثر.

وقد اضطرب الفرنسيون كثيراً بفقدهم هذه الكمية الضخمة من الذخيرة، وراح الثوار الطلائعيون يشغلون الجنود الفرنسيين، فنشبت معركة قرب قرية (لوزة) ثم تلتها معارك أخرى، ولم ينقطع القتال لحظة واحدة وفي كل معركة يسقط عدد كبير من القتلى الفرنسيين.

وأعدّ الزعيم هنانو في هذه الفترة التي كانت فيها الطلائع الثورية تشغل الفرنسيين، عدته للمعركة التي قد تكون الفاصلة.

جعل على ميمنته القائد الباسل السيد يوسف السعدون، وعلى ميسرته القائد الشجاع السيد مصطفى الحاج حسين، وجعل على القلب الملازم الجريء السيد إبراهيم الشغوري.

ودارت المعركة ضارية وحاول الفرنسيون دون جدوى أن يشقوا لهم طريقاً في الجبل بين صفوف الثوار، ليأتوهم من الخلف ويطوقوهم، ولكنهم عجزوا عن تحقيق غايتهم.

وظلت المعارك حامية الوطيس، ثلاثة أيام بلياليها، وعندما قاربت شمس اليوم الثالث على المغيب ظهر في الأفق غبار كثيف، كالذي يحدثه عدو الخيل وزحف الجنود، فظنّ الفرنسيون أن نجدة قد اقبلت تشد أزرهم وأوجس الثوار شراً، ولم تطل بالطرفين الحيرة والتوجس، وإذا بالغبار ينكشف عن القائد الثائر نجيب عويّد وقد أقبل على رأس فرقة من الثوار الأشاوس.

تقدم الشيخ يوسف السعدون أمام الميمنة معلناً هجوماً جديداً زحزح به الفرنسيين عن مواقعهم فاضطرب المستعمرون ووجدوا أنهم لا مفر لهم من أحد أمور ثلاثة: الفرار أو الموت أو الأسر، واختاروا أسوأ الثلاثة، لقد اختاروا الهرب، فما أن حلّ الظلام حتى أعطيت أوامر القيادة الفرنسية بالانسحاب، تاركة على أرض المعركة عدداً كبيراً من القتلى والجرحى والعتاد.

وقد استشهد من الثوار خمسة وستون شهيداً منهم: عبد القادر علوش من سلقين، ومحمد إسماعيل لاطه من قرية الباره، ومحمد صالح الوهبي ومحمد حسن الخطيب من قرية مرعيان، وسرور شعبان ومصطفى الأطرش من قرية احسم.

وفي أوائل نيسان ١٩٢١ اشتبك الثوار بقيادة الثائر البطل مصطفى الحاج حسين مع العدو الفرنسي في تل الزيتون من قضاء مدينة المعرة، فانسحب الفرنسيون منها منهزمين، وتعقبهم الثوار حتى محطة سكة حديد (أبو الظهور) حيث نسف الثوار الخط الحديدي الممتد بين حلب وحماة والذي يصل سورية بلبنان عن طريق (رياق) وعادوا إلى الجبل مظفرين.

وراح الفرنسيون يرسلون التعزيزات العسكرية لتمكين قبضتهم على كفر تخاريم التي هي معقل الثوار، كما أخذوا يُغرون بعض المواطنين بالمال، حتى اجتمع لديهم عدد كبير من الجند، أغدقوا عليهم الأموال دون حساب، وأطلقوا

أيديهم في النهب والسلب فعاثوا في القرى والمدن فساداً، يقتلون ويعتدون وينتهكون الأعراض والحرمات، وإذا ارتكب جندي من هؤلاء الجنود الذين أطلقوا عليهم اسم (الحرس السيار) جرماً، مهما كان شنيعاً ودامياً، فإن السلطة الفرنسية لا تسلمه إلى يد العدالة أبداً، فانتشر الإجرام والبغي والعدوان في كل مكان.

لكن عزائم الثوار لم تهن على الرغم من كل ما لاقوه من استشهاد الرجال ومن فقدان الذخيرة. كما أن الأتراك امتنعوا عن إمداد الثوار بالسلاح لأنهم أخذوا ينشئون علاقات ودية مع فرنسا، وعمدوا إلى إنهاء حالة الحرب معها، فاستقدمت السلطة الفرنسية قواتها المتواجدة في تركيا، وقذفت بها إلى جبل الزاوية لمقاتلة الثوار.

الكولونيل فوان وإيقاف القتال مؤقتاً للتفاوض

٨

في الرابع عشر من نيسان ١٩٢١ تقدمت فرق فرنسية بقيادة الكولونيل فوان (وهو فرنسي لديه مصنع صغير لدبغ الجلود في فرنسا) يريد احتلال جبل الزاوية مارا بمدينة أريحا.

وقبل أن يدخل الفرنسيون أريحا شاهدوا علماً أبيض يرفرف فوق أحد منازلها، فظنوا أن القوم يريدون الاستسلام فتقدمت مفرزة فرنسية لتكشف الخبر، وظن الثوار من جهتهم (وكانوا لا يعرفون قصة العلم الأبيض المرفوع) أن بعض الفرنسيين أو المراكشيين جاؤوا لينضموا إلى الثوار، وحين اقترب الفريقان من بعضهما ظهرت لهما الحقيقة، فابتدر كل منهما سلاحه، ونشبت معركة دامية، أسر الثوار قائد الجماعة الفرنسية الكابتن (فانته كرول) وعدداً من جنوده يبلغ خمسة وعشرين عنصراً وأسر الفرنسيون ستة من الثوار.

عامل الكولونيل (فوان) أسرى الثوار معاملة حسنة وأمر بإطلاق سراحهم، وزودهم بكتاب إلى الزعيم هنانو يرجوه فيه إطلاق سراح الأسرى، مبيناً له أسباب ما قد حدث.

واستقبل الزعيم هنانو أسرى الفرنسيين وأعاد إليهم أسلحتهم وأرسل معهم مرافقه الخاص الملازم إبراهيم الشغوري ليوصلهم إلى الكولونيل (فوان) بالذات.

وفي اليوم التالي جاء كتاب من الكولونيل (فوان) يقترح فيه أن تعقد مقابلة بين الزعيم والكولونيل علـّهُما يصلان إلى حل يقبله الطرفان وينتهي هذا الصراع الدامي (وكان الكولونيل فيه صفات كريمة لم تكن عند بقية المستعمرين).

وافق الزعيم، وتمت المقابلة التي دامت ساعة ونصف الساعة في قرية (كفرنجه) وكان الكولونيل يعترف أمام الزعيم بأن ثورتهم على حق وأنهم إنما يذودون عن بلادهم وأمتهم وكرامتهم، فشكره الزعيم هنانو على كرمه وصدقه، وتقررت هدنة (٤٨) ساعة كي يتصل الكولونيل (فوان) بالجنرال (ده لاموت) في حلب.

وفشلت هذه المحاولة السلمية، فبدلاً من أن يرحب الجنرال (ده لاموت) بهذه البادرة رفضها، وأوعز إلى الجنرال (غوبو) بالتحرك للقضاء على الثوار، وزوده بجنود من الفرنسيين، وعدد كبير من جنود المستعمرات، وعدد آخر من المرتزقة.

وسارت هذه الحملة، وكانت الحرب قد عادت إلى حدتها بعد انقضاء مدة الهدنة المؤقتة. وحين وصل الجنرال (غوبو) جعل قيادته في قرية (كورين) بين إدلب وأريحا.

وبذل الكولونيل (فوان) جهداً جديداً لإقناع الجنرال (غوبو) بقبول المفاوضة، وكان الجنرال فظاً قاسياً وقد صُرع ابنه في إحدى المعارك مع الثوار فازداد لؤماً وكيداً وضراوةً وسفهاً - غير أن الكولونيل فوان بأسلوبه الدمث استطاع أن يقنعه بالمفاوضة، فأرسل الكولونيل، بناء على تفويض من الجنرال غوبو، إلى الزعيم هنانو، يقترح عقد اجتماع للمفاوضة في مقر الجنرال (غوبو) في قرية (كورين) وأنه، أي الجنرال، يضع نفسه مع عدد من ضباطه رهائن لدى الثوار حتى عودة الزعيم ورفاقه من الاجتماع في (كورين) فقبل الزعيم بالاقتراح وتحدد له يوم ١٧ نيسان ١٩٢١.

مؤتمر (كورين)

وفي الوقت المحدد وهو ١٧ نيسان ١٩٢١، خرج هنانو من مدينة أريحا، ومعه مستشاره الإداري عمر زكي الأفيوني، ومرافقه الملازم إبراهيم الشغوري والملازم الأول هاشم جمال، والملازم بهيج، وعدد محدود من شجعان الثوار وأبطالهم منهم: السيد عبد القادر فضيل، قاصداً المعسكر الفرنسي في (كورين).

وفي منتصف الطريق بين المعسكرين استقبلهم الكولونيل (فوان) ورئيس أركانه الكابتن (فانته كرول) وأعلن الكولونيل أنه على استعداد للمضي إلى المكان الذي يختاره الزعيم هنانو ومعه بعض ضباطه كرهائن لضمان سلامته وسلامة من معه من إخوانه الثوار.

ورفض هنانو هذا العرض مكتفياً بكلمة الشرف والوعد الصادق، فقد لمس الزعيم في هذا الكولونيل الفرنسي خُلُقاً كريماً ونفساً حرة عالية.

واتجهوا جميعاً نحو مركز الجنرال (غوبو) فخرج يستقبلهم على بعد عشرين متراً من مقره، فتصافح القائدان وجلسوا جميعاً بينما بقي بعض الثوار خارج مكان الاجتماع لأسباب أمنية.

وخلال الاجتماع أظهر الجنرال (غوبو) غطرسة ورعونة فأعاده الزعيم إلى جادة الأدب.

وقدَّم الجنرال شروطه وهي كما يلي:

١- تسليم سلاح الثوار بالكامل.

٢- تسليم الرجال الذين باغتوا الحملة في (دركوش) وقتلوا قائدها (وهو ابن الجنرال) وبعض الجنود، وسلبوا عتادها.

٣- أن يرافق الزعيم وصحبه الجنرال وجنده إلى مناطق الثورة حيث يساعدون على عملية نزع السلاح وإدخال الطمأنينة إلى نفوس الثائرين.

٤- يبقى الزعيم وصحبه في ضيافة الجنرال حتى تنفيذ الشروط الثلاثة الأولى.

٥- يمنح عفو عام عن الجرائم المرتكبة ضد الفرنسيين ما عدا حادث دركوش.

٦- تمدد الهدنة المعقودة بين الكولونيل فوان والزعيم هنانو ثمان وأربعين ساعة أخرى ريثما يتصل الزعيم هنانو ببقية الرؤساء ويتشاور معهم.

٧- بعد أن تنفذ الشروط تشكل حكومة في كل من حارم، وإدلب وجسر الشغور, والمعرة، وقسم من أنطاكية وقسم آخر من جبل سمعان، وتسند رئاستها إلى إبراهيم هنانو.

وقرأ الزعيم هذه الشروط فلما وصل إلى البند الأخير أربَدَّ وجهه وجلله الأسى، فقال للجنرال: إن هنانو ليس شيئاً في هذا الأمر إنما هو أحد المناضلين عن بلاده كسواه، وإن الشعب هو الثائر، وإن هذا الشعب لا يرضى أن تجزأ سورية تجزئة جديدة فتجعل ستة أجزاء بدلاً من خمسة، وإن ما عرضه الجنرال ليس هو الهدف الذي يسعى إليه الثوار الأحرار، والثوار أيها الجنرال لا يرضون بأقل من الجلاء عن سورية وطنهم، أما المصالح الفرنسية التجارية أو الثقافية فتسوى بمفاوضات.

وثِق أيها الجنرال بأنَّ فرنسا إذا خرجت من سورية وأجريت في سورية انتخابات حرة، فإن سورية تستطيع المحافظة على هذا الاستقلال وإني سأغدو سعيداً جداً حين أكون واحداً من المواطنين لا أكثر ولا أقل.

واتفق أخيرا أن يتصل الجنرال غوبو، بالجنرال دي لاموت في حلب.

ودعا الكولونيل فوان الزعيم هنانو ورفاقه إلى تناول الطعام باسم الجنرال وأصرّ على ذلك، فتناولوا طعام الغداء معاً، وبعد مرور ثلاث ساعات ونصف الساعة غادروا المعسكر، وكان الجنود المراكشيون يقبلون يدَ الزعيم، وكانوا

يسمونه بالسلطان إبراهيم. وقد ملؤوا حقائب الثوار حلوى وأطعمة مختلفة وهدايا.

كما اتفق على هدنة تنتهي في الساعة التاسعة من ٢٠ نيسان ١٩٢١، فإذا لم يتصل أحد بالآخر حتى ذلك الوقت المحدد يعود الطرفان إلى استئناف الحرب.

وانتهت المدة المضروبة دون أن يحدث أي اتصال، واستؤنفت الحرب من جديد، والقى الفرنسيون بثقلهم العسكري كله تدعمهم المدافع الجبلية والدبابات والطائرات.

وراح الجنرال (دي لاموت) يرسل الإمدادات والجنود تباعاً، فلا يكاد سيل الأسلحة والذخائر والأقوات ينقطع، بينما كان الثوار يفقدون كل يوم عشرات الشهداء، وأقواتهم وعتادهم في تناقص مستمر.

وأرسل الزعيم هنانو السيد نجيب عويّد إلى حماة للحصول على الذخيرة، فلم يستطع أن يصل إلى المدينة المجاهدة غير أنه أخذ هو وجماعته ينسفون الخط الذي يربط حلب بحماة وحمص في مواقع عدة.

ونقض الأتراك الاتفاقية التي أبرمها الزعيم هنانو معهم لتزويد الثوار بالأسلحة والعتاد، وساد سوء التفاهم بين الجارين، بين الثورة العربية في الشمال وبين الأتراك.

وشحت الذخيرة لدرجة مخيفة فانسحب الثوار من بعض قرى الجبل، جبل الزاوية وأخذوا يمارسون حرب العصابات في نطاق ضيق حتى لا تنفد الذخيرة، فيحل بهم الوهن والعجز، وصاروا يقومون بأعمال التعجيز ومفاجأة العدو وإرباكه وإقلاق راحته وأمنه، وتدمير وسائل التموين والمواصلات.

واتصل الزعيم هنانو بأمير الأردن عبد الله بن الحسين فوعده خيرا وأنه على استعداد لمؤازرته متى تيسرت الظروف المناسبة

وسددت ضربة اليمة إلى الثورة في الثامن من تموز ١٩٢١ حين وقّعت تركيا معاهدة مع فرنسا، وساد الصلح بين الطرفين فوجهت فرنسا كل القوات التي كانت في مناوشات دائمة مع الأتراك إلى مناطق الثورة في جبل الزاوية، واشتد الضغط على الثوار، وعظم الخطب، وتساقط الشهداء على أرض المعارك الدائرة بين الطرفين غير المتكافئين لا في السلاح ولا في العدد.

وأصبح من المتعذر استمرار الثورة على هذا النحو، ولكن الثوار ظلوا يكافحون.

ولجأ الاستعمار إلى أسلوبه الماكر فأعلن العفو العام عن كل من يستسلم إلى السلطات، هنا لجأ الثوار إلى الزعيم هنانو، وقد تخلى الصديق ونفذت الذخيرة، وتضاعف عدد أفراد الجيش الفرنسي بما انضم إليه من مرتزقة، وأعلموه بما أعلنه الفرنسيون من أمر العفو العام.

وهنا أمر هنانو بعقد مجلس ثوري عام، وفيه شرح الزعيم للثوار وضع الثورة، وتبادل وإياهم الرأي في أفضل الطرق التي يمكنهم سلوكها، واستقر الرأي أخيراً على أن تتجه فئة من الثوار إلى الأردن وعلى رأسها الزعيم هنانو، وفئة تتجه إلى تركيا وعلى رأسها الثائر الكبير نجيب عويّد بناءً على دعوة من الحاج فاتح المرعشي، والآخرون لهم الخيار فيما يفعلونه فإن شاؤوا استسلموا استجابة لوعد فرنسا بالعفو العام وإن شاؤوا مارسوا حروب العصابات في نطاق ضيق، كما يحلو لهم، وحسب الظروف المواتية.

وكان الوداع مؤثرا بين الأبطال الأشاوس، وغادر الزعيم هنانو يرافقه اربعون ثائرا على رأسهم إبراهيم الشغوري، والمستشار الإداري عمر زكي الأفيوني، والمقدم الركن خالد، مظهر السباعي، ومحمود الصيداوي وخليل البيروتي والكابتن البلغاري الذي التحق بالثورة مع عشرة من جنوده البلغاريين والنمساويين الذين هربوا من الفرقة الأجنبية الفرنسية واشتركوا في جميع المعارك التي خاضها الثوار ضد الفرنسيين، وراسم سلطان، وصبحي اللاذقاني وحقي هنانو شقيق الزعيم هنانو يرافقهم كدليل الثائر الكبير هزّاع أيوب.

وأما الفئة الثانية فقد قادها الثائر البطل نجيب عويّد ومضت إلى تركيا وفيها الشيخ يوسف السعدون، ومصطفى الحاج حسين، وعقيل السقاطي، وعمر البيطار، وعمر علوش، وعمر نفوس وغيرهم.

وتفرقت الفئة الثالثة، فمن أفرادها من جنحوا إلى السلم ولكنهم لم يتخلوا عن تصميمهم على افتداء وطنهم بالدماء والمال متى وجدوا السلاح الذي هم في أشد الحاجة إليه.

الزعيم البطل هنانو في طريقه إلى الأردن

وفي ليلة ١٢ تموز ١٩٢١ انطلق هنانو نحو المعرة، وفي الطريق التقى مع جماعته بشرذمة من الفرنسيين، فنشبت معركة قصيرة اندحر على أثرها الفرنسيون، ومضى الثوار قاصدين حماة، ثم اتجهوا نحو البادية، حتى يضللوا السلطة الفرنسية التي كانت في طلبهم. وقد اتصل الفرنسيون بأعراب البادية عند جبل الشعرة وأوحوا إليهم أن هنانو يحمل أموالاً طائلة معه وطلبوا منهم أن يهاجموه ويقضوا عليه وعلى من معه، ولهم أن يأخذوا لأنفسهم كل ما يحصلون عليه منهم من مال وخيل وغير ذلك.

وصدّق هؤلاء الجهلة ما قاله لهم الفرنسيون فراحوا يتعقبون الزعيم.

وفي الطريق كان بعض الشرفاء من المواطنين يؤون الجماعة ويقدمون لهم الطعام، وفي مرة قدم إليهم طعام فيه سمك، فمدّ طارق ابن الزعيم هنانو وكان عمره (١٢) سنة يده إلى قطعة من السمك يريد أن يأكلها فنهره أبوه الذي باع أملاكه لينفق منها على نفسه وعلى الثورة، نهره وحين خوطب في ذلك قال: أريد أن يأكل من البصل والخبز الموجود على المائدة فإنني لأخشى ألا يتمكنوا من الحصول حتى على البصل والخبز.

وظلّ ولداه (طارق ونباهة) معه طيلة حروبه خوفاً عليهما من أن يغتالهما الفرنسيون أو يكلفوا بذلك الخونة من أذنابهم الذين لا يتورعون عن ارتكاب مثل هذه الجرائم ثم دفع بولديه إلى أخيه عقيل هنانو ومضى مع رفاقه.

وفي ١٤ تموز ١٩٢١ داهمه الأعراب في موقع اسمه مكسر الحصان قرب جبل البلعاس ونشبت بينهما معركة دامية وضارية، وسد الأعراب الطرق على الزعيم وجماعته، وكثر عدد القتلى من الطرفين.

وظلت المعركة دائرة بضراوتها وقسوتها، فقتل الضابط البلغاري مع رفاقه الذين انضموا إلى الثورة جميعاً وقتل عدد كبير من مرافقي الزعيم، ومنهم من ضل سبيله فأمعن في البادية.

وبقي الزعيم يدافع عن نفسه، ثم وجد أنه لا مفرّ من الانسحاب من المعركة إذ لم يبق معه سوى الثائرين البطلين خيرو اللاذقاني وهزّاع أيوب.

ووقع عدد من الثائرين أسرى في أيدي الأعراب الذين دفعوا بهم إلى الفرنسيين.

وصل الزعيم الشجاع الصابر الصامد إلى حمص ولأول مرة في حياته تنتابه الحيرة، فقد أبلغه أحد مرافقيه أنه سمع من بعض الحمصيين أن السلطة تبحث عنه جادة في حمص، فمال إلى شارع ثانوي فشاهد عجوزاً فسألها أن تؤويه، فهو ثائر ومطارد، فرحّبت به وأدخلته منزلها وأذن لمرافقيه بالعودة إذا شاؤوا.

أعدت المرأة ثياباً تنكرية للزعيم الوفي لأمته وبلاده، وكلفت ابنها بمرافقته حتى دمشق.

وصل الزعيم إلى دمشق، ولم يستطع الاتصال بأحد، لأن السلطة كانت قد بثت أعوانها في كل مكان، فآثر الانطلاق إلى جبل العرب علّه يجد في عرين سلطان باشا الأطرش الحماية، ولم يكن قد أعلن الثورة بعد، ما يدفع عنه أذى المطاردين الذين غدوا في كل شعبة من كل جبل وفي كل منعطف طريق.

وبعد أيام ترك الزعيم هنانو جبل العرب ميمماً وجهه شطر عمّان مؤملاً أن يجد عند أمير الأردن العون والأمن، وحين وصل إلى الأردن وقابل الأمير عبد الله أمير الأردن، شرح للأمير أحوال الثوار وما هم في حاجة إليه من عون

وذخيرة وأسلحة، ورجاه أن ينجد الثورة قبل أن يدرك الثائرين اليأس، وقبل أن يرموا سلاحهم ويصبحوا تحت رحمة الفرنسيين المتعطشين إلى الدماء.

كما عرض على الأمير أن يوافق على توحيد الجهود الثورية فقد يصبح في الإمكان إزاحة كابوس الاستعمار عن البلاد العربية كلها.

واتصل الزعيم هنانو وهو في عمّان بالقادة الثوريين العرب، ثم لبث فترة للاستجمام وللاتصال بالسياسيين الآخرين من مختلف النحل، ولكن لم يكن يجد من السياسيين إلا التمويه والخذلان.

وحين لم يجد أذناً صاغية أرسل من يأتيه بولديه، وفي يوم ١٤ آب ١٩٢١ ذهب إلى القدس على الرغم من أن إخوانه في عمان نصحوه بألا يفارقهم، والتقى في القدس بالعربي الكبير الشهيد رشيد طليع الذي كان والياً على حلب فتلازما، ورغب رشيد إلى الزعيم أن يقصر مكثه في القدس، ثم التقيا بالسيد رياض الصلح، وراحوا يحاولون إقناع الزعيم هنانو بالعودة إلى عمّان.

ولكن السلطة البريطانية كانت أسبق إليه، فانقضت عليه شرطتها واعتقلته بطلب من حكومة الجنرال غورو حاكم سورية الفرنسي الاستعماري آنذاك.

وشاءت الحكومة التي كان على رأسها الجنرال غورو أن تسِمَ ثورة هنانو بالجريمة العادية، والعدالة تقضي ألا يسلم الزعيم إلى الفرنسيين لأنه ثائر سياسي، ولكن الاستعمار البريطاني الغادر يفعل ما يحلو له من الإجرام، متى شاء.

وحزن الناس كل الناس لما حلّ بالزعيم العظيم وأحاطوه في سجنه بعطفهم ورعايتهم.

واستعد الزعيم للدفاع عن نفسه أمام المجلس العسكري الفرنسي الذي تولى محاكمته، فكان هنانو بطلاً في حروبه كما كان بطلاً خلال مقارعته المجلس العسكري الذي يحاكمه لأنّ الزعيم كان مؤمناً بوطنه وأمته بعد إيمانه بالله تعالى.

لقد أوضح للمجلس العسكري أن فرنسا هي الجائرة، وأنها هي المعتدية والمغتصبة، وأن من حق أبناء البلاد أن يثوروا ضدها دفاعا عن كرامتهم واستقلالهم، وصوناً لحريتهم.

وحين قال له رئيس المجلس العسكري أن الشعب لم يطلب منه إعلان الثورة أو ما يشبه ذلك انبرى جمهور من الذين شهدوا محاكمة الزعيم وعلى رأسهم السيد سعد الله الجابري معلنين: ((إننا نحن الذين طلبنا من الزعيم الكبير مقاتلتكم ونحن لن نتخلى عن مقاتلتكم ما دام فينا وطني واحد حتى تخرجوا من بلادنا)).

وقال الزعيم مضيفاً في صيغة سؤال: لقد طلبت من الجنرال غوبو أن تستفتوا الشعب استفتاء حراً ليقرر الشعب مصيره بنفسه فلماذا لم تفعلوا ذلك؟ أنكم كنتم تدركون تماماً أن الشعب سيرفضكم، وسيطالب بالحفاظ على استقلاله، إنكم أغراب عن هذا البلد، معتدون ولا حق للمعتدي الغاصب في أن يحاكم الأبرياء.

وعمد محامي الزعيم السيد فتح الله الصقال إلى تفنيد التهم التي وجهها المجلس العسكري إلى الزعيم فنقضها واحدة واحدة، واستعرض حوادث من الثورة الفرنسية، وناشد المجلس العسكري أن يلتزم بالتقاليد الثورية التي تقضي بتكريم الثوار، واحترام أهدافهم المثلى، وأوضح ببيان رائع أن ثورة هنانو هي ثورة شعب، وهو إنما كان يعبر عن تطلعات الشعب العربي السوري في الدفاع عن نفسه وعزته واستقلاله، وأن ثورة الزعيم هنانو كانت سياسية الأغراض والأهداف.

ولم تجد المحكمة مناصاً من تبرئة ساحة الزعيم العظيم، فأطلقت سراحه ليبدأ نضالا سياسياً أشد ضراوة وأقسى مرارة.

محاكمة الزعيم هنانو

٩

القى الانكليز القبض على الزعيم هنانو في القدس - كما قدمنا - وسلموه إلى السلطة الفرنسية، خلافاً لكل القواعد القانونية الدولية، لأن المستعمرين المجرمين لا يعترفون على قانون إلا ما يوطّد استعمارهم ويضمن لهم منافعهم الذاتية في نهب الشعوب وقتلها وإذلالها.

يقول السيد فتح الله صقال المحامي الحلبي الكبير الذي تولى الدفاع عن الزعيم هنانو أمام المحكمة العسكرية الفرنسية في حلب:

في أوائل شهر تموز ١٩٢١ نشرت الجرائد السورية خبراً مفاده أن اتفاقاً عقد بين المفوض السامي في سورية ولبنان وبين المفوض الانكليزي في فلسطين بشأن تبادل المجرمين في كل من البلدين.

ولم تمض بضعة أيام على هذا الاتفاق حتى أذاعت الجرائد نفسها أن السلطة البريطانية في فلسطين قد القت القبض على إبراهيم هنانو، وسلمته إلى السلطة الفرنسية، وكان هنانو قد لجأ إلى الأراضي الفلسطينية هرباً من الفرنسيين الذين بثوا عليه العيون والأرصاد في كل مكان.

وفي منتصف شهر آب ١٩٢١ شاع في أربعة أطراف المدينة (حلب) أن إبراهيم هنانو وصل إلى حلب موقوفاً، وأودع السجن العسكري، وكان يومئذ في الخان المعروف بخان (استنبول).

وفي صباح اليوم الرابع والعشرين من شهر أيلول عام ١٩٢١ وردت إليَّ تذكرة بإنشاء النائب العام العسكري الفرنسي، وفيها أنه يسمح لي بمقابلة المتهم إبراهيم هنانو بصفتي وكيلاً عنه.

فاستغربت وصول هذه التذكرة إليّ، لأنه لم يفاتحني بهذا أحد، ولأنني لم أعرض نفسي على أحد، ولا غرو فإن مبدئي الشخصي، والتقاليد المرعية في مهنة المحاماة تحول دون السعي وراء أي توكيل مباشرة كان ذلك أو بالواسطة.

ومهما كان من أمر فقد رأيت أن أتوجه إلى السجن لأتحرى الأمر بنفسي.

ولما قادني مدير السجن إلى غرفة إبراهيم هنانو وكانت صغيرة، وقد وضع فيها وحده بادرني بقوله:

أأنت الأستاذ فتح الله؟ فأجبته: نعم، فقال: نعم الاسم، ولقد اخترتك وكيلاً عني، بعد أن اختارك النائب العام.

فقلت له أشكر لك ثقتك بي، ولكن لم أفهم لتوكيل النائب العام معنى، وهو الخصم الأكبر في قضيتك.

فابتسم هنانو وقال: لقد عَرَضَ عليّ كثيرون من زملائك أن يدافعوا عني، فاحترت في أمري، وفجأة خطر لي أن أستحلف النائب العام بشرفه العسكري، أن يدلني على المحامي الذي يختاره هو، فيما لو كان متهما مثلي، وقد رفض النائب العام في بادئ الأمر أن يجيب على سؤالي هذا، ولكنه ما لبث أن أسر في أذني أنه لو كان متهماً لاختارك أنت للدفاع عنه.

فشعرت فوراً بأنني أمام رجل، ذكي القلب، صلب العقيدة، قوي الإرادة، وكانت عيناه تشعان بنور غريب، وتكادان تقدحان شرراً.

بعد أن تم التعارف بيننا على هذا الشكل المبتكر بقيت بقربه ساعتين كاملتين، قصّ عليّ خلالهما قصة كفاحه العنيف، ونضاله في سبيل أمته وبلاده.

ثم صعدت إلى مكتب النائب العام، فشكرت له ثقته بي، وتمنيت الا يقع يوماً في قبضة القضاء العسكري لكيلا أضطر إلى الدفاع عنه، فضحك طويلاً،

ثم قال لي بلهجة رزينة صادقة: سنكون خصمين شريفين لأنني سأقوم بما يفرضه عليّ الواجب، وستقوم أنت بواجبك نحو موكلك، واحد مواطنيك، وإذا وفّقك الله وانتصرت عليّ فسأكون أول من يهنئك، ها أنا أضع الآن بين يديك ملف الدعوى لتطالعه، وتلم بما يتضمنه من وقائع.

بعد أن محصت الأوراق تمحيصاً دقيقاً، اتضح لي جلياً:

١- أن حرباً على الأصول دارت بين الجيش الفرنسي من جهة، وبين هنانو ورجاله من جهة أخرى.

٢- إن هنانو قابل الجنرال (غوبو) قائد الحملة الفرنسية ضد الثورة السورية ليتفق على شروط الهدنة.

٣- أن هدنة عقدت بين الطرفين مرتين متواليتين.

٤- أن الفريقين تبادلا الأسرى.

وبعد دراسة دقيقة عميقة توصلت إلى النتيجة التالية، وهي أنه ليس هناك ما يبرر اعتبار هنانو مجرماً عادياً، حتى ولا يمكن أن يعدّ مجرماً سياسياً، فتبلور رأيي على هذا الشكل، واقتنعت بنظريتي هذه.

زرت إبراهيم هنانو، وكان يترقب مطالعتي القانونية بكثير من الشوق واللهفة.

قلت له ما خلاصته، لا يجوز اعتبارك مجرماً عادياً، ولا مجرماً سياسياً، وهذه النظرية لا تقبل أي ريب، ولا تحتمل أي شك، ولكن هناك أمراً خطيراً، وهو أن حاكمك هو خصمك، والمعروف أن المحاكم العسكرية تتأثر بالعاطفة أكثر مما تتأثر بأحكام القانون.

ولهذا فقد رأيت قبل كل شيء، أن أسعى لدى الجنرال غورو، وكان وقتئذ مفوضاً سامياً للدولة المنتدبة، وقائداً عاماً للجيش الفرنسي، ورئيساً أعلى للقضاء العسكري لأوقف سير تلك الدعوى المحفوفة بالمخاطر.

وعملاً بهذه الخطة، فقد أرسلت إلى الجنرال (ده لاموت) مندوبه في حلب كتاباً مؤرخاً في ٢٣ ت١ ١٩٢١ بينت فيه بإسهاب أن إبراهيم هنانو لا يمكن أن يعتبر مجرماً عادياً حتى ولا مجرماً سياسياً لأسباب جمة منها:

أ. أن هنانو قام بثورته مطالباً بحرية بلاده، والمطالبة بالحرية لا تعدّ جرماً، بل حقاً طبيعياً اعترفت به الدول الكبرى ومنها أميركا بلسان رئيسها (ولسن) الذي اشتهر ببنوده الأربعة عشر.

ب. أن السلطة العسكرية الفرنسية نفسها اعترفت بأن هنانو ورجاله يشكلون طرفاً محارباً.

ت. أن هنانو قابل الجنرال (غوبو) قائد الحملة الفرنسية ضد الثورة السورية ليتفق معه على شروط الهدنة.

ث. أن السلطة الفرنسية اتفقت مع هنانو على تبادل الأسرى..

ثم أشرت إلى أن إلقاء القبض على هنانو في فلسطين، وتسليمه إلى السلطة الفرنسية في سورية مخالف لقواعد القانون الدولي.

ولهذه الأسباب الوجيهة طلبت أن يعاد هنانو إلى فلسطين أو أن يطلق سراحه في الأراضي السورية.

وبتاريخ ١١ ت٢ ١٩٢١ وصلني من الجنرال (ده لاموت) كتاب جاء فيه أن هنانو متهم بجرائم عادية لا بجرائم سياسية، وأنه لا بد من السير في الدعوى وانتظار نتيجة التحقيقات.

وظلت التحقيقات تجري في مجراها الطبيعي مدة ستة شهور. فكان النائب العام العسكري يستمع إلى رهط من الشهود، لإثبات التهم المنسوبة إلى هنانو، وكنا نحن نقدم الشهود تلو الشهود، لنبين أن هنانو لم يقم إلا بعمليات حربية تجيزها الحرب.

ولما اقترب التحقيق من نهايته رأينا أن نعيد الكرة لدى الجنرال (غورو) عسى أن نحول دون إصدار القرار القاضي بإحالة هنانو إلى المحكمة العسكرية.

وبتاريخ ٤ شباط ١٩٢٢بعثت إلى الجنرال (غورو) بواسطة نائبه في حلب الجنرال (رونـّو) الذي حل محل الجنرال (ده لاموت) بكتاب جديد طلبنا فيه أن تطبق على هنانو المادة الخاصة من اتفاقية أنقرة، تلك الاتفاقية التي عقدت بين (فرانكلين بوبون) مندوب الحكومة الفرنسية، والجنرال (أتاتورك) النائب عن الحكومة التركية، والمادة المذكورة أعلنت العفو العام عن جميع الجرائم التي ارتكبت أثناء العمليات الحربية، وقد أثبت بالوثائق الرسمية أن هنانو كان تابعاً من الناحية العسكرية للجيش النظامي التركي، وكان يتلقى منه العتاد والذخائر للقيام بعملياته الحربية.

وبعد أيام استدعاني الجنرال (رونـّو) وأخبرني أن القضية أصبحت بين يدي السلطة القضائية العسكرية وأنه لا بد من انتظار قرارها.

وفي مطلع شهر أيار ١٩٢٢ تبلغنا أن المحاكمة ستبدأ في اليوم الخامس عشر من ذلك الشهر نفسه في دار الحكومة (السراي القديمة) وفي الغرفة المعدة لمحكمة الجنايات الأهلية، وهي غرفة واسعة، فيها منصة عالية يجلس إليها القضاة، وأماكن خاصة للنيابة العامة وللمحامين، وقفص واسع للمتهمين.

ولم يبزغ فجر يوم ١٥ أيار ١٩٢٢ وهو اليوم المعين للمحاكمة حتى اصطف الجنود السنغاليون على جانبي الطريق الممتد بين بناية البريد القديمة إلى مدخل دار الحكومة، فقاعة محكمة الجنايات.

وقد غصت جميع الطرق المؤدية إلى مكان المحاكمة بعشرات الألوف من أبناء الوطن، كما غصت دار العدل بالمتفرجين من حكام ومحامين ومستمعين.

وفي تمام الساعة الثامنة خرجت الهيئة الحاكمة بألبستها الرسمية وسيوفها اللامعة، وكفوفها البيض، وكانت مؤلفة من خمسة أعضاء، برئاسة عقيد (كولونيل) وبعضوية مقدم (قومندان)، ورئيس (كابتن) وملازم أول وملازم ثانٍ، وكانت النيابة العامة ممثلة بالكابتن (أستاك) وهو شاب بهي الطلعة، كريم الأخلاق، ذو صدر رحبٍ، وثقافة عالية.

وقبل انعقاد الجلسة بثمانية أيام بلّغنا النيابة العامة بأننا سنقدم مرافعتين ابتدائيتين تهدفان إلى:

الأولى: عدم صلاحية المحكمة العسكرية في محاكمة هنانو.

والثانية: في حالة رد هذا الدفاع سنبحث عن عدم قانونية تسليم هنانو إلى السلطة العسكرية، وإذا ردت المحكمة هذين الدفاعين واضطررنا إلى الدخول في أساس الدعوى أطلعنا النيابة العامة على أسماء شهود الدفاع.

المرافعة الابتدائية الأولى

بشأن عدم صلاحية المحكمة العسكرية

لما جلس القضاة العسكريون على مقاعدهم ساد القاعة سكوت رهيب، ولأول مرة في تاريخ القضاة في حلب ارتدينا لباس المحامين الخاص، وكنا قد جئنا به من القاهرة، وهو مأخوذ من اللباس الذي يرتديه المحامون الفرنسيون، فأصبحنا عرضة لأنظار الجمهور المحتشد في قاعة المحكمة.

وما لبث رئيس المحكمة أن كلفنا بإلقاء الدفاع الأول فنهضنا وارتجلنا دفاعاً استمر ساعة كاملة.

استهللنا دفاعنا ببعض الفقرات

وخلاصة ما قلناه:

في هذه الساعة الخطيرة التي تتأرجح فيها حياة رجل يجب أن يتلاشى في هذا المكان كل ميلٍ وهوى لأنكم بجلوسكم منذ هنيهة على هذه المنصة قد فقدتم صفتكم العسكرية الفرنسية، ولم تحتفظوا إلا بصفة القضاة الحيادين، فالقضاة لا يمثلون بلادهم فحسب، ولكنهم يمثلون المجتمع بأسره، ذلك المجتمع الذي منحهم سلطة رهيبة تخولهم حتى التصرف بحياة الغير.

عليكم أن تسكتوا جميع الأصوات، ما عدا صوت الضمير، ذلك الصوت يجب أن يسود هنا، لأنه وحده يستطيع أن يحكم بدون حقد ولا وجل.

إن الرجل الماثل أمامكم ليس بالرجل الذي وصفه النائب العام، لأن من يناضل عن حرية بلاده، ومن يسعى إلى هدف سام دون أن يخشى التضحية بحياته وأمواله، ليقينه أنه على حق وسداد، هذا الرجل نفسه لا يستحق أن يلقى به على هذا المقعد.

لقد ناهض هنانو الانتداب الفرنسي، وسيناهض الانتداب البريطاني وكل انتداب أجنبي آخر، لاعتقاده أن الاستقلال الناجز التام يضمن سعادة بلاده، ولاقتناعه بأن سورية جديرة بإدارة شؤون أبنائها بنفسها وإذا كانت قد تخلصت من نير فليس يعني ذلك أن تقع تحت نير ثانٍ.

إن استقلال سورية بجميع أقسامها هو المثل الأعلى الذي توخاه هنانو منذ زمن طويل، وكانت البلاد لا تزال رازحة تحت نير العثمانيين. لقد بذل كلّ ما يستطيع من جهد ليحقق أمينته، ولم يسعَ وحده إلى هذه الأمنية بل عقد في عام ١٩١٣ في مدينة باريس مهد جميع الشعوب المظلومة مؤتمر سوري رفع فيه المؤتمرون أصواتهم مطالبين باستقلال الوطن السوري.

الوطن كلمة يهتز لها كل إنسان لأنها تختلج في أعماق كيانه. الوطن هو الأرض التي ولد فيها المرء وارتبط بها برابطةٍ خفية قوية، هو الأرض التي يثوي تحت أديمها الآباء والأجداد، والتي يرغب كل مواطن في أن يرقد بين طياتها رقاده الأخير.

وإذا كنت قد استحسنت أن ادافع أمامكم عن هنانو فإنه ليسعدني أن أقوم بهذه المهمة في محكمة شعارها العدل والنزاهة والإنصاف.

لقد قدم إليكم هنانو لتحاكموه، وانا اريد أن أسألكم الأن هل لكم الصفة التي تخولكم محاكمة هنانو؟.. وبعبارة أخرى، هل لكم الحق في أن تبتوا بقضيته؟..

وبعد هذه المقدمة قلنا لهم، إن القوانين لم تسن إلا لتطبق، وأن المبادئ القانونية المعمول بها في بلادهم، لا تجيز لهم أن يحاكموا إبراهيم هنانو، لأنه ليس للمحاكم العسكرية حق النظر في قضية كقضيته..

ثم ما لبثنا أن دخلنا في صميم الموضوع، بيّنا لهم أن القانون الفرنسي يمنح المحاكم العسكرية ثلاثة أنواع من الصلاحيات في ثلاث حالات: في وقت السلم، وفي حالة الحرب، وحينما تعلن الأحكام العرفية.

أما في وقت السلم فلا يحاكم أمام المحاكم العسكرية إلا العسكريون على اختلاف درجاتهم ومراتبهم وفقاً للمادة (٥٥) من قانون المحاكمات العسكرية.

وأما في حالة الحرب فإن المادة (٦١) من القانون نفسه، تُعين الأشخاص الخاضعين للمحاكم العسكرية وهم الذين تستخدمهم السلطة العسكرية في مختلف دوائرها.

أما في حالة إعلان الحكم العرفي، فإن المحاكم العسكرية تستأثر بقسم كبير من السلطات الممنوحة للمحاكم المدنية، منها الجرائم التي ترتكب ضد النظام العام وأمن الدولة.

وقد بيّنا أن الشروط المطلوبة في الحالتين الأولى والثانية غير متوفرة في هذه القضية لأن البلاد ليست في حالة حرب من جهة، ولأن هنانو غير مستخدم في إحدى دوائر السلطة العسكرية الفرنسية من جهة أخرى.

بقيت الحالة الثالثة الناشئة عن إعلان الأحكام العرفية، ونحن لا نرى أثراً لذلك الإعلان، ومهما كان من أمر فإن الأحكام العرفية لا يسري مفعولها، إلا إذا أعلنتها السلطات المختصة إعلاناً واضحاً، لا غموض فيه ولا إبهام.

وتأييداً لنظريتنا هذه فقد استندنا إلى آراء علماء القانون، واجتهاد المحاكم الفرنسية نفسها، واستعنّا بالمجلد رقم عشرين من مجموعة (البندكيت) في صفحات: ٧٠٤، ٧١٣، ٧١٤، وقد حملنا المجلد المذكور معنا إلى المحكمة.

وبعد ان دعمنا أقوالنا بتلك الحجج طلبنا إلى المحكمة أن تعلن عدم صلاحيتها في مقاضاة إبراهيم هنانو.

وهنا نهض النائب العام وأجابنا على مطالعتنا بقوله: لقد أعلنت الأحكام العرفية في البلاد السورية عند دخول الجنرال (اللنبي) وأن تلك الأحكام لا تزال سارية المفعول، لأن الجيوش الفرنسية كانت حليفة الجيوش الانكليزية.

وبعد أن اختلت المحكمة نصف ساعة عادت وأعلنت بإجماع الآراء صلاحيتها للنظر في قضية هنانو.

(ولا بُد من الإشارة هنا إلى أنَّ أعضاء المحكمة العسكرية يصوتون بالطريقة السرية فلدى كل عضو حجران مستديران يشبهان حجر (فيش) النرد وقد كتب على أحدهما كلمة (نعم) وعلى الآخر كلمة (لا).

وعندما يطرح رئيس المحكمة على الأعضاء السؤال المدون أمامه:

هل تصلح المحكمة للنظر في هذه الدعوى أم لا؟.. يضع كل عضو في صندوق صغير مقفل حجراً واحداً من ذينك الحجرين، فيفتح الرئيس الصندوق، ويدون نتيجة الاقتراع، فإما أن تأتي الآراء بالإجماع وإما أن تكون بالأكثرية).

المرافعة الابتدائية الثانية

بشأن عدم قانونية إخراج هنانو من فلسطين

ولما طلب إلينا رئيس المحكمة أن نبحث في المرافعة الابتدائية الثانية، بشأن عدم قانونية إخراج هنانو من فلسطين، وقفنا وبيَّنا الأسباب الداعية إلى اعتبار هذا العمل مخالفاً للقواعد المرعية الأجراء في القانون الدولي.

وتناول بحثنا الأمور الثلاثة التالية:

الأمر الأول: يتعلق بالاتفاق المعقود بين المفوض السامي الفرنسي وبين المفوض السامي الانكليزي بشأن تبادل المجرمين، وفي الحقيقة فإن هذا الاتفاق عقد خصيصاً لتسليم إبراهيم هنانو، في حين أن المعاهدات الرامية إلى تسليم المجرمين لا يجوز أن تتم إلا إذا أقرّها المجلس النيابي الفرنسي، وصدّق عليها رئيس الجمهورية، عملاً بالمادة الثامنة من الدستور الفرنسي المؤرخ في ١٦ تموز ١٨٧٥.

ولما كان المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان ليس رئيساً للجمهورية، ولما كان المجلس النيابي الفرنسي لم يقر تلك المعاهدة، فليس للاتفاق المذكور أية قيمة قانونية من الوجهة الدولية.

وقد أشرنا إلى المعاهدات المماثلة التي عقدت بين فرنسا وبين بعض الدول الأجنبية بشأن تبادل المجرمين، منها المعاهدة المعقودة مع انكلترا في ١٤ آب ١٨٧٦، ومع الدانمارك في ٢٨ آذار ١٨٧٧ ومع اسبانيا في ١٤ كانون الأول ١٨٧٧ وجميع هذه المعاهدات عقدت بموجب قوانين صادرة عن المجلس النيابي الفرنسي.

وأما الأمر الثاني فإنه يتعلق بالشخص الذي سُلِّم من دولة إلى دولة أخرى، فإن لهذا الشخص ملء الحق في أن يطعن أمام المحكمة بعدم قانونية تسليمه وفقاً للمبدأ الذي أعلنته مؤسسة القانون الدولي في مؤتمرها المنعقد في باريس عام ١٨٩٤ فقد قالت المؤسسة الآنفة الذكر: يجوز أن يدَّعي المسلَّم بأن قانونية التسليم غير متوفرة وعلى المحكمة أن تتحقق عما إذا كان التسليم قد جرى وفقاً للقوانين المبرمة بين الدولة التي سلمت الشخص وبين الدولة التي تسلمته.

وأما الأمر الثالث فهو أن تسليم المجرمين السياسيين لا يجوز في أي حالٍ من الأحوال، وفقاً للمبادئ المتفق عليها في القانون الدولي، وقد شرحنا بإسهاب الأعمال التي تعتبر جرائم سياسية، منها التمرد على الأنظمة القائمة في الدولة والسعي إلى هدمها بالعنف، ومنها تغيير العهود السياسية واستبدالها بعهود تختلف بالشكل والأساس عن العهود القائمة، ومنها تحريض الجماهير على الثورة للوصول إلى الأهداف المنشودة، ومنها التعدي على الأشخاص القابضين على زمام الحكم، ومنها الاستيلاء على الحكم بطرق غير شرعية.

وقد استشهدنا بآراء علماء التشريع الجنائي ومنهم: أورتولان، وغارو, وبيلو، وقد أجمعوا كلهم على أنه لا يجوز تسليم المجرمين السياسيين الذين يلتجئون إلى دولة أجنبية، هرباً مما ينتظرهم من قصاص في البلاد التي تمردوا عليها، وسعوا لتبديل أنظمتها السياسية أو الاجتماعية.

وقلنا: إننا إذا استعرضنا الأمور المنسوبة إلى إبراهيم هنانو يتضح لنا جلياً أنها لا تتجاوز نطاق الجرائم السياسية، ولكنها تمتُّ بصلة وثيقة إلى الأعمال الحربية التي تجيزها الحروب.

وخلصنا إلى القول: ان تسليم هنانو مخالف للأصول القانونية والدولية المتبعة، وأن الاعتراف بالخطأ الناجم عن هذا التسليم يشرف القضاء الفرنسي الذي كان ولا يزال عاملاً قوياً بارزاً في حقل التشريع المبني على احترام حقوق الإنسان.

واختتمنا مرافعتنا بالفقرة الآتية:

((يتضح لنا من جميع هذه الشروح وما أثبتناه أن هنانو ليس كما تظنون مجرماً، ولكنه سياسي يدافع عن عقيدته الوطنية وعن بلاده.

وينبغي للهيئة الحاكمة أن تبتعد عن هذا الخطأ الفادح الرامي إلى اعتقادها بأن هنانو مجرم وأن تتيقن أن العدالة تفرق جيداً بين المجرم وبين الثائر السياسي الذي يدافع عن أمته وبلاده.

وأنه لمن المشرف دائماً أن ندحض هذا الخطأ وأن نعرف أن الاعتراف بالخطأ فضيلة.

وأن فرنسا التي تدافع عن الحرية تدرك جيداً أن من يعمل لبلاده لا يمكن أن يكون بأي حال من الأحوال من المجرمين، ولكنه ثائر شريف يذود عن مبدأ رفيع وعن غاية مثلى.

وأنني استصرخ ضمائركم ووجدانكم لإدراك ذلك ولكي تقرروا عدم مسؤولية هنانو في الإجرام الذي تنسبونه إليه، وأن تقرروا براءته مما عزي إليه.))

وبعد أن انتهينا من دفاعنا هذا، دخلت الهيئة الحاكمة إلى غرفة المداولات، وما لبثت أن عادت وردّت بأربعة أصوات من خمسة أصوات المرافعة الابتدائية الثانية.

هناك شعرنا بنفحة من الأمل تسري في أعماق روحنا بعد أن كنا ننظر إلى أفق هذه القضية فنراه متلبداً بالغيوم السود.

وكنا نتوق إلى معرفة الضابط الذي تبنى نظريتنا، على أننا ما لبثنا أن عرفناه لأنه حين قدم كاتب الضبط إلى كل من الضباط الخمسة دفتراً وقلم رصاص ليسجلوا ملاحظاتهم على شهادات الشهود العديدين، رأينا الكابتن واسمه (لوكلير) لم يحذ حذو زملائه فاستنتجنا أنه هو الضابط المخالف لزملائه في الحكم.

الدخول في أساس الدعوى

انقضت الجلسة الأولى في إلقاء الدفاعين الابتدائيين، وبجواب النائب العام، والمذاكرة بين أعضاء المحكمة، وبصدور الحكمين المشار إليهما.

ولما عقدت جلسة بعد الظهر، وقف كاتب الضبط وراح يتلو مدة ساعة ونيف لائحة الاتهام، وقد عزي فيها إلى هنانو سبعة أنواع من الجرائم.

ثم ابتدأ الرئيس استجواب هنانو عن كل جريمة من الجرائم المنسوبة إليه.

ويجدر بنا أن نقول هنا أن إبراهيم هنانو كان يمتاز بالنباهة والذكاء، والثقافة والجرأة، وهي صفات سهلت مهمتي كثيراً.

ونثبت بعض ما أجاب به هنانو رئيس المحكمة:

قال له الرئيس: إن القانون الفرنسي يمنحك الحق التام في الدفاع عن نفسك، وها أنت اليوم متهم بالاشتراك مع عصابات الأشقياء، وقد كنت ترأسهم وتدير حملاتهم.

فأجاب هنانو بملء الجرأة: إنني لا أعد مجرماً لأن أمرنا سياسي صرف، وأنا لا أشك بأنكم ستحكمون بالعدل، أما غايتنا من تشكيل العصابات فلم تكن بقصد الفتك والنهب، وإلا لكانت اجتاحت هذه العصابات البلاد، وأتت على ما فيها من الأخضر واليابس، ولقاومنا الشعب وسحقنا سحقاً، فقواتنا إذن مؤلفة من أفراد الشعب صاحب الحق والسلطان.

ومما قاله أيضاً: إنني متهم سياسي فقط، ولو كنت مجرماً عادياً كما تقولون لما فاوضني ممثلكم الجنرال (غوبو) بشأن عقد هدنة ومبادلة

الأسرى، ولما عقدت معي حكومة أنقرة التي تعترفون بها اتفاقاً لأن الحكومتين الفرنسية والتركية أسمى وأجل من أن تتنازلا لمفاوضة مجرم شقي.

وقال أيضاً: ونحن لم نعمد إلى الوسائل الحربية إلا للدفاع عن أنفسنا.

وقال: إنني ثائر سياسي أدافع عن وطني، وقد جاهرت وساجاهر بانني أتبرأ من كل مجرم سفاك.

فقال له الرئيس: إذن أنت تتنصل من المسؤولية.

فأجابه هنانو: إن الرجل الذي قاوم الانتداب الفرنسي لن يتنصل من مسؤولية تعود تبعتها عليه.

ولما سأله الرئيس: من اضطرك إلى أن تحارب.

أجابه هنانو: عندما أهاجَمُ أغدوا مضطراً لأن أدافع عن نفسي.

فقال الرئيس: لو بقيت آمناً مطمئناً في منزلك لما حدث ما حدث ولما وقفت هذا الموقف.

فأجابه هنانو: هذا الاجتهاد خاص ولا يلام المرء على اجتهاده.

ولما قال النائب العام لهنانو: يستدل من كلامك أنك كنت الرئيس المطاع، أجابه على الفور:

في بعض المسائل الثانوية، وبقدر الصلاحية المعطاة لي.

وشاء هنانو أثناء الاستجواب أن يهمس في أذني كلمة، فاعترض النائب العام على ذلك اعتراضاً أحدث بين النيابة والدفاع مشادة عنيفة اضطر معها رئيس المحكمة إلى أن يوقف الجلسة.

وفي الجلسة الثانية التي عقدت في اليوم الثاني بوشر باستماع شهود الإثبات، وكان عددهم يربو على السبعين.

وقد استغرق استماع هؤلاء الشهود أربعة أيام متوالية، حدث خلالها أكثر من جدال عنيف بين النيابة والدفاع في تفنيد الشهادات.

ولما انتهى استماع شهود الإتهام، طلبت أن تستمع المحكمة إلى شهود الدفاع الذين ظلوا يؤدون شهادتهم طيلة جلسة كاملة.

وكان بين شهود الدفاع السادة: فاخر الجابري وسعد الله الجابري، والدكتور عبد الرحمن الكيالي، وشاكر نعمت الشعباني، وأحمد المدرس، والشيخ عبد الوهاب طلس، والشيخ كامل الغزي، وعبد الوهاب ميسر، والأستاذ راشد المرعشي وغيرهم.

وكانت شهاداتهم كلها تؤيد ما يتحلى به إبراهيم هنانو من وطنية صادقة، وتهدف إلى الإشادة بمبادئه العالية وتجرده التام.

ومما حدث من الأمور الطريفة في أثناء استماع شهود الدفاع أن رئيس المحكمة سأل أحمد المدرس عما إذا كان يحب فرنسا فقال له أحمد المدرس: أحبها على قدر الإمكان، فضحك الجمهور ضحكة طويلة عالية أغضبت رئيس المحكمة، واضطرته إلى أن يهدد بإخلاء مقاعد المستمعين.

وفي اليوم السابع من المحاكمة التي كانت تجري في الصباح وبعد الظهر طلب رئيس المحكمة من النائب العام أن يبدأ مطالعته، فنهض وراح يتكلم بقوة وحماسة من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة الثانية عشرة ظهراً.

وختم النائب العام مطالعته بقوله: لو كان لإبراهيم هنانو سبعة رؤوس بعدد جرائمه السبعة لطلبت إعدام رؤوسه السبعة، ولكنه لا يملك إلا رأساً واحداً، ويؤسفني أن أطلب إعدامه ليكون عبرة لغيره، أطلب ذلك بالرغم مما يحويه رأس هنانو من دراية واتزان.

ولما طلب إلينا الرئيس أن نلقي دفاعنا، شعرنا برعشة قوية اهتز لها كياننا، لأننا ندرك خطورة الموقف وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقنا في ذلك اليوم المشهود.

ولا شك في أن كل محام يتولى الدفاع في قضية كبرى تثير اهتمام الرأي العام، وتناط بها حياة زعيم من زعماء الأمة يحس بمثل ما أحسسنا به ساعتئذٍ،

لأنه إما أن يخرج من موقفه الخطير مخذولاً، وإما أن يفوز وينقذ حياة عزيزة غالية، وعندما يكتب له الفوز تمتلئ روحه بنشوة الانتصار، ويشعر بأنه أدى واجبه على ما ينبغي أن يؤديه من أمانة وقدرة ونزاهة قصد.

التهمة الأولى

تشكيل عصابة من الأشقياء

وكانت التهمة الأولى المعزوة إلى هنانو تنحصر في تشكيل عصابة من الأشقياء، وعلى هذه التبعة ارتكزت التهم الباقية.

وترمي التهمة المذكورة إلى أن هناك اتفاقاً جنائياً، تم بين هنانو ورفاقه في الثورة، فرحنا نبين بكثير من الدقة والإيضاح، أن جريمة الاتفاق الجنائي تقوم على ركنين: الأول مادي، وهو الاتفاق على ارتكاب الجناية، والركن الثاني معنوي أي القصد الجنائي، والركنان غير متوفرين في هذه القضية.

ثم بينا أن هنانو كان قائداً لثورة، اعتنق رفاقه مبدأها، ولا بد أن ينجم عن كل ثورة تعديات على الأشخاص والأموال، وكانت حجتنا الكبرى أن هنانو عقد اتفاقاً مع الأتراك الذين وضعوا تحت تصرفه رجالاً وعتاداً، كما يتضح ذلك من كتاب أبرزناه أثناء التحقيقات، وهو كتاب صادر عن القائد العسكري للأعمال الوطنية في سورية وفلسطين.

وقلنا أن التهمة المنسوبة إلى هنانو لا تتفق مع المفاوضات الرسمية التي جرت بينه وبين القواد العسكريين الفرنسيين، منهم الكولونيل (فوان) وقد أخذت لهما صورة أبرزناها أثناء المحاكمة، ومنهم الجنرال (غوبو) الذي كلفه أن يتناول طعام الغداء على مائدته.

وقلنا: لو كان هنانو من الأشقياء كما قال النائب العام لما عقدت معه هدنتان، ولما اتفق معه على تبادل الأسرى، ولما عرض عليه الكولونيل (فوان) أن يبقى رهينة لدى رجال هنانو، ريثما تتم المقابلة بين الجنرال (غوبو) وبين هنانو، وقد كان من نبل أخلاق هنانو، وسعة مروءته أن رفض ما عرض عليه الكولونيل (فوان) قائلاً: أنه واثق من الشرف العسكري الفرنسي.

وقلنا أن إصرار النيابة على ادعائها يدعو إلى اختلال موازين الفهم وضياع موازين الرشد وانهيار صروح المنطق.

وعدنا إلى القول: إنّ هنانو قام بثورته مدفوعاً بعاطفة وطنية نبيلة، تماثل العاطفة التي هزت فرنسا من أقصاها إلى أقصاها، حينما احتلت ألمانيا في حرب ١٩١٤ بعض البلاد الفرنسية، فأبى الفرنسيون أن تداس أرض الوطن، وهبوا يقاتلون ويستبسلون في الكفاح، حتى خرجت فرنسا من القتال مظفرة، بعد أن ضحت بمليونين من شبابها، وبعد أن أمسى كثير من مدنها الزاهرة أطلالا دوارس.

وقلنا أن الوطنية ليست وقفاً على فرنسا وأبنائها، وإنما هي عاطفة طبيعية متغلغلة في أعماق النفوس تشعر بها كل أمة من أمم الأرض ومنها الأمة السورية.

وقلنا: أن هنانو لم يحمل السلاح إلا ليحارب من أجل استقلال بلاده، وأنه لم يحارب فرنسا بالقوة والسلاح إلا لهذا الغرض وحده، فهل هنانو سيء؟ هذا مخالف لروح الحقيقة وأن ما فعلته سورية مشابه لما فعلته فرنسا دفاعاً عن حريتها، لذلك فمن غير المعقول أن تنسب الشقاوة إلى وطني مخلص وشجاع مثل هنانو، وإن فرنسا ما تزال حريصة على حرية مواطنيها، وهي تتسم بإحساس طيب وبعواطف نقية، وإنني أعلن ذلك لأدحض ما نسب إلى موكلي.

التهم الأخرى

وعددها ست

وقد أسندت النيابة العامة العسكرية إلى إبراهيم هنانو ست تهم أخرى تلخص فيما يلي:

١ـ حدث أن مختار قرية (س) وابنه (غ) تجسسا على الثائرين كما ثبت ذلك في وثيقة وجدت في جيب أحد القتلى، في أثناء معركة دارت في القرية المذكورة فأمر القائد نجيب عويّد الذي عينته القيادة العسكرية

التركية بقتلهما رمياً بالرصاص فاعتبرت النيابة أن هنانو مسؤول عن هذا الحادث.

٢- أمر القائد نجيب عويّد نفسه بقتل (أ . ك) وبقطع إحدى أصابع (ع . ك) لثبوت قيامهما بأعمال التجسس فاعتبر هنانو شريكاً في المسؤولية.

٣- نهبت في أثناء إحدى المعارك قرية سرمين دون أن تعرف هوية السالبين.

٤- صادر القائد التركي العسكري (عاصم) بالقرب من قرية تفتناز بعض عربات كانت تنقل مؤناً وخرافاً للجيش الفرنسي.

٥- ادعى مختار قرية (كولي) أن القائد العسكري نجيب عويّد هدّده بقتله وبنسف القرية برمتها إذا ثابر على معاونة الجيش الفرنسي.

٦- قلع الثوار بعض القضبان الحديدية على سكة حديد بيروت حلب للحيلولة دون إرسال الإمدادات إلى الجيش الفرنسي وقد اعتبرت النيابة العامة أن هنانو مسؤول عن جميع هذه الأعمال بصفته متدخلاً تدخلاً فرعياً.

وقد أثبتنا من حيث الوقائع العادية أن إبراهيم هنانو ليس قائداً عسكرياً بل زعيماً سياسياً، وأن هذه الأعمال كلها إنما حدثت بدون علمه، وأنه عندما اطلع عليها استنكرها كل الاستنكار.

ثم تناولنا الموضوع من الوجهة القانونية، وعالجناه من جميع وجوهه، واستشهدنا بآراء أقطاب القانون، وباجتهادات المحاكم، التي تحتم توفر سلسلة من الشروط لتصح تهمة الاشتراك في الجريمة.

واستمرت مرافعتنا أربع ساعات تخللها ربع ساعة فقط للراحة وتهدئة الأعصاب.

وفيما يلي بعض فقرات من ختام مرافعتنا:

ستكون كلمتنا الأخيرة في غاية الإيجاز، نشكر لكم إصغاءكم إلينا طيلة أربع ساعات أبديتم خلالها كثيراً من الحلم والأناة، ولكننا اضطررنا إلى هذه الإطالة قياماً بالواجب المترتب علينا.

وقبل أن يعود صوتنا إلى السكوت نتقدم إليكم برجاء أخير، وهو أن تنسوا لحظة أنكم ضباط فرنسيون، وأن تتجردوا لحظة واحدة من بزتكم العسكرية الأنيقة، وأن تعودوا رجالاً عاديين، وأن تقدروا المسؤولية الثقيلة الملقاة على كواهلكم، وأن تخوضوا إلى أعماق ضمائركم ثم تصدروا قراركم.

واستطردنا قائلين: إن قراركم في هذه الحال لن يكون إلا قرار براءة.

وقلنا: إنكم ستبرئونه، لأن شرف فرنسا يأبى إلا أن يراعي ما قطعته لهنانو من تعهدات صريحة.

إنكم ستبرِّئون هنانو لأنه لم يأت في كفاحه السياسي ضد فرنسا بأي عمل يستحق العقاب ولكنه كافح بكثير من الإباء والإخلاص، إنكم ستبرِّئون هنانو لأن الوطنية ليست جريمة ولأن الوطن السوري ليس كلمة باطلة، وبتبرئته تكونون جديرين بالانتماء إلى ذلك البلد الذي وطّد المبدأين اللذين أعلنتهما الثورة الفرنسية وهما: الحرية والعدالة.

وقلنا لهم أخيراً: باسم العدالة أعيدوا الحرية إلى هنانو.

وبعد أن انتهينا من مرافعتنا قال لنا رئيس المحكمة: تشكر لكم المحكمة دفاعكم عن المتهم هنانو، وتقدر قيامكم بواجبكم على الوجه الأكمل.

ثم سأل هنانو: هل لكم أن تقولوا شيئاً بعد دفاع موكلكم؟.

فأجابه هنانو: إنني أثق بعدالتكم بالرغم من الخصومة القائمة بين بلادكم وبلادي، وإذا كانت فرنسا تتغنى بالحرية والعدالة، كما قال وكيلي العزيز، فإن سورية تنشد الحرية نفسها والعدالة نفسها.

وهنا أعلن رئيس المحكمة ختام المحاكمة ثم دخل ورفاقه القضاة إلى غرفة المذاكرة للتداول في هذه القضية الكبرى ولإعلان القرار النهائي.

وسبق أن قلنا إن المذاكرة في المحاكم العسكرية تصدر بشكل سؤال وجواب، ويكون السؤال على هذا النمط: هل إن فلاناً مذنب في التهمة الموجهة إليه (والسؤال يبين نوع التهمة وظروفها) ومن البديهي أن يكون الجواب إما (نعم) وإما (لا) ثم تفرز الأصوات الخمسة فتصدر البراءة أو يصدر الحكم إما باتفاق الآراء أو بالأكثرية.

وكانت التهم المنسوبة إلى هنانو سبعة جرائم تفرعت ظروفها إلى تسعين سؤالاً طرحت على كل من أعضاء المحكمة وبعد انقضاء ساعتين في غرفة المذاكرة، عادت الهيئة الحاكمة إلى منصة القضاء لتلفظ حكمها، فنهض المستمعون نهضة واحدة، وظل القضاة واقفين وقد خيّم على الجميع جو من الرهبة والخشوع.

وكانت الأنظار كلها متجهة إلى الرئيس الذي بدأ بتلاوة الأسئلة والإجابة عليها بكلمتي (نعم) أو (لا).

وكان السؤال الأول: هل إن هنانو مذنب بتشكيل عصابة من الأشقياء للنهب والسلب؟. فإذا كان الجواب (نعم) كانت أجوبة التسعين سؤالاً (نعم) وإذا كان الجواب (لا) كانت الأجوبة كلها (لا).

وما كاد الرئيس يجيب على السؤال الأول بكلمة (لا) حتى علمت أن البراءة تشمل جميع التهم المنسوبة إلى إبراهيم هنانو.

وهذا هو ما تم في تلك الساعة المهيبة، فكلما طرح الرئيس سؤالاً، كان الجواب (لا) بأكثرية ثلاثة أصوات ضد صوتين.

ولما انتهى الرئيس من تلاوة التسعين سؤالاً، وأعلن البراءة دوّت قاعة المحكمة بالتصفيق الحاد وسرت الهتافات كتيار الكهرباء في أرجاء دار العدل وباحة السراي والشوارع المجاورة مرددةً، فليحي العدل فليحي هنانو، فليحي الأستاذ صقال، فلتحي فرنسا.

وكانت الساعة قد قاربت التاسعة مساءً.

وكانت الجماهير المحتشدة داخل دار الحكومة وخارجها تقدر بثلاثين ألفاً ونيف.

وقد تعذر علينا الخروج من قاعة المحكمة فحملنا الشيخ رضا الرفاعي على ذراعيه القويين، وتمكن من المرور بين الكتل البشرية المتراصة، وأوصلنا النائب العام الذي كان ينتظرنا في سيارته أمام باب سراي الحكومة لنذهب إلى السجن العسكري، ونبلغ هنانو قرار المحكمة.

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن السلطة العسكرية الفرنسية رأت أن تعيد إبراهيم هنانو إلى السجن بعد انتهاء مرافعتنا وقبل صدور الحكم تحاشياً لكلّ حادث مفاجئ يمكن أن يقع.

وبينما أخذت سيارة النائب العام تخترق شارع الخندق لتمر بباب الفرج وتتجه نحو خان اسطنبول، مقر السجن العسكري، كانت الجماهير قد تسللت من حي الفرافرة إلى الخان المذكور فوصلت إليه قبلنا، وراحت تهتف هتافات فهم منها إبراهيم هنانو وهو داخل سجنه أن براءته قد أعلنت.

ولما دخلنا السجن استدعي إبراهيم هنانو إلى غرفة المدير فتقدم إليه النائب العام وصافحه قائلاً: سيطلعك وكيلك على ما كان.

ثم تقدمت وصافحته وبلغته قرار براءته، فضمني إلى صدره، وعانقني ملياً، ثم عاد فصافح النائب العام، وقال له: أرجو يا حضرة النائب العام أن تخبر فخامة الجنرال أن شقيقين يختلفان في المساء، ويتصافحان في الصباح، فليثق الفرنسيون بحسن إخلاصي.

وأطلق سراح هنانو على الفور.

وكانت بانتظارنا على باب السجن عربة ذات حصانين ما كدنا نركبها حتى تدفقت الجماهير كالسيل الجارف فحلت الحصانين وراحت تجر العربة بدلاً منها حتى وصلنا إلى دار هنانو، وكانت يومئذ في حي العقبة في دار السيد محمد السباعي في باب جنين.

وكانت النساء يزغردن على طول الطريق الممتد من السجن إلى الدار التي لم تكن بعيدة عنه، وكانت المئات منهن منتشرات على أسطحة البيوت فشرعن يمطرننا ونحن في عربتنا بماء الزهر وعطر الورد.

وتبعت يوم البراءة أيام مشهودة لبست فيها الشهباء حلل الزينة، ونعمت خلالها بالأفراح والمسرات، وهرعت إليها من البلدان السورية، ومن كثير من الأقضية والضواحي جموع المهنئين، وجماهير الوطنيين، وساروا إلى دار الزعيم إبراهيم هنانو الذي لم يذق للنوم طعماً مدة ثلاثة أيام متوالية.

وفي صبيحة يوم الأحد الذي تلا يوم صدور البراءة جاءت إلى دارنا الكائنة وقتئذٍ في حي التلل أربعون عربة تحمل وجوه القوم وأقطاب الحركة الوطنية يتقدمهم الزعيم إبراهيم هنانو، وما كاد يرى والدتنا العزيزة ترحب به وبصبحه حتى قبَّلَ يدها وصافح الوالد العزيز، وراح يعبر بكلامه العذب البليغ عن شعوره الفياض بما أبديناه في سبيل الدفاع عنه ثم شكر لنا الشيخ رضا الرفاعي، وكان الفدائي الأول بين فدائيي هنانو، باسم الوفد، ما بذلناه من مساع وجهود شاء الله أن تكلل بالنجاح، وأن ينقذ ذلك الزعيم الكريم المحبوب.

وقبل انتهاء الزيارة ناولني الشيخ رضا الرفاعي منديلاً من حرير وقال لي: هذه (صرة عرب) أرسلها إليك الحاج فاتح المرعشي، الصديق الحميم للزعيم هنانو راجياً قبولها فقبلناها شاكرين.

وكان في المنديل ثلاثمئة ليرة من الذهب الوهَّاج.

وفي هذه المناسبة نقول: أن بعض الفضوليين سألونا أكثر من مرة عن الأجرة التي تقاضيناها في هذه القضية، فلم نر بأساً من إشباع فضولهم بهذا الصدد. فحين رغب إبراهيم هنانو في أن نتولى الدفاع عنه عمدنا إلى دراسة ملف القضية، ولما وقفنا على ما نحب أن نقف عليه، سألني هنانو عما أطلبه من أجر للقيام بهذه المهمة.

فقلت له: اتضح لي من مطالعة الأوراق أنك وطني مخلص، دافعت عن كيان هذا الوطن العزيز بعقيدة وإخلاص، والواجب يقضي ألا أتقاضى أجرة،

ولكن هناك ملاحظة لها قيمتها، فإذا خسرنا الدعوى، والأمل في ربحها لا يتجاوز العشرين في المئة أكون قد عرضت نفسي لخسارتين: ادبية ومادية، وأنا محامٍ ناشئ، يتأثر مستقبلي بذلك إلى حدٍ بعيد.

فأجابني: إن ملاحظتك وجيهة، وإنني على استعداد لدفع الأجرة فقل كم تريد؟

فقلت له: يجب أن تتناسب الأجرة مع خطورة الدعوى، ولهذا فإني أقدر أجرتي بألف ليرة ذهبية يدفع نصفها مقدماً، ونصفها الآخر عند تبرئة ساحتك، وفقاً للأصول المتبعة في مهنتنا.

فابتسم هنانو وقال: ثق أنني لا أملك ليرة واحدة مما تطلب، ولكن في استطاعتي أن أتدبر الأمر علماً أن هذا المبلغ باهظ جدا، فهل تقبل بحكم النائب العام الذي اقترح علي اختيارك وكيلاً لي؟ فأجبته: (نعم) إنني أقبل به حكماً.

ولما عرضنا الأمر على النائب العام ابتسم وقال: لقد أصبحت شريكاً في الدفاع فينبغي لي إذن أن نتقاسم الأجرة، ثم قال: الرأي عندي أن تحدد الأجرة بمبلغ ستمئة وخمسين ليرة ذهبية يدفع منها مئة وخمسون سلفاً، وخمسمئة عند إعلان البراءة.

وتم الاتفاق على ذلك فقبضت المبلغ المتفق عليه سلفاً، وحينما تبرع الحاج فاتح المرعشي بثلاثمئة ليرة ذهبية، بعثت إليه بكلمة شكر وأخبرته بأنني أتنازل عن الأجرة الباقية وقدرها مئتا ليرة عثمانية ذهباً.

وأحب أن أختم هذه الذكريات بصفحة بيضاء أسجلها للسلطة العسكرية الفرنسية:

فبعد أن برئ إبراهيم هنانو، رأيت أن أرافقه لمقابلة الجنرال (رونـو) قائد الفرقة الثانية المرابطة في حلب، والرئيس الأعلى للمحكمة العسكرية فبعثت إليه بكتاب طلبت فيه أن يحدد لي موعداً، وقلت له أننا نود أن نعرب له عن شكرنا وامتناننا لما أظهرته المحكمة العسكرية من عدالة وإنصاف.

فكتب إلي الجنرال بخط يده رسالة تعد تحفة ثمينة لما تضمنته من المبادئ السامية، التي كان يتحلى بها بعض كبار قواد الجيش الفرنسي، وفيما يلي تعريبها:

حلب في ٢٦ آذار ١٩٢٢

لحضرة الأستاذ صقال المحامي في حلب

لقد شئتم أن تعلموني في رسالتكم اليوم عن الرغبة التي أبداها السيد إبراهيم هنانو في مقابلتي ليقدم إلي عبارات شكره، بشأن الحكم العادل الذي شمله، وإني أعتقد أنه من المتعذر تلبية هذا الطلب، ولا شك في أنه لن يصعب عليكم أن تُفهموا موكلكم سبب رفضي هذا الذي يدعوني إليه المبدأ، والذي لا يمس شخصه مطلقاً.

نحن معشر الضباط الفرنسيين نجلُّ الأحكام التي تصدرها المحاكم العسكرية كل الإجلال، ونشعر جداً بالحقوق والواجبات المترتبة علينا، عندما يتاح لنا شرف الجلوس على منصة القضاء العسكري، ولذا فلا يمكننا أن نقبل شكراً على أحكام نصدرها بوحي من ضمائرنا.

وإذا جاز لبعض من تثبت إدانتهم من المحكومين أن يظهروا معرفة جميلهم حينما تحكمهم المحكمة العسكرية بالرأفة والرحمة، فلا يصح أن يقدم هذا الشكر في حالة صدور قرار تبرئة كالذي صدر في ٢٥ آذار الجاري.

ولا أرتاب في أنكم ستدركون أنه يتعذر عليَّ بصفتي رئيساً للمحكمة العسكرية التابعة للفرقة الثانية أن أتجاسر وأبلغ الحكام العسكريين الشكر الذي قد يوجه إليَّ.

ولا أرتاب أيضاً يا حضرة الأستاذ في أنكم ستفهمون موكلكم ذلك وأرجو منكم أن تتقبلوا عبارات شعوري الفائق.

الإمضاء رونو

Ronneaux

ويتابع الأستاذ صقال ما كتبه:

ومما لا شك فيه أن هذا الكتاب المملوء بالعواطف النبيلة والاستقامة المثلى يسطر لصاحبه آيات الشرف والفخار.

بقي في هذه الدعوى التاريخية سر أبوح به لأول مرة:

بعد مضي عشرة أيام على صدور براءة الزعيم هنانو فوجئت بزيارة الكابتن (لوكلير) أحد أعضاء المحكمة العسكرية في مكتبي الكائن حينذاك في محلة قسطل الحجارين.

وما كدت أرحب به، حتى بادرني بقوله جئت لأودعك لأنني مسافر في صباح الغد مع رفيقيَّ الملازم الأول والملازم الثاني اللذين كانا معي في محاكمة موكلك إبراهيم هنانو.

قلت: وما الداعي إلى هذا السفر المفاجئ؟

فقال بشيء من الحدة: الداعي إليه أننا برأنا موكلك هنانو، فغضبت علينا السلطة العليا وأوعزت إلينا بالعودة إلى فرنسا بدون تأخير.

ثم استطرد قائلاً: إن قرار البراءة صدر بأكثرية أصواتنا الثلاثة بينما كان صوت الرئيس وصوت المقدم ضدكم دائماً، وإذا كنت ترغب في أن تقف على السر فاعلم أننا حينما اجتمعنا في صباح الجلسة الأولى لتشكيل الهيئة الحاكمة، قال الرئيس ما خلاصته: لقد طالعت أوراق القضية بدقة وإمعان، وتحققت أن المتهم مذنب وأنه ينبغي لنا أن نحكم عليه بالإعدام ليكون عبرة لغيره، فانتفضت عند سماعي هذا الكلام وقلت له أنا لا أقبل ان يؤثر أحد في ضميري، لأنني لم أطلع بعد على ظروف الدعوى فإذا اقتنعت بعد الاستماع إلى الاتهام والدفاع أن الرجل مذنب حكمت عليه، وإلا أعلنت براءته.

ثم قال: ودخلنا الجلسة، واستمعت إلى دفاعكم واقتنعت بأن هنانو ليس مجرماً عادياً، وأنه لا يحق لحكومة فلسطين أن تسلمنا إياه فصوّت معك وحدي، وفي أثناء المحاكمة بذلت كل ما بوسعي ليكون الملازم الأول والملازم الثاني إلى جانبي فوفقني الله وأعلنت براءة موكلك بأكثرية الأصوات.

فقلت له: ما دام في فرنسا رجال مثلك، ومثل رفيقيك فلن يموت العدل في فرنسا.

فأخذ بيدي وهزها هزة طويلة ثم ما لبث أن ودعني وانصرف، وعلى محياه علامات التأثر الشديد.

وهذا هو ما يسمى الحظ.. ولا بدع، فقد كنت متشائماً من نتيجة هذه القضية، ولكن الله شاء عكس ما كنت أتوقع والحظ الذي شمل دعوى إبراهيم هنانو وتحكم في مقدراتها إنما نجم عن جملة بسيطة في حد ذاتها، فاهَ بها رئيس المحكمة، فكان لها رد فعلٍ كبير في نفسٍ كبيرة أبت أن تذعن لرأيٍ مسبق يبديه ضابط متطرف.

الزعيم هنانو

١٠

وإلى هنا ينتهي حديث الأستاذ الصقال عن مجريات محاكمة الزعيم الخالد إبراهيم هنانو والذي أريد أن أقوله إنصافاً للحقيقة هو أن الجنرال رنّو كان مهذباً حقاً وقانونياً ولكنه لم يكن قط إنسانياً، فالرجل النبيل الحر لا يكون استعمارياً، ولذا فإن إطراء رسالته والثناء عليه كما جاء في حديث المحامي الكبير الأستاذ الصقال كان - في رأيي - كرماً لا يستحقه هذا الجنرال الاستعماري، ومع ذلك فلو كان الحكم على الزعيم بالإعدام لما تلكأ هذا الجنرال عن توقيع حكم الموت على رجل وطني لا مثيل له فيما نعلم من الرجال وطنية وإخلاصاً وتضحية وشهامة.

أما النفس البريئة الصافية الكريمة فهي نفس الرجل الخالد هنانو الذي قبِل أن يذهب إلى عدوه فيصافحه ويشكره، إذ أن الزعيم العظيم كان يحسب أن هؤلاء المستعمرين يدركون الشهامة وأخلاق الفرسان التي تأصلت في نفس هذا الرجل العظيم.

هنانو رجل أشبه بالقديسين والأنبياء، يقاتل ويتعذب ويذود عن كرامة وطنه وحريته واستقلاله، وتستطيع السلطة الفرنسية أن تجند ضده من هبّ ودبّ. وجميع عبيد المال وعبيد الجاه، فيصبر ويصابر ويجالد ويقاتل، فإذا وضع سلاحه فترةً كان مرد ذلك إلى أنه يذهب إلى الأردن ليحصل على السلاح، فإذا تنكر له الناس وأولو الأمر ذهب إلى القدس لينطلق منها إلى بلد



مصور مواقع المعارك التي خاضها ثوار هنانو ومن انضم اليه من ثوار الساحل

آخر، يكون فيه أوفر حظاً، فيقع في قبضة الانكليز (حلفائنا وأحباب الكثيرين منا) فيسلمونه إلى أعدائه الفرنسيين.

يالله ويا لإبراهيم هنانو، الأعداء كلهم في الداخل والخارج وفي كل مكان يكشرون عن أنيابهم، ويفغرون أفواههم ليلتهموه وليسحقوه وليدمروه، ولكن هنانو النادر المثال بين أبطال التاريخ جميعاً أقوى من الأطواد وعزيمته أرسخ من الرواسي، فيا لله ويا لهنانو.

وبعد أن نجا الزعيم من حكم الموت المحتم هل لزم بيته وهل ركن إلى الراحة؟ هذا السؤال سنجد جوابه في كفاحه السياسي المرير بعد عام ١٩٢٢ ولما تمض على خروجه من سجنه أيام معدودة.

ولد الزعيم إبراهيم هنانو بن السيد سليمان هنانو في قصبة كفر تخاريم من أعمال قضاء حارم عام ١٨٦٦ ميلادي، وكفر تخاريم كانت ولا تزال معقلاً من معاقل الوطنية الحقة، كان والده مشهوراً بالجرأة والبسالة والرجولة. ولما بلغ سن العشرين التحق بالجيش التركي ليقضي العسكرية الإجبارية، لكنه لم يمض فيها سوى ثلاثة أشهر حتى سمح له أن يتم دراسته، فسافر إلى القسطنطينية (إستانبول) عاصمة الدولة العثمانية لتلقي العلم هناك.

وصل إلى عاصمة الدولة العثمانية فتعرف على المحامي الحلبي حسن رضا الدركزنلي، فساعده الأخير على تعلم اللغة التركية، وأجادها بعد أربعة أشهر، وتقدم بطلب لدخول المدرسة الملكية فرفض طلبه، وأصر إبراهيم على دخول المدرسة وقابل وزير المعارف، وناقشه في هذا الأمر وانتهى النقاش بقبوله في المدرسة.

وخلال الدراسة عرف هنانو بين رفاقه بحبه للحرية ونقمته على الظلم، ثم انتسب إلى حزب الاتحاد والترقي، وكان الحزب سرياً إذ ذاك، فسجن مرتين وهرب في المرة الثانية بثياب أحد الفحامين الذين كانوا يجلبون الفحم إلى السجن.

ونال الشهادة الملكية (وهي اليوم تعادل شهادة الحقوق) وعين مديراً لإحدى نواحي مدينة (بورصة) ثم عين قائمقاماً في ولاية أرضروم في تركيا.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عاد الزعيم إبراهيم إلى سورية، وحين دخل الجيش العربي حلب وعلى رأسه الشريف ناصر، أقبل الزعيم هنانو مع وفدٍ من كفر تخاريم للسلام عليه.

وكلف الشريف ناصر الزعيم هنانو باحتلال أنطاكية، وطرد الأتراك منها ورفع العلم العربي عليها، فدخلها هنانو مع (١٥٠) مقاتلاً من رجاله، وشكل فيها مجلس إدارة وجعل على رأسه السيد صبحي بركات مؤقتاً ثم ارتحل إبراهيم إلى حلب.

ولم تمض أيام حتى دخل الفرنسيون أنطاكية فأنذر هنانو القائد الفرنسي بالخروج من أنطاكية وحينئذ جاءت الأوامر من رضا باشا الركابي رئيس الوزارة السورية يومذاك يوقف مقاومة الفرنسيين في أنطاكية.

وعُين الزعيم قائمقاماً لإدلب ثم مندوباً لحارم في المؤتمر السوري بدمشق وانضم إلى حزب الفتاة الذي كان من أعضائه الملك فيصل بن الحسين.

وعُين الزعيم رئيساً لديوان ولاية حلب، وحين زحف الفرنسيون نحو حلب، أعلن الزعيم الثورة على الفرنسيين، وذهب إلى أنطاكية خفية، فوجد السيد صبحي بركات قد طرح النضال الوطني جانباً فاستمر هنانو حاملاً لواء الثورة المسلحة ثمانية عشر شهراً، ولقد قاتل قتال الأبطال الشرفاء، وصبر وصابر، صبر على جور الاستعمار الظالم وكافح مكائده، وتصدى لعملائه وجواسيسه، وكان في كل حروبه يصطحب معه ولديه طارقاً ونباهة، خوفاً عليهما من عدوان الفرنسيين وعملائهم وأذنابهم ممن لا تضم أفئدتهم إلا الحقد والكراهية للوطن والمواطنين.

وكان مما فعله الفرنسيون أنهم كانوا يدسون للزعيم هنانو نفراً من جنودهم يتظاهرون بالانضمام إلى صف الثوار وهم يقتنصون الفرصة للفتك به، ولكن هنانو لم يكن غافلا فعين ترقب ساحة المعركة وعين ترقب سلامة الثورة. ويد

تحمل المسدس لتطلقه على رؤوس الفرنسيين الظالمين، وهي مستعدة دوماً لقهر المتآمرين الماكرين.

لقد كان هنانو في ثورته العسكرية وفي نضاله السياسي الذي سنتحدث عنه مثالاً للوطني الصادق، والزعيم العظيم، والمجاهد العنيد. قاد الثورة بإخلاص الأنقياء ووفاء الأصفياء، وصبر الأنبياء. لقد كان بطلاً لا يلين لكرب ولا يحجم عن عسير. غالب الاستعمار الماكر حتى تألبت عليه قوى لم يكن ليستطيع دفعها، ولكنه لم يستسلم حتى النهاية.

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مرادها الأجسام

وكان أهم ما فعله الزعيم في شباط ١٩٢٠ أنه ربط بين ثورته وثورة البطل الشيخ صالح العلي في جبال العلويين، وأمدها بالسلاح الذي كان يحصل عليه من تركيا كمعونة أخوية، ثم جرى اللقاء بين القادة الثوريين في قرية (مرعيان) وتوطدت الأواصر بين الثورتين الخالدتين.

غير أن تركيا أخذت تغير خطتها تجاه الثوار، ثم شرعت تنقص كمية المعونة العسكرية، في الوقت الذي كان الفرنسيون يزدادون ضراوة وشراسة، وكان ضباطهم الذين اشتهروا بالحمق يرتكبون من الجرائم ما تقشعر له الأبدان، ليخيفوا الثوار وليخيفوا الشعب، غير أن الثورة كانت حازمة كل الحزم، وأنها حين يجد الجد تلتهم العدو التهاماً، ليس العدو الفرنسي وحده بل أولئك العملاء الذين كانوا يعملون في خدمته.

من هؤلاء أحد رجال الدرك، كان قد كلف مع رفاقه بمصادرة حيوانات النقل من (معارة مصرين) لتستعمل في نقل العتاد إلى الفرنسيين فكان هذا الآثم الجاحد يعامل الممتنعين بصنوف من المهانة، كان ينتف للممتنع شاربه أو يصبغ وجهه بالمداد، إلى غير ذلك من الإهانات وصنوف التعذيب، ولكن الثورة كانت لأمثال هذا المارق بالمرصاد، فلقد هبطت مفرزة من الثوار على رجال الدرك هؤلاء، وأعدمت ذلك الذي كان يهين الأهلين وأطلقت سراح الباقين، بعد أن أخذت عليهم العهد ألا يعودوا إلى خدمة العدو ثانية.

هذا الحزم الذي كان يتصف به الزعيم هنانو جعل الثورة محترمة، مرهوبة الجانب، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ولولا حكمة هنانو وحزمه، وإخلاص الثوار الأبطال لما قامت للثورة في الشمال قائمة.

أما الفرنسيون فكانوا على النقيض في كل شيء، كانوا سفاكين سفلة، لصوصاً أدنياء، ففي المعارك التي خاضها الثوار دفاعاً في كفر تخاريم كان العدو قد أعد ثلاثة جيوش، سيرها في السابع من آذار، كما قدمنا، عام ١٩٢١ وبلغ عدد الجيوش الثلاثة خمسة عشر ألف جندي بعتادهم الوفير، وقاتل الثوار هذه الجيوش حتى آخر خوطوشة، وحين دخل الفرنسيون كفر تخاريم، نهبوا كل ما فيها حتى مفروشات مسجدها الجامع، وقد هدموا دار الثائر الكبير نجيب عويّد وبيوت عدد من الثوار ونهبوها.

هذا كله قد يحدث بين خصوم في حرب ضروس، ولكن الذي لم يألفه المقاتلون الشرفاء هو صفاقة وجه الكولونيل (دي بيوفر) فقد كان جنوده الأنذال يقفون في طريق النسوة وهن في طريقهن لجلب الماء إلى بيوتهن، فيوجهون إليهن كلمات نابية بذيئة، فلما خوطب في ذلك قال ذلك المجرم، وهو يقهقه متضاحكاً، هؤلاء الجنود كالديكة يطيب لهم الصياح حيث يشتهون، وحيث يجدون الدجاجات، فما عليكم إن كنتم تكرهون هذا الذي يحدث إلا أن تأمروا دجاجاتكم فيقبعن في بيوتهن، تفادياً لما قد يحدث.

حقاً أن مثل هذا الفرنسي المجرم هو الذي شوه وجه فرنسا وجعلها منحطة في نظر العرب، ولم تكن كذلك في نظرنا قبل أن نبتلي باستعمارها البغيض.

لقد كان الزعيم قائداً يقظاً في كفاءة نادرة، فعندما كانت المفاوضات تدور بين الكولونيل (فوان) والزعيم هنانو توقع الزعيم أن يغتنم الجنرال (غوبو) هذه الفرصة فيقبل بجيوشه من جهة الروج، ويحتل جبل الزاوية من جهة الغرب مارا بتل النبي أيوب، ولهذا فقد أرسل الزعيم أربعمئة ثائر بقيادة البطل الشيخ يوسف السعدون وإذا بهم يرون طلائع جيش (غوبو) الغادر، فيكمنون له حتى إذا بدأ بالتصعيد في الجبال أصلوه ناراً حامية لا تبقي ولا تذر مما اضطره إلى

تغيير اتجاهه والارتداد إلى الجهة الشرقية الشمالية حيث التحق بوحدة الكولونيل (فوان) المعسكرة بالقرب من قصبة أريحا، ولولا يقظة القائد هنانو لاستطاع (غوبو) أن يقضي على الثورة المسلحة قضاء مبرما منذ ذلك اليوم، فقد كان برفقته سبعة أفواج مدججة بالسلاح الفتاك والعتاد الحربي.

ولقد كان الزعيم العظيم زاهداً في المال بذل كل ما يملكه في سبيل الثورة، عفً النفس، أبياً، كريماً، مضيافاً، ولقد ظن أعداؤه ذات يوم أنه كغيره من الرؤساء ينقادون للمستعمر حين يغدق عليهم الذهب ويمتعهم بالجاه العريض، فحين عرض المستعمر على الزعيم منصب الحاكم رفضه رفضاً قاطعاً، ولم ييئس الجنرال (غوبو) إزاء هذا الرفض فحاول أسلوباً آخر كان المستعمرون قد جربوه مع كثير من الزعماء الثائرين أو المتزعمين ونجح أيما نجاح وهو الذهب.

فعندما انفرط عقد الاجتماع الذي تم بين غوبو والزعيم دعي الجميع إلى مائدة الجنرال (غوبو) كما قدمنا، وعندما هم الزعيم بالانصراف مع رجاله طلب الجنرال مقابلة الزعيم وحده، فذهب هنانو يرافقه الملازم إبراهيم الشغوري أمين سره، وقال غوبو إنه يريد أن يحدث الزعيم في شأن مئات من الخيالة الثائرين اجتازوا مجرى الماء المعتبر حداً فاصلاً للهدنة.

وعند وصول الزعيم أخذه الجنرال بيده وسارا معاً وسار خلفهما - على مبعدة - مرافقاهما، وأخذ الجنرال يتحدث بصوت منخفض وبكلمات متعثرة، فيها وعيد، وفيها عرض أموال طائلة تذهل العقل، فرد عليه هنانو قائلاً: إن عندي من المال ما يكفيني، وأنا لم أثر في وجهكم لمغنم أو طلباً لرفعة أو منصب، لهذا أرجو أن يوفر الجنرال على نفسه هذا العناء، وأظهر رغبته في العودة وعاد إلى حيث ينتظره رفاق الدرب المرير.

وعندما ودع الجنرال (فوان) الزعيم هنانو قال له بالحرف: (إنني سعيد بالتعرف إليك، وسأبقى صديقك ما حييت، وأعترف لك بأن الجنرال كان خشناً في معاملته، جافاً في استقباله ووداعه ولا غرابة في ذلك فهو من

الاستعماريين، ولو كنت مكانك لما أجبتُ إلا بما أجبت به، ولما لقي مني إلا ما لقيه منك من إعراض ونفور، وقد بقي الكولونيل فوان على ولائه وصداقته للزعيم هنانو حتى بعد عودته إلى فرنسا محالاً على التقاعد.

قاد هنانو رجاله عقب لقاء (كورين) باستبسال ضد عشرة آلاف جندي فرنسي فيهم عدد كبير من المتطوعين الخونة، مزودين بأفتك الأسلحة، والذخيرة وافرة والأقوات وفيرة، والثوار ليس لديهم إلا القليل من الذخيرة ولا يطعمون إلا ما يأتيهم به أبناء القرى، جرحاهم ينزفون دماً فلا يجدون طبيباً واحداً أو ممرضاً واحداً يسعفهم، ويبقون في الساحة حتى يلقوا ربهم، وقد يتقاسمون المشط الواحد من الرصاص، إنهم أبطال حقاً بل هم رمز البطولة الخالدة التي تستحق التمجيد والتخليد.

وعند توقيع الاتفاقية بين تركيا وفرنسا، هذه الاتفاقية التي كان ضربة قاسمة لثورة الشمال، تعهدت تركيا لفرنسا أن تمنع السلاح عن الثوار وأن تستدعي فرقة صغيرة تركية كانت قد أرسلتها إلى سورية لمؤازرة الثورة، وأرسلت تركيا العقيد على شفيق على رأس مئة فارس للاعتذار من الزعيم هنانو، وأبلغه أن حكومته ترحب به إذا شاء اللجوء إليها، وأنها تعده بحسن الوفادة وطيب الإقامة في ربوعها، ريثما تتاح الفرص فيعود لإنقاذ بلاده من غاصبيها الفرنسيين.

في هذه الأزمة المؤلمة القاسية ذهب قائد السرية التركية الرئيس بدري ومعه الرئيس عاصم (وقد عرفا أنهما سيعودان إلى تركيا) بسريتهما إلى قرية الصقيلبية المسيحية، فنهبا الأموال والأمتعة والمواشي، والصقيلبية قرية وادعة وهي مؤيدة للثورة، وأهلها وطنيون طيبون، وحين علم الزعيم الكبير بما تمَّ في الصقيلبية وكان في كفر كرمين قرب الأتارب مع أركان حربه وبعض قواته، أقلقه النبأ وأقض مضجعه لأن هذا العمل ألبس الثورة الوطنية الحقة العار الذي لا يتحمله المقاتل الشريف، هنالك أقسم هنانو على تأديب الجناة، واستعادة المنهوبات مهما كان الثمن باهظاً ومهما تحمل في سبيل ذلك من عناء، إذ أن

ثورة الشمال قامت على الصدق والوفاء للوطن والشعب، واعترف لها بذلك الأعداء قبل غيرهم، فكيف يرضى هذا الزعيم الطاهر الأبي أن يلوث وجه الثورة وتسود صفحتها لكي يثرى ضابطان منحرفان على حساب أبناء هذا الشعب، ألا يكفي هذا الشعب ما نكب به من الاستعمار وأذنابه وعملائه حتى يمعن الأصدقاء الذين جاؤوا لمؤازرة الثورة في إيذاء سمعتها وتشويه أهدافها؟

وأمر الزعيم بالانطلاق نحو الصقيلبية لتعقب آثار الضابطين والاقتصاص منهما واستعادة المال المسلوب، وكان عدد الثوار مئة وخمسين فارساً وقبل أن يصلوا إلى القرية التقوا بقطعان الماشية المسروقة يسوقها حراسها فأعادوها إلى أهلها.

وعقد مجلس عسكري برئاسة السيد نجيب عويّد وبعض الضباط وأقر المجلس إعدام الرئيسين عاصم وبدري جزاء ما جنته أيديهما الآثمة.

وفي الخامس من حزيران دخل الثوار قرية (بسليا) وكان الضابط عاصم قد سبقهم إليها فأُتِي به إلى الزعيم، واستجوبه ووبخه على فعلته الشنعاء ثم انتقل الثوار إلى قرية حفسرجة حيث نفذ حكم الإعدام بالرئيس عاصم رمياً بالرصاص في الطريق بين (بسليا وحفسرجة).

ثم صدر الأمر للتوجه إلى قرية مِلس فالتقى الزعيم بالقائد التركي الموفد علي شفيق (أوزدمير) ومعه الرئيس بدري فقبض الثوار على بدري وسجنوه وسجنوا معه جماعته تمهيداً لمحاكمتهم والاقتصاص منهم.

ورغب العقيد علي شفيق أن يُكتفى بإعدام الرئيس عاصم حفاظاً على المشاعر والعلاقات وحسن الجوار وخشية أن يسبب إعدام الرئيس بدري قطيعة كاملة ونفوراً بين الجارتين تركيا وسورية، حينئذ اكتفى الزعيم بإرسال كتاب إلى قيادة الفيلق الثاني التركي بوجوب معاقبة الضابط بدري على ما ارتكبه من جرائم، واسدل الستار على هذه الحادثة الأليمة القاسية.

وقد سبق في الصفحات الماضية شرحنا لما تم بعد فقدان الذخيرة من اضطرار الزعيم إلى إصدار قراره بموافقة زملائه على أن تذهب فئة من

الثوار إلى شرقي الأردن، وعلى رأسها الزعيم هنانو، ومعه مستشاره الإداري السيد عمر زكي والمقدم الركن خالد أحمدوك والملازمين هاشم وإبراهيم الشغوري، ومظهر السباعي ومحمود الصيداوي وخليل البيروتي والرئيس البلغاري الذي التحق بالثورة مع عشرة من جنود الفرقة الأجنبية الفرنسية، وحقي هنانو أخو الزعيم، وراسم سلطان من طرابلس الشام، وصبحي وخيرو اللاذقاني، وبلغ مجموع هذه الفئة الأربعين ثائراً، يرشدهم إلى الطريق الثائر الفذ هزاع أيوب ذلك الثائر الذي دوخ الفرنسيين بأساليبه الغريبة وتنكره العجيب وخفة حركته.

واتجهت الفئة الأخرى إلى تركيا بقيادة الثائر الكبير السيد نجيب عويد، ومعه الثوار القادة الشيخ يوسف السعدون وعقيل السقاطي ومصطفى الحاج حسين والسادة عمر علوش وعمر نفوس، وعمر البيطار، وقد بلغ عددهم خمسين ثائراً.

أما الفئة الثالثة فقد ألقت السلاح مؤقتاً منتظرة الفرصة التي تسمح لها بالعودة إلى الكفاح من جديد لتقوم بواجب الدفاع عن استقلال الوطن وعزته وكرامته.

ومضى الزعيم الخالد نحو الأردن عن طريق البادية الممتدة بين المعرة وصحراء حمص، دون أن يدري ما كان ينتظره من غدر الفرنسيين وأعوانهم.

ولا بد لنا من أن نذكر أن الفرنسيين بعد أن عقدوا معاهدة مع تركيا سحبوا جنودهم إلى داخل سورية وعمدوا إلى فئات من أبناء البلاد فأغروهم بالمال وألفوا منهم فرقاً من المرتزقة لمقاتلة إخوانهم الثوار.

وقد جمع الزعيم هنانو رجاله عند شروعه بالرحيل إلى الأردن، كما قدمنا، ووجه كلامه إلى النقيب البلغاري ورفاقه وأطلعهم على الوضع وعرض عليهم أن يؤمن وصولهم إلى تركيا ليلجؤوا إليها ثم يلتحقوا منها ببلدانهم.

فسأل النقيب البلغاري الزعيم هنانو: هل القائد يريد من سفره إلى عمان أن يترك الكفاح أم يستأنفه في الجنوب؟. فقال الزعيم: لا، بل أريد استئنافه في الجنوب.

فقال النقيب: ولِمَ إذن تريد منا أن نتركك ونغادر ميدان الثورة؟.. هل أرواحنا أرفع من أرواح إخواننا الثوار العرب الذين يجمع بيننا وبينهم عداء المستعمرين؟.. إننا أيها القائد جنود، والجندي لا يترك ميدان القتال إلا صريعاً أو أسيراً، فسر بنا حيث شئت، ما دام هناك قتال، وما دمنا نعتقد أننا نقاتل من أجل حرية إخواننا العرب.

يقول الزعيم العظيم: واصلنا السير حتى أضنى التعب رجالي فطلبت إليهم أن يهجعوا قليلاً، واستأنفنا السير عند الفجر.

غير أن الأعراب الذين دفع بهم الفرنسيون لقتالنا قد أصبحوا على مقربة منا، فاتخذنا أهبتنا ووجدت أرضاً صالحة للمعركة فطلبت إلى القائد خالد أن يسرع بالجماعة إلى تلك الأرض وأن يتحصّن بها، ووقفت مع اربعة من رجالي في وجه كوكبة من الفرسان المرتزقة.

ويواصل الزعيم العظيم حديثه عن تلك الفترة العصيبة قائلاً:

وتشاء المصادفات أن يكون القائد الثوري فوزي القاوقجي، وكان في ذلك الحين ضابطاً في الجيش الفرنسي برتبة نقيب، وهو على رأس قوة من متطوعة البادية في مدينة حماة، فتلقى أمراً من رؤسائه بأن يتجه بقواته إلى الصحراء لمطاردتنا.

سار النقيب فوزي القاوقجي من حماة على رأس جنوده شرقاً، واتصل بقوى البدو الزاحفة لملاحقتنا (وهو يتمنى أن لو كان معي يقاتل إلى جانبي، ولكن لم يئن الأوان بعد).

مرّ فوزي بسلطان الطيار من شيوخ البدو الأوفياء المخلصين لوطنهم، وأطلعه على المهمة التي جاء من أجلها مع جنوده، واتفقا على أن يرسلا رسالة شفوية إليّ، الغاية منها اطلاعي على وضعي في الصحراء وزحف الفرنسيين من جميع المدن السورية لمطاردتي، وإعلامي أني محاط بقوى كبيرة من فرسان المرتزقة والبدو.

ولم أقبل البحث مع رسول السيد فوزي القاوقجي سلطان الطيار في أمر الأخطار المحيطة بي، بل أمرت رجالي أن يستعدوا للرحيل واستئناف السير إلى الجنوب.

وأصبح موقف السيد فوزي القاوقجي دقيقاً فهو يخشى على الزعيم أن تطاله يد الفرنسيين فيسفكون دمه فوراً. وانتظر حتى اطمأن إلى أن الزعيم يغذ السير نحو الجنوب مع جماعته، وقد وجدوا فرصة ينفذون منها نحو هدفهم، ولكنهم وهم في أمس الحاجة إلى الدليل فقدوا دليلهم هزاع أيوب الثائر المعروف فاسقط في أيديهم ولكنهم استمروا في سيرهم نحو الجنوب، وقفل السيد القاوقجي عائداً إلى حماة ليلتحق بالثورة الوطنية فيها مع أخيه في الجهاد السيد البطل سعيد العاص.

وفي ١٤ تموز ١٩٢١ اشتد هجوم المرتزقة على الثوار الذين تناقص عددهم بسبب مقتل بعضهم، كما قتل الرئيس (النقيب) البلغاري وبعض رفاقه البلغاريين والنمساويين الذين كانوا في صفوف الثوار يقاتلون فرنسا الباغية، كما قدمنا، ولم يخجل المرتزقة الذين أضلتهم العمالة وأغراهم بريق الذهب فصبوا نيرانهم بغياً وظلماً على الزعيم الخالد ورفاقه الأبطال، ألا لعنة الله على الاستعمار فهو أصل الشر، وهو الذي يجعل من المواطن خائناً لوطنه، متربصاً بإخوانه وأبناء قومه.

بلغاريون ونمساوين شرفاء يقاتلون فرنسا دفاعاً عن سورية، ومرتزقة سوريون يقتلون هؤلاء الشرفاء خدمة لفرنسا التي جاءت تستعمرهم وتذل قومهم وتنتهك أعراضهم وكرامتهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

يا رب ارحم العرب، يا رب ارحمهم من جشع الجشعين وطمع الطامعين، ارحمهم يا رب ممن يعبد الذهب ولا يعبدك، ارحمهم يا رب ممن لا يقيم وزناً إلا للكسب الحرام ولا يثنيه شيء عن ارتكاب أشنع الأعمال ما دام بريق الذهب يتوهج أمام عينيه الشرهتين، يا رب رفقاً بالعرب.

ولم يبق إلا القليل مع الزعيم كما قدمنا، وقد أمسك الزعيم برشاش، وجعل المقدم الركن خالد أحمدوك والملازم إبراهيم الشغوري يحميان ظهره ممن يأتيه من الخلف، وانضم إليه الثائران صبحي وخيرو اللاذقانيان.

وسقط من المرتزقة عدد من القتلى والجرحى، وقد صح ما توقعه الزعيم فلقد التف المرتزقة من خلف ظهر الزعيم فأصلاهم الثوار برئاسة القائد أحمدوك نيراناً ماحقة.

وبعد فترة عصيبة استطاع المرتزقة أن يبعدوا القائد خالد مع جماعة من الثوار عن المنطقة التي تمركز فيها فبقي الملازم إبراهيم الشغوري وحده يحمي ظهر الزعيم.

واضطرت هذه الفئة القليلة الباقية أن تنضم إلى بعضها وتستعمل القنابل اليدوية لتدفع عنها الهجمات الوحشية المتتالية، وحينئذ أمر الزعيم من بقي معه أن يحملوا وإياه حملة واحدة على نقطة في الطوق المضروب عليهم اختارها لقلة عدد المرتزقة فيها فنجح في كسر الطوق مع مرافقه الملازم إبراهيم الشغوري وثلاثة من الرفاق.

وأصيب جواد الملازم إبراهيم برصاصة فلما حاول أن يستولي على فرس أحد القتلى من المرتزقة وقع أسيراً.

انتهت المعركة والثوار بين قتيل وجريح وأسير، ولم ينج من هذه المعركة الضارية سوى الزعيم الخالد والثائر البطل صبحي اللاذقاني، وحين وصلا إلى جبال البلعاس سقطت فرس صبحي اللاذقاني لشدة الظمأ فأردف الزعيم رفيقه صبحي على ظهر جواده ومضيا يقتاتان بالحشائش حتى التقيا براع دلهما على بئر قريبة.

ولاح لهما عدد من الخيام، فافترقا مؤقتاً على أن يلتقيا في مكان عينه الزعيم ودخل هنانو على شيخ تلك العشيرة وأفهمه أنه أحد رفاق هنانو، وأنهم هزموا مؤقتاً وسوف يستأنفون نضالهم ضد فرنسا، وتوقع أن يجد عند هذا

الشيخ النجدة والحماية والمعونة غير أنه لم يصدق ظنه فقد أمر الشيخ رجاله بحجز هنانو وتقييده تمهيداً لتسليمه للسلطة الفرنسية.

وفكر الزعيم فيما آل إليه أمره وأمر رفاقه، وأنه إذا وقع في أيدي الفرنسيين فسوف تنتهي الثورة في الشمال أو أنه لن يتمكن من الوصول إلى الأردن، فقد كان يعلق أملاً كبيراً على الملك عبد الله بن الحسين أمير الأردن.

خلع الزعيم بندقيته عن كتفه ومنظاره وأخرج ما في جيبه من مالٍ ودفعه كله للشيخ لقاء الإفراج عنه.

تهللت أسارير الشيخ وأطلق سبيل أسيره وهو لا يعرف أنه هنانو.

وخرج هنانو يضرب في الأرض باحثاً عن رفيق السلاح الثائر صبحي اللاذقاني فلم يجده، وسار طويلاً وقد تغيرت ملامحه واسمرت بشرته وطال شعر وجهه.

امتطى جواده الذي لم يفارقه طيلة أيام كفاحه، قاصداً مدينة حمص فدخلها على حين غفلة من أهلها كما قدمنا ووجد عجوزاً تهم أن تدخل بيتها فاستضافها فرحبت به وأكرمته دون أن تعرفه وقدمت لفرسه علفاً، وعندما عاد ابنها من عمله وأراد معرفة اسم الضيف ووجهته نهرته أمه قائلة: لا شأن لنا به وباسمه ووجهته، فهو ضيفنا وكفى.

هكذا يختلف الناس فمنهم اللئيم، ومنهم الكريم، وكل أمة فيها كريم ولئيم، والعرب خير أمة ولكن الاستعمار القذر يفسد الخلق، ويدمر التقاليد.

غير أن الزعيم الخالد قلّ مثيله في الأمم بل لا نظير له في القادة والزعماء، إنه يصبر في البأساء والضراء، ولقد كملت مروءته، والمروءة حلية النفوس، وزينة الرجال، إنه لا يعرف الخور ولا الوهن، لا يرضى بالظلم ولا يطمع في منصب، منصف في الحكم لا يستطيل، ولا يعين قوياً على ضعيف، وتراه دائما في أفضل خلق وأنبل سيرة.

وبعد يومين قضاهما لدى مضيفته العربية من حمص، كلف الزعيم الابن أن يبحث له عن رفيق يمضي معه إلى دمشق، فجاء الابن بأبيه، فرافق الزعيم

إلى دمشق دون أن يعرفه، وحين دخل دمشق ظلَّ متواريا عن الأنظار ثم خرج مع قافلة ذاهبة إلى جبل العرب فحل ضيفا على الزعيم الثوري السيد علي عبيد في جبل العرب الذي لم يكن يعرفه قبل.

وعرّف الزعيم هنانو السيد علي عبيد بنفسه فتعانقا طويلا وقال له: أنت في ضيافتي فوالله لن ينالك الفرنسيون وفي بني معروف قطرة من دماء.

ولكن خبر وجود الزعيم هنانو في الجبل قد شاع وذاع وطلب الفرنسيون تسليمه وحينئذ غادر الزعيم هنانو دار السيد علي عبيد محاطا بحامية على رأسها البطل شلبي عبيد فأوصلوه إلى شرقي الأردن، كما تحدثنا عن ذلك في حينه.

لك الله أيها الزعيم الخالد، فلقد كنت سيد الأبطال، وإن ما لقيته من بعض أبناء قومك لم يكن أقل مما لقيته من أعدائك الفرنسيين، ولكنك صفحت وغفرت، ولم تؤاخذ أحداً بما فعل، وكم حاولوا قتلك والفتك بك، ولكن الله سلـّمك، فالبلاد بحاجة إلى نضالك السياسي، كما كانت في أمس الحاجة إلى كفاحك العسكري.

لم تكن الدنيا تغريه بزخارفها، عظيم الألفة، يكره الشر، يقنع بما أوتي، ولا يرى المال وسيلة للكفاح وكان يؤمن أن أي نفس لن تموت إلا بعد أن تستوفي ساعاتها، وكان يصون نفسه عن كل ما يوجب الاعتذار، ويتحمل من الأهوال مالا تتحمله الجبال، فالأيام تجور وتعدل ولابد من تحمل ما تأتي به الأيام، وكان إذا لقي العدو باشر قتاله بنفسه، فإذا التحم الثوار بالعدو كان الزعيم رابط الجأش، ساكن القلب حاضر اللب، لم يخالطه الدهَش مرةً ولم تأخذه الحيرة.

وكان الزعيم العظيم يشاور في أموره رفاقه الشجعان أمثال نجيب عويّد ومصطفى الحاج حسين وغيرهما كثير، ثم يتّخذ القرار الأمثل ولم يدخله ذعر قط في اية معركة من المعارك أو موقف من المواقف.

الثائر البطل القائد نجيب عويد وإخوانه في تركيا

١١

في الوقت الذي كان فيه الزعيم الشجاع يقاتل المرتزقة قرب جبال البلعاس وهو في طريقه إلى الأردن شرع الفريق الآخر من الثوار بالرحيل إلى تركيا فغادروا البلاد تباعاً وكان آخر من غادرها البطل الثائر الشيخ يوسف السعدون، وذلك في أوائل كانون الأول ١٩٢١.

وانطلق السيد نجيب عويد إلى أنقرة للاتصال بأركان الحكومة التركية كي يكون تواجد الثورة على مقربة من حدود سورية معترفاً به.

ونزل الثوار ضيوفاً على الرجل الشهم الكريم الحاج فاتح المرعشي مع أسرهم ورواحلهم ينفق عليهم من ماله الخاص ومن قرية (البيخر). كان الثوار ينطلقون على دفعات ليهاجموا المخافر الفرنسية ومراكز المرتزقة.

ففي ٢٦ آب ١٩٢٢ دخل الثوار بقيادة عقيل السقاطي سورية ووصلوا إلى قرية العكرة - قضاء أنطاكية - الواقعة على نهر العاصي فالتقوا بدورية من جند السنغال مؤلفة من ستة عشر جندياً يرئسهم ضابط فرنسي فقضوا على الدورية كلها وخسر الثوار ثلاثة شهداء.

ويطيب لي أن أذكر ما جرى للثائر الشهيد الملقب بالجعب، وهو من أبناء جبل الزاوية وثائريه القدماء، فعندما غادر الزعيم هنانو البلاد في تموز ١٩٢١

ألقى هذا الثائر السلاح رغبة بالهدوء والاستقرار، وذات يوم بينما كان في طريقه من قريته ذاهباً إلى أريحا لبيع محاصيله ومعه بعض النسوة من أهله وجيرانه، مروا بالقرب من وحدة عسكرية يقوم جنودها بأداء تمارين عادية، فأخذ الجنود يسمعون الرجل والنساء اللواتي يرافقنه كلمات بذيئة، فارتد الجعب مع النسوة إلى قريته، واستخرج بندقيته من مخبئها وحمل ذخيرته وعاد إلى الموقع الذي شاهد فيه الجنود الفرنسيين والمرتزقة، وكمن وراء صخرة وراح يصليهم ناراً حامية فقتل عدداً منهم ولاذ الباقون بأذيال الفرار. ومضى الجعب فالتحق بفرقة الثائر البطل مصطفى الحاج حسين وظل يقاتل حتى استشهد رحمه الله.

وخلال العمليات الثورية العسكرية، بعد مقتل هذا الثائر، أرسلت السلطة الفرنسية حملة أكثر أفرادها من المرتزقة المحليين، فتصدى لهم فريق من الثوار وأصلوهم نيراناً حامية، فجاءت سرية من إدلب لتعزيز قوى المرتزقة فانتدب لإيقاف تقدمها مقاتل بطل تطوع في جيش الثوار وهو أحمد الألماني الجنسية الذي كان أسيراً في فرنسا، فلما ابتلينا باستعمار الفرنسيين ساقته فرنسا لحربنا فانضم مع جماعته إلى الثوار، لقد كمن هذا البطل للسرية المتفرنسة وتصدى لها بنيران رشاشه وأوقف تقدمها، وحال دون لحاقها برفاقها مدة تزيد على الساعتين، ومن الغريب العجيب أن يجد المرء هذه المفارقات العجيبة الغريبة، فهذا مقاتل آخر غريب عن وطنه ينصر المظلومين والمضطهدين، ويصلي بنيرانه جنود الدولة الاستعمارية، فتصب عليه النيران من قبل المرتزقة من أبناء البلد الذي يضحي بحياته من أجل حريته وحرية أبنائه.

أريدُ حياتَه ويريدُ قتلي عذيرَك من خليلك من إياد

وبينما كان الثوار في شدة قاسية إذ أطبق عليهم المرتزقة من كل مكان، وسدوا عليهم كل الأبواب وإذا بالثائر هزاع أيوب (شيبوب) يظهر وكأن الأرض قد انشقت عنه، فافهمه الثوار حاجتهم إلى ذخيرة فمضى كالبرق الخاطف ليعود حاملا كمية من الرصاص، وفيما كان الثوار يتقاسمون تلك

الكمية من الرصاص دهمتهم حملة من الجيش الفرنسي، ولولا خبرة هزاع ورباطة جأشه لأبيدت هذه الجماعة من الثوار، فبعد صدام خفيف سار هزاع بالثوار في طرق لا يعرفها سواه وأوصلهم إلى الجبل الوسطاني.

الثائر البطل القائد مصطفى الحاج حسين

وسار الثائر القائد مصطفى الحاج حسين مع جماعة من الثوار للبحث عن عتاد في المناطق المجاورة، فاصطدم وهو في قرية (أبين) من قرى إدلب بالمرتزقة، وكانوا يبلغون خمسمئة مرتزق، فقاتلهم مصطفى الحاج حسين، ووجد الحاجة ماسة إلى الانسحاب، فاتجه نحو الحدود التركية، فاجتاز الحدود ليلتقي برفاق السلاح هناك. وقد سقط عدد من الشهداء بينهم الشهيد أحمد الألماني وكنا تحدثنا عنه رحمه الله وأرضاه وجزاه عن هذه الأمة المنكوبة بالأشرار خيراً.

ألا لعنة الله على الاستعمار فهؤلاء أيضاً، هؤلاء المرتزقة هم مواطنون لولا الاستعمار ومكره ودناءته لما تردى هؤلاء في هذه الحمأة الرهيبة، فيا ويل من ينصت إلى صوت عدوه، ويا ويلين لمن يتعاون معه.

العدو عدو ولو اجتمعت الدنيا لتجعله غير ذلك لما استطاعت، أنا لست أحدق على أحد بل كل حقدي ولعناتي أصبها على المستعمرين أياً كانوا، فهم أصل الشر ولولا مكرهم وكيدهم لظل المرتزقة مواطنين كسائر المواطنين، ألا لعن الله الطمع والحمق والجهل، هذه الآفات التي تفتك بالمجتمع فحذار من هذه الآفات الثلاث: الطمع والحمق والجهل.

الاستعمار آفة الآفات وأصل الشرور والأخطار، ولقد ابتلينا به ولا نزال لأن الاستعمار حين خرج من الباب عاد إلينا من النافذة بثياب يهودية ولغة عبرية، ودولة إسرائيلية، فحذار حذار، فالاستعمار، والصهاينة أصل الشر وسائر الآخرين ضحايا، ومما يبعث على الأسى أن عدداً ممن كان يؤازر المستعمرين كانوا يفعلون ذلك نكاية ومنافسة لأقاربهم وأبناء عمهم لا لشيء آخر أبداً، فلا حول ولا قوة إلا بالله، والله حسبنا ونعم الوكيل.

بصّرنا الله بالعواقب ونجانا من المصائب وأبعد عنا الحمق وصبرنا على نوائب الدهر وباعد بيننا وبين أعدائنا فلا أمان لعدو.

كم من أسرة كبيرة انقسمت على نفسها وانحازت كل فئة إلى اتجاه مضاد لاتجاه الفئة الأخرى، لا لشيء معين في أكثر الأحيان، بل نكاية وكيداً، فيا لهول هذه الظاهرة البغيضة المدمرة.

يكون بعض شباب أسرة ما تقدميين يساريين فيهرع أبناء عمهم ليكونوا يمينيين أو في أقصى اليمين، دون تحكيم للعقل ولا استنادٍ إلى الحق والمنطق، وعلى كل حال، حيا الله الثوار فهم الذين رفعوا رؤوس هذا الشعب المكافح الصابر الصامد.

القائد الثائر البطل الشيخ يوسف السعدون

وبقي الشيخ يوسف السعدون بمن معه من المشاة وليس لدى أحدهم أكثر من خمس عشرة خرطوشة فاضطر إلى الاتجاه إلى الغاب في سهل العمق، وفيما هم بجوار الغاب، وكانوا قد حصلوا على بعض الذخيرة، داهمتهم قوة من المرتزقة لا تقل عن الأربعمئة خيال وطوقتهم وهم نيام منهوكي القوى، فدافعوا عن أنفسهم وشقوا طريقهم إلى الغاب حيث تستروا به وغاصوا في مياه الغاب حتى المساء حيث خرجوا إلى اليابسة.

والتقى المرتزقة بمواطن اسمه أحمد العلي كان في طريقه ليوصل جواداً إلى الشيخ يوسف السعدون، وقد عرف هذا الرجل بالمروءة والشجاعة فاستوقفه المرتزقة وعرف بعض أفرادها جواد يوسف السعدون فصادروه وأطلقوا النار على المواطن أحمد العلي فقتلوه، رحمه الله وأرضاه، كما قتلوا أحد أقرباء الشيخ يوسف السعدون إرهاباً لهذا القائد الباسل الذي لا تلين له قناة ولا يوهن له عزم، أمد الله في عمره.

ولم تنقطع هجمات الثوار على المراكز الفرنسية، وأقبل عام ١٩٢٣ فافتتحه الثائر البطل نجيب البيطار بغارة على الفرنسيين، فالتقى بسرية فرنسية قرب مدينة إدلب في قرية تل دينيت فطوقته السرية تطويقاً لم يكن منه فكاك،

فقاتل البطل ورفاقه العشرون قتال الأباة الأبطال وجندلوا برصاصهم عدداً كبيراً من الفرنسيين والمرتزقة ولم يستسلم نجيب، ولا استسلم أحد من جماعته حتى استشهدوا جميعاً، ولم ينج من المعركة أحد سوى الثائر منصور القاق الذي التحق بذويه في قرية سرمين بعد المعركة الدامية فوشى به بعضهم، وتسلق المرتزقة الدار التي هو فيها وقتلوه قبل أن يتمكن من إطلاق النار.

الثوار الأخوة الثلاثة

وخلال هذا العام لم تنقطع غارات الثوار، منها معركة الكتاب في حلب ومعارك أخرى نتابعها مع الثائر المتواضع الكريم السيد طاهر جراب، وهو ابن الحاج بكري جراب من محلة الشيخ أبي بكر في حلب الذي تراه فتبهرك وداعته، إنه على تقدمه في السن ساحر الحديث، لطيف الصوت ليس في صوته صخب العاصفة، ولا قعقعة السلاح ولا هدير التمرد غير أنه يجمع في هذه الوداعة المتواضعة كل الذي ذكرناه بل يزيد.

قاتل تحت لواء الزعيم إبراهيم هنانو هو وأخوه الثائر الأكبر عبد الوهاب جراب وأخوه الآخر بشير جراب، كانت أولى المعارك التي خاضها هذا البطل معركة الكتاب في حلب كما قدمنا، وكان في مخفر الكتاب مفوض في الشرطة عرف بشدة مناهضته للذين كانوا يناهضون الحكم الفرنسي وهم كُثُر، فتقرر ردعه وزجره.

وخلال إحدى ليالي الربيع الحالكة السواد برز أربعة من الثوار على رأسهم السيد طاهر جراب ولقنوا المفوض درساً في وجوب الإخلاص للوطن لا ينساه، وسيق رجال الشرطة إلى غرفة خاصة، بعد أن أخذ الثوار سلاحهم، وقبل الفجر كانت المعركة قد انتهت دون ضحايا سوى واحد من رجال الشرطة.

واختفى الثوار الأربعة وظن الفرنسيون أنهم عادوا إلى تركيا، وفي اليوم الثالث ظهروا فجأة فطوقوا حقلاً فيه جنود مرتزقة يطعمون خيلهم العشب، فصادروا منهم خيلهم وسلاحهم، ولم يطلق الفرنسيون رصاصة واحدة لهول ما

فوجئوا به، وبعد أن قام الثوار بكل ما هو مطلوب منهم انسحبوا إلى قرية السيد فاتح المرعشي داخل الحدود التركية.

والسيد المرعشي شيخ الثوار سيد كريم وثائر نادر المثال، كان ينفق على الثوار من جيبه الخاص، وكان يستضيف في أكثر الأيام عدداً من الثوار يزيد على المئتين، يطعمهم ويسلحهم ويعطيهم كل ما يحتاجون إليه ويجهزهم للقتال تجهيزاً كاملاً.

وفي هذا العام ١٩٢٣ تقدم أحد العسكريين الفرنسيين الكبار إلى قيادته يطلب ندبه لمصادمة الثوار، وهو كفيل بالقضاء عليهم، فأراد الثوار أن يلقنوا هذا المغرور درساً في التواضع، فانطلق جماعة منهم بقيادة السيد الثائر عبد الوهاب جراب وكانوا تسعة مقاتلين بينهم البطل السيد طاهر جراب.

أقام الفرنسيون الذين كانوا يعسكرون في مدينة (الباب) على مقربة من حلب حفلة لهذا المستشار الفرنسي المغرور في موقع (جب الست) الذي لا يبعد عن المدينة أكثر من كيلو متر واحد.

ووضعت مائدة حوت أطايب الطعام، وألذ الخمور، وجلس إليها عدد من الضباط يأكلون ويلهون احتفالاً بالضابط المستشار.

وأقبل الثوار، واقتربوا من الجماعة حتى أصبحوا على بعد مناسب فربطوا خيولهم في البستان المجاور وتركوا عندها مقاتلاً لحراستها.

وكان أول ما فعلوه هو القضاء على الحارس الفرنسي قبل أن يخلع بندقيته عن كتفه حين أحسّ بهم، ووقفوا ينتظرون الأوامر من الثائر المغوار السيد عبد الوهاب جراب.

وتم كل شيء بدقة متناهية.

أطلق الثوار الطلقة الأولى فقضوا بها على الضابط المغرور مع بعض الضباط.

وأطلق الثوار الطلقة الثانية التي حطموا بها المصابيح.

وعاد المجاهدون إلى خيلهم فامتطوها، ومضوا إلى الحدود مارين بقرية (الوقف) دون أن يدخلوها.

وكل ما فعله الفرنسيون بعد ذلك هو أن جاءوا بصاحب البستان الذي ربطت فيه خيول الثوار، فعذبوه وسملوا عينيه. أما مختار قرية (الوقف) فقد عُذب عذاباً أليماً حتى غدا كسيحاً عاجزاً عن الحركة. لم يكن صاحب البستان ولا مختار القرية قد صنعا شيئاً حتى ينالا هذا العذاب غير أن الفرنسيين كانوا ينكلون بالآمنين، غير المقاتلين، لأن ذلك أسهل عليهم، ولأنهم بذلك يدخلون الرعب والهلع في نفوس المواطنين.

وفي هذا العام، انطلقت فئة من الثوار بقيادة الشيخ يوسف السعدون وفيها الثوار السادة: طاهر جراب، وعبد القادر حجار وحميد جاويش، ومصطفى البغدادي إلى حلب فرابطوا في قرية تل شعير ثم انتقلت إلى قرية (كويرث) حيث داهمت قافلة تموين فرنسية واستولت على خيلها ومضت نحو الحدود، وقبل أن تصل إليها اصطدمت بسرية فرنسية فهزموها وغنموا منها بعض العتاد وكروا عائدين إلى تركيا.

ويقول السيد طاهر جراب الثائر المتواضع عن معركة قلعة المضيق:

ذهبنا إلى قلعة المضيق في صيف عام ١٩٢٤ فحاصرنا القلعة وفيها حرس فرنسي من المرتزقة واستولينا على خيلهم وسلاحهم.

وسرنا من قلعة المضيق، وتوغلنا في جبل الزاوية، كنا عشرين مجاهداً، وكان الفرنسيون يتعقبوننا طيلة الليل، فلما أضاء لنا الفجر ما أمامنا من وهاد وجبال، شاهدنا على مرمى بصرنا مخيمات الفرنسيين.

واشتبكنا في معركة مع هؤلاء من الصباح حتى قبيل المغرب، وخلال القتال كانت فتاة عربية تأتينا بماء تحمله على رأسها في (خلقين) تسير تحت وابل من الرصاص، وظلت كذلك تأتينا بالماء حتى استشهدت، فحزنا كثيراً لمصرعها، وكنا كلما حاولنا ردها إلى منزلها في قرية قريبة قالت لنا بإصرار وإيمان: أنتم ثوار ومجاهدون وأنا ثائرة ومجاهدة مثلكم.

واستشهد منا ثمانية من الثوار، وأصبت بثلاث رصاصات في بطني ولم أمت، وبعد مرور بعض الجند الفرنسي بنا انصرفوا، وكان معهم عميل يعمل لحسابهم فشعر بأنني لا أزال حياً، فحمل حجراً كبيراً وقذفني به فحطم ذراعي تحطيماً، ثم لحق بالجنود بعد أن نزع بعض ثيابي، وكانت كلها ندية بما نزف من دمي.

ومر بي بعد ذلك ثلاثة من رجال الدرك السوريين، فقالوا لي: إنك تنزف بشدة، ولا نخالك تبقى حياً، فإذا بقيت فيك حياة إلى الليل جئنا إليك وحملناك إلى حيث تشاء، أما الآن فالفرنسيون يراقبوننا وهذا العميل الذي مر بك سيشي بنا.

وظللت هكذا طريحاً أنزف دماً، وكانت طيور تحوم في الجو باحثة عن القتلى، وقد اشتمت بحواسها أنها ستجد منا مشاعاً لحلوقها، ودافعاً لجوعها فأخذت تحوّم فوقنا، غير أن الشمس كانت قد غابت وراء الأفق.

وأخذ الظلام يزحف من الشرق، فكنت أشعر بالراحة كلما احلولك الظلام.

وشعرت بشبحين يقتربان مني، فرجوت الله أن يكونا منقذيّ، وحين صرت أسمع همسهما اطمأنت نفسي واقترب مني أحدهما وقال: اطمئن أنا عبد الرحمن عيد، وهذا أخي، فحملني عبد الرحمن على ظهره فكان إذا تعب حملني أخوه وهكذا حتى وصلت إلى (احسم) قريتهما، وكان فيها رفيقنا الثائر الشهيد (منصور القاق) وهو من سرمين، فطلب من أحد المواطنين واسمه ناصيف أن ينقلني إلى حلب عن طريق المعرة.

وحين وصلت إلى حلب حملت إلى محلة (المغاير) واقمت عند أحد أبناء هذا الحي.

أرسلت في طلب صديق لنا هو السيد طاهر اليكن، فأتاني بالطبيب السيد نافع السباعي، مدعياً أنني وكيل له في القرية أطلق علي اللصوص النار، فلم يرتَب الطبيب السباعي في أول الأمر وأخذ يعالجني بكل ما لديه من علم وخبرة.

وفي اليوم العاشر من إصابتي جاءني الطبيب السيد السباعي وعلى فمه ابتسامة. ودفع إلي صحيفة وقال: هل قرأتها، قلت: أنا لا أقرأ وقال: إن الفرنسيين يقولون أنهم قتلوك في معركة أخيرة معكم، إذن فلست وكيلاً للسيد طاهر اليكن، وأرغب أن تكتم هذا الأمر، فإن الفرنسيين لا يرحمون الطبيب الذي يعالج ثائراً، إنهم مستعمرون، ولا تلين قلوبهم المتحجرة مهما ادعوا أو كذبوا.

وأضاف السيد الطبيب نافع السباعي ساعتني بك حتى تبرأ تماماً، فاطمئن.

وبعد أيام شعرت بأنني لم أعد بحاجة إلى علاج فاستأذنت صاحب البيت وذهبت إلى حي قارلق، ونزلت دار السيد حسن حمدو الشويحنة ثم أقمت أياماً في قرية شعالة ضيفاً على السيد طاهر اليكن ثم عدت إلى جماعتي لأبدأ قتال الفرنسيين من جديد.

لقد شهدت عدداً لا يحصى من المعارك، وهاأنذا بحمد الله أحمل القلب الذي كان وما يزال يخفق بحب بلادي وأمتي.

عقيل السقاطي ومهاجمة السفيرة

وفي أواخر عام ١٩٢٤ دخل الثائر الشهيد عقيل السقاطي سورية وقام بعدة أعمال بطولية ثم هاجم دار الحكومة المتعاونة مع الفرنسيين في السفيرة قرب حلب فقتل بعض الجنود ثم قفل راجعاً إلى الحدود وقد استشهد ثلاثة من الثوار المغاوير.

وظلت قرية الحاج فاتح المرعشي على الحدود التركية ملتقى الثوار ومأواهم وملاذهم ينفق على الثورة من ماله الخاص، والرجل الكبير من أعظم رجال حلب وقد حوكم الحاج فاتح المرعشي من قبل الفرنسيين الطغاة وحكم عليه بالإعدام ومصادرة أمواله وأملاكه فنزح إلى تركيا في أوائل عام ١٩٢٢. وظل في تركيا الأب الروحي لثورة الشمال يقدم السلاح للثوار ويؤوي عيالهم وأولادهم ويكون عليهم أحن من آبائهم، وحق هذا الرجل العظيم على الوطن كبير بمقدار ما بذل، بل مهما نال من التخليد فلا يوازي ما بذل رضي الله عنه وأرضاه.

الثورة في عام ١٩٢٥
تعود إلى الاشتعال

١٢

أقبل عام ١٩٢٥ يحمل في أحداثه ثورة جبل العرب بزعامة سلطان باشا الأطرش، ولهذا فقد اتصل الزعيم هنانو بالمقاتلين الذين اتخذوا من تركيا مركزاً لانطلاقاتهم، وطلب إليهم أن يعودوا إلى بعث الثورة من جديد في نطاق واسع عوناً لثوار جبل العرب والغوطتين، وليشغلوا بذلك بعض القوات الفرنسية.

غير أن الحكومة التركية كانت قد أمرت الثوار أن يوقفوا نشاطهم ولهذا ذهب وفد يتألف من الحاج فاتح المرعشي، ونجيب عويّد وإحسان الجابري للاتصال بالحكام الأتراك. ذهب الوفد إلى أنقرة، ورحب بهم رجال الدولة التركية وبخاصة المشير فوزي جاقماق رئيس أركان الجيش التركي يومذاك، وسُمح للثوار باستئناف نشاطهم كما جرى تزويدهم بالسلاح والعتاد.

وتألفت حملة من الثوار يقودها الثوار الأبطال الشيخ يوسف السعدون، ومصطفى الحاج حسين يساعدهما عقيل السقاطي.

وفي ١٥ كانون الأول ١٩٢٥ عبرت هذه الفرقة من الثوار الحدود السورية التركية فمرت بمركز عين دلفة في طريقها إلى كفر تخاريم لتنضم إلى الزعيم هنانو إذا وجد الزعيم أن الكفاح السياسي لم يعد يكفي.

وأبلغت الحملة الثورية أن الزعيم بخير وأن تعليماته تقضي باستئناف الكفاح العسكري على أن يظل الكفاح السياسي في شدته وعنفه.

وكان الفرنسيون قد حشدوا قوة تتألف من ثمانمئة مرتزق من مختلف المناطق، هؤلاء المرتزقة كانوا يقبلون على خدمة الاستعمار ضد إخوانهم ومواطنيهم طمعاً في المال الحرام، ونهب المواطنين، دون أن يردعهم ضمير أو يثنيهم عن عملهم الإجرامي وجدان أو شرف، متذرعين بأنهم إنما يسعون وراء لقمة العيش، وهم يدركون تماماً أن هذه اللقمة إنما هي زقوم ونار، ولكن النفس اللئيمة تسيء إلى من أحسن إليها والوطن هو أبو المحسنين، ولكن المرتزقة عاقون لا أشبعهم الله.

الثوار يقاتلون بقيادة الشيخ يوسف السعدون

أحاطت القوة الفرنسية بكفر تخاريم بقصد القضاء على هذه الفئة الكريمة من الثوار، وسدوا عليهم الطرق والمسالك، غير أن القائد الشيخ يوسف السعدون جعل الثوار فئات، وعهد إلى كل فئة بعمل عسكري معين، وخطب فيهم قبل المعركة يذكرهم بحق وطنهم عليهم، وإن الله لا يضيع أجر المجاهدين في سبيل الله وفي سبيل الحرية والكرامة.

ثم انتدبت فرقة الثائر البطل عقيل السقاطي لفك طوق الحصار المضروب، وبدأت معركة ضارية، وأكره عقيل العدو على التقهقر، وكسر الطوق المضروب على المدينة، وجرح القائد مصطفى الحاج حسين فثارت ثائرة المناضلين وقاتلوا مستبسلين لا يعرفون الخوف ولا الوجل، ولا يكاد المرتزقة يقفون في وجوههم حتى يديروا ظهورهم، ويرموا بما معهم من بنادق وذخيرة ليفوزوا بسلامة أرواحهم.

انجلت المعركة عن اندحار المرتزقة وحينئذ وجد الثوار أنه من الخير لهم أن يكونوا فئتين: فئة المشاة: وعلى رأسها الشيخ السعدون تبقى في المناطق الجبلية في حارم والجبل الأعلى. وفئة الفرسان وعلى رأسها السيد عقيل السقاطي (لأن القائد مصطفى الحاج حسين كان قد أصيب بجراح بليغة) وتقرر

أن تتجه الفئة الثانية إلى مناطق السهول فوصلت إلى سهل العمق ثم عبرت العاصي فقضت على الحامية الفرنسية المتمركزة في جسر الحديد على طريق أنطاكية واستولت على المركز وتم ذلك بالطريقة العجيبة التالية:

معركة جسر الحديد

لقد اختار عقيل ثلاثة من أشد رجاله وهم: عمر علوش ومحمد أمين عجوبة وإسماعيل المامات، وألبسهم البزات العسكرية الثلاث التي بحوزته، وكلفهم بالتقدم في وضح النهار وكأنهم من أفراد الحرس المرابط، كما عمد إلى قافلة من الجمالة قاصدة جسر الحديد (ويقع قرب أنطاكية) وأوقف رجالها وترك من يحرسهم وارتدى مع بعض رجاله ألبسة الجمالة وقادوا قافلة الجمال وكأنهم عابري سبيل بعد أن أخفوا أسلحتهم سعياً وراء مؤازرة طليعتهم واحتلال المركز بضربة حاسمة.

وحين ارتاب أحد الحراس بالوافدين همّ بتحذير رفاقه، لكن الثوار كانوا أسبق منه فنشبت معركة قصيرة سقط فيها الفرنسيون وعملاؤهم صرعى، واحتل الثوار المركز والقرية معاً.

ولم يُقِم الثوار في قرية جسر الحديد طويلاً إذ لم يكن الغرض من هذه الحملات القصيرة التغلب على جيوش الاستعمار الجرارة بل كان الغرض إفهام الفرنسيين أننا لن نستسلم، وإن البلاد ستظل ثائرة حتى الجلاء.

ثم انتقلت هذه الفرقة إلى مخفر الحمام، وقضوا على جنوده، وصادروا أسلحتهم ثم قصدوا إدلب فاشتبكوا مع كتيبة من المتطوعين وعندما أقبل الليل انسحبوا وآخرين.

وقفل عقيل راجعاً ليلتحق بالقائد الشيخ يوسف السعدون الذي كان يستقبل أعداداً من الثوار ينضمون إلى من معه من المقاتلين الأشاوس وقد التحمت فرقة منهم مع الجنود الفرنسيين في موقع (عين دلفة) على طريق حلب حارم فجرت معارك ضارية صَرَعَ الثوار نتيجتها عشرات من الفرنسيين في الممرات الجبلية الممتدة قبل وبعد عين دلفة.

معركة مخفر بابترون

حاول الثوار أن يتوجهوا إلى القصير (قصير أنطاكية) لكن أعدادا كبيرة من الفرنسيين والمتطوعة حالت دون ذلك، كما أن الفرنسيين اغرقوا المراكب التي لا بد من استعمالها ليعبر الثوار عليها إلى منطقة القصير.

وعلى الرغم من ذلك فقد صممت القيادة على أن تؤدب رجال مخفر (بابترون) المرتزقة والقضاء عليهم فلطالما شكا الأهلون من شراستهم وشرورهم.

وعلم القائد الشيخ يوسف السعدون أن رجال المخفر علموا بما يبيته الثوار فأخذوا يترصدون الثوار فأرسل القائد شرذمة مع السيد عقيل السقاطي.

مضت الجماعة لتنفيذ مهمتها ولا شك في أن رجال المخفر كانوا ينتظرون مرورها دقيقة بدقيقة، وفي اللحظة التي انطلقت فيها الجماعة كان الشيخ يوسف السعدون قد أسرع ومعه الثائر محمود كركي فهبطا على المخفر فوجدا المرتزقة يقامرون بورق اللعب وقد طرحوا أسلحتهم جانبا، كما أن رفاقهم لم يروا الثوار فعادوا وقد أنذرهم الشيخ يوسف بالاستسلام وإلا تعرضوا للموت المحقق، فاستسلموا صاغرين، وفي اللحظة تلك وصل عقيل ورفاقه وكان كل شيء قد انتهى.

ولا شك في أن هذا الأسلوب في الحروب لم يكن معروفاً غير أن ثوارنا كانوا في الذروة من الذكاء والشجاعة والقوة الذاتية والمعنوية.

معركة بسنقول

ودخل عام ١٩٢٦ والثوار يزدادون قوة وتصميماً على المضي في الكفاح المسلح، ضد دولة تفوقهم عددا وعدة بعشرات الأضعاف، بل بمئات الأضعاف.

وأمر الشيخ يوسف السعدون القائد البطل بالتوجه نحو (بسنقول) من قرى جبل الزاوية. فأقبل الفرنسيون من الجهة المقابلة في ثمانمئة جندي من الفرنسيين والمرتزقة فابتدرهم الثوار قبل أن يأخذوا مراكزهم ويحصنوها ونشبت معركة تشيب الأطفال، وسقط من الفرنسيين عدد كبير من القتلى.

وبعد انتهاء المعركة واندحار الفرنسيين أمر القائد الشيخ يوسف بترك القرية، كما ترك فيها عدداً من الثوار لحماية الانسحاب ولحراسة الجرحى وفيهم القائد الكبير مصطفى الحاج حسين. غير أن الفرنسيين كانت لهم عيون بين الثوار وهذا الأمر لا تخلو منه أية ثورة في العالم، فحين علموا أن أغلبية الثوار قد غادرت القرية أرسلوا اثنين من المرتزقة يستطلعان فقبض عليهما الثوار واستجوبوهما فأقرا بما كلفا به فأعدما جزاء خيانتهما لوطنهما، وعاد الثوار إلى قرية بسنقول وجلوا عنها جنود الاستعمار وفصل بينهم هبوط الظلام غير أن الفرنسيين قد ابتعدوا عن القرية.

وكان للقائد البطل الشيخ يوسف السعدون جواد أصيل فوق سرجه حقيبة فيها سجلات الثوار والكتب السرية المتبادلة بين قادة الثورة وكان قد التحق بالثوار رجل من قرية قريبة فعهد إليه العناية بالقائد الجريح مصطفى الحاج حسين، وحين كان الثوار ملتحمين مع الفرنسيين في معركة بسنقول الثانية، اغتنم هذا الخائن فرصة انشغال الثوار بالقتال، وفر بالجواد وبالأوراق الخاصة فكانت هذه العملية صدمة قاسية لأن الجواد يمكن تعويضه، ولكن الأوراق التي سقطت في يد الفرنسيين لا تقدر قيمتها بثمن من الناحية العسكرية والأمنية.

وعند عودة الثوار من معركة بسنقول ساروا في سهل الروج فحلقت فوقهم طائرتان وألقت عليهم قنابلهما ورصاص رشاشاتهما، فأصيب ثمانية من الثوار بجراح، وقد وقع الجريح الثائر مصطفى أسعد في يد الفرنسيين فأعدموه في حارم رمياً بالرصاص.

مضى الثوار يبحثون عن السلاح والعتاد الذي أضحى نادراً، وقد علموا أن الفرنسيين سلحوا جماعات من الأهلين ليقفوا في وجه الثوار ولذا هاجم الثوار قريتي (باتبو) في جبل سمعان، وحزانو التابعة لأدلب وصادروا بعض الأسلحة.

قصد الثوار قرية (حرنبوش) التابعة لأدلب، وصعدوا الجبل الذي يجاورها، وأقبل الفرنسيون يصعدون الجبل متعقبين آثارهم، فاضطر الثوار إلى

الالتحام بالحملة الفرنسية على الرغم من الفرق الهائل بين الطرفين في العدد والعتاد، فقد كان الثوار سبعين مقاتلاً يقابلهم ألف فرنسي ومرتزق، وكون الثوار جماعات صغيرة على رأس كل منها واحد من السادة: عقيل السقاطي، محمد أمين عجوبة، علي طيفور، عمر نفوس، صبحي اللاذقاني، وجاءت طائرتان فالقتا قنابلهما على الجميع دون تمييز فقد كان الالتحام لا يسمح للطيارين بالتفريق بين الثوار وبين المرتزقة والفرنسيين.

واغتنم الثوار فرصة الفوضى التي حلت بالفرقة الفرنسية المهاجمة واستطاعوا أن يسقطوا إحدى الطائرتين التي سقطت بجوار حلب، واندحر الفرنسيون تاركين ستين قتيلاً عدا الجرحى، وسقط قتيل واحد من الثوار اسمه حسيب.

وخلال شهر كانون الثاني من عام ١٩٢٦ أرسل السيد نجيب عويّد يبلغ الثوار أن الحكومة التركية قررت أن تمنع الثوار من النشاط الثوري المتمركز في حدودها بينها وبين سورية، وهددت بأنها ستسلم أبناء الثوار وزوجاتهم إلى الفرنسيين إن هم استمروا في مناوشة الفرنسيين منطلقين من الحدود التركية.

ولم يفُتَّ هذا النبأ في عضد الثوار، بل زادهم استبسالاً، فالمصائب هي التي تصنع الرجال وتكشف عن معادنهم، وغادر عقيل السقاطي إلى منطقة حارم ومعه عشرون ثائراً، فأوقع بالفرنسيين خسائر فادحة، ثم عاد إلى ريف مدينة إدلب حيث كان الثوار هناك.

معركة كللي

ضغطت الحكومة التركية على السيد نجيب عويّد فأرسل رسالة إلى الشيخ يوسف السعدون يدعوه فيها إلى العودة بمن معه من الثوار على جناح السرعة وإلا فإن الأتراك سينفذون تهديدهم ويسلمون أسر الثوار إلى الفرنسيين.

وقرر الثوار العودة ووصلوا إلى (كللي) ومرت فرقة فرنسية يقودها الكابتن (كانيو)، وهو فرنسي استعماري مجرم، فطوق القرية التي تحمي الثوار، فالتحم به عقيل السقاطي مع جماعته في الوقت الذي كان فيه الشيخ

يوسف السعدون يلف من خلف الجنود الفرنسيين، والتحم بالفرنسيين يصليهم ناراً حامية فسقط (كانيو) برصاصة اخترقت أحشاءه ولكنه لم يمت.

وحين رأى الفرنسيون قائدهم كانيو صريعاً فروا مذعورين وفقد الثوار سبعة شهداء.

معركة كوتي بوبوك

انحدر الثوار إلى سهل العمق وانقسموا إلى فئتين الأولى مشاة بقيادة الشيخ يوسف السعدون، وعددها ستون ثائراً، والثانية فرسان بقيادة عقيل السقاطي وعددها خمسة وستون ثائراً، ومضت كل منهما تتعقب الفرنسيين ومرتزقتهم وتنكل بهم تنكيلاً.

وصل المشاة إلى (كوتي بوبوك) في سهل العمق حيث موعد التقاء الجماعتين قبل وصول الفرسان بقيادة عقيل، وأحاط الفرنسيون بقرية (كوتي بوبوك) للقضاء على الشيخ يوسف ورجاله. وأعد الشيخ يوسف رجاله كل في مكانه، ونشب القتال واستدعى الفرنسيون سلاح الطيران وقذفت الطائرات الثوار بثلاث عشرة قذيفة فأصيب أربعة من الثوار بقذائف الطائرات.

وكان العدو الجبان قد استاق مواشي القرى المجاورة ليتمترس خلفها ولكن المواشي ذعرت من أزيز الرصاص ودمدمته فانقلبت على أعقابها تدوس الجنود، وانكشف هؤلاء وأصلاهم الثوار ناراً حامية دكت صفوفهم وولوا منهزمين بعد أن تركوا على أرض القرية ستين صريعاً.

التحم رجال عقيل في تلك الأثناء مع الفرنسيين في قرية العلاني قرب سلقين، وأسرع عقيل مع من معه لنجدة رجاله المشتبكين مع العدو، غير أن الفرنسيين عادوا على أعقابهم قبل وصول القائد الشجاع.

معركة تل عمار

كانت الذخيرة قد أوشكت على النفاد، وكان كل يوم يمر ينذر الثوار بأنهم لن يستطيعوا الاستمرار في حرب كهذه، وفي هذه الأثناء طلب الفرنسيون من

السيد فوزي هنانو أن يكون وسيطاً بين الثوار وبين السلطة الفرنسية لعقد هدنة قد يليها حل عادل لقضية البلاد، وكان الثوار يرغبون ضمناً في عقد مثل هذه الهدنة ليلتقطوا أنفاسهم، وليحصلوا على ذخيرة تمكنهم من الاستمرار في القتال لذلك وافقوا على التوقيع على هدنة مؤقتة تضمن شروطاً واضحة لا لبس فيها، غير أن الفرنسيين ككل الاستعماريين المجرمين بيتوا الغدر بالثوار، إذ بينما كان الثوار في (تل عمار) و(عزمارين) القريتين المتجاورتين هاجمهم الفرنسيون بألف مقاتل تساندهم الطائرات بقيادة الكابتن (رينو) يساعده بعض الضباط الفرنسيين والمرتزقة.

وحين اطلع الكابتن على الاتفاقية أنكرها ورفض العمل بما جاء فيها، ولم يعترف بها إذ هي لا تحمل توقيعه هو بالذات، كأنما يمثل دولة أخرى، ولكن المستعمرين هكذا سلاحهم الغدر والخسة والخيانة فلم يأت الكابتن (رينو) بشيء جديد لأننا، نحن الذين ابتلينا بالاستعمار، نعرف غدره ومكره ونذالته معرفة تامة.

لم يحجم الثوار عن الالتحام بالعدو الذي استعان بالطيران الذي صبَّ حممه على هذه الفئة الصابرة المؤمنة بوطنها وأمتها. وأسقط الثوار طائرة هوت بين خطي القتال واستطاعوا أن يصلوا إلى ملاحيها وأحرقوها، واشتد القتال فلم يظفر أحد الطرفين بالآخر، فلما أقبل الليل انسحب كل من الفريقين بعيداً عن الآخر، وكان قتلى الفرنسيين ضابطاً برتبة ملازم وستة وعشرين من الجنود والعرفاء.

واستشهد ثلاثة عشر ثائراً بينهم القائد البطل عقيل السقاطي ذلك الثائر الذي قل نظيره في الإقدام والإخلاص للثورة وأهدافها، رحم الله الشهداء الأبرار وجزاهم عن أمتهم خيراً وأسكنهم فسيح جنانه.

بعد انتهاء المعركة سار الثوار بقيادة الشيخ يوسف السعدون إلى جبل الزاوية حيث أخذوا معهم القائد الثائر مصطفى الحاج حسين واتجهوا نحو

تركيا حيث حلوا ضيوفاً على المجاهد الأكبر الحاج فاتح المرعشي، وكان ذلك في ١٥ نيسان ١٩٢٦.

ولم يركن الثوار إلى الراحة أبداً فبعد أيام أرسل القائد نجيب عويّد جماعة من الثوار على رأسهم السيد عبد الوهاب جراب ومعهم أخوه طاهر، وأخوه بشير وعلي الاستانبولي ومهمتهم مهاجمة المطار.

معركة قرية (تويس)

وعلم الفرنسيون بمسير الثوار فاستنفروا جندهم، وكمن الثوار في قرية (تويس) ورصدوا تقدم الفرنسيين نحوهم حتى إذا أصبحوا على مرمى الرصاص أصدر قائدهم السيد عبد الوهاب أوامره، فانهمر رصاص الثوار فوق رؤوس الفرنسيين والمرتزقة وجاءت خمس طائرات لدعم المستعمرين فأسقط بشير جراب طائرة منها وعادت الطائرات الأخرى إلى المطار، وظل القتال دائراً إلى العشاء، ثم انسحب المقاتلون وقد كبدوا الفرنسيين خسائر فادحة في القتلى والعتاد، وجرح قائد الجماعة السيد عبد الوهاب جراب في رجله، وعاد الثوار إلى الحدود حيث استقبلهم الحاج فاتح المرعشي الوطني الوفي لوطنه وأمته وعروبته.

معركة تل بطال

وبعد أيام أرسل السيد نجيب عويّد سرية أخرى بقيادة السيد عبد القادر الحجار يعاونه السيد عبد القادر الحلاق وسليم قاورمة وجنيد الهوبة فالتحمت السرية مع بعض الفرنسيين والمرتزقة والسنغاليين في قرية تل بطال التابعة لقضاء الباب فدُحر الفرنسيون ومن معهم، وولوا منهزمين تاركين مدفعين رشاشين مع بعض البنادق فحمل الثوار هذه الأسلحة، وعادوا إلى الحدود التركية، وقد أصيب خمسة من الثوار بجراح.

أراد الفرنسيون أن ينتقموا من الحاج فاتح المرعشي فارسلوا بعض المرتزقة والمأجورين وأحرقوا قرية (تل شعير) التي يملك الحاج فاتح

المرعشي بعض أراضيها، فهب الثوار من الحدود بقيادة السيد عبد القادر الحجار، وأجلوا المرتزقة عن القرية وتابعوا طريقهم نحو حلب ومعهم ثمانية رجال فقط منهم: عبد القادر حلاق وصالح بوشي وشعبان ميرعي.

معركة المسلخ في حلب

وكان في مذبح الغنم (المسلخ في حلب) مخفر فيه رئيس بذيء اللسان متفرنس يشتم الكبير والصغير، لا يرعى حرمة أحد ومع ذلك جعل لنفسه جزية يدفعها أصحاب المواشي والفلاحون من خراف وغيرها ويبتز ما قدر عليه من المال مع سفاهة منقطعة النظير.

أقبل عبد القادر مع رفاقه الثمانية ومعه محمد أونباشي الذي كان حرسياً في سجن حلب فهرب مع سجينين والتحقوا بالثوار.

وعمد السيد عبد القادر حجار إلى ارتداء بزات الدرك وارتدى هو بزة ضابط فرنسي ودخلوا المخفر، واقتادوا جنوده ومعهم رئيس المخفر ووضعوهم في مغارة، ثم أسرع عبد القادر مع بعض رفاقه إلى مخفر باب الله الخاص بالدرك فصادروا أسلحة رجاله وعادوا إلى المغارة حيث أطلقوا الجنود إلا رئيسهم فقد أعدموه جزاء عمالته وإساءته إلى المواطنين وإهانته رجال بلده ونساءه واغتصاب الأموال دون أن يرعى كرامة أحد من مواطنيه.

معركة مخفر مورك

لم يستطع الثائر صبحي اللاذقاني أن يلتحق بتركيا فسار نحو حماة حيث انضم إلى فئة من الثوار الحمويين فهاجموا مخفر مورك الذي يقود حاميته ضابط متعاون مع الفرنسيين وعميل لهم فأبادوا حامية المخفر وقد تمكن رئيسه من الفرار، ونجا من القصاص العادل الذي كان ينتظره، ثم عاد السيد صبحي اللاذقاني إلى تركيا وانضم إلى إخوانه الثائرين ينتظرون اليوم الذي يدعوهم فيه الوطن لنصرته ودفع المستعمرين عنه إلى الأبد.

اتصال الثوار بالبطل فوزي القاوقجي

تفرق الثوار بين مدينتي عينتاب وكلس، ولم يتخلوا عن سلاحهم طرفة عين. وذات يوم أرسلت قيادة الثوار اثنين وعشرين ثائرا على رأسهم صادق أبو حسن الملقب أبو شوشه إلى جبل الزاوية ليتصلوا بالثائر البطل فوزي القاوقجي، الذي ترك الجيش الفرنسي، وانضم إلى إخوانه ثوار حماة والغوطتين، والذي رغب في الاجتماع بهم، وكان معه الثائر البطل هزاع أيوب، غير أن الثوار لم يلتقوا بالبطلين فقد غادرا جبل الزاوية قبل وصول صادق وجماعته.

وعند العودة إلى تركيا بصر بهم أحد الخونة فنقل خبرهم إلى السلطة الفرنسية التي سارعت إلى الإحاطة بهم مع عدد كبير من المرتزقة.

دافع الثوار عن أنفسهم دفاع الأبطال وأبوا الاستسلام حتى استشهدوا عن آخرهم، ولن يكونوا آخر الشهداء، فسورية أم الشهداء وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

خلال هذه الحوادث التي كانت تقع متفرقة هنا وهناك بعد سفر الزعيم الخالد إبراهيم هنانو ثمَّ غدر الانكليز به وسلموه للسلطات الفرنسية التي حاكمته، وقعت ملحمة الثائر البطل نجيب سخيطة..

ملحمة الثائر البطل نجيب سخيطة

١٣

إنها ملحمة ثورية رائعة في تاريخ ثورة الشمال الخالدة.

فعلى سفح جبل الأربعين الواقع على بعد عشرة كيلومترات من مدينة إدلب في سورية تقع مدينة صغيرة هي مدينة أريحا، تحيطها كروم الكرز من كل صوب، وبينها كروم الزيتون واللوز.

هذه المدينة الصغيرة شهدت عدداً من معارك الكفاح ضد الاستعمار فلم تهن ولم تضعف أمام بطشه وجبروته. في عام ١٨٨٨ ولد المواطن الثائر نجيب سخيطة في مدينة أريحا، ونشأ بين ربوعها الجبلية الشماء، وترعرع مع فتيانها الغر الميامين، فاغتذوا جميعاً بلبان الإباء والشمم والبسالة، ووقفوا معاً ضد الأعداء البغاة الظالمين.

وحين اندلعت نيران الثورة في جبل الزاوية اصطلى نجيب نارها تحت لواء الزعيم هنانو.

ولم تخلُ تلك الأيام من مفاجآت مُرة، فقد انضم إلى الفرنسيين بعض من خدعتهم أحابيل الاستعمار فوقعوا في شراكه، لقد كان يغريهم تارة بالمال، وأخرى بالمناصب، وثالثة بالجاه والسلطان. ولعبت المصالح الذاتية لعبتها، فانحاز إلى الفرنسيين بعض العناصر المختلفة والمتنوعة جهلا منهم بأن العدو، وإن ابدى لهم تقربا او تعاطف معهم، فإنما مرد ذلك إلى أنه يريد تحقيق خططه الغادرة عن طريقهم وبواسطتهم.

وحين تعذر على الفرنسيين أن يقضوا على الثورة سلحوا بعض السكان، ودفعوهم لقتال إخوانهم فانخدعوا على الرغم من أنهم لم يكونوا ليسيروا في ركاب الفرنسيين لولا حب الرياسة والتهافت على الجاه والمال والاختلاف الذاتي في سبيل المطامع الذاتية الرخيصة، ولله في خلقه شؤون.

ظل نجيب مع ثُلّة من الثوار في جبل الزاوية يحاربون لا تلين لهم قناة ولا يفتر لهم عزم.

وأرسلت فرنسا الحملة تلو الأخرى لإخضاع نجيب والقضاء عليه وعلى من بصحبته من الثوار البواسل. فكانت تلك الحملات ترتد مهزومة منكسة الراية، مغلولة الإرادة عاجزة عن أن تنال من المجاهد الكبير ورفاقه.

وعمد المستعمرون الأشرار إلى خطة اتفقوا فيها مع بعض عملائهم في إحدى القرى على أن يدعوا الثائر حين يمر بقريتهم إلى وليمة مظهرين له التكريم والإعزاز، فإذا قبل دعوتهم انقضوا عليه وعلى رفاقه وأرسلوا إلى السلطة يدعونها لاستلام الصيد الثمين.

تم كل شيء حسب خطة المستعمرين التي رسموها، ومر البطل نجيب بالقرية ولكنه شعر بأن الجماعة التي تدعوه لتناول الطعام عندها مريبة، فشكَّ في نواياها، وابتعد هو ورفاقه عنهم، فسدد أحدهم بندقيته إلى نجيب وأصابه في رجله تحت الركبة، فاضطر نجيب إلى الترجل عن جواده ليضمد الجرح بينما اشتبك رفاقه في معركة مع الجناة الذين تكاثروا وأحاطوا بنجيب ورفاقه وامسكوا بهم، وأرسلوا موفداً إلى السلطة الفرنسية فأرسلت السلطة جنداً قبضوا على نجيب ورفاقه، وأخذوهم إلى أريحا حيث طرحوا تحت الشمس الموقدة ووضعت فوق صدورهم أحجار كبيرة وكبلوا بالأغلال، ودعا الفرنسيون الناس لمشاهدة ما حلّ بنجيب تشفياً وانتقاماً.

ثم نقل نجيب إلى المستشفى العسكري في محلة الرمضانية بحلب في غرفة خاصة كائنة في باحة المستشفى (براكة)، وربطت أطرافه إلى سرير عتيق طرح عليه، ومنعوه من كل حركة.

وكانوا يقدمون إليه من الطعام ما يمسك الرمق ليتمكنوا من تعذيبه بأساليب التجويع، كما كانوا يعذبونه باقتطاع أقسام من جلد رجله ليعروها من الجلد كتعذيب لا حد لبربريته، وكانوا يأمرون احد الجنود فيدخل عليه بطعام فيأتي الجندي بناء على تعليمات تلقاها، ويدني الطعام من فم نجيب حتى إذا فتح فاه لتناول لقمة الطعام ردها الجندي تنكيلا بالجريح، ثم يصب عليه ما في الإناء من الطعام ويخرج.

ولهذا ساءت حال الثائر الجريح، وعشعش الفار في الغرفة، وبدأ يخرج من بعض الزوايا ويثب على وجهه ويديه ويقضم منه ومن جرحه الدامي.

قضى الجريح أربعين يوماً على هذه الحال ثم جاء ممرض ومعه ضابط فرنسي مع بعض الأعوان ونشروا رجله نشراً بدون مخدر وضمدت الرجل وترك هكذا أياماً قليلة.

وجاءه ذات يوم ضابط برتبة كولونيل، ومعه عسكريون آخرون وتلا على نجيب حكم الإعدام، ثم سأله بواسطة المترجم: ماذا تقول؟

فأشار نجيب إلى أعلى، وقال: الله موجود.

فترجم قوله للكولونيل، فضحك الكولونيل بخفة وطيش، وقهقه كثيراً ثم قال له: إذن دعه ينقذك وخرج الكولونيل وجماعته.

في مساء اليوم نفسه خطرت للثائر فكرة التخلص من الحبال التي تربطه بالسرير فأخذ يقضم الحبل من الجهة التي تلي فمه، وظل دائباً على ذلك حتى تمكن من قطع الحبل، وفك إحدى يديه، واستعان بها على فك الأخرى، ثم استطاع أن ينزع الحبال عن رجليه السليمة والمبتورة وجرّب أن ينهض، فأثقله الألم، فعاود الكرة، فاستوى على قدمه السليمة.

وأخذ يدعو الله ويشكو إليه بثّه وعذابه، وقسوة هؤلاء المستعمرين الطغاة، وتوسل إليه أن ينقذه مما هو فيه من الخطر والغم والكرب.

وفكر في أن يحفر ثغرة من غرفته إلى الخارج تحت جدار الغرفة الرقيق، وأخذ يحفر بأظافره التي طالت بمرور الأيام، ورأى شيئا معدنيا قريبا منه، فإذا به شوكة قديمة كانت تستعمل للطعام، تركت ملقاة من زمن بعيد فصار يستعين بها في الحفر.

وعند تغيير الحارس كان يعود إلى السرير فيستلقي عليه ويضع الحبال على جسده.

واستطاع الثائر أن يفتح كوة ويخرج منها إلى ساحة المستشفى قبيل الفجر، ثم اتجه نحو السور الخارجي، فوجد الحارس السنغالي شبه نائم، وسمع وقع أقدام فتوارى خلف براميل يستعملونها للقمامة أو لأغراض أخرى.

وحين هدأت الضجة تقدم من السور الخارجي فتسوره جارا رجله المبتورة جرا، ووسّع لنفسه ممرا بين الأسلاك الشائكة التي تعلو السور، وألقى بنفسه إلى الأرض بعد أن تمزقت ثيابه وبدا عارياً.

وأخذ يزحف عابرا عرض الشارع، فوصل إلى سفح تل (الشيخ أبو بكر) المقابل للمستشفى تماما، وبدأ يصعد، وكان كلما صعد مترا أو أكثر مهد التراب وأزال آثار زحفه.

ووصل إلى دار فهم أن يطرق الباب فأبت يده أن تطاوعه، وزحف إلى الباب الثاني، وطرقه، فخرج شاب هو السيد طاهر جراب ابن أخي السيد طاهر جراب الثائر المشهور.

أوجس طاهر الشاب خيفة فقال له نجيب لا تخف! إنني عربي، مجاهد عربي، دعني أدخل منزلك، وسمعت أمه ما يدور من الكلام فأقبلت وقالت لابنها: ابتعد، وتقدمت من نجيب، وساعدته على الدخول ثم اتجهت إلى ابنها بالقول: هذا الرجل في ذمتي وأمانتي، وألقت على الجريح ملاءتها.

لقد كان الباب الأول الذي هم نجيب بطرقه منزل رئيس أطباء المستشفى وهو ضابط فرنسي برتبة كبيرة فصرفه الله عنه ونجا.

استيقظ الناس في محلة (الشيخ أبو بكر) على صوت السلاح وجلبة الجنود، يبحثون عن نجيب لاعتقادهم أنه لم يبرح المنطقة.

هُرِّب نجيب مبدئياً إلى غرفة في مسجد (الشيخ أبو بكر) عبر منزل المرحوم عبد اللطيف الزنابيلي ثم حُمِل منها إلى المسجد ذاته وأدرج في حصير ملقى في إحدى الزوايا.

وظل التفتيش قائماً من قبل صلاة المغرب إلى ما بعد صلاة العشاء، حيث فتِّشت البيوت تفتيشاً دقيقاً، ودخل الجنود المسجد، وأعماهم الله عن الثائر البطل، مع أن الجنود لم يتركوا شيئاً لم يبعثروه حتى الخزائن والأمتعة.

وانتهى التفتيش دون جدوى وسلم الله المجاهد الشجاع.

وأعلن الفرنسيون عن استعدادهم لدفع خمسمئة ليرة ذهبية لمن يدل على الثائر نجيب، وانتظروا طويلاً فلم يظفروا بطائل.

ويئس الفرنسيون من العثور عليه، وبعد يومين عمد الثوار إلى تأليف قافلة ووضعوا فوق ظهر كل دابة (خرجاً)، وحملوا على الدواب نساء ورجالا، ووضعوا رجلي كل امرأة في طرفي الخرج وارتدى نجيب ملاءة ووضعت قدمه السليمة في طرف الخرج، ووضع ما يشبهها في الطرف الثاني بدلاً من ساقه المبتورة.

وسارت القافلة، ومرت بدورية فرنسية، وسألت الدورية القافلة إذا كان أفرادها قد رأوا رجلاً مقطوع الساق، فنفوا ذلك نفياً جازماً.

ومشى في حراسة القافلة المجاهدان الأخوان طاهر جراب (أبو عدنان) وأخوه ومضوا نحو تركيا.

عولج نجيب في تركيا وعاد إلى الكفاح من جديد وهو مبتور الساق، إنه حقاً أقوى من الفولاذ.

توفي المجاهد نجيب في أوائل عام ١٩٧٨ وقد بلغ من العمر تسعين عاماً رحمه الله.

الثورة في ديـر الزور

١٤

فـي ١١ ك٢ ١٩١٩ وصـلت قـوة انكليزيـة إلـى ديـر الـزور يقودهـا الرائـد (كاروير) فانتزعت إدارة المنطقة من ممثلي الحكومة العربية مدعيـة أن منطقة دير الزور جزءٌ من المنطقة التي ستخضع للحكم البريطاني المتمركز في بغداد.

اتصل الوطنيون، فـي دير الزور بحـاكم الرقـة العسكري المقدم رمضان شـلاش، وبنتيجـة الاتـصالات التـي اسـتمرت وقتـاً لـيس باليـسير سـار المقـدم رمضان شلاش في ١١ كانون الأول ١٩١٩ فدخل مدينة دير الزور وطرد منها القوة الانكليزية وأسر القائد (كاروير) في ١٩١٩/١٢/١٢.

وأرسلت الحكومة العربية في دمشق السيد مولود مخلص كحـاكم عسكري للمنطقة فتأثر البريطانيون لما حدث ولكنهم لم يستطيعوا أن يصنعوا شيئاً فلقد بـاغتهم المقـدم رمـضـان شـلاش وأطـاش صـوابهم حتـى وصـل الأمـر بـوزير المستعمرات البريطانية ونستون تشرشل إلى أن يقول في خطاب له بعد احتلال دير الزور: إن لبريطانيا العظمى عدوين فـي الشرق: أحدهما لينين فـي الشمال والآخر هو رمضـان شلاش في الجنوب.

ولم تهدأ الحركات الثورية في منطقتي الفرات والجزيرة:

ففـي أوائـل عـام ١٩٢٠ هـاجم الوطنيـون الفرنـسيين فـي قريـة تـل أبـيض، ومحطـة كرمنـاس بـين جـرابلس وتـل أبـيض وقـضوا علـى القـوات الفرنـسية المتركزة فيهما.

وهاجمت عشيرة الكعيدات في ١٧ أيلول ١٩٢١ مطار دير الزور وأحرقت إحدى الطائرات، ثم هاجمت المدينة فأرسلت السلطات الفرنسية حملة بقيادة الكولونيل الشرس (دي بيوفر) إلى دير الزور في ٢٨ أيلول ١٩٢١ معززة بعدد كبير من الجنود الأفريقيين والمغاربة والعتاد والذخيرة.

ودارت معارك ضارية بين الفرنسيين ورجال قبائل الكعيدات (بني خابور، وبني بكر في ٢٤ تشرين الأول ١٩٢١، ثم معركة أخرى أمام قرية البصيرة أبلى فيها الثوار بلاءً عظيماً وقتل عدد كبير من الفرنسيين، فاضطر الفرنسيون إلى قذف الثوار بقنابل الطائرات، وقد خسر الفرنسيون عدداً آخر من خيرة ضباطهم، واستطاعوا أخيراً أن يوطدوا أقدامهم في منطقة الفرات بقوة الحديد والنار.

أما الجزيرة، فإن الفرنسيين بادروا إلى إخضاعها بعد فراغهم من إخضاع منطقة الفرات، فأرسلوا حملة بقيادة الكولونيل (بيغو دوغرانروت) فهاجمت قبيلة (شمر) قرب قرية الحميدية قرب الحدود التركية، وثار بعض المواطنين الأكراد والبدو في وجه الاحتلال الفرنسي. وتمكنوا من القضاء على حامية (بهندور) الفرنسية وقتلوا منها ستين جندياً وضابطاً.

وعادت الحركات الثورية فنشبت من جديد قرب مدينة الميادين.

وهاجم الفرنسيون عشيرة أولاد سليمان قرب قرية الرصافة، فنهبوا بيوت العشيرة بنذالة وخسة، ولم يهدأ الكفاح المسلح حتى عام ١٩٢٨ إذ توقفت عامئذ الحركات الثورية في جميع أنحاء الوطن السوري مؤقتاً حتى دعت السلطة الاستعمارية إلى انتخابات، يختار بها المواطنون ممثليهم إلى جمعية تأسيسية كخطوة أولى نحو الاستقلال.

ولم يكن لدى الفرنسيين في معاملة المواطنين أية رحمة.

الثورات في المنطقة الوسطى

١٥

ثورة تلكلخ

تتابعت الثورات بعد ثورة الشيخ صالح العلي وثورة هنانو، وثورة المنطقة الشرقية لا يفصلها عن بعضها إلا أشهر أو أسابيع قليلة، ففي أوائل كانون الأول ١٩١٩ منع الأهلون في تلكلخ القوات الفرنسية من رفع العلم الفرنسي، وإنزال العلم العربي من على دار الحكومة، وتألفت لجنة قوامها السادة: عبد الله الكنج الدندشي، خالد الرستم، حسن إبراهيم الدندشي، أحمد البرازي، سعد الدين الجندلي لقيادة النضال الوطني.

وفي ١٣ كانون الأول ١٩١٩ هاجم الأهلون الحامية الفرنسية فجرحوا قائدها (بتي ديمانج) وقتلوا مساعده الليوتنان (بوسكيه).

وأخذت النجدات الفرنسية تتوالى على تلكلخ وازدادت المعارك ضراوة. وفي ٢٠ كانون الأول ١٩١٩ نشبت معركة حامية قتل فيها أربعة ضباط فرنسيون، وانهزم الجند الفرنسي هزيمة منكرة.

في ٢١ كانون الأول ١٩١٩ أرسل الفرنسيون نجدة تتألف من ثلاث كتائب مدعومة بطائرتين وسبعة مدافع وكوكبة من الفرسان، واشتبكت هذه الحملة مع الأهلين وسقط عدد كبير من الجنود صرعى.

وفي ١٩١٩/١٢/٢٥ نشبت معركة ضارية قرب قرية (بيت حسن) فسقط من الفرنسيين عشرون قتيلاً، وتوالت النجدات واشتدت الأعمال القتالية في تلكلخ وما حولها واضطر المجاهدون إلى النزوح إلى حمص ودمشق بعد أن سيطرت السلطة الفرنسية في المنطقة على تلكلخ.

ثورة حماة

دخل الجيش الفرنسي حماة في أوائل آب ١٩٢٠ وكان دور حماة منذ دخول الجيش الفرنسي هو المبادرة إلى مد ثورة هنانو وثورة الشيخ صالح العلي بالسلاح والذخيرة، كما انضم عدد من أبناء حماة إلى ثورة الشيخ صالح العلي منخرطين في (الفوج الملّي).

وأعدم الفرنسيون ثائرين بطلين من أبناء حماة هما الحاج حمدو الجلاغي، وكامل الباكير، ظناً منهم أنهم بمثل هذه القسوة سوف يخضعون أبناء الشعب العربي في حماة ولكن فاتهم أن أبناء حماة هم مادة الثورات وجذورها.

وخلال شهر أيار ثارت عشيرة الموالي التي تسكن في منطقة الحمدانية شمال مدينة حماة فخرب رجالها الخط الحديدي وأحرقوا المحطات القريبة.

وحينئذ احتدمت المعارك بين القوات الفرنسية الغازية وبين رجال عشيرة الموالي الأشاوس، وسقط عدد كبير من جنود العدو صرعى، وفي يوم ١٩ أيار ١٩٢١ نشبت معركة ضارية قرب قرية (قطرة) قاتل فيها الثوار من (الموالي) بالسلاح الأبيض، ولما كان عدد الفرنسيين بلغ المئات فقد انسحب الموالي بعد أن كبدوا الفرنسيين خسائر فادحة لكن استطاع الفرنسيون بالنتيجة إخضاع هذه العشيرة الباسلة.

وعقب ذلك أوفدت السلطة الفرنسية إلى حماة مستشاراً إدارياً وحشياً اسمه (الكابتن ميك) أشاع الظلم والجور في المدينة وأهرق الدماء فزاد بذلك نقمة الأهالي على المستعمرين الظالمين.

فوزي القاوقجي

في ظلمة هذه الأحداث بدا كوكب ثوري يتألق في سماء البلاد المتلبدة بالأحداث الجسام، فقد كان الثائر البطل فوزي القاوقجي ضابطاً برتبة كابتن في الجيش الفرنسي، وكان يقود إحدى كواكب الفرسان في الحامية الفرنسية المتمركزة في حماة، وقد كلف ذات مرة في مطاردة هنانو ورجاله عند مغادرتهم البلاد إلى الأردن عن طريق حماة، وكان الرجل ينبض قلبه بوطنية خالصة، غير إنه لم يجد يومئذ الفرصة مواتية للوثبة على الفرنسيين، وحين وجد ظلم ممثلي فرنسا بلغ حداً من الإجرام الدموي لا يصح السكوت عنه جاشت نفسه بنار الثورة فكشف عما يعانيه من النقمة والحقد على الفرنسيين لصديقه الحموي السيد سعيد ترمانيني وقررا معاً تشكيل جمعية سرية هدفها مكافحة الاستعمار الفرنسي.

وتألفت الجمعية وقوي ساعدها بمن انضم إليها من الثوريين الأشاوس أمثال: منير الريس ومظهر السباعي، وعثمان الحوراني، وعبد القادر مليشو، ومحمد وجميل ونوري الدروبي، وعبد الرحيم وعلي الداغستاني، والحاج مصطفى الديب، والشيخ عبد السلام الفرجي، وناصح ومنذر وممدوح العظم والدكتور خالد الخطيب، وفهمي العظم، وتوفيق الشيشكلي ومكرم وأزهر وبديع مصطفى الكيلاني والحاج محمد الحبال، والشيخ فرج الفرجي، والشيخ محمود العثمان.

وظلت هذه الجمعية تعمل في الخفاء حتى نشبت ثورة جبل العرب في منتصف عام ١٩٢٥ فأوفدت الجمعية اثنين من أعضائها هما منير الريس ومظهر السباعي إلى جبل العرب، لتنظيم خطة ثورية تعاونية بين المنطقتين.

تم الاتفاق، وأرسل سلطان باشا الأطرش سرية من فرسان الجبل العربي بقيادة حسني صخر إلى قرية عين القصب الواقعة بين حمص والقريتين، لدعم الثورة المقبلة في حماة التي تقرر لها يوم ٢ تشرين الأول ١٩٢٥.

وقبيل موعد الثورة استأذن البطل فوزي القاوقجي، الذي كان لما يزل في عداد ضباط الجيش الفرنسي، استأذن من القومندان الفرنسي (كوستيليه) قائد الحملة الفرنسية في حماة بالقيام بجولة بين القبائل لتوطيد الأمن، وخرج فوزي إلى مضارب العشائر، وأثار حميتها لتكون عوناً لثورة حماة التي حدد ميعادها.

وفي الثاني من تشرين الأول ١٩٢٥، وكان يوم عيد المولد النبوي، انقلبت الاحتفالات الدينية إلى تظاهرة تبدت فيها نقمة الشعب ثم إلى ثورة لاهبة.

وكان الثائر فوزي القاوقجي قد نظم مراحلها تنظيماً دقيقاً، لكن خطأ صدر عن أحد قادة الثورة الذي غير موضع تمركزه، معتقداً أن ذلك لن يغير أو يقدم في سير المعركة، لأنه تعذر عليه التواجد في الموضع المعين له، هذا الخطأ البسيط سبب فشل العملية كلها وتقرر تأخير المعركة إلى يوم آخر.

وشعر الفرنسيون ببوادر الثورة لأن الأسلاك الهاتفية كانت قد قطعت في أوائل العمليات في يوم ١٩٢٥/١٠/٢١ فتنبه الفرنسيون إلى أن الثورة وشيكة الوقوع.

في ١٩٢٥/١٠/٤ تقرر إعلان الثورة، فمنذ الفجر زحف الثوار بقيادة البطل فوزي القاوقجي، واحتلوا مخافر رجال الأمن الذين انضم أكثرهم إلى صفوف الثورة وسار الثوار قدما يحتلون المدينة حياً حياً حتى انتهوا إلى دار الحكومة فوجدوها موصدة وفي داخلها سرية فرنسية، فأنذر الثوار السرية فلم تستسلم وحينئذ هاجمها الثوار وأحرقوا أبواب دار الحكومة وفر من بقي حياً من الفرنسيين.

وفي صباح اليوم التالي حاول الفرنسيون استعادة بعض مراكزهم في المدينة فنشبت معركة قرب (جسر السرايا) واضطر الفرنسيون للعودة إلى ثكناتهم بعد أن تكبدوا عدداً كبيرا من القتلى.

حين انسحاب الفرنسيين إلى ثكناتهم أضمروا في أنفسهم غدرة إجرامية بالمدينة المناضلة، فحين استقروا في هذه الثكنات المشرفة على المدينة أصلوها

بحمم مدافعهم، وقنابل طائراتهم، وذلك في ٥ تشرين الأول ١٩٢٥ وكان هذا اليوم يوماً مشؤوماً على الفرنسيين، إنه يوم لا يشرف العلم الفرنسي المغموس بدماء الضحايا الأبرياء، وهاجم الفرنسيون المدينة في يوم ١٩٢٥/١٠/٦ فاحتلوها ما عدا حي الحاضر.

وقد خسر الفرنسيون (٤٠٠) قتيل وخسر الثوار ٣٥ شهيداً.

وانسحب القائد فوزي القاوقجي من حماة، وحين مر بالمعرة التحم في معركة مع الفرنسيين فاحتل المعرة بعد أن كَبّد الفرنسيين سبعين قتيلاً بينهم ثلاثة ضباط، وفقد الثوار ستة شهداء بينهم الأمير إبراهيم باشا شيخ عشيرة الموالي، ورغب القائد فوزي القاوقجي أن يلحق بجبل الزاوية غير أنه وجد الفرنسيين قد أعدوا له قوة كبيرة فاضطر إلى التوجه إلى منطقة القلمون والغوطة.

وفرض الفرنسيون غرامة على حماة مقدارها ستة آلاف ليرة ذهبية (والفرنسيون في ذلك العهد كانوا شغوفين بذهب البلاد التي ابتليت باستعمارهم) و(٥٠٠) بندقية و ١٥٠ مسدساً.

ومهما تكن نتائج ثورة حماة التي لم تطل فقد اضطر ساراي المفوض السامي إلى أن يستدعي عدداً كبيراً من جنوده من جبل العرب إلى منطقة حماة فخفت وطأة الفرنسيين على الثوار في المنطقة الجنوبية حين انسحب الجنرال (غاملان) من جبل العرب واتجه بقسم من قواته إلى منطقة حماة عندها استطاع الثوار في الجبل أن يستعيدوا تنظيم صفوفهم لاستئناف القتال.

ثورة الهرمل والقصير والنبك (القلمون)

أصدر ثوار القلمون ومدينة النبك بياناً أعلنوا فيه الثورة على العدو المستعمر وضمنوه مقررات ثورية بناءة شملت: التنظيم الإداري والحربي وختموا بيانهم بقوله تعالى (جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله).

وتحرك الثوار بقيادة خالد النفوري وجمعة سوسق في أواخر عام ١٩٢٥ فاشتبكوا مع الفرنسيين في منطقة النبك، ثم اتجهوا إلى قرية القصير فانضم أهلها بزعامة السيد حسين رعد إلى الثورة.

وحينئذ هاجم الفرنسيون قرية القصير بالطائرات والمشاة فخف ثوار حمص إلى نجدة إخوانهم ثوار القلمون، وفي أوائل ١٩٢٦ نسف الثوار (جسر الحارون) الحديدي الواقع جنوب القصير ودمروا قطاراً فرنسياً يحمل جنوداً وعتاداً، وجاءت نجدة فرنسية فاشتبكوا معها في قتال عنيف. وخسر الفرنسيون ١٧ قتيلاً، كما استشهد في المعركة اثنان، وأسر ثمانية من الثوار فأعدمهم الجناة الفرنسيون على جسر الحارون دون محاكمة، كما أعدموا خمسة من أبناء قرية (الفركلس) بحجة أنهم أعانوا الثوار.

وتجمع الثوار في أوائل آذار ١٩٢٦ تحت قيادة البطلين فوزي القاوقجي وسعيد العاص وانضم إليهم بعض ثوار حمص فخرجت حملة فرنسية من حمص بقيادة الجنرال (مارتي) فتصدى لها القائد القاوقجي في مضيق عين العلق قرب قرية (قارة) واشتد أوار المعركة التي دامت ثلاث ساعات واستشهد الثائر (فؤاد رسلان) مع سبعة عشر شهيداً.

في ١٤ آذار ١٩٢٦ اشتبك القائد القاوقجي مع الفرنسيين قرب النبك وأوقع فيهم خسائر في الأرواح، ثم تقرر أن يتمركز القاوقجي في (عسال الورد) وأن يتمركز سعيد العاص في منطقة (أكروم) ومن هذين المركزين كانا ينظمان عملياتهما الحربية ضد الغزاة المستعمرين.

وعاد ثوار حمص وعلى رأسهم (نظير النشواتي) بعد أن فقدوا الشهيد فؤاد رسلان وأبلغوا زعيم الثوار في حمص السيد (الحاج عبد الفتاح النشواتي) أخا نظير ما حدث في النبك والقلمون والهرمل، فأمروا بالعودة إلى الهرمل لشد أزر الثوار، وهناك انضموا إلى القائد (سعيد العاص) والقائد (الزين مرعي) من الهرمل واشتبكوا مع الفرنسيين في معارك عدة ثم عادوا إلى حمص ثانية.

الثورة في حمص

١٦

وفي نيسان من عام ١٩٢٦ استطاع ثوار حمص أن ينقلوا الأعمال العسكرية إلى قلب المدينة، إذ هاجم الثوار السادة: عمر البطحيش، وعزو حمود أغا وحسين جراد، ومحمد الأخرس مقهى يرتاده الفرنسيون للرقص والسكر وقضوا على عدد كبير من الفرنسيين وصادروا أسلحتهم وجرح الثائر عمر البطحيش.

مجزرة خربة غازي

أبلغ الحاج عبد الفتاح النشواتي بعض الثوار بضرورة عودتهم إلى الهرمل للالتحاق بزعيمها (الزين مرعي)، وخرج الثوار بقيادة الثائر البطل نظير النشواتي، وحينما مروا بمخفر باب السباع في حمص دخلوا المخفر، وجردوا أفراده من سلاحهم. ثم اتجهوا نحو قرية خربة غازي.

كان عدد هؤلاء الثوار خمسة عشر مقاتلاً هم: عقل الدندشي، سعيد الشهلا، نظير النشواتي، حسين جراد، كرمو العاصي، محمد الأخرس، محمد علي الدروبي، الحاج محمد المغربي، علاء الدين الكيلاني عبد الحميد النابلسي، مرعي التركاوي، عبدو المعراوي، الحاج علي الخضر عزو حمود آغا، شكري النشواتي (أخو نظير).

وحين حل الثوار ضيوفاً في القرية طير بعض الخونة نبأ تواجد الثوار عندهم إلى الفرنسيين فطوق الفرنسيون القرية وحاول الوطنيون الطيبون الشرفاء أن ينقذوا الثوار من أيدي الفرنسيين ولكنهم لم يفلحوا.

وتوقفت الفرقة الفرنسية قرب قرية (أم الحارثين) في مكان يسمى (قاموع العليان) وأمر قائدها بإعدام: نظير النشواتي، وحسين جراد، وسعيد الشهلا، وكرمو العاصي.

وبعد أن أطلق الجنود النار على الثائرين الأربعة وأردوهم قتلى عاد الضابط فأطلق رصاصات من مسدسه على رؤوسهم، وبعد التأكد من موتهم انصرف الفرنسيون بمن معهم من الثائرين إلى حمص، حيث صدر أمر السلطة الفرنسية بإعدام الثوار الباقين.

نظير النشواتي يعود حياً

كان الحزن العميق يملأ قلب الحاج عبد الفتاح النشواتي لا لفقد أخويه نظير وشكري فحسب بل كان حزنه قد بلغ منه مبلغاً كبيراً للضربة الغادرة التي منيت بها الثورة في حمص.

ونقل الناس شهداءهم فدفنوهم، غير أن آل النشواتي لم يجدوا جثة نظير الذي عاد إلى الحياة ليقاتل من جديد.

إن الله هو الذي يحيي ويميت، وهاقد عاد نظير إلى الحياة وشفيت جراحه لينتقم من العدو الغادر وليثأر لوطنه ولأمته، من أعدائها الجناة كما استطاع الثائر خيرو الشهلا أن يقتل محافظ حمص الذي كان يتعاون مع الفرنسيين.

معركة باب الدريب

ذهب عدد من الثوار يتناولون طعام العشاء في منزل السيد عبد الواحد صنوفه في رمضان وهم صيام، وقبيل الإفطار بدقائق داهمتهم الشرطة من فوق سطوح المنازل ونشبت معركة ضارية معهم وأقبل الفرنسيون عوناً للشرطة.

وأعطى السيد عبد الفتاح النشواتي أمره بمغادرة المنزل. ووقف خيرو الشهلا يقاتل حامياً الثوار أثناء انسحابهم، وقتل نصرو النشواتي أخو السيد عبد الفتاح.

وأخذ الثوار يرمون الجنود الفرنسيين وهم يجتازون أزقة باب الدريب الضيقة.

واستطاع الثوار أن ينسحبوا جنوباً فالتقوا بالبطل القائد فوزي القاوقجي الذي كان يريد التوجه إلى جبل الزاوية ومنه إلى تركيا ولكنهم عند وصولهم إلى الجبل لم يتمكنوا من اجتيازه، لأن الفرنسيين كانوا قد ملؤوا السهل والوعر بجنودهم ومرتزقتهم، وعادوا أدراجهم، وحين خرجوا من الحسينية التحموا بالفرنسيين فاستشهد عبدو المعراوي وأصيب السيد عبد الفتاح النشواتي بجرح بليغ في فخذه.

اعتقال النساء

وعجز الفرنسيون عن القضاء على الثوار فلجؤوا إلى تدبير خسيس، إذ اعتقلوا نساء الثوار، وفي ذات يوم كان الحاكم الفرنسي (كوله) في إحدى ضواحي حمص مع حارسيه، وثب عليهم نظير النشواتي وأحد رفاقه الثوار وجردوهم من سلاحهم، وطالب نظير الحاكم (كوله) بالإفراج عن النساء وإلا فإنه سيفقد حياته، فوعد الحاكم نظيرا بأنه سيفرج عن النساء فور عودته إلى حمص، فأطلقه نظير وأفرج كوله عن النساء.

مصرع البطل عبد الفتاح النشواتي

لعل من أقسى ما سيقرؤه المواطن في تاريخ نضالنا هو مصرع السيد عبد الفتاح النشواتي، فحين عجز الفرنسيون عن أن ينالوا منه نيلاً قرروا اغتياله غدرا، فاتصلت السلطة الفرنسية بابن عمه وكلفته باغتياله يساعده في هذا العمل الشائن عميل آخر بعد أن منحتهما أموالا طائلة.

ودخل الجاني على ابن عمه الحاج عبد الفتاح زائرا، ووقف رفيقه خارج المنزل ليمنع من يحاول دخول المنزل. وبغتة أطلق الجاني النار على الحاج

عبد الفتاح فأصابه في رأسه بعدة رصاصات خرّ الشهيد على أثرها صريعاً وانطلق المجرم ورفيقه محتمين بحراسة الفرنسيين، وكان لمصرع الحاج عبد الفتاح قائد الثوار وقع أليم ومرارة قاتلة فويل للخونة مما جنته أيديهم.

بعد أيام قليلة تمكن نظير النشواتي ومعه زميله الثائر خيرو الشهلا من قتل العميل المرافق.

وبعد عشرة أيام كلف أحد الثوار بالقضاء على الجاني فتمكن من أن يرديه قتيلاً وخسر الفرنسيون عميلاً من أشرس عملائهم.

وظل الثوار يقاتلون ويتساقطون في ساحات النضال الواحد بعد الآخر حتى وجدوا أنفسهم مرغمين على النزوح أو الاستسلام، فنزح بعضهم إلى تركيا منتظراً اليوم الذي يتمكن فيه من العودة إلى القتال المقدس من جديد.

ثورات البادية

١٧

لم يكن رجال القبائل في البادية التدمرية وغيرها أقل حماساً من إخوانهم الثائرين في طول البلاد وعرضها ففي ١٤ حزيران ١٩٢٢ هاجم عدد منهم مفرزة فرنسية فقتلوا رجالها وعلى رأسهم الكابتن (استوين).

وفي ١٥ تشرين الثاني من نفس العام التحم رجال القبائل بسرية من الهجانة الفرنسية، ثم وقعت معارك ومناوشات طيلة الأعوام الثلاثة التالية سقط خلالها عدد من الفرنسيين وتمكن الثوار من قتل الليوتنان (دسكار بانتري) أشرس الضباط الفرنسيين الذي كان يقود بنفسه أعمال القتل الجماعي، ونهب المحاصيل والمواشي وترويع سكان البادية.

ولو ظفرت ثورات البادية بالقيادة الجيدة والوعي الصحيح لكانت أشد خطراً على الفرنسيين، ولاستطاعت أن تمد ثورات المدن بالرجال والسلاح والذخيرة.

الثورة في الشوف والحولة والجولان وجنوب لبنان

١٨

أراني مضطراً قبل الحديث عن الثورة السورية الكبرى إلى الرجوع إلى شهر آب من عام ١٩١٩ حيث هب سكان (الشوف) في جنوب لبنان فهاجموا المفوض السامي يومئذ (جورج بيكو) ومرافقه الأميرال (مورني) فجرح مورني ونجا بيكو بأعجوبة، وأعدم الفرنسيون جمهوراً كبيراً من الناس، ولجأ عدد من سكان تلك القرى إلى دمشق التي لم يكن قد وصل الفرنسيون إليها بعد.

وقرب بحيرة الحولة وفي إقليم الجولان ومرجعيون ثارت جموع وطردت كتيبة فرنسية من الخيالة، فأرسلت السلطة الفرنسية الجنرال (ده لاموت) للقضاء على ثورة الجولان وضربت قريتي الخالصة، وكفر كلا وأحرقت قرى أخرى ونهبتها.

والحق الفرنسيون (جبل عامل) بلبنان فثار سكانه بقيادة الشهيدين صادق حمزة، وأدهم خنجر ولكن الفرنسيين سيروا قواتهم وارتكبوا الفظائع في قرى النبطية، بنت جبيل، الباصورية، كفرسير، دير عنتر، مجدل سليم، دونين.

وفي ٢٥ تموز ١٩٢٠ دخل الفرنسيون دمشق فحاول بعض الأبطال اغتيال الجنرال (غورو) المفوض السامي وقتئذٍ وذلك في ٢٣ حزيران ١٩٢١، وكان في طريقه إلى القنيطرة فقتل الضابط المترجم وجرح مرافقه ولكن (غورو) لم يهلك.

وسيَّر الفرنسيون حملة لإلقاء القبض على المهاجمين ومنهم (خليل علي مريود ومحمود حسن، وشريف شاهين، ومحمد ضاهر وصادق حمزة وأدهم خنجر) وللتنكيل بالأهلين، وارتكبوا جرائم القتل بالجملة في ٢٦ حزيران ١٩٢١ في جباتا الخشب وطرنجة وجباتا الزيت، وتل الشيحة.

وظلت الانتفاضات تتوالى في طول البلاد وعرضها، والتهب الجنوب وثار أبناؤه فأرسل زعماء تلك المناطق الجنوبية من البلاد إلى سلطان باشا الأطرش يطلبون منه النجدة.

فاستجاب سلطان باشا لصرخات قومه وأرسل حملة على رأسها أخوه زيد الأطرش ومن قادتها: نزيه المؤيد العظم، وأبطال من بني الأطرش (حسن وصباح وفضل الله وسلمان وأسد وجاد الله) وفؤاد نصري سليم، وحمزة الدرويش، وسعيد اليمني، وحسن القنطار، وفرحان العبد الله، وصبري فريد البديوي، وشاهين أبو فخر، وفارس مفرج، وخليل بصلة، وحميد عوض، وسعيد الأظن، وأبو صلاح العرجا.

واستطاعت الحملة أن تحرر عرنة ومجدل شمس وحاصبيا وكوكبا وبرغز ومرجعيون، بعد أن قتل من الفرنسيين ثلاثمئة جندي.

وسار الثوار نحو بلدة راشيا لتحريرها وبدؤوا بتطويقها فلجأ الفرنسيون إلى قلعتها الشهيرة بقيادة الكابتن (جرانجيه)، وأحاط الثوار بالقلعة ففتحوا فيها ثغرة واستعانوا بالسلالم وارتقوها، ثم دخلوا القلعة ظافرين وصرع الكابتن (جرانجيه) ولقي جزاء جرائمه، كما قتل نصف الحامية الفرنسية، وخسر الثوار مئة شهيد، كما قتل أكثر من ثلاثمئة شهيد من السكان المسالمين أعدمهم الفرنسيون ظلماً وبغياً منهم: (الشيخ نعمان زاكية) شيخ عقل دروز راشيا مع أولاده لأنه آوى في بيته عدداً من الجرحى الوطنيين، كما قتلوا الجرحى الذين وجدوهم في منزله.

وفي البقاع من لبنان الحالي ثار الوطنيون وفي ١٢ شباط ١٩٢٦ هاجم القائد الثوري شكيب وهاب - منطلقاً من قرية (ينطا) هاجم قوة فرنسية بقيادة الكولونيل (فيرن) قرب قرية الحلوة فقتل وجرح خمسين من الجند الفرنسيين.

كما اشتبك بقوة فرنسية أخرى بقيادة القومندان (لفور) قرب قرية البيرة وقتل من الفرنسيين (٩٠) جنديا واستشهد عدد مماثل من الثوار، وظل شكيب وهاب يقاتل بمن معه من الثوار مما زاد في شراسة المستعمرين فأرسلت إليه ثلاثة جيوش. أطبق اثنان منها على مجدل شمس وقصفوها بالمدفعية الثقيلة.

وفي ٣ نيسان ١٩٢٦ دخلها الفرنسيون بعد أن دفعوا الثمن غاليا من رجالهم وضباطهم كما استشهد (١٣١) ثائراً.

وفي ١٠ حزيران ١٩٢٦ كان الثائر الشهيد أحمد مريود في قرية جباتا الخشب فوجه الفرنسيون قوة كبيرة اقتحمت القرية وسقط في المعركة ٤١ شهيداً وعلى رأسهم البطل أحمد مريود وأخوه.

والشهيد أحمد مريود علم من أعلام الثورات السورية حين التحق بالثورة عام ١٩٢٦ كان يقيم وقتئذ في بغداد وقد حكم عليه الفرنسيون بالموت إذ اعتبروه أحد المسؤولين عن مقاومة الحكومة الفرنسية في عهد فيصل، بل اعتبروه المسؤول الأول عن حادثة إطلاق الرصاص على سيارة الجنرال (غورو) أثناء ذهابه زائراً منطقة الجولان.

وكان الشهيد ذا حظوة عظمى عند الملك فيصل في بغداد فترك العراق ليلتحق بالثورة وليخوض الحرب إلى جانب مواطنيه وإخوانه الثوار لأنّ روحه الثورية أبت عليه أن يبقى في بلاط جلالة الملك فيصل ومواطنوه في سورية يذبحون وتهان كرامتهم.

نعم إن نفس هذا الزعيم الثوري لتأبى عليه أن يبقى ينعم في بغداد بينما رفاقه في سورية يتجرعون كؤوس الموت.

وصدق شوقي حين قال:

إن البطولة أن تموت من الظما   ليس البطولة أن تَعبّ الماء

وهذا هو ما فعله الشهيد العظيم أحمد مريود فقد آثر أن يروي ثرى وطنه بدمه فلم يتخلف عن التضحية بروحه في سبيل الذود عن وطنه الغالي.

وحين وصل أحمد مريود إلى سورية التقى بالقائد الخالد سلطان باشا الأطرش، وبحث معه في أمر إضرام الثورة في قرية جباتا الخشب وما جاورها، ولعل ذلك يخفف من ضغط الفرنسيين على عمليات سلطان الثورية.

ووحد خطته مع القائد الثوري الأمير عادل أرسلان، والتحق بهم بعض الثوار كما قدمنا من ثوار دمشق وتمركز في جباتا الخشب وأرسل ابن أخيه للاستطلاع، غير أن الفرنسيين استطاعوا أن يمروا دون أن تشعر بهم طليعة الثوار وأسرعوا ليطوقوا جباتا الخشب.

وفوجئ الشهيد أحمد مريود بالفرنسيين فأخذ يستعد هو ورفاقه للقائهم وقد أحدق المتطوعة المحليون بالقرية وأخذوا يزحفون إليها من كل صوب.

وقامت الطائرات بقصف القرية قصفاً شديداً.

غير أن المرتزقة كانوا قد قضوا على عدد كبير من الثوار، ونفذ الرصاص من جعبة الشهيد أحمد مريود، فأصيب وخرّ صريعاً وقتل في هذه المعركة أخوه محمود مريود، وحكمة العسلي، وفائق العسلي، ومحمد أسعد مريود.

وقد كان في استطاعة الشهيد أحمد مريود أن ينسحب ولكن البطل الأبي لا يترك الساحة أو يروي بدمه ثراها.

وقد كان فوت الموتِ سهلاً فرده

إليه الحفاظُ المرّ والخُلُقُ الوعرُ

ونفسٌ تعافُ العارَ حتى كأنه

هو الكفرُ يوم الروع أو دونهُ الكفرُ

الثورة السورية الكبرى

١٩

ثورة بني معروف

- ١ -

حينما احتلت فرنسا سورية مزقتها إلى دويلات ذات صبغة طائفية، وجعلت جبل الدروز دويلة بمرسوم مؤرخ في ٤ آذار ١٩٢١.

ومرت الأيام وجاء حزيران ١٩٢١ فأراد الجنرال (غورو) المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان أن يزور منطقة الجولان، وأن تقام له حفلة غداء في مضارب آل الشعلان شيوخ عشيرة (الرولة) هناك، وكان الشهيد أحمد مريود قد بلغه هذا النبأ فاتفق مع جماعة من الثوار الشجعان الذين كانوا يقيمون في قرية (كفرسوم) في الأردن وهم: خليل بن علي مريود، ومحمود حسن محمود من جباتا الخشب، ومحمد البرازي أبو دياب من دمشق، وشريف شاهين البعلبكي من (جباتا الزيت) ومحمد ضاهر من (شبعا) وانضم إليهم الثائر أدهم خنجر، اتفقوا على مهاجمة الجنرال غورو والقضاء عليه وعلى مرافقيه.

ووقف الثوار بين دمشق والقنيطرة يرتدون لباس رجال الدرك الرسمي بالقرب من (خان أرينبة) وحين مرت سيارة الجنرال (غورو) أطلقوا عليها الرصاص فقتل مرافق الجنرال الليوتنانت (برانه) وانطلق السائق بسرعة وقد رمى الجنرال بنفسه خلف مقعد السائق، وانحنى رئيس الوزراء السيد حقي

العظم، بجسمه على الجنرال ليحميه من الرصاص فأصيب بعدة جراح ثم انطلقت السيارة ونجا الجنرال وما كاد ينجو.

وأصدرت المحكمة أحكام الإعدام على أكثرية الرجال من آل مريود وعلى الثوار الذين هاجموا السيارة فلجؤوا إلى الأردن، وحاول الفرنسيون حمل الأردن على تسليم هؤلاء اللاجئين، وكادوا يظفرون برغبتهم غير أن رؤساء عشائر بني صخر (مثقال الفايز، وحديثة الخريشة، والسيد سعيد خير) حالوا دون نجاح هذه المحاولة.

أما أدهم خنجر فقد لجأ بعد سنين إلى جبل العرب قاصداً دار سلطان باشا الأطرش ليأمن بجواره على حياته.

وقبل أن يدخل دار سلطان باشا في (القريّا) ألقي عليه القبض في السويداء، فأرسل أدهم رسالة إلى سلطان باشا وهذه هي حرفياً:

سيدي صاحب العطوفة سلطان باشا الأفخم.

بعد إهداء السلام أقبل الأيادي مع الأقدام، ثم اعرض لعطوفتكم بأنني كنت قاصداً دياركم العامرة، لأجل أن احتمي فيها من نوائب هذا الزمان، فعندما وصلت ألقى القبض عليّ المديرُ والعسكرُ، وأخذوا مني حصاني وامتعتي كلها، وبعدها سألوني عن اسمي فجاوبتهم بالواقع، وبعد أخذ إفادتي ذهبوا بي إلى (الكفر) وبعد مضي خمس ساعات في البلد، ذهبوا بي إلى (السويداء) والآن أنا قيد السجن.. فالآن أصبحت حياتي في يدي الحكومة الفرنسية ولا يمكن تخليصها إلا بمساعدتكم، وعلى كل حال لكم في العادة أن تحموا وتخلصوا كل منداق، وأنا لولا ما كنت أمين على حياتي بوجود عطوفتكم، ما كنت أتيت جهراً، والآن دخلت دياركم العامر مستجيراً وداخل في حريمكم وفي أولادكم وفي كل الطرشان.

١٨ تموز ١٩٣٢ — الداعي

أدهم خنجر الصعيبي

وبعث سلطان باشا الأطرش أخاه إلى السويداء مصحوباً ببرقية منه إلى الحاكم هذا نصها:

دمشق - حاكم دولة جبل الدورز الأمير سليم الأفخم.

إن الحكومة المنتدبة تعترف في البرنامج، أنها تحافظ على تقاليدنا وعوائدنا، ومع الأسف أفراد الدرك والمدير لم يراعوا هذا البند، والقوا القبض على ضيف طالب التوسط منا عند الفرنسيين في بلدنا، وناصر بوجهنا انهض همتكم، وتدارك الأمر، صعب علي إهانة قاصدي، نوعاً عن عشائر الجبل وسورية، الحل الوحيد إطلاق الرجل، وإنني لا أتأخر عن كل ما يرضي الفرنسيين.

ولم تفد البرقية شيئاً فأرسل سلطان باشا البرقية التالية إلى المفوض السامي:

عالية، فخامة المندوب السامي لسورية ولبنان المعظم:

مع الأسف لم يراع البند ((إن فرنسا تحافظ على تقاليدنا وعوائدنا)) ومعلوم أن الضيف والقاصد هما واحد في نظر العشائر، فرجال حكومتنا الوطنية لم يراعوا هذا البند، وسعادة المستشار (ترانكا) يؤيد إصراره أطلب من حلمكم أو عدلكم أن لا تجعلني مضغة" في أفواه العرب، وأن أتخصص بالإهانة، عن أمثالي في سورية، وبعد هذا تروني اعترف في حلمكم ويقضي الواجب أداء الشكر لفخامتكم وجاهاً، غير مجهول أن موتي وإهانة ضيفي مثل بعضهما في عوائد السوريين، الرجل يطلب مني أن أتوسط له عفواً من فخامتكم، حلمكم إنقاذاً لشرفي ووطني.

١٨ تموز ١٩٢٢ سلطان الأطرش

ولم تفد جميع الوسائل التي اتخذها سلطان باشا لفك أسر ضيفه بل نقل الفرنسيون أدهم خنجر إلى لبنان وأعدموه هناك فتصدى سلطان باشا لفرقة فرنسية فقَتل قائد الفرقة وعدد من رجاله ودارت بعض المعارك لجأ بعدها

سلطان باشا إلى شرقي الأردن، وتوفي الأمير سليم حاكم الجبل فعين الفرنسيون حاكماً فرنسياً هو الكابتن (كربييه) وكان هذا الفرنسي فاسداً شريراً وشاذاً.

وصدر عفو عن سلطان باشا ورجاله في ٥ نيسان ١٩٢٣، ولكن سلطان باشا كان دائم الاتصال برجال الثورات التي كانت تشب في أنحاء عدة من سورية.

وفي شهر أيار ١٩٢٥ ذهب الكابتن (كربييه) في إجازة إلى فرنسا فطلب زعماء الجبل من المفوض السامي نقل الكابتن (كربييه) ورفض الجنرال ساراي المفوض السامي آنذاك مقابلة الوفد ثم أعطى أمره بنفي بعض الزعماء، أما سلطان باشا فلم تطله يد الغدر لأنه لم يكن في عداد الوافدين، بل كان يتجول في قرى الجبل، يحض المواطنين على الثورة.

وفي ١٧ تموز ١٩٢٥ أحرق سلطان باشا ومعه عدد كبير من الثوار دار البعثة العسكرية في مدينة (صلخد) ومنها بدأت الثورة الكبرى.

ولد سلطان باشا في ٦ تموز ١٨٩١ في قصبة (القريَّا) ودرس قواعد القراءة والكتابة في بلدته. تدرب على الفروسية وهو ابن خمس عشرة سنة، وانخرط في سلك الخدمة العسكرية خلال الحكم التركي فذهب إلى سلانيك ومنستر، وأعدم الأتراك والده (ذوقان الأطرش) ظلماً وبغياً فترك سلطان الجيش ورجع إلى الجبل مع عدد من الشبيبة الدرزية، ثم انضم إلى الأمير فيصل بن الحسين، وقاتل الجيش التركي حتى خرج آخر جندي تركي من سورية.

وسلطان باشا الأطرش طويل القامة، عريض الأكتاف، باش الوجه، مهيب، حاد النظر، كثير التفكير، مخلص يحترم ضيفه، ويستميت في سبيل الدفاع عنه. متمسك بتقاليد قومه، محب للإنسانية، شهم، كريم، وفارس شجاع.

وداره التي قصفها الفرنسيون بالطائرات مضافة واسعة، معدة للضيوف الذين يؤمون داره في أي وقت فيجدون فيها الحماية والرعاية، وهو جمهوري بنزعته، ديمقراطي بأخلاقه وتصرفه.

اندلاع الثورة

أصرَّ الجنرال ساراي المفوض السامي الفرنسي على إعادة الكابتن (كربييه) حاكماً على الجبل بالرغم من إرادة الأهلين، وأعلن زعماء الجبل رفضهم إعادته عن طريق نائب (كربييه) القومندان (تومي مرتان)، ثم عمد الأخير إلى استدعاء سلطان باشا من القريا إلى السويداء، فرفض سلطان باشا تلبية طلب القومندان.

وفي ١٦ تموز ١٩٢٥ هاجم رجال سلطان باشا فصيلة من الجند الفرنسي كانت قد استقرت في قرية الكفر فقتلت منها (١٩٠) جندياً فلجأ الباقون إلى السويداء وتحصنوا في قلعتها، وفي ١٧ منه أرسلت السلطة الفرنسية طائراتها للاستطلاع، وفي ٢١ تموز اشتبك الثوار بالفرنسيين فقتلوا (١٦٦) والتجأ القومندان تومي مرتان إلى قلعة السويداء.

معركة الجنرال ميشو (معركة المزرعة)

سيَّر الجنرال ساراي قوة مجموعها أربعة آلاف جندي بقيادة الجنرال (ميشو) ووصلت هذه القوة إلى بلدة (أزرع) وتحركت في أول آب قاصدة السويداء، وبعد أن اجتازت (نجران) وقعت في فخ نصبه لها الثوار بقيادة حمدبك البربور واستشهد فيها القائد حمد مع أخيه أجود وابن عمه أحمد وبلغت خسائر الفرنسيين في هذه المعركة (١٠٠٠) قتيل، وتمزقت صفوف الحملة الفرنسية وقتل آخرون من رجالها وغنم الثوار معداتها من المدافع والبنادق والدبابات، ولجأ الجنرال ميشو إلى دبابة عادت به إلى ازرع، ولو واصل الثوار تقدمهم لتمكنوا من دخول دمشق دون مقاومة، وبلغ عدد الشهداء في هذه المعركة مئتين وخمسين شهيداً.

وبعد معركة ميشو هاجم الطيران الفرنسي ثمانين قرية من قرى الجبل البالغ عددها يومئذ (١٢٠) ولكن عدد الثوار ازداد زيادة عظيمة فبلغ عشرين ألف ثائر مسلح، وانضم إليهم رجال القبائل المحيطة بالجبل كعرب الصفا وقبيلة (غياث) وقبائل (عنزة) و(الرولة)، كما انضم يومها إلى الثورة رجال حزب الشعب السوري وعلى رأسهم الدكتور عبد الرحمن شهبندر، ونسيب البكري وغيرهم.

وفي ١٢ آب ١٩٢٥ نسف الثوار جسر الدير علي وهو على بعد ٣٠ كم عن دمشق وانسحب الفرنسيون من ازرع إلى دمشق.

وعمد الفرنسيون إلى إرسال خمسين من رجال الدرك فأسرهم الثوار وأفهموهم أن عدو سورية هو المحتل الفرنسي فما عليهم إلا أن يعودوا إلى ديارهم وألا يكونوا عوناً للعدو بعد اليوم.

ومنذ ١٨ تموز وقلعة السويداء محاصرة من قبل سلطان باشا والطائرات الفرنسية تمد حاميتها بالمؤن والذخيرة، وقد أسقط الثوار عدداً من هذه الطائرات.

ويطيب لي أن أورد بعض ما قيل في معركة المزرعة فهذه قصيدة أمين ناصر الدين التي يقول فيها:

وقد غطَّتِ القتلى الفضاءَ بأسرهِ ... فكلُّ ذراعٍ قد علاه قتيلُ
وأفنِيَ ذاك الجيشُ إلا أقلَّه ... وراحتْ تذيعُ الخطبَ عنه فلولُ
وقائِدُهُ قد فرَّ خذيانَ نادماً ... وقد ملكتهُ حسرةٌ وذهولُ
إذا شفقٌ في الأفقِ لاحَ يخالُهُ ... دماً عكسته الأرضُ وهو يسيلُ
وإنْ لاحَ برقٌ ظنهُ لمْعَ صارم ... يصول به صدقُ اللقاء حفيلُ
ودبابةٌ فولاذها يصدعُ الصّفا ... ورشّاشُها كالمغدقاتِ هَمولُ
جرتْ والردى يجري على خطواتِها ... فحطَّمَها ثبتُ الجنانِ نبيلُ
ولم ينجُ مما نابَها أخواتُها ... فَعُدْنَ حطاماً والشهودُ عَدولُ

وقد قتل في معركة المزرعة عدد من ضباط فرنسا، وفي ١٧ آب جرح الجنرال (سوله) في فخذه مع مرافقه الكابتن (ده كوتل) الذي جرح في فخذه ويده، إثر عمليةِ تفتيش قام بها الجنرال على جنوده قرب دمشق، كما سقط عدد كبير من الأبطال العرب شهداء يروون بدمائهم أرض الوطن المقدس.

المنشور الثوري الأول لسلطان باشا الأطرش

في ٢٣ آب ١٩٢٥ أعلن سلطان باشا الثورة رسمياً بالبلاغ التالي:

إلى السلاح إلى السلاح

يا أحفاد العرب الأمجاد، هذا يوم ينفع المجاهدين جهادهم، والعاملين في سبيل الحرية والاستقلال عملهم، هذا يوم انتباه الأمم والشعوب فلننهض من رقادنا، ولنبدد ظلام التحكم الأجنبي عن سماء بلادنا. فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد أن سكت القلم ولا يضيع حق وراءه مطالب.

أيها السوريون: لقد أثبتت التجارب أن الحق يؤخذ ولا يعطى فلنأخذ حقنا بحد السيوف ولنطلب الموت توهب لنا الحياة.

أيها العرب السوريون

تذكروا أجدادكم وتاريخكم وشهداءكم وشرفكم القومي، تذكروا أن يد الله مع الجماعة، وأن إرادة الشعب من إرادة الله، وأن الأمم المتحدة الناهضة لن تنالها يد البغي. لقد نهب المستعمرون أموالنا واستأثروا بمنافع بلادنا، وأقاموا الحواجز الضارة بين وطننا الواحد، وقسمونا إلى شعوب وطوائف، ودويلات، وحالوا بيننا وبين حرية الدين والفكر والضمير وحرية التجارة والسفر حتى في بلادنا وأقاليمنا.

إلى السلاح أيها الوطنيون، إلى السلاح تحقيقاً لأماني البلاد المقدسة إلى السلاح تأييداً لسيادة الشعب وحرية الأمة، إلى السلاح بعدما سلب الأجنبي حقوقكم، واستعبد بلادكم، ونقض عهودكم، ولم يحافظ على شرف الوعود الرسمية وتناسى الأماني القومية.

نحن نبرأ إلى الله من مسؤولية سفك الدماء، ونعتبر المستعمرين مسؤولين مباشرة عن الفتنة، يا ويح الظلم، لقد وصلنا من الظلم إلى أن نهان في عقر دارنا فنطلب استبدال حاكم أجنبي محروم من المزايا الإنسانية، بآخر من بني جلدته الغاصبين، فلا يجاب لطلبنا بل يطرد وفدنا كما تطرد النعاج.

إلى السلاح أيها الوطنيون، ولنغسل إهانة الأمة بدم النجدة والبطولة. إن حربنا اليوم هي حرب مقدسة، ومطالبنا هي:

١ - وحدة البلاد السورية، ساحلها وداخلها، والاعتراف بدولة سورية عربية موحدة، مستقلة استقلالاً تاماً.

٢ - قيام حكومة شعبية، تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الأمة سيادة مطلقة.

٣ - سحب القوى المحتلة من البلاد السورية، وتأليف جيش مليّ لصيانة الأمن.

٤ - تأييد مبدأ الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان في الحرية والمساواة والإخاء.

إلى السلاح ولنكتب مطالبنا المشروعة هذه بدمائنا الطاهرة كما كتبها أجدادنا من قبلنا.

إلى السلاح والله معنا والإنسانية معنا ولتحي سورية حرة مستقلة.

سلطان الأطرش

قائد جيوش الثورة السورية الوطنية العام

وبعد هذا البيان نشطت قيادة الثورة لتوسيع أعمالها فتقدمت مفارزها نحو دمشق بغية احتلالها، واشتبكت مع الطيران الفرنسي، كما اشتبكت بحملة فرنسية يقودها الكولونيل (ماسييه) واستطاعت أن توقع في الفرنسيين إصابات كبيرة قبل أن تنسحب إلى مواقعها الحصينة.

وعمد الفرنسيون الأنذال إلى نشر بيانات معاكسة تنضح بالحقد واللؤم والسفه، وهذا منشور من تلك المناشير:

من الدولة المنتدبة إلى سكان الجبل

يا سكان الجبل:

إن الأفّاق سلطان باشا في عصيانه على فرنسا، إنما هو يمهد للخراب النهائي لبلادكم من غير أن يشعر، وقد لحق به بعض المتهوسين الذين لم يحسبوا حساباً لما قد يجره عملهم هذا، من الأضرار برقي البلاد وازدهارها.

إن إنزال العقاب بالعصاة سيبدأ قريباً وسيكون قاسياً وشديداً، فأما الذين ظلوا منكم أمناء فلن يلحقهم إزعاج بل إن أمانتهم هذه سوف تجد ثواباً جزيلاً، وأما الذين جرهم سلطان باشا إلى العصيان، ثم عادوا نادمين خاضعين قبل فوات الحين فإن هؤلاء لن يشملهم العقاب، وسينال الذين تخلفوا منهم عن الطاعة عقاباً يستحقونه.

يا سكان الجبل:

أنتم الذين لا تريدون خراب بلادكم، ولا قذف نفوسكم إلى عقاب شديد، احذروا أن تربطوا مقدرات قضيتكم بقضية سلطان الخاسرة.

الثورة السورية تتحرك نحو دمشق وغوطتها

٢٠

اتصل سلطان باشا قائد الثورة السورية بالوطنيين في دمشق يستحثهم على الالتحاق بصفوف الثورة فاستجابوا لنداءاته وسارعوا إلى تلبيته فالتحق بالثورة السادة نسيب البكري والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، كما قدمنا، ثم عقدت اجتماعات في قلب دمشق وقرر المجتمعون الاشتراك بالثورة، وحاول الفرنسيون أن يفرقوا الصف الوطني فعجزوا عن ذلك، فحاولوا إبرام صلح مع سلطان باشا فرفض القائد البطل الصلح لأنه كان يعلم يقيناً أن الفرنسيين إنما يراوغون ويخادعون لكسب الوقت وجمع قواتهم وإعدادها، وإيقاع الخلاف بين قادة الثورة.

وأخذ المجاهدون من دمشق يلتحقون بالثائرين في الجبل واشتد الخطر على القوات الفرنسية فأرسلت فرنسا الجنرال (غاملان) ذا الشهرة في الحرب العالمية الأولى لقيادة الجيوش الفرنسية.

وهيأ غاملان قواته للقتال وأعدّ له الرجال والسلاح.

معركة المسيفرة

في يوم ١٤ أيلول ١٩٢٥ أمر الجنرال غاملان بجعل قرية المسيفرة قاعدة تموين وهي تقع في منتصف الطريق بين درعا والسويداء.

وفي ليلة ١٦-١٧ أيلول ١٩٢٥ سار ألف ثائر من أبناء الجبل العربي الأشم بقيادة الثائر البطل محمد عز الدين الحلبي لمهاجمة هذه القاعدة وتقويض المؤسسات العسكرية الفرنسية فيها.

وأراد القائد البطل أن يفاجئ الفرنسيين لكن أحد الثوار تعجل حين أخذته الحمية فأطلق الرصاص على العدو وهم على مسافة غير مناسبة فتيقظ الفرنسيون وشاهدوا الثوار يتقدمون فأصلوهم ناراً حامية من رشاشاتهم ومدافعهم، دون أن يجد الثوار صخرة يقف أحدهم وراءها ليحمي نفسه من نار العدو.

ومع ذلك ورغم الخسائر الكبيرة التي نزلت بالثوار الأبطال فإن بعضهم وصل إلى القرية واستمر القتال في شوارعها وأزقتها وبيوتها طيلة الليل. وفي صباح ١٧ أيلول ١٩٢٥ تدخلت الطائرات الفرنسية، فصبت حممها على الثوار خلال سبع وعشرين غارة، وفي الساعة الرابعة بعد الظهر انسحب الثوار بعد أن خسروا (٢١٠) من الشهداء منهم: سليمان بن حمود الحلبي، وسلامة بن صالح الحلبي، والشيخ عطا الله العودة وكامل بن حسن الحلبي ومحمد بن قرقوط الحلبي.

معركة تل الحديد وفك الحصار عن قلعة السويداء

وأخذ الفرنسيون يتقدمون نحو السويداء لفك الحصار عن قلعتها، ففي صباح ٢٢ أيلول ١٩٢٥ تحرك الجنرال غاملان نحو السويداء فوصل إلى تل الحديد يوم ٢٣ منه وتمكن الثوار من إيقافهم.

وجاءت تعزيزات إلى الجنرال فاستطاع أن يدخل السويداء في ٢٤ أيلول ١٩٢٥ بعد أن خسر خمسة ضباط وثلاثة وأربعين قتيلاً.

معركتا (عرى) و(المجيمر)

وتقدم الجنرال غاملان نحو الجنوب قاصداً (رساس) باتجاه (عرى) يوم ١٩٢٥/١٠/٣ وتصدى له الثوار قرب قرية (المجيمر) فضرب الفرنسيون

(المجيمر) بالمدفعية ثم دخلوا (عرى) في نفس ذلك اليوم أي ٣ تشرين الأول ١٩٢٥.

وصنع الثوار كماشة تتألف من ٧٠٠ فارس ولكن السلاح الآلي الفرنسي كان فتّاكاً فلم يستطع الثوار أن يتغلبوا على العدو.

وانطلق الفرنسيون من (رساس) إلى المزرعة حيث دفنوا قتلاهم الذين سقطوا في أوائل شهر آب ١٩٢٥ فالتقوا بالثوار عند باب الحديد حيث اضطر الجنرال غاملان إلى زج كل احتياطييه.

هنري ده جوفنيل يحل محل الجنرال ساراي السفاك

وعينت فرنسا السيد هنري ده جوفنيل عضو مجلس الشيوخ بدلاً من الجنرال ساراي القائد الأهوج فطلب من زعماء الجبل العربي أن يخلدوا إلى السلام، وإنه إنما جاء ليصحح الأخطاء التي ارتكبت.

واجتمع الثوار في دار شبيب القنطار في قرية الداما في آخر شباط ١٩٢٦.

وطلبوا من المفوض السامي الجديد المطالب التالية:

١- الاعتراف باستقلال الأراضي السورية.

٢- توحيد الأراضي السورية.

٣- توقيع معاهدة مع فرنسا تضمن المصالح الفرنسية دون أن تمس بالسيادة الوطنية السورية.

٤- انسحاب فرنسا.

٥- إصدار عفو عام.

حملة الجنرال أندريا واحتلال السويداء

ولم يقبل المفوض السامي بذلك وأمر الجنرال أندريا بالتوجه إلى الجبل على رأس حملة تضم عشرة آلاف جندي فرنسي وانطلق باتجاه السويداء في ٢٣ نيسان ١٩٢٦ مع ثلاثة أسراب من الطائرات.

واشتبك الثوار مع الفرنسيين في عدة معارك وأسقطوا طائرتين، ودبت الفوضى في بعض فصائل الجيش الفرنسي، واضطر الكولونيل (بيشون ديكلو) إلى طلب النجدة، وسارعت فرنسا فأرسلت النجدات المسلحة تسليحا كاملا، وفي النهاية تمكن الفرنسيون من احتلال السويداء في ٢٥ نيسان ١٩٢٦ بعد أن خسروا ٨٤ قتيلاً.

احتلال شهبا

وفي ١٣ آذار ١٩٢٦ قام الجنرال غاملان بزيارة السويداء، وأمر الجنرال أندريا بمتابعة زحفه نحو (شهبا) فسار إليها في ١٥ أيار وتم احتلال شهبا بعد قتال مرير.

احتلال صلخد

وفي ١ حزيران توجه الجنرال أندريا لاحتلال (صلخد) فصادف مقاومة شديدة عند قرية (أم الرمان)، وفي ٤ حزيران أطل الجنرال على صلخد واحتلها.

تواطؤ فرنسا وانكلترا وتعاونهما للقضاء على الثورة

اتصل الفرنسيون بحلفائهم الانكليز واجتمعوا في درعا يوم ٢٣ أيلول ١٩٢٦ وتقرر ما يلي:

١- منع الرجال القادرين على حمل السلاح من البقاء في منطقة الأزرق بالأردن.

٢- يخير الدروز الملتجئون إلى شرق الأردن بين نقلهم إلى معسكرات تجميع في فلسطين أو إعادتهم إلى الجبل.

٣- تحدد إقامة الشيخ إسماعيل الحريري من حوران بقرية (السلط) الأردنية.

٤- يمنع كل من سلطان باشا الأطرش والدكتور عبد الرحمن الشهبندر من دخول الأراضي السورية والأردنية.

ونشط الفرنسيون بعد هذا الاتفاق بينهم وبين الانكليز فاحتلوا (عرمان) و(الملاح) وتكبدوا خسائر فادحة في الجنود والضباط وذلك في أواخر آب ١٩٢٦، وكذا في ١٦ ايلول ١٩٢٦.

وفي ٢ تشرين الأول ١٩٢٦ حشد الفرنسيون حشوداً عظيمة منهم ومن المرتزقة.

وفي ٢١ منه انطلقت هذه القوات بعد راحة قصيرة في السويداء مارة بشهبا واحتلت في ٢٥ تشرين الأول قرية (الصَوَرَة الصغرى) و(الرضيمة)، وفي ١٩٢٦/١٠/٢٦ احتلت (لاهثة) وفقدت عدداً من جنودها فيهم ضابطان.

وهذه القرى تقع في (اللجاه) وهي أرض جبلية وعرة تقع شمال وشمال غرب جبل العرب.

وفي ١٩٢٦/١٠/٣١ حاول الفرنسيون احتلال قرية (صميد) ولكنهم صدوا بعد أن تكبدوا خسائر فادحة وأسقطت لهم أربع طائرات.

وفي ٣ كانون الثاني ١٩٢٧ دارت معركة كبرى بين الفرنسيين والثوار في منطقة (أبي زريق) حول (تل اللوز) الواقع على بعد ١٢ كيلو متر عن صلخد فخسر الفرنسيون خسائر فادحة فيهم ضابط واحد، وخسر المجاهدون (٣٥) شهيداً.

الفرنسيون يعدون جيوشهم لإنهاء الثورة

وفي شهر شباط ١٩٢٧ بدأ الفرنسيون يعدون جيوشهم المؤلفة من الفرنسيين وجنود المستعمرات والمرتزقة المحليين للقضاء على الثورة، فخصصوا جيوشاً خمسة لاقتحام (اللجاه) تدعمها جيوش خمسة أخرى، وأعدت أسراب من الطائرات لتدمير كل المراكز التي يتواجد فيها الثوار.

وبدأت العمليات في صباح ٢٩ آذار ١٩٢٧، واستمرت حتى ١١ نيسان ١٩٢٧ بضراوة لم يعهد لها مثيل وكان الانكليز قد أمروا من كان في الأردن من الثوار اللاجئين بالخروج منه وتعاون الانكليز مع الفرنسيين تعاوناً وثيقاً

لإنهاء الثورة، وهذا شأن الاستعمار الماكر، فالمستعمرون قد يختلفون على الغنائم ولكنهم متفقون في القضاء على الفريسة.

لجأ القائد الكريم سلطان باشا ومعه ما يقارب (١٣٦٠) ثائراً إلى (وادي السرحان) في الحجاز حيث عاشوا تحت الخيام ولكن نفوسهم الأبية العزيزة لم ينلها الوهن ولا الخور، حتى صدر العفو العام فعادوا جميعاً إلى الجبل الأشم.

نهاية الثورة ونتائجها

كان من أبرز أسباب انتهاء الثورة هو أمر تدبير الغذاء والسلاح فالثورة تحتاج إلى هذين المطلبين الأساسيين وهذان يحتاجان إلى مال، وكان التمويل ضعيفاً وبطيناً، مع سوء في التنظيم، فالثورات في الغالب ينقصها التنظيم والتخطيط والبرمجة وكل ذلك لم يكن موجوداً أيامئذٍ، وزاد على ذلك تحالف المستعمرين الانكليز والفرنسيين على تصفية الثورة بكل ثمن.

ولكن نتائج هذه الثورة كانت رائعة فقد ردت الترابط الثوري بين أبناء البلاد إلى سابق عهده أيام ثورة الحسين بن علي وجعلت أهالي جبل العرب بني معروف أكثر التحاماً بإخوانهم في سائر أنحاء سورية.

وخسرت سورية في هذه الثورة وحدها (١٧٠٠) شهيداً عدا النساء والأطفال الذين قتلتهم الغارات الجوية، أما خسائر الفرنسيين فبلغت (٢٥٠٠) قتيل، وأهم من كل ذلك أن فرنسا أخذت تشعر بأنها لن تبقى طويلاً في هذا البلد المناضل (سورية) العزيزة.

الثورة السورية الكبرى
ثورة دمشق والغوطتين

٢١

كانت ثورة دمشق والغوطتين في عام ١٩٢٥ عملاً جباراً وامتداداً لثورات الشمال والجنوب، بالإضافة إلى شمولها واتساعها وضخامتها، فلقد انتهكت السلطة الفرنسية الحريات وأمعنت في السرقات، وخنقت الصحافة وسارت مع سياسة التجزئة بين المواطنين، وشجعت الطائفية، وأهانت المؤسسات الدينية، فوصل الأمر برجال الدين إلى حد أن يقف أحدهم وهو المرحوم علي الدقر في جامع السنانية خطيباً فيقول: يا إخواننا: اللص دخل الدار وهو يطلب منكم ثلاثة أشياء: دينكم ومالكم وعرضكم. ولما سأله أحد المصلين، ومن هو هذا اللص يا شيخي؟.. فأجاب الشيخ: إنّه فرنسا.

كما أساءت السلطة الفرنسية إلى الشعب إساءات بالغة في الإكثار من فتح الملاهي والخمارات ودور الفحش لإسقاط الأخلاق، وإيقاع البلاد في بؤرة فساد خلقي شنيع وانحلال وتقويض للمثل الاجتماعية.

وأيضاً لجأت السلطة إلى فرض الغرامات لجمع الذهب المتوفر لدى الأهلين، وإلى السخرة، وهي العمل المجاني لحساب السلطة الفرنسية، وضربت التجارة والصناعة والزراعة واستولت على الجمارك.

بدء الثورة

عقد اجتماع في دار المرحوم الحاج عثمان الشراباتي في أوائل آب ١٩٢٥ حضره السادة: يحيى حياتي، عبد الرحمن الشهبندر، وفوزي ونسيب البكري، حسن الحكيم، سعيد حيدر، سعد الدين المؤيد العظم، ذكي الدروبي، نبيه العظمة، توفيق الحلبي، جميل مردم، عبد المجيد الطباع.

وقرر المجتمعون نقل الثورة إلى دمشق فاتصلوا بثوار جبل العرب، والتقوا في قرية (الكسوة) وتم الاتفاق على التعاون وحاولت مفرزة من الثوار الدروز دخول دمشق في ٢٤ آب ١٩٢٥، ثم اجتمعت مع الثوار في الغوطة واتخذوها قاعدة لهم.

وكان أول عمل في الغوطة هو مهاجمة مخفر درك (النشابية) وقطع الخطوط الهاتفية ومصادرة أسلحة رجال المخفر.

معركة جوبر

سيَّر الفرنسيون جنودهم إلى جوبر واشتبكوا مع الثوار وفيهم عبد القادر سكر، الشيخ محمد حجاز، وحسن الخراط، جماعة مئذنه الشحم وانهزمت الحملة الفرنسية في تلك المعركة حتى لجأت إلى دمشق مارة ببات توما.

معركة المليحة (أو الزور الثانية)

أراد الفرنسيون أن ينتقموا لهزيمتهم في معركة جوبر فسيروا في ١٩٢٥/١/١٤ حملة ضخمة إلى (زور المليحة) فدارت معركة ضارية عند جسر الغيضة، ودارت الدائرة فيها على الفرنسيين غير أن قائد الحملة النذل جمع خمسة وعشرين قروياً وأعدمهم، وحملوهم على الجمال وطرحوهم في ساحة المرجة بدمشق لإرهاب الأهلين، فزاد هذا العمل الوحشي الثورة اشتعالاً.

نسيب البكري ورمضان شلاش يهاجمان الضمير

وفي ١٥ ت١ ١٩٢٥ هاجم الثوار بقيادة نسيب البكري ورمضان شلاش الفرنسيين في الضمير وهزموا حاميتها وغنموا كميات من الأعتدة والذخيرة وعادوا إلى مكانهم.

مهاجمة دمشق

كانت مهاجمة دمشق قرارا جريئاً بالغ الأهمية، نظراً لتفاوت قوات الطرفين ففي ١٨ ت١ ١٩٢٥ هاجمت دمشق ثلاث مجموعات:

١- **الأولى:** بقيادة نسيب البكري ومعه ثوار جبل العرب، على أن تدخل دمشق عن طريق حي الميدان (بوابة الله).

٢- **المجموعة الثانية:** بقيادة أبو عبده الديب، وكلفت بدخول المدينة عن طريق باب السلام.

٣- **المجموعة الثالثة:** بقيادة حسن الخراط مع جماعته وثوار قرية جرمانا، وكلفت بالدخول عن طريق بساتين الشاغور.

وزحفت المجموعات إلى دمشق ودخلتها في ١٩٢٥/١٠/١٨ وخسر العدو (١٠٧) قتلى.

وهاجم الثوار بقيادة نسيب البكري قطار المفوض السامي، الجنرال ساراي، القادم من بيروت ولكنهم لم يتمكنوا من قتله، كما هاجموا قصر العظم بقيادة الشهيد حسن الخراط، وهو القصر الذي كان يقيم فيه الجنرال إذا زار دمشق ودخلت القصر مفرزتا الشهيدين حسن المقبعة، وأبي علي كليب، وقتلا في المعركة وانسحب رجالها.

وقد بلغ الهلع بالجنرال مبلغاً عظيماً دعاه إلى مغادرة دمشق فوراً إلى بيروت بعد أن أعطى الأوامر لقائد منطقة دمشق بقصفها بالقنابل، وقد خسر الفرنسيون ٢٥ قتيلاً في معركة القصر.

قصف دمشق بالقنابل

حشد قائد المنطقة جنوده في القلعة وما حولها والثكنات الموجودة بحي الصالحية ومعهم الموظفون الفرنسيون وعائلاتهم.

وفي الساعة السادسة مساء ١٩٢٥/١٠/١٨ بدأ القصف على الأحياء الجنوبية التي يتواجد فيها الثوار فدمرت أحياء بكاملها، وما بين سوق الحميدية

وسوق مدحت باشا أصابه التدمير التام، وكذلك بيوت آل الركابي والبكري والقوتلي في حي الشاغور.

وفي الساعة العاشرة من صباح ١٩٢٥/١٠/١٩ قصفت الطائرات والمدفعية الأرضية المدينة من جديد فكانت الخسائر بالغة جداً، وامتد القصف حتى ظهر الثلاثاء ١٩٢٥/١٠/٢٠.

وتدخّل وجوه دمشق ومنهم عبد القادر الجزائري وحقي العظم وسفراء الدول فتوقف القصف، وغرمت المدينة مئة ألف ليرة ذهبية مع (٣٠٠) بندقية، ودفعت الغرامة وتأخر تسليم البنادق، فأنزلت السلطة الفرنسية إلى الأسواق بنادق قديمة باعتها بأغلى الأثمان لتقدم إليهم ثانية وفاء للثلاثة آلاف بندقية فهل سمع أحد بمثل هذه النذالة واللصوصية.

وكان صدى قصف دمشق في العالم العربي شديد الوقع ولكنه لم يتعدّ القصائد العصماء والخطب المؤثرة فسالت الدموع وتصاعدت الزفرات.

وكذلك الصحافة العالمية فإنها أسفت لما حدث أسفاً بالغاً، ووقفت عند حد الأسف.

وطلب بعض أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي إبدال المفوض السامي المجرم (ساراي) بمفوض آخر هو هنري دي جوفنيل.

الثوار يحاصرون دمشق

وحاصر الثوار دمشق، واعتصم الفرنسيون بمراكزهم وحصونهم فيها، بينما اتخذ الثوار مراكزهم في وادي برزة، القابون، جوبر، ناحية الزور، يلدا، ببيلا.

وكان الفرنسيون ومعهم المرتزقة يشتبكون مع الثوار في أطراف دمشق، وحين أتى هنري ده جوفنيل، خلفاً لساراي في آخر عام ١٩٢٥، ولم يستطع أن يصنع شيئاً، فأمر بالاستعداد لحرب طويلة الأمد.

ومنع التجول، وروقبت الصحف، وأعلنت الأحكام العرفية في ١٩٢٥/١١/٢٥.

معركة يلدا وببيلا

في يوم السبت ١٩٢٥/١٢/٥ وبعد أن أطلق المفوض السامي الجديد هنري ده جوفنيل شعاره: الحرب لمن يريد الحرب والسلم لمن يريد السلم، سير الفرنسيون حملة تتألف من (١٥٠٠) مقاتل إلى قرية يلدا وببيلا القريبتين من دمشق، وعلى رأس ثوار تلك المنطقة يومئذٍ نزيه المؤيد العظم فوصلت الحملة قرب القريتين يلدا وببيلا.

ونشبت المعركة بين الثوار، وعددهم لا يتجاوز المئة، وبين الحملة الفرنسية، وحين بلغت الحملة مشارف القريتين (يلدا وببيلا) أحدق الثوار بها من ثلاث جهات وأمطروا الجنود الفرنسيين وابلاً من نيران بنادقهم، فتوقفت الحملة عن التقدم خشية أن تفنى فناء تاماً وراحت المصفحات والدبابات تدعم المشاة بقنابلها ورصاصها، كما شرعت الطائرات تلقي قذائفها فوق ميدان المعركة.

وأخذ الثوار يزدادون عدداً كلما مرت الساعات، ووصل رجال من جبل العرب من شباب السويداء بقيادة متعب الأطرش وعلي الأطرش وانضمت إلى قوات أخرى من الجبل الأشم بقيادة محمد عز الدين الحلبي وسقط عدد من الشهداء ولكن الثوار استطاعوا أن يصلوا إلى رشاشات العدو ويخرسوها.

وتقدم الثوار، وكان الجنود يندحرون ويتخلون عن أسلحتهم وتحصيناتهم تاركين قتلاهم وجرحاهم على ميدان المعركة وحلّ بهم رعب لا يوصف، وأراد ضباط الحملة أن يرفعوا من معنويات جنودهم ولكنهم لم يظفروا بطائل.

وزاد ضغط الثوار على الفرنسيين حتى أجبروهم على العودة إلى خطوطهم الأولى وحين بلغ الجنود حي الميدان تحصنوا بالمقبرة فكانت مدفناً لكثير منهم، وخرج من بقي حياً يحاولون اللجوء إلى ثكنة (القدم) القريبة، وتفرقوا في شوارع حي الميدان وأزقته هائمين على وجوههم وقد قتلهم الرعب والهلع.

كانت هذه الهزيمة شديدة الوقع على السلطة الفرنسية وخشيت أن يشتد ساعد الثورة فتعصف بالقوات الاستعمارية وتدمر الكيان الاستعماري ولهذا حشدت قوات هائلة وصبت نيرانها على حي الميدان وعلى البساتين المحيطة به.

وفي المساء توقف الثوار عن إطلاق النار مؤقتاً وحملوا ما غنموه من السلاح والعتاد الفرنسي ومن بنادق ورشاشات تعد بالمئات.

وخسر الفرنسيون منتي قتيل، وثلاثمئة جريح، كما خسر الثوار ثمانية شهداء وعدداً مماثلاً من الجرحى، وكان ممن خاض هذه المعركة السادة: نسيب البكري، نزيه المؤيد العظم، علي الأطرش، متعب الأطرش، محمد عز الدين الحلبي، عبد القادر سكر، الشيخ ديب القديمي منير الريس، أحمد غازي، أجود مرشد، مؤيد شرف، خير الدين اللبابيدي، خليل بصلة، عبد الرزاق الشمري، أحمد سكر، الشيخ محمد حجاز الكيلاني، سعيد الأظن، أبو صلاح العرجا، سرحان أبو تركي، عمر عمر باشا، عبد الوهاب عمر باشا، فياض أوضهباشي، محمد سكر، أبو قاسم وأبو النور حباب، وعلي جمعة، وحمدي عيشه، منير الخطيب حسين سعدو، محمود كيوان، عبد القادر كيوان، محمود أبو يحيى، محمد شرف، أبو خالد نجيب، عوض السوقي الكنا كري، عمر العلجوني، حمدو العلجوني.

((أما محمود أبو يحيى فقد استشهد فيما بعد في معركة (بلعا) في فلسطين التي نشبت بين الثوار بقيادة فوزي القاوقجي وبين الانكليز حلفائنا الأوفياء جداً!!)).

واضطرت السلطة الفرنسية أن تضاعف قواتها لمقاومة الثورة التي باتت تهدد الاستعمار في معاقله وثكناته.

وفي ١٩٢٥/١٢/٦ نشبت معركة بين الثوار وبين الفرنسيين قرب حي الميدان واستعمل الفرنسيون فيها الدبابات وقد تكبد المستعمرون خسائر فادحة في الأرواح والمعدات واستشهد خمسة من الثوار.

وفي ١٩٢٥/١٢/١٥ هاجم الثوار مفرزة فرنسية بين الغوطة والبادية يقودها الملازم (دلّوز) فقضوا على عناصرها ونجا قائدها بمفرده.

وفي ١٩٢٥/١٢/١٦ اشتبك الثوار بمفرزة فرنسية قادمة من مخفر (حوش خرابو) وسقط من جنود الاستعمار عدد من القتلى حتى وصلوا إلى جسر تورا ودخلوا المدينة لائذين بتحصيناتهم فيها، كما أسقط الثوار من جماعة حسن الخراط طائرة وقتل طيارها.

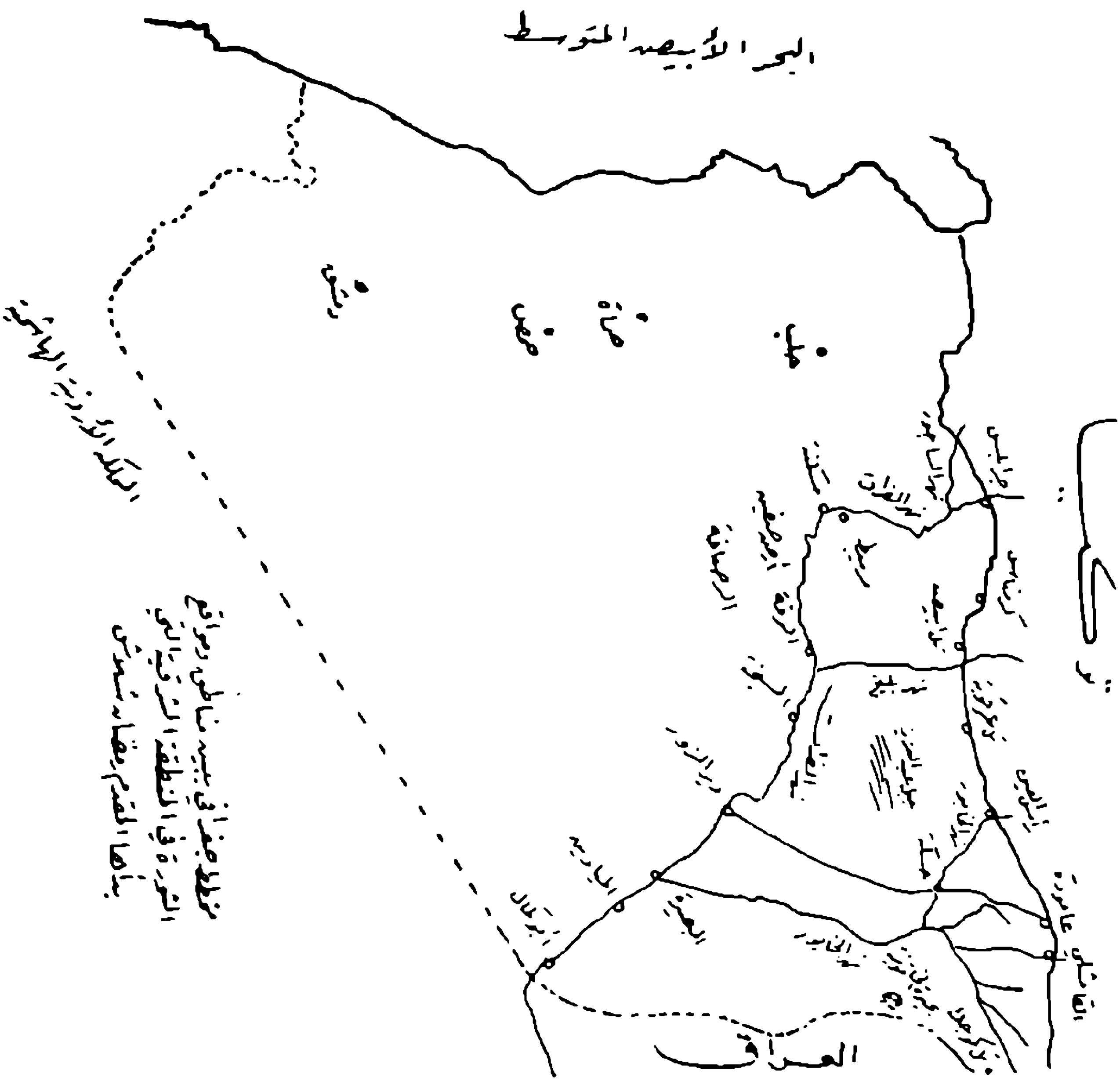
امتداد المعارك إلى قرى زملكا وعربين وحمورية

كان الفرنسيون يخشون كثيراً من تجمع الثوار في منطقة الغوطة، وهم يدركون جيداً أن قرى الغوطة لا يمكن اقتحامها بسهولة نظراً لبسالة ثوار تلك المنطقة، ولأن المنطقة بما فيها من البساتين وأشجار الفاكهة تجعل الأعمال الحربية فيها خطرة وعسيرة.

غير أن أبناء هذه القرى: جوبر، وزملكا وعربين وحمورية ومن التحق بهم من الثوار آلوا على أنفسهم أن يجعلوا الغوطة مقبرة للمستعمرين الفرنسيين.

أعد الفرنسيون خمسة آلاف جندي مدعومين بالدبابات والمصفحات والمدفعية والطائرات وأعد الجوبريون بقيادة عبد الحكيم جلال الهندي (أبو فهد) ورفاقه الشيخ مسلم الخطيب وحمدي ظهر، وأبو شاكر وغيرهم عُدتَهم. وفي ١٩٢٥/١٢/١٨ زحفت قوات المستعمرين نحو قرية (جوبر) التي لا تبعد عن دمشق سوى أربعة كيلو مترات واحتلتها بعد أن انسحب منها الثوار ثم احتلوا (زملكا)، وانضم الثائر البطل حسن الخراط إلى إخوانه واشتد القتال بين الفرنسيين وبين الثوار، فدفع الفرنسيون ألوفاً من الجنود إلى المعركة واحتلوا (عربين) و(حمورية).

تأخرت النجدات التي كان الثوار ينتظرونها غير أنهم ظلوا صامدين ولم يسمحوا للفرنسيين بالتقدم ولم يكن عدد الثوار يزيد على مئة مقاتل يتحدون خمسة آلاف من الفرنسيين والمتطوعة يحملون أحدث الأسلحة وأفتكها.



مخطط جغرافي يبين مناطق ومواقع الثورة في المنطقة الشرقية التي بدأها المقدم رمضان شلاش

وعمد الفرنسيون إلى الإرهاب فارتكبوا أعمالاً وحشية لا تجيزها قوانين الحرب، ودفعوا بالمرتزقة وحثوهم على ارتكاب الفظائع في القرى التي دخلوها وكان الفرنسيون أنفسهم يحرقون البيوت وينهبونها، فنهبوا قرى جوبر، وزملكا وعزبين وحمورية، وساقوا عدداً من أهلها دون تمييز وأعدموهم رمياً بالرصاص على مرأى من أهلهم وذوي قرباهم وأكثر هؤلاء الذين أعدموا لم يشهروا السلاح على الفرنسيين.

وفي (حمورية) دمروا كل ما وجدوه ونهبوا الدور ولم يتورعوا عن قتل الأطفال، والاعتداء بالضرب على بعض النساء بحجة أن هذه القرية كانت قد قضت على أربعة من المرتزقة المحليين.

وإذا كنا نلوم الجنود الفرنسيين على وحشيتهم وهمجيتهم فإننا نوجه أشد اللوم إلى المرتزقة المحليين من أبناء البلاد الذين أغراهم المستعمرون بالمال، وحمَّلوهم السلاح ضد أبناء وطنهم، ودفعوا بهم إلى تدمير منازل الفلاحين إخوانهم في الوطن والعروبة، وقتل الأطفال الأبرياء، وارتكاب أشنع الأعمال البربرية.

والذي كان يثلج صدورنا أن هؤلاء المرتزقة كانوا منبوذين من جميع طبقات الشعب حتى من ذويهم ولم يجنوا من خدمتهم للمستعمرين سوى اللعنة والخزي والمذلة والهوان.

ولقد استبسل الثوار في هذه المعارك، وكان على رأس المهاجمين، كما أسلفنا، محمد عز الدين الحلبي وسعيد العاص ومنير الريس وبشير البكري، وخير الدين اللبابيدي.

وقد كلف الثائر البطل منير الريس بمهمة نسف جسر تورا الواقع بين دمشق، وقرية (دوما) فنفذ المهمة، واستطاعوا بذلك أن يعوقوا زحف الفرق الفرنسية الباغية.

أبلى الثوار السادة حسن الخراط وفرحان شرف والشيخ محمد الأشمر، وصالح عياش، وعيسى حنين أحسن بلاء في معارك الغوطة، وكذلك الشيخ محمد حجازي، ومحمد علي الدروبي، ومحمود أبو يحيى، وعلي طويرش الصحناوي وناصيف ناصيف.

استشهاد البطل حسن الخراط

احتدمت معارك الغوطة ففي ٦ كانون الأول ١٩٢٥ نشبت معركة بين الفرنسيين والمرتزقة وبين الثوار في بستان الباكير القريب من حي الميدان، ونشبت معركة ثانية في ١٩٢٥/١٢/١٢ على مقربة من حرستا، وفي ١٩٢٥/١٢/١٥ أقام الثوار كميناً لفرقة هجانة يقودها الليوتنان (دلّوز) ومعه المساعد (فيوت) فقتل فيوت والجنود ونجا (دلّوز) وحده.

وكان الثوار يتألفون من جميع طبقات الشعب ففيهم، نسيب البكري، نزيه المؤيد العظم، والشيخ محمد الأشمر، عبد القادر سكر، محمد عز الدين الحلبي، حسن الخراط، الشيخ ديب القديمي، أحمد غازي، متعب الأطرش، علي الأطرش، أجود مرشد، مؤيد شرف، خير الدين اللبابيدي، خليل بصلة، عبد الرزاق الشمرتي، أحمد سكر، صبري البديوي، الشيخ محمد حجاز، سعيد الأظن، أبو صلاح العرجا، منير الخطيب، علي جمعة أبو سليمان المهايني، أبو قاسم الدرخباني، أبو علي الكلاوي، سرحان أبو تركي، أبو النور الحباب، مختار جميرة، حمدي عيشه، حسن سعدو، محمود كيوان، أبو دياب البرازي، عبد القادر كيوان, محمود أبو يحيى، محمد شرقان.

وفي ١٩٢٥/١٢/١٦ أسقطت طائرة فرنسية وقُتِل طيارها، وسار المجاهدون بعدها بقيادة حسن الخراط نحو دمشق فوجدوا قوة فرنسية معسكرة في بستان الذهبي فتوغلوا في البستان للقضاء على هذه القوة فجاءتهم مصفحات من الخلف واستشهد (حسن) رحمه الله وسقط شهيد سورية والعرب جميعاً.

في ١٩٢٥/١٢/١٧ اشتبكت مفرزة من المجاهدين بقيادة الثائر سعيد العاص بقوة فرنسية قرب قرية (حورة) فقتلوا منها (٦٢) جندياً وكانت هذه

المعركة انتقاماً رائعاً وثأراً دامياً للشهيد حسن الخراط فعمد الفرنسيون كعادتهم إلى جمع عدد من الفلاحين وهم بين رجل وامرأة وطفل وعددهم (٢٢) وقتلوهم رمياً بالرصاص.

المعارك الثورية في عام ١٩٢٦

في ١٩٢٦/١/٣ نشبت معركة بين الثوار والفرنسيين في موقع البندقة قرب كفر سوسة، وتلتها أخرى في ١٩٢٦/١/١٠ يقودها الثائران عز الدين الجزائري والشيخ محمد حجاز في موقع (زاوية الحمرة) قرب داريا وقد قتل من الفرنسيين أربعون جندياً وضابطان، ثم تلتها معركة الحتيتة في ١٩٢٦/١/١٥ ومعركة مئذنة الشحم في ١٩٢٦/١/٢٤.

وفي أوائل شباط ١٩٢٦ دمر الثوار الخط الحديدي قرب الجديدة والهامة، وفي ٩ شباط جرت معركة بين الثوار وبين المرتزقة المحليين قتل فيها اثنا عشر شهيداً. وفي ١٠ شباط ١٩٢٦ دارت معركة في موقع (البواب) الكائن بين قرى حرستا وبرزة والقابون واستشهد ثلاثون ثائراً بينهم سرحان جاويش (أبو تركي) وهو ثائر من خيرة الثوار.

وقاد الثائرون سعيد العاص وفوزي القاوقجي، وشوكت العائدي، وصادق الداغستاني، وتركي الدروبي قوة تصدوا بها للفرنسيين واستشهد خمسة عشر ثائراً وقتل من الفرنسيين ضعف هذا العدد.

وفي ١٩٢٦/٢/٢٥ إلى ٢/٢٧ صدرت عن قيادة الثورة قرارات تنظيمية ذات أهمية قصوى، إذ أصبح للثورة تنظيم إداري يدير حركاتها وأعمالها.

وخلال شهر آذار حدثت عدة معارك أولاها في ٤ آذار قرب مخفر (أوتايا).

وتلتها معركة (عربين) فخسر الثوار ٢٥ شهيداً، وحين وصل الفرنسيون إلى حرستا اشتبكوا مع الثوار فنزلت بالفرنسيين خسائر فادحة جداً في العتاد والرجال وانتقم الثوار لشهداء عربين.

أخذ الثوار يضغطون على المخافر المتمركزة خارج دمشق فاضطر الفرنسيون إلى إلغاء هذه المخافر وسحبوا جنودهم وعتادهم وتمركزوا في دمشق العاصمة ومنعوا الخروج منها والدخول إليها. وحين أهلّ نيسان دارت رحى معركة يوم ٢٦ منه في جسر تورا حيث أوقف الثوار حملة تتألف من عدد من الدبابات وأعادوها إلى دمشق.

حصار حي الميدان في دمشق

في أواخر شباط من عام ١٩٢٦ قتل رقيب فرنسي في حي الميدان بدمشق فنوت السلطة الفرنسية أن تنتقم من الحي غير انها أرجأت ذلك إلى أوائل أيار من العام نفسه.

ففي السابع من أيار تقدمت فرقة بقيادة الكولونيل (كليمان كرانكور) فحاصرت هذه القوة حي الميدان وأخذت المدفعية تصب حممها على منازل الحي فوق رؤوس السكان.

ولعل أشنع عمل بربري قام به الفرنسيون الأنذال - يومئذ - وأذنابهم ومرتزقتهم أنهم دخلوا مسجد الساحة في الحي المذكور ونبحوا ثمانية من المصلين ومنهم الإمام عبد الغني الشيخ.

وسقط في هذه العملية الإجرامية (٥٧) شهيداً وقتل من الفرنسيين عدد يماثله.

وقد استبسل سكان الحي وأبدوا من ضروب الشجاعة ما يسجل لهم بمداد الفخار، فالشهيد سليم عبسه نفذت ذخيرته إلا من خمس طلقات فقتل أربعة من الفرنسيين وانتحر بالخامسة.

أما الشهيد محمود الهندي من بوابة الميدان الفوقاني فقد حاصره مئة جندي فقتل سبعة منهم، فتراجعوا، ثم أعادوا الكرة عليه تحت أوامر قادتهم فقتل تسعة قبل أن يستشهد، فما كان من الفرنسيين إلا أن أحرقوا جثته تشنيعاً، وهذا فعل الأنذال.

وحاقت أضرار هائلة بالحي وتهدمت منازل وحوانيت وثلاثة مساجد ولكن كل هذه الخسائر لم تبعث الاستسلام في نفوس سكانه وقادتهم: (أبو عبدو سكر، والشيخ محمد الأشمر، وابي قاسم الدرخباني).

تتابع المعارك

في ١٨ أيار ١٩٢٦ قدمت حملة من صيدنايا متجهة إلى دمشق بقيادة الليوتنان كولونيل (فان) فتصدى لها الثوار بقيادة فوزي القاوقجي ووقعت خسائر في الطرفين وكان من الشهداء حويشان أبو مصلح من قرية (بدا) وكان في الثمانين من عمره وكان يقاتل بسيفه فأسره الفرنسيون وأعدموه (يا لهم من فرسان؟!)

وفي حزيران ١٩٢٦ نشبت معركة بين جوبر وزملكا وأطلق الجوبريون المياه في سهولهم التي انتشر فيها الفرنسيون وأمكنهم أن يقتلوا (١٥٠) جندياً فتراجع الفرنسيون والثوار يطاردونهم حتى القصّاع.

وفي ٢٧ حزيران دارت رحى معركة (شبعا) فخسر فيها الفرنسيون قائد حملتهم الكولونيل (فيرن) مع مئة قتيل.

وبدأت الثورة تتراجع بدءاً من تموز فانخفض عدد الثوار من ستة آلاف إلى (٧٥٠).

وزادت السلطة الفرنسية من قوتها وألهت الثوار بمناوشات بسيطة لكنها كانت تعد العدة للقضاء على الثورة قضاء تاماً.

وفي ١٦ تموز تظاهرت بأنها سحبت جيوشها لترسلها إلى مناطق بعيدة لأسباب عسكرية ملحة غير أنها أرتدت فجأة إلى دمشق في ١٩ تموز مطوقة الغوطة كلها بأعداد كبيرة من الفرنسيين وجنود المستعمرات والجنود المرتزقة المحليين.

وفي مساء ٢٠ تموز دخلت ثلاثة جيوش مدينة دمشق بعد أن لقيت مقاومة عنيفة جداً.

وظـل جيـشان عـاجزين عـن الوصـول إلـى دمـشق لأن الثـوار وقفـوا لا يتزحزحون عن مواقعهم في بساتين الغوطة الواسعة. وذلك أن الكولونيل (فـان) القـادم مـن (أوتـانـا) مـارا بكفر بطنـا عجز عن مواصـلة السير، وأسـقط الثـوار إحـدى الطـائرات وقتلـوا طياريهـا، وظـل الكولونيـل (فـان) فـي (كفـر بطنـا) لا يـستطيع التقـدم او التراجـع حتـى اقـتحم الثـوار كفـر بطنـا وكـان الكولونيل أول الصرعى، واشتبك الثوار مع الفرنسيين بالسلاح الأبيض حتى أبيد معظم رجـال هذا الجيش.

وجـاءت تعزيـزات هائلـة فأحاطـت بـالثوار ودارت معـارك ضـارية فـي (جرمانا) و(يلدا) و(ببيلا) وسقط من الفرنسيين أكثر من ثمانين قتـيلاً، واستـشهد ثلاثمئة من ثوارنا الخالدين.

ودارت معارك عديدة في نهاية هذا العام، كان القتال يشتد حيناً ويفتر حينـاً آخر تم في نهايتها انسحاب الثوار من الغوطة، وهذه المعارك هي:

١- معركة القدم في ١٠ آب خسر كل من الطرفين ما يقارب ٢٥ عنصراً.

٢- معركة برزة في ٢٤ آب بين القائد فوزي القاوقجي وبين الفرنسيين.

٣- معـركـة مـسرابا فـي ٨ أيلـول استـشهد فيهـا البطلان الحمويـان المـلازم عبد القادر مليشو ومصطفى عاشور مع عدد من الشهداء.

٤- معركة القاسمية في ١٧ أيلول استشهد فيها خمسة ثـوار وقتـل عـدد مـن الفرنسيين.

٥- معركـة جـسر الغيـضة فـي ١٠/٢٣ بـين القائـدين فـوزي القـاوقجي، والأميـر عـز الـدين الجزائـري وجماعاتهمـا ضـد أربـع فـرق مـن المتطوعة المحليين في الجيش الفرنسي واستشهد (٦١) بطلاً وقتل من الأعداء (٤٦).

٦- معركـة أم الـشراطيط ١٠/٢٦ كانـت معركـة ضـارية استـشهد فيهـا القائدان شوكت العائدي، ذكـي الحلبي، وآخرون.

معارك عام ١٩٢٧

أخذ عدد الثوار يتناقص كما قدمنا، وكانت ثورة الجبل العربي قد بدأت بالانحسار، وحدثت مناوشات بسيطة ولكن في منتصف أيار هاجم القائد الثوري عز الدين الجزائري مواقع النشابية، وبيت نعيم، ومزرعة بالا، فالتقى بالمتفرنسين المتطوعة ثم انسحب مع رفاقه الثوار.

وفي ١٩ أيار اشتبكت قوات الأمير عز الدين الجزائري بالمرتزقة المحليين عند قرية الدريج وظل يقاتل حتى استشهد مع مرافقه الضابط سعيد اليمني وانتهت بهذا المعركة أعمال الثورة في الغوطتين ودمشق.

نتائج الثورات السورية العسكرية

١- ازدادت نقمة العرب جميعاً على دول الاستعمار.

٢- كانت محكاً للرجال الذين يمكن أن تعتمد عليهم البلاد، وأظهرت الوطنيين ذوي العزائم الخائرة.

٣- زاد ترابط أبناء البلاد ببعضهم على اختلاف مناطقهم ومشاربهم.

٤- زادت الثورة الترابط بين الطوائف المسلمة وبين الطوائف المسيحية.

٥- زاد الترابط بين أبناء البلاد المقيمين فيها وبين أبنائها المقيمين في المهاجر.

٦- زاد الترابط القوي بين الأقطار العربي الشقيقة.

٧- تبين للشعب السوري أن حريته لا تنال إلا بالدم فراح يستعد للمعارك القادمة.

٨- اضطرت فرنسا إلى تغيير نظرتها نحو سورية فأخذت تعين مفوضين مدنيين بدلا من العسكريين.

٩- انتشرت أنباء الثورات السورية في أنحاء العالم.

١٠- أعطت الثورة قوة للأحزاب الوطنية في العالم لمهاجمة الاستعمار بكل عنف ومطالبته بالجلاء عن البلاد المستعمرة، حتى أن بعض الفرنسيين نادى بوجوب انسحاب فرنسا من سورية ولبنان وكان عدد من صوت بجانب هذا الاقتراح في المجلس النيابي هم (٢٠٠) نائب من أصل (٤٨٠) نائباً.

النضال السياسي

٢٢

تمهيد

دخل الجيش العربي دمشق بقيادة فيصل بن الحسين، ورفع العلم العربي لأول مرة في التاريخ على دار الحكومة فيها وذلك في ٣٠ أيلول ١٩١٨، وتألفت أول وزارة عربية وهي وزارة الأمير الجزائري، فلم تبق في الحكم إلا أياماً ثم استقالت فالحلفاء لا يعترفون بسورية مستقلة كما لا يعترفون بوجود الدولة العربية الواحدة وكل ما يعترفون به هو أن البلاد العربية التي كانت تحت الحكم العثماني ستكون في المستقبل القريب مناطق نفوذ للدولتين الغربيتين المظفرتين انكلترا وفرنسا.

وحين ذهب فيصل في ١٩١٨/١٢/١٢ إلى مؤتمر الصلح المنعقد في باريس لم يقبل كليمنصو رئيس وزراء فرنسا يومئذ أن يستقبل فيصلاً باعتباره رئيساً لدولة سورية بل قبل حضوره المؤتمر بوصفه ممثلاً للحجاز وكقائد عسكري حليف.

وعقد مؤتمر الصلح في ١٩١٩/١/١٨ وتقرر فيه استفتاء شعب سورية ليقرر مصيره بنفسه. غير أن الانكليز والفرنسيين عقدوا بينهم اتفاقية دعيت باسم اتفاقية (سايكس بيكو) وبها اقتسمت الدولتان فلسطين والأردن والعراق وسورية ولبنان فيما بينهما.

وعاد فيصل إلى سورية ودعا ممثلي البلاد إلى مؤتمر تم عقده في ٧ حزيران ١٩١٩، وأصدر قراره في ٢ تموز ١٩١٩ بالاستقلال التام الناجز للبلاد بحدودها الطبيعية من جبال طوروس شمالاً حتى مدينة رفح على حدود سيناء، وغربا البحر وشرقا الخط الذي يمر بمدينة (البوكمال).

ووصلت لجنة الاستفتاء المؤلفة من بعض الساسة الأميركيين فقط واتصلت بممثلي البلاد ولكنها لم تصنع شيئاً.

وأرسلت فرنسا إلى الجنرال (غورو)، وكان قد احتل الساحل اللبناني وتوغل شمالاً حتى ميناء الاسكندرونة، تأمره بالتوجه نحو سورية ومحاولة احتلال البلاد.

وتألفت وزارة برئاسة رضا باشا الركابي ثم أقيلت، وكلف الأميرالاي مصطفى نعمة بمهام الحاكم العسكري في ١٩١٩/١٢/١١ واستصدر قانون الخدمة الإلزامية في ١٩١٩/١٢/٢١.

وعاد فيصل من باريس حاملاً معه مشروع اتفاق مع فرنسا منحت فيه الأخيرة امتيازات لم تقبلها سورية فرفض المشروع جملة وتفصيلاً.

ودعي ممثلو الشعب السوري في ٧ آذار ١٩٢٠ وأعلنوا استقلال سورية بحدودها الطبيعية وأعلنوا فيصلاً ابن الحسين ملكاً على البلاد، وفي اليوم التالي ٨ آذار ١٩٢٠ أقيمت حفلة تمت فيها بيعة فيصل من قبل ممثلي الوطن السوري.

وتألفت الوزارة برئاسة الفريق رضا الركابي في ٩ آذار ١٩٢٠.

وانعقد مؤتمر الحلفاء في (سان ريمو) بإيطاليا وأصدر قراراً في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ يفرض بموجبه الانتداب على سورية، ووجه الجنرال اللنبي بصفته قائد جيوش الحلفاء في المنطقة إلى الملك فيصل كتاباً يبلغه فيه قرار الحلفاء. وفي ١ أيار أرسل رئيس وزراء فرنسا (ميللران) برقية إلى فيصل يشعره فيها بأن فرنسا تقبلت تكليف مؤتمر الصلح وبأنها أصبحت الدولة المنتدبة على البلاد.

وفي ٥ أيار ١٩٢٠ استدعى الملك فيصل السيد هاشم الأتاسي فألف وزارته الأولى، وفيها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر للخارجية، وأخذت هذه الوزارة على عاتقها أن تدافع عن استقلال البلاد وحريتها، كما سمحت لبعض ضباط الجيش بالاستقالة ليلتحقوا بالثورات الوطنية التي شبت نارها في الشمال بقيادة الزعيم هنانو، وفي جبل العلويين بقيادة الشيخ صالح العلي.

وفي ١٤ تموز ١٩٢٠ أرسل الجنرال (غورو) إنذاراً إلى الملك فيصل يطلب فيه الاعتراف بالانتداب الفرنسي على البلاد بدون قيد أو شرط. وقبول التعامل بالأوراق النقدية التي أصدرها البنك السوري في بيروت، وإلغاء التجنيد الإجباري وتسريح المجندين، ووضع سكة حديد رياق - حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي، ومعاقبة الذين استرسلوا في معاداة فرنسا على أن تقبل هذه الشروط بكاملها أو ترفض بكاملها وتنتهي مدة الإنذار في الساعة ١٢ من ليل (١٨) تموز.

وأشار من وصفوا بالمعتدلين بقبول الإنذار ونصح بذلك ممثل بريطانيا، وعقد المؤتمر السوري في ١٥ تموز، ونادى أعضاؤه بضرورة الدفاع حتى النهاية.

وأخذت البلاد تستعد للدفاع عن استقلالها وشرفها. وكلف السيد ياسين الهاشمي بقيادة الجيش فاعتذر الهاشمي لخلو مستودعات الجيش من العتاد والذخيرة.

وقبل الملك الإنذار مرغماً، وأرسل كتاباً بذلك في ١٧ تموز ١٩٢٠ غير أن (غورو) أمر جيشه بالزحف على سورية بحجة أن الإنذار لم يصله في الوقت المحدد وهو يعترف بأن أسلاك البرق كانت معطلة إلا أنه ليس مسؤولاً عن تعطيلها.

وابرق الملك فيصل في ٢٣ تموز إلى الجنرال (غورو) يطلب وقف الزحف العسكري على سورية، وأبرق ثانية في ٢٣ تموز لنفس الغرض دون جدوى.

وفي ٢٤ تموز تقدم القائد يوسف العظمة وزير الحربية بجنوده ليصد الفرنسيين في موقع ميسلون - كما قدمنا - غير إنه ما لبث أن استشهد وتفرق الجنود، وتقدم الجيش الفرنسي ليحتل دمشق في ٢٥ تموز ١٩٢٠.

وبعد استشهاد يوسف العظمة في ميسلون في ٢٤ تموز قدم السيد هاشم الأتاسي استقالته فاستدعى الملك السيد علاء الدين الدروبي وكلفه بتأليف الوزارة حتى لا تكون البلاد بلا حكومة.

ورغبت حوران بالانفصال عن سورية والالتحاق بالأردن فطلب الفرنسيون من رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي أن يتوجه هو ووزراؤه إلى حوران لإقناع أهلها بعدم تمزيق وحدة البلاد، وقبل توجه الوفد الوزاري إلى حوران أقيمت حفلة للجنرال (غورو) في ٧ آب ١٩٢٠ أقامها رئيس الوزراء.

وذهب رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي ومعه وزير الشورى عبد الرحمن باشا اليوسف ووزير الداخلية عطا الأيوبي وتخلف باقي الوزراء وفيهم جميل الألشي الذي كان أشدهم حماسة للذهاب إلى حوران.

وفي ٢١ آب حين وصلوا إلى خربة الغزالة هاجم الحورانيون الوزراء وقتلوهم ولم ينج منهم سوى عطا الأيوبي.

وأيامئذ زار (غورو) ضريح صلاح الدين الأيوبي في دمشق وحين وقف أمام الضريح قال: ((إنك ما أجليت الصليبيين يا صلاح الدين، إنني حفيدهم وإننا عدنا، ولن نخرج بعد اليوم)).

وعقب مجزرة خربة الغزالة تولى جميل الألشي رئاسة الوزارة السورية.

وظلت شؤون البلاد تدار من قبل المفوض السامي الجنرال (غورو) عن طريق وزارات ضالعة مع المستعمرين، وعمد هذا الجنرال القاسي إلى تمزيق البلاد وتقسيمها إلى دويلات هي: حكومة دمشق، وحكومة حلب، وحكومة اللاذقية وحكومة جبل الدروز إمعاناً في تفتيت قوة الشعب ووحدته الوطنية، لكن أعمال هذا الجنرال جعلت الكفاح السياسي يشتد ضراوة.

وفي شهر نيسان ١٩٢٢ أرسلت عصبة الأمم لجنة لاستفتاء الشعب السوري حول بعض شؤون الانتداب وما تشكو منه البلاد وجعلتها برئاسة السيد (كراين) الأميركي، واستطاعت البلاد أن تفهم هذه اللجنة أن سورية لا ترضى عن الاستقلال بديلاً، على الرغم من هذه السلطة الفرنسية الظالمة التي مزقت الوطن، كما قلنا، وبذرت بذور الطائفية وشجعت الإقطاعية، وأفقرت الشعب وسلبت أمواله وهدمت مقوماته التاريخية والأدبية والروحية.

ولم يكتف المستعمرون بهذا كله إذ عمدت السلطة الفرنسية إلى اعتقال عدد من الوطنين منهم عبد الرحمن الشهبندر، وحسن الحكيم، وسعيد حيدر، وخالد الخطيب وعبد الوهاب العقيقي، ومنير شيخ الأرض وتوفيق الحلبي وغيرهم وبعد محاكمتهم نقلوا إلى سجن جزيرة أرواد.

وبعد أن لبثوا مدة في أرواد عادت السلطة فأفرجت عنهم في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٢.

وخلال ذلك كان الساسة في سورية يعقدون المؤتمرات هنا وهناك في أوروبا أو أي بلد آخر، وتألفت جماعة المؤتمر السوري الفلسطيني العربي الذي كان يضم بين أعضائه الشيخ رشيد رضا والسيد نجيب شقير ورئيسه ميشيل لطف الله، والأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري، ورياض الصلح.

وفي الخامس والعشرين من آذار ١٩٢٣ صدر قرار المحكمة العسكرية في حلب بتبرئة الزعيم الخالد إبراهيم هنانو وأفرج عنه في مساء اليوم نفسه، كما قدمنا، ليقود كفاحاً سياسياً بطولياً.

ولقد بر هنانو بوعده حين قال للنائب العام الفرنسي، إن لفرنسا أن تثق بإخلاصه، ولقد كان إخلاص هنانو لبلاده نقياً خالصاً، وحين نصح الفرنسيين بالجلاء عن البلاد بعد خروجه من سجنه كان ذلك أيضاً إخلاصاً فريداً.

ألم يكن من الخير لفرنسا أن تنهي استعمارها وترحل لتوفر على نفسها، على الأقل، ما أضاعته من ضحايا فرنسية ومن سمعة عسكرية وسياسية واجتماعية تمرغت في الوحل؟

وإلى جانب الكفاح السياسي الضاري كانت فصائل الثوار التي تمركزت في تركيا تهاجم المستعمرين في الشمال وتقض مضاجعهم كما قدمنا.

استدعت فرنسا مفوضها السامي الجنرال غورو الذي كان قد خلف المفوض السامي جورج بيكو في ٨ تشرين الأول ١٩١٩، استدعته في تشرين الثاني ١٩٢٢، وعينت مكانه الجنرال ويغاند الذي وصل إلى سورية في ١٩ نيسان ١٩٢٣.

وكان بعض الأحرار في فرنسا نفسها يدعون إلى تخلي فرنسا عن مهمة الانتداب ومغادرة سورية ولبنان، حتى إن النائب (دوريو) وقف في الجمعية الوطنية الفرنسية يطالب بوضع حد للدماء التي خلفتها السياسة الفرنسية الاستعمارية في سورية، ولما رد عليه رئيس الجمعية بأن فرنسا تحارب النهابين، أجاب (دوريو) بأن النهابين هم أولئك الذين ليسوا في وطنهم.

وقبل أن يغادر الجنرال (غورو) البلاد كان قد شكل اتحاداً سورياً من دويلات حلب ودمشق والعلويين، فأصدر قراراً في ٢٩ حزيران ١٩٢٢ بإنشاء هذا الاتحاد برئاسة الأتاسي ونجيب آغا البرازي ومحمد علي العابد وسامي باشا مردم بك.

ولما حل الجنرال (ويغاند) محل الجنرال (غورو) وبعد أن عجز عن مقاومة الانتفاضات الوطنية التي كانت لا تترك له مجالاً لتثبيت سلطة فرنسا عمد إلى إلغاء الاتحاد السوري وشكل دولة سورية قبيل نقله من منصبه الذي تم في كانون الأول ١٩٢٤ جعلها تتألف من دولتي دمشق وحلب، وجعل على رأسها السيد صبحي بركات وظلت دولتا العلويين وجبل الدروز منفصلتين عن الدولة استعمارياً.

غير أن الثوار في طول البلاد وعرضها لم يهدأوا طرفة عين، فكان الثوار الذين نزحوا إلى تركيا يغيرون على المخافر الفرنسية فيقتلون ويدمرون ما يصادفونه فيها ثم ينسحبون إلى مراكز تواجدهم، حتى الذين نزحوا إلى الأردن

من حوران وعلى رأسهم الشيخ مصطفى الخليلي من درعا وصادق حمزة من جبل عامل، وسعيد الأظن من دمشق.

فقد قام هؤلاء الثلاثة مع جماعة من الثوار بغارة على المراكز الفرنسية - فيما بين درعا - مزيريب فقتلوا خمسة من الفرنسيين واستولوا على خيولهم وسلاحهم ثم التقوا بسيارة قائد المنطقة الفرنسي فأمطروها وابلاً من الرصاص فقتل السائق وجرح الضابط القائد.

ودخل بعض الثوار دمشق وفيهم سعيد الأظن فدمروا جسر الكسوة وخربوا بعض طرق المواصلات وقطعوا أسلاك البرق والهاتف كما هاجموا مخفر شرطة باب سريجة.

أما الفريق الآخر، وعلى رأسهم الشيخ مصطفى الخليلي وصادق حمزة، فقد اتجهوا نحو قرية (نبع الصخر) فوشى بهم بعض العملاء ونشبت معركة ضارية استشهد فيها صادق حمزة، وألقي القبض على الشيخ مصطفى الخليلي ومن معه من الثوار فجرت محاكمتهم وحوكموا وحكم عليهم بالإعدام ووضعوا في سجن القلعة، وحدد يوم السابع من آب ١٩٢٦ لتنفيذ حكم الإعدام بهم.

شهامة وبطولة

وفي الخامس من آب عمد السيد زكريا الداغستاني، وهو وكيل مدير السجون، إلى إخراج الثوار مصطفى الخليلي (حوران) الشيخ ضيف الله الصالح شيخ قرية الشجرة التابعة للأردن والشيخ فندي بوياغي من الشوف بلبنان وأحمد قعطيني الملقب بالجاعي من قرية داريا قرب دمشق من سجن القلعة.

جاء السيد زكريا الداغستاني إلى مدير سجن القلعة وأعلن بهدوء بأن لديه مذكرة من النيابة العامة بإخلاء سبيل أربعة سجناء أصدر القضاء قراراً بتبرئتهم (دون أن يعلمه بأسماء هؤلاء المسجونين) ومضى السيد زكريا نحو زنزانات هؤلاء المحكومين بالموت فأمر الحارس بإخراجهم لسوقهم إلى

المحكمة العسكرية من جديد، فصدع الحارس بالأمر وخرج الثوار من باب القلعة الخارجي بمرافقة السيد زكريا، وكان السيد عزة الداغستاني شقيق السيد زكريا ينتظر الجميع في سيارة قرب باب السجن من جهة العصرونية.

ودخل الثوار السيارة وأغلق بابها وطارت بهم نحو الجامع الأموي حيث وضعوا داخل المشهد الحسيني.

واختفى السيد زكريا وأخوه فعمد الفرنسيون إلى مداهمة بيته واعتقال أحد إخوانه وبعض أقربائه وزج بهم في السجن واستطاعت والدته أن تختفي، والتحق السيد زكريا وأخوه بصفوف الثوار ثم نزحا إلى الأردن ففلسطين حتى عادا حين صدر العفو العام.

الجنرال ساراي

٢٣

وبعد أيام من عزل الجنرال ويغاند أرسلت فرنسا الجنرال (ساراي) وذلك في ٢ كانون الثاني ١٩٢٥.

ولم يكن هذا المفوض خيراً ممن سبقه بل كان أسوأ حتى من الجنرال (غورو) الذي اشتهر بفظاظته ولؤمه الاستعماري وقد سعى أن يفرق بين المسلمين والمسيحيين.

وبهذا اللؤم وهذه الوقاحة وسوء التهذيب مارس الفرنسيون حكمهم الدامي، فأية فتنة كان ينوي إيقادها بين أبناء البلد الواحد!! لقد كان ولا يزال المسلمون والمسيحيون في هذه البلاد إخوة في السراء والضراء وسيظلون كذلك ما دامت الحياة.

ونعود إلى المفوض الجديد الجنرال ساراي فقد جاء هذا التعس والبلاد على حافة ألثورة الكبرى. ولم يكن يتمتع بأية صفة سياسية أو مرونة دبلوماسية أو حتى إنسانية.

فالإدارة الفرنسية في البلاد كانت خرقاء طائشة وهو نفسه، أي المفوض كان مثالا للأحمق الأرعن، فقد قررت السلطة الفرنسية في عهده تأليف محاكم مختلطة في سورية تتألف من قضاة فرنسيين وسوريين على أن يكون رئيسها فرنسياً.

فقاومت نقابة المحامين هذه المحاولة، وكان رئيسها الوطني المخلص السيد فارس الخوري الذي احتج باسم النقابة احتجاجاً شديد اللهجة، كما قررت النقابة مقاطعة هذه المحاكم.

استاء الجنرال ساراي استياءً شديداً.

وفي ذات يوم من شهر شباط ١٩٢٥ أقام السيد شوفلر مندوب المفوض السامي بدمشق حفلة استقبال تكريماً للمفوض السامي، وكان فارس الخوري نقيب المحامين مع بعض أعضاء النقابة في عداد المدعوين.

وكان مع الأستاذ الخوري المحاميان سعيد الغزي وخير الدين القضماني، وحين دخلوا القاعة مضوا نحو الجنرال الذي كان واقفاً في وسطها يتحدث فلما جرى التعارف صرخ المفوض السامي في وجه فارس الخوري: ((ما دمتم مضربين لا نستقبلكم، إنكم تقاطعون القضاء الفرنسي وترسلون الاحتجاجات فاخرجوا من هنا)).

وأشار بيده إلى باب القاعة فحار فارس الخوري في أمره ولكنه وجد أن الكرامة تقضي بعدم خروجه، فقال للمفوض السامي: **((لقد أتينا إلى هذا المكان بدعوة رسمية من مندوبك السيد (شوفلر) للقيام بواجب السلام على ممثل دولة فرنسا، وليس من مجال الآن للبحث في الإضراب، وإذا شئتم البحث ففي مناسبة أخرى، على أننا لا يمكننا الخروج الآن ما لم نقم بالواجب الذي جئنا من أجله)).**

فصاح الجنرال ثانية برعونة وحمق: ((إذا كنتم لا تخرجون من هنا فأنا أخرج)).

فأجابه فارس الخوري: ((ذلك لك فاخرج، أما نحن فإننا هنا بدعوة رسمية، ولو أننا غير مرغوب فينا فقد كان على مندوبكم ألا يدعونا)).

وهنا قفز الجنرال ساراي إلى قاعة أخرى بنزق وحماقة وأوصد الباب وراءه.

والتفت السيد فارس الخوري إلى الموجودين وقال: **((لقد أتينا إلى هنا بدعوة رسمية من المندوب السيد شوفلر للقيام بالواجب نحو ممثل فرنسا،**

وما دام الجنرال أبى قبول الكرامة، وخرج من بيننا، عابثاً بأصول المجاملات الرسمية، فإنه لم تبق لنا حاجة هنا، فنخرج الآن مسجلين لأنفسنا القيام بالواجب ونسجل على فخامة الجنرال تقصيره في الواجب وإخلاله بالمجاملات)).

وشعر المفوض السامي بعد حين بأنه أخطأ فارسل يعتذر ويأسف لما حدث.

ولن نستغرب هذا التصرف فلقد كان الجنرال (غورو) كذلك غير أنه كان أقل غطرسة، فقد أقام السيد علاء الدين الدروبي رئيس الوزراء (الذي اغتيل في الأردن) حفلة لاستقبال (غورو) في ٧ آب ١٩٢٠ في دمشق في قصر الرئاسة بالمهاجرين كما قدمنا.

وأثناء الطعام أجال الجنرال نظره في القاعة وقال متشفياً: ((أهذا هو القصر الذي كان يقيم فيه الشريف فيصل؟)).

فأجابه فارس الخوري وكان وزيراً للمالية قائلاً: نعم يا صاحب الفخامة، هذا هو القصر الذي سكنه الملك فيصل، وقد بناه والٍ عثماني اسمه ناظم باشا ثم حل فيه جمال باشا، ثم الجنرال اللنبي ثم الملك فيصل، وجميع الذين ذكرتهم لك أكلنا معهم في نفس هذه القاعة كما نأكل معك الآن، وكلهم رحلوا، وبقي القصر، وبقينا نحن)).

وسكت (غورو) فلم يطاوعه لسانه أن ينطق بحرف بعدما سمع الذي سمعه من فارس الخوري.

ونعود إلى التحدث عن حالة البلاد إبَّان حكم ساراي.

لقد علمنا أن الرجل كان طائشاً نزقاً على الرغم من تقدمه في السن وخوضه حروباً عديدة في الحرب العالمية الأولى التي كانت قد وضعت أوزارها منذ سبع سنوات.

لقد أصبحت البلاد مجزأة إلى دويلات على أساس الطائفية: فدولة للمسيحيين في لبنان، ودولة أخرى للعلويين في الجبل العلوي، وثالثة للدروز في جبل العرب، وما بقي في البلاد هو دولة إسلامية.

أين الوحدة القومية؟.. لقد تلاشت.

ثم إذا تناولت التشريع، فكل مفوض سام كان مشرعاً، هو رئيس الدولة المجزأة وهو مجلسها ومشرعها وآمرها وناهيها، هو كل شيء وأعوانه يقومون مقامه تماماً يشرِّعون ويأمرون وينهون، وهم في الغالب جهلة وإداريون فاسدون.

الحكم الفرنسي المباشر

أصبحت البلاد في زمن ساراي تحكم حكماً مباشراً، فحكام لبنان وجبل العلويين والدروز فرنسيون، والحكومة المحلية في دمشق أنصاب وتماثيل يحركها المستشارون فلكل وزارة مستشار وفوق الجميع مندوب المفوض السامي الذي يفصل في كل شيء. ويتمثل في شخصه جميع أجهزة التشريع والمؤسسات الإدارية فهو الذي يضع القوانين، وهو الذي ينفذها، وهو الحاكم بأمره يأمر فيطاع وليس فوق سلطانه سلطان.

أما دوائر الاستخبارات التي تعمل وفق أهداف السيطرة الاستعمارية فقد ضمت العناصر الفاسدة في البلاد، إنهم أعوان للمستعمرين، لؤماء ومواطنون غير كرماء، يعينون العدو على مواطنيهم بدون خجل أو حياء، جواسيس دساسون لا يسلم منهم إلا القليل فهؤلاء الأعوان هم الذين يصنفون الناس فهذا وطني يجب إرهاقه وسجنه وتعذيبه، وذاك يحب فرنسا، وعليه، فيجب على السلطة أن ترعاه وأن تحوطه بعنايتها، وذلك حليف الأتراك فيجب التخلص منه بإبعاده عن البلاد إلى حيث يشاء.

ولم يبق في البلاد مواطن لم تنله أيدي هؤلاء الذين باعوا ضمائرهم للمستعمرين فإذا لمتهم وعاتبتهم على ما يرتكبون من جرائم بحق الوطن وأبنائه من مواطنيهم أجابوا بصفاقة وخسة: إن القضية هي الحصول على لقمة العيش.

وكثرت عقوبات الطرد من البلاد أو النفي إلى المحافظات النائية وكان الفرنسيون يلقون القبض على من يشاءون من أبناء البلاد ويزجونهم في السجون أو المعتقلات بدون أن يرتكبوا جرماً أو إساءة فينقلب آباؤهم أو أبناؤهم

إلى الحكام الفرنسيين يستعطفوهم ويرجونهم أن يعيدوا الحرية إلى أهلهم وذويهم فيطلقون سراح من يعتقلون بعد رجاء مذلٍ وتوسل واستعطاف.

أما المعتقلات فكانت تختلف بعضها عن بعض ولكنها كانت حافلة بصنوف التضييق والإرهاب.

السياسة الطائفية

شرع الفرنسيون منذ دخولهم بلادنا في تطبيق سياسة طائفية ماكرة بدأها الجنرال غورو وراح المفوضون السامون الذين خلفوه يغذونها ويقوونها حتى غدت أسلوباً وطريقة لحكمهم الجائر.

إن سورية تضم طوائف عدة وهذه الطوائف تعيش متآخية متعاونة في ظل القومية العربية التي تشمل ببرها وعطفها جميع المواطنين على اعتبارهم أبناء وطن عربي واحد يتكلمون لغة واحدة، ولا فرق عندهم بين مسلم ومسيحي، مسيحيهم يقرأ القرآن ومسلمهم يقرأ الإنجيل، يزور بعضهم بعضاً ويعمل الجميع متآخين، لهذا فقد ظل المجتمع السوري سليماً فلما جاء الفرنسيون أرادوا أن ينسفوا هذا التآخي بين المواطنين على اختلاف أديانهم فعجزوا عن ذلك عجزاً بيناً.

ولم يوفق هؤلاء المفوضون السامون في اختيار معاونيهم في أكثر الأحيان، وحين كان الجنرال ساراي يقضي بعض لياليه في حفلات أقرب إلى المهازل التمثيلية كان حاكم جبل العرب يتصرف في الشعب هناك تصرفاً غبياً جداً وقد صبر الدروز على ما نالهم على يد الـ (كربييه) هذا الكابتن الخسيس الذي كان يحاول إهانة رجال الجبل الأشم، وقد صبروا لا خوفاً ولا وجلاً من السلطة ولكنهم جنحوا تلك الفترة إلى الصبر لعل الدولة الحاكمة تعدل من خطتها وتعود إلى صوابها.

لقد طلبوا من ساراي عزل (كربييه) وتعيين حاكم فرنسي بدلاً منه أي إبدال فرنسي بفرنسي إلى درجة أنهم ساعدوا الإدارة ورشحوا ضابطاً فرنسياً

آخر، وما كان ذلك يضر ساراي الأهوج غير أنه رفض طلب زعماء الجبل وطردهم وهددهم بالسجن بل أمر باعتقال بعضهم غدرا فأوقد بنفسه نار الثورة الكبرى التي مر ذكرها.

لقد جاء في وصية معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد بأهل العراق قوله: ((إن طلبوا إليك كل يوم عزلَ عامل فاعزله لهم، فإن عزلَ عاملٍ واحدٍ أهون عليك من تعبئة مئة ألف رجل لقتالهم)).

وكان ساراي متغطرساً متجبرا نزقاً لا يعرف غير لغة المدفع، وكان الذنب يقع على رجال الحكومة الفرنسية الذين اختاروا لهذا المنصب الإداري الذي يتطلب الحنكة والإخلاص، والوفاء للشعوب والعطف عليها رجلاً لا يحب السلام، ويكره اللين والحق والعدالة والمنطق.

والمفوضون السامون الذين جزؤوا البلاد لم يخدموا فرنسا أبدا، ولا سورية التي اؤتمنوا عليها من قبل عصبة الأمم، فقد تآمرت دولتا فرنسا وانكلترا على البلاد العربية ومزقت سورية ولبنان، مرة ثانية حين مزقت فرنسا سورية فسلخت منها الأقضية الأربعة والحقتها بلبنان وهي طرابلس وبعلبك وحاصبيا وراشيا.

وحين جاء ساراي زاد الطين بلة وأضاف إلى النار المتقدة ناراً جديدة بسلوكه القائم على التحكم والسيطرة والغطرسة، واستهانته بالشعب وجهله الأمور جهلاً مطبقاً.

وكان قد تأسس في شهر أيار ١٩٢٥ أول حزب سياسي في البلاد ضم خيرة رجالها وهو حزب (الشعب) ولكن السلطة الفرنسية لم تطق وجود هذا الحزب فعطلته وأغلقت مكاتبه، ونكلت برجاله واتهمتهم بأنهم سبب في نشوب ثورة جبل الدروز لأنهم أيدوها منذ بدئها.

وقبيل انفجار الثورة في جبل العرب زار ساراي السويداء فلم يتمكن وفد من سكان الجبل من مقابلة المفوض السامي، إذ حال الكابتن (كربييه) حاكم الجبل يؤيده السيد (شوفلر) مندوب الجنرال في دمشق، حالا بين الوفد وبين

مقابلة الجنرال ليعرضوا عليه مطاليبهم، وطلب منهم أن يحضروا إلى دمشق لمقابلته.

وذهب وفد إلى دمشق من خيرة رجال الجبل وقابل الجنرال ساراي.

وعاد بعض أعضاء الوفد مرغمين إلى الجبل بينما أرسل بعضهم الآخر إلى المنفى في تدمر.

وهكذا كانت سورية العزيزة تحيا في ظل ساراي، فهو الكل في الكل، وقد سيطر كابوس القهر والظلم على البلاد يشبه ما كان يجري في القرون الوسطى وعصور الاستبداد الرهيبة.

فالشعب كله سجين، سجين بأفكاره، سجين بحريته، سجين في كل شيء.

ووصل الأمر ببعض الفرنسيين إلى إنزال أحكام غريبة بالناس، كتكسير الحصى، والضرب والصلب والسجن، والإهانة والإذلال، ومنع التجول لفرد أو لأفراد معينين.

هذا عدا عن السلب والنهب فكل حاكم فرنسي فما دون صار لديه كميات كبيرة من السجاد الفاخر والأشياء الثمينة والليرات الذهبية. يحملها معه حين يعود إلى فرنسا أو حين يحصل على مأذونية إدارية.

وفي أول ت٢ ١٩٢٥ قررت فرنسا استدعاء الجنرال (ساراي) من سورية، وفي ٧ منه كانت المدافع الفرنسية بقيادة الجنرال غاملان قائد الجيوش الفرنسية في سورية تدك المدن الداخلية: دمشق، حمص، حماة، حلب، وظل ساراي يشهد هذا الدمار قائلاً: ((إنه لن يبحر عائداً إلى فرنسا حتى يرى هذه المدن أطلالا)).

وأبحر غير مأسوف عليه في ٩ ت١ ١٩٢٥ مشيعاً بلعنات شعب أعزل، ولعنات اليتامى والأيامى، والمنكوبين، والمعذبين.

وتولى الجنرال (ديبور) إدارة البلاد مؤقتاً ريثما يصل خلف الجنرال ساراي السيد (هنري ده جوفنيل).

المفوض السامي السيد هنري ده جوفنيل

٢٤

بعد أن عزلت فرنسا مفوضها الجنرال ساراي عينت مكانه عضو مجلس الشيوخ السيد هنري ده جوفنيل، وهو رجل مدني، مؤملة أن ينجح هو فيما فشل فيه الآخرون.

ومرّ المفوض الجديد بمصر، وهناك أعرب عن رغبته في مقابلة وفدٍ يمثل اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري-الفلسطيني والاتحاد السوري وغيرهما من الممثلين للفكرة العامة السورية.

فعقدت اللجنة التنفيذية للمؤتمر جلسات في ٢٩ ت٢ ١٩٢٥ دعت إليها جمهور المشتغلين بحركة الاستقلال السوري في مصر وتقرر في هذه الجلسات تلبية دعوة المفوض السامي الجديد لتقديم مذكرة تتضمن المطالب التي رأى المجتمعون أن تلبيتها تضع حداً للحالة الحاضرة في سورية وتلبي رغائب أهلها، وتألف الوفد من السادة:

الأمير ميشيل لطف الله، محمد رشيد رضا، نجيب شقير، فوزي البكري، شكري القوتلي، الدكتور خليل مشاقة، توفيق اليازجي، الدكتور سعيد طليع، أسعد البكري، نسيم صبيعة، أسعد داغر، نجيب الأرمنازي، الحاج أديب خير، منير العيطة، خير الدين الأحدب.

وقابل هذا الوفد السيد هنري ده جوفنيل في الساعة التاسعة من يوم الاثنين ٣٠ ت٢، وقدم له المذكرة التي وضعتها اللجنة وحادثه في وجوه المسألة السورية، وفي حالة سورية الحاضرة، وفي الحل المطلوب ودامت المقابلة ساعة وعشرين دقيقة، وفيما يلي كتاب اللجنة التنفيذية:

القاهرة في ٣٠ ت٢ ١٩٢٥

إن الوفد السوري الذي تشرف بمقابلتكم اليوم صباحاً يرى أن يقترح الحل التالي:

أن يذهب وفد في الحال من قبلنا إلى سورية للعمل على حقن الدماء وتمهيد سبيل ملائم لمفاوضات تجري بينكم، وبين ممثلي زعماء الثورة في سورية، ولضمان نجاح هذا المسعى، يرجو منكم الوفد السوري أن تتفضلوا بإبلاغه موافقتكم على المبادئ التالية المبينة في المذكرة التي تشرفنا برفعها إليكم هذا الصباح وهي:

١ـ تتألف الدولة السورية من جميع الأراضي التي وضعت تحت الانتداب الفرنساوي، وأما لبنان، فيجب أن يستفتي جميع سكانه في الانضمام إلى هذه الدولة أو الانفصال عنها استفتاءً حراً مباشراً.

٢ـ تؤسس حالاً في البلاد حكومة وطنية مؤقتة، حائزة على ثقة الأمة تباشر الانتخابات للجمعية التأسيسية.

٣ـ تدعى جمعية تأسيسية للاجتماع، مؤلفة بالانتخاب العام المباشر، وهذه الجمعية، تقرر نظام البلاد الأساسي، على مبدأ السيادة القومية، في الداخل وفي الخارج.

٤ـ يلغى الانتداب وتحدد العلاقات بين فرنسا وسورية باتفاق إلى مدة معينة، يحافظ فيه على مبدأ السيادة القومية، ولا يعد مبرماً إلا بعد موافقة البرلمان السوري عليه.

٥ـ ينسحب جيش الاحتلال من أراضي الدولة السورية، حالما تؤسس الحكومة الوطنية المؤقتة.

٦- تسجيل الاتفاق لدى عصبة الأمم، ودخول سورية في عداد أعضاء هذه الجمعية.

والوفد يأمل أن تقدروا هذا المسعى الجديد قدره، وقد دفعته الرغبة الأكيدة في الوئام والمسالمة.

السكرتير العام

نجيب شقير

وكان رد السيد هنري ده جوفنيل مخيباً للآمال، وكيف لا يكون كذلك وقد جاء بشعار أعلنه قبل وصوله إلى سورية. وهذا الشعار هو ((الحرب لمن يريد الحرب، والسلم لمن يريد السلم)) أما العدل والإنصاف وحرية الشعوب فلم يكن لها مكان في تفكير المفوض الجديد.

رد السيد هنري ده جوفنيل

القاهرة في ٣٠ ت٢ ١٩٢٥ الساعة الحادية عشرة مساءً.

حضرة السكرتير العام للجنة التنفيذية للمؤتمر السوري-الفلسطيني.

((من بواعث أسفي الشديد أن يكون الحل الذي تقترحونه غير ممكن القبول مطلقاً، ويكاد لا يكون على شيء من المطابقة للمباحثة التي دارت بيننا في هذا الصباح، وحفظت محاضرها)).

((ومن الجلي في هذه الحالة أن المهمة التي تطلبون في كتابكم الذي تسلمته الآن أن أعهد في القيام بها إلى اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري-الفلسطيني ليس لها أي حظ من النجاح)).

((ولا اريد أن أدعكم تعتقدون لحظة واحدة أن فرنسا يسعها أن تخل كما تقترحون بالعهود التي أخذتها على نفسها أمام خمسين أمة)).

((على أنني ساعلن برنامجي على رؤوس الأشهاد في سورية نفسها، كما تشرفت وصرحت لكم من قبل، ولذلك أصارحكم القول من غير مرارة أنه كان

الأفضل أن لا يكتب كتابكم، لأن إعادة السلم في سورية كانت في هذه الحالة تكون بلا ريب أسرع وأسهل)).

((وأخشى أن تكونوا آخذين، في تحمل تبعة الخصام والمصائب التي لا بد من أن يؤدي إليها)).

وثقوا يا حضرة السكرتير العام بعواطف احترامي وأسفي

الإمضاء

هنري ده جوفنيل

كتاب الرد الذي وجهته اللجنة التنفيذية إلى المفوض السامي

القاهرة ١٩٢٥/١٢/١

حضرة المفوض السامي السيد هنري ده جوفنيل الأفخم

أتشرف بأن أبلغكم وصول الكتاب الذي أرسلتموه في ٣٠ ت٢ الماضي إلى نجيب شقير، السكرتير العام للجنة التنفيذية للمؤتمر السوري-الفلسطيني.

ولما كنا نعمل من أجل السلام، والرخاء لبلادنا المحبوبة، ونعتقد أننا نمثل الرأي العام، اقترحنا الحلول التي كانت موضوع مذكرتنا وكتابنا اللذين قدما إليكم في ٣٠ ت٢ الماضي.

وتعتقدون يا صاحب السعادة أنّ تساهلاً أقل سخاء مما اقترحناه يقرب سورية من فرنسا ومن السلام، ولكننا نشعر، والألم ملء نفوسنا، أن الأمر لم يكن كذلك، على أنه مهما تكن الاقتراحات الفرنساوية التي تقبلها سورية، فلا يمكن إلا أن نبتهج بما ينتج عنها من السلام والرخاء.

وتفضلوا يا صاحب السعادة بقبول وافر احترامي.

ميشيل لطف الله

رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري-الفلسطيني

وغادر السيد هنري ده جوفنيل في كانون الأول ١٩٢٥ مصر ميمماً وجهه شطر سورية حاملاً شعار ((الحرب لمن يريد الحرب والسلم لمن يريد السلم)).

وفي الحقيقة لم يكن الشعب يريد الحرب بل هو يتمنى السلام ويرجو الاستقرار ولكن الذين يريدون الحروب هم أولئك المستعمرون الذين يأتون إلى بلادنا وهم يحملون الموت والفناء لشعبنا.

حل المفوض السامي الجديد بالبلاد بنفس الروح الاستعمارية المعتدية الظالمة بفارق واحد وهو أنه لا يرتدي الثوب العسكري ولهذا فلم يستطع أن يصنع شيئاً سوى متابعة سيرة سلفه ساراي، ذلك الرجل الذي جهل هذا الشعب وجهل ما في نفوس أهليه من شجاعة وشهامة.

ولا نزال نذكر تلك الرسالة التي أرسلها الشهيد حسن الخراط إلى الجنرال ساراي إثر تهديم الأخير لدمشق وتدمير أحيائها، إذ كتب إليه يقول مؤنباً ومباهياً:

((أما سياسياً فقد كللتُ شرفَ العرب بما هو أهله، واستحسن فعلي العالم بأجمعه بحسن إدارة رجالي ومحافظتهم على إخوَاننا المسيحيين والأجانب خصوصاً، وعلى الضعفاء عموماً، أما أنت فقد نحرت شرف فرنسا، وصوبت قنابلك إلى قلبها، يا ممثل فرنسا، وأنا حارس دمشق!))

((أسرتُ جندك أسراً شريفاً، وأنت ضربت الأطفال والنساء والشيوخ ضرباً دنيئاً، حافظت على الآثار القديمة وأنت هدمتها! يا جنرال يا ممثل فرنسا!))

((كان بودك أن تجعلها دينية إسلامية وتفرق بيننا وبين إخواننا، ولكن الله أبى، فضيعت رشدك وخربت الأحياء الإسلامية على رؤوس أهلها البريئة إلا أني لم أقابلك بالمثل، وقد فاتك أننا عرب ونحافظ على الجار:

إنا لقوم أبت أخلاقنا شرفاً أن نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا

((أنت جنرال وقائد الفرق والجيوش، وأنا حارس جمعت عقلي وضيعت رشدك..))

حقاً إنها رسالة خالدة فهي على بساطتها تدل دلالة صادقة على ما تنطوي عليه نفوس أولئك الثوار الشرفاء، فالبطل الشهيد حسن الخراط كان يعمل حارساً ليلياً ولكنه استطاع وهو ابن الشعب أن يلقن ممثل فرنسا درساً في الأخلاق التي ينبغي أن يعتنقها المقاتل الشريف.

لقد جهل المفوض الجديد نفسية هذا الشعب فلم يغير شيئاً من خطة سلفه إلا في الأسلوب. فأخذ يتفاوض مع الزعماء السياسيين والعسكريين لإيقاف الثورة التي بلغت أوجها في الأشهر الأولى من حكم ده جوفنيل في أوائل عام ١٩٢٦، وحين تعقدت الأمور وعجز المفوض الجديد عن أن ينهي الأعمال الثورية استبدلته فرنسا بمفوض آخر جديد هو (هنري بونسو).

هنري بونسو

أرسلت فرنسا السيد (هنري بونسو) مفوضاً سامياً جديداً إلى سورية بدلاً من السيد هنري ده جوفنيل فوصل إليها في ١٣ ت١ ١٩٢٦.

وفي تلك الفترة كانت قد دخلت الجيوش الفرنسية مدينة السويداء عاصمة جبل العرب.

وكانت الآثار التي خلفتها الثورة ما تزال ماثلة ففظائع الحرب، وقتل الجماعات وطرح جثثهم في الساحات العامة في دمشق من قبل الفرنسيين، واتلاف المواسم وتدمير دمشق بالمدافع ونهبها ونهب القرى المجاورة لها وتدميرها قد أوجدت هوة عميقة بين ممثلي فرنسا والشعب العربي.

إن الناس قد تلين قناتهم للقوة العسكرية، ولكن نيران الثورة تظل تتأجج في صدورهم، وكان الحنق المكظوم يملأ صدور أبناء الشعب على مستعمريه، وهم لن يتخلوا عن حمل السلاح متى جاءت الفرصة المناسبة.

حين وصل هنري بونسو إلى البلاد كان سلفه قد عين الداماد أحمد نامي رئيساً للحكومة السورية وحاول هذا الأخير أن يصل إلى اتفاق مع المفوض السامي ولكنه عجز عن ذلك، وعزل ده جوفنيل وجاء (هنري بونسو) لتصبح البلاد تحت الحكم العسكري وأخذ الجيش الفرنسي بعد دخوله (السويداء) يخرب

القرى والمزارع ويدمر المدن ويسجن وينفي رجال السياسة والمناضلين، وكان الفرنسيون يقتلون بعض الموقوفين في السجون دون محاكمة.

كانت البلاد في حالٍ سيئة جداً، فرجال السلطة يرتكبون أشنع الجرائم دون رادع من ضمير أو دافع من وجدان، وهم حكام البلاد والمتصرفون في شؤونها، وبخاصة بعد أن خبت نيران الثورات وأمن الطغاة من أن ينالهم يد القصاص العادل، فهجر البلاد عدد كبير من رجالها السياسيين والمناضلين، وأخذ المحتلون يصولون ويجولون لا يجدون من يعارضهم، وأغلقوا الصحف وكموا الأفواه، وتعطلت الحركة الفكرية في البلاد وجمدت الأسواق وأقفرت المزارع.

أعمال بونسو

بدأ بونسو عمله بأعصاب كأنما هي ثلاجة، وراح يدرس أحوال البلاد والعباد، ويتحدث إلى الناس والرؤساء والزعماء ويدرس وينقب ويبحث ويزور باريس تارة فإذا عاد إلى سورية تنقل في مصايفها ومفاتنها تقام له الولائم والحفلات وهو لا يتصدى لشؤون البلاد العامة إلا قليلاً فهو بحاجة إلى وقت يمكنه من أن يدرس أحوال البلاد دراسة وافية.

ويدخل عام ١٩٢٧ والمفوض الصامت لا يتكلم وفجأة في ٢٦ تموز ١٩٢٧ يطلِعُ على الشعب بالبيان التالي يشرح فيه سياسة حكومته في سورية، قال المفوض السامي في بيانه:

أولاً: كان الاهتمام بتحقيق أماني الطوائف المختلفة التي توجد في البلاد هي الفكرة المتواصلة التي أوحت بالسياسة الفرنسية، وإن الدولة المنتدبة ثابتة على هذه الخطة وموطدة النية للنزول عند هذه الأماني.

ثانياً: تحاول فرنسا أن تزيل المنازعات بين الدول السورية المحدثة وإنها ستقوم بوظيفة الحكم فيما قد يحصل من منازعات، فإذا شاء أبناء البلاد أن يضعوا نظاماً نهائياً فذلك ممكن في ظل النظام والسكينة.

ثالثاً: أعيد النظام وأصبح الأمن سائداً، وإن فرنسا التي تهتم بتوثيق عرى الاتحاد والوفاق بين الملل التي وكلت إليها الوصاية عليها تتمنى أن تزداد تقرباً بعضها إلى بعض في كل يوم، وإن الزمان سيعمل عمله وحكمة الحكومة واختبارها يتكفلان بالباقي، وإن الانتداب يحكم صفته نفسها، لا يسعى إلى الخلود أو البقاء أكثر من المدة اللازمة له.

المؤتمر الوطني في بيروت

وعلى أثر إذاعة بيان المفوض السامي قرر الوطنيون عقد مؤتمر في بيروت لدراسة البيان.

فاجتمع في بيروت في ١٩ ت١ ١٩٢٧ الوطنيون السادة: هاشم الأتاسي، الدكتور عبد الرحمن الكيالي، عبد الحميد كرامي، الدكتور عبد اللطيف البيسار، عبد الرحمن البيهم، وفاخر الجابري، عبد القادر حسني الكيلاني، نجيب البرازي، مظهر باشا رسلان، يوسف عيسى، الأمير سعيد الجزائري، عفيف الصلح، الدكتور إحسان الشريف، عارف الحسن، الدكتور عبد الله اليافي، وتخلف الزعيم إبراهيم هنانو لمرضه في طرابلس وأصدروا بياناً جاء فيه:

١- إن ما جاء في بيان المفوض السامي الغامض من أسس ونظريات عامة لم يحل الوضع المؤسف في البلاد بل ولّد نوعاً من الريبة في نفوس أهالي وطننا.

٢- إن البيان لم يتضمن ما يدل على إعادة الحرية الطبيعية للأمة في صحافتها واجتماعاتها، وتشكيل أحزابها، ورفع الأحكام العسكرية والعرفية، وإلغاء النفي الإداري وسياسة الإبعاد، ولا نص على العفو العام.

٣- إن بيان المفوض السامي يعتبر سورية مفككة الأجزاء ويراعي الطائفية.

٤- إن شعبنا يلح على انتخاب جمعية تاسيسية تنتخب انتخاباً حراً.

٥- إن البيان أشار إلى إبقاء الدول في البلاد ضمن نظمها الحالية، ولم تعتبر سورية موحدة.

٦- ذكر البيان أن المفوض السامي سيسير على نهج الخطة التي سار عليها السيد هنري ده جوفنيل، المفوض السابق وهو قد عقد اتفاقية مع سورية لم تنفذ فهل المفوض الجديد سينفذ تلك الاتفاقية؟

٧- إن المسؤولية الحكومية في البلاد مختلطة ولم يوضح البيان من المسؤول عن تنفيذ الإجراءات أهم المستشارون الفرنسيون أم المواطنون المحليون في الحكومة المحلية؟.

ثم أضاف البيان:

هذا، واسمحوا لنا يا فخامة العميد أن نذكركم بمطالب أمتنا تلك المطالب التي نقلتها إليكم وفودها في الداخل ووفودها في الخارج، وفي الختام فإن لسان حال أمتنا يخاطبكم:

طلبتم منا الصبر فصبرنا، وحسن الثقة فوثقنا، فهل يا ترى يرضيكم بقاؤنا متذمرين شاكين مقيدي الحرية مفككي الأجزاء؟..

إننا لسنا أعداء فرنسا التي عرفناها: بعلمها وحريتها ومدنيتها وثقافتها وتفانيها في خدمة المبادئ الإنسانية، ولهذا قصدنا في هذا الاجتماع والبيان تذكيركم بأن الشعب السوري مستعد لمد يد الصداقة والمصافحة ونسيان الماضي المؤلم، كلما وجد تحقيقاً لأمانيه ولسيادته القومية)) انتهى البيان.

وحين جاء المفوض (بونسو) إلى البلاد في ١٣ ت١ ١٩٢٦ كانت الحكومة مؤلفة من الداماد أحمد نامي رئيساً والسادة: واثق المؤيد للداخلية وعبد القادر العظم للمالية ويوسف الحكيم للعدلية، وشاكر الحنبلي للزراعة، وفؤاد المدرس للأشغال العامة، ونصوح البخاري للمعارف وقد تألفت في ١٣ حزيران ١٩٢٦.

وكانت قد سبقتها وزارة برئاسة الداماد أحمد نامي وعضوية السادة حسني البرازي للداخلية، وشاكر نعمت الشعباني للمالية، يوسف الحكيم للعدلية، فارس الخوري للمعارف، لطفي الحفار للزراعة، واثق المؤيد للأشغال العامة، وقد

تألفت هذه الوزارة في ٢٦ نيسان ١٩٢٦ فعمد السيد هنري ده جوفنيل إلى نفي السادة فارس الخوري ولطفي الحفار وحسني البرازي إلى مدينة الحسكة بعد أن استقالوا ونقلوا إلى المنفى في ١٣ حزيران ١٩٢٦.

ويطيب لي أن أذكر الوزارات التي سبقت وزارة الداماد الأولى ليلم القارئ بمن كانوا يمثلون حكم البلاد على مسرح الحكم الفرنسي يومذاك وقبله بقليل.

١- الوزارة الأولى في العهد الفيصلي: وزارة رضا باشا الركابي من ٨ آذار - ٣ أيار ١٩٢٠ وتتألف من السادة:

رضا باشا الركابي	للرئاسة
علاء الدين الدروبي	لرئاسة مجلس الحكومة
رضا الصلح	للداخلية
سعيد الحسني	للشؤون الخارجية
عبد الحميد قلطقجي	للحربية
فارس الخوري	للمالية
جلال زهدي	للعدلية
ساطع الحصري	للمعارف
يوسف الحكيم	للتجارة والزراعة والأشغال العامة

٢- الوزارة الثانية في العهد الفيصلي من ٣ أيار إلى ٢٥ تموز ١٩٢٠ :

هاشم الأتاسي	للرئاسة والداخلية بالوكالة
رضا الصلح	لرئاسة مجلس الحكومة
عبد الرحمن الشهبندر	للشؤون الخارجية
يوسف العظمة	للحربية
فارس الخوري	للمالية

جلال زهدي	للعدلية
ساطع الحصري	للمعارف
جورج رزق الله	للأشغال العامة

وحين دخل الفرنسيون دمشق في ٢٥ تموز ١٩٢٠ وخرج الملك فيصل استقالت هذه الوزارة وتألفت الوزارة الأولى في عهد الحكم الفرنسي للبلاد.

٣- وزارة علاء الدين الدروبي ٢٥ تموز - ٢١ آب ١٩٢٠ على الوجه التالي: السادة:

علاء الدين الدروبي	للرئاسة والشؤون الخارجية
عبد الرحمن اليوسف	لرئاسة مجلس الدولة
جميل الألشي	للحربية
عطا الأيوبي	للداخلية
فارس الخوري	للمالية
جلال زهدي	للعدلية
بديع المؤيد	للمعارف
يوسف الحكيم	للتجارة والزراعة والأشغال العامة

وانتهت هذه الوزارة بمقتل رئيسها الدروبي وأحد أعضائها عبد الرحمن اليوسف في خربة الغزالة بحوران، وبعد خمسة عشر يوماً تألفت وزارة جديدة.

٤- وزارة جميل الألشي الأولى من ٦ أيلول - ١ ك١ ١٩٢٠ على الوجه التالي: السادة:

جميل الألشي	للرئاسة والحربية
عطا الأيوبي	للداخلية
حقي العظم	لرئاسة مجلس الدولة
حمدي النصر	للمالية

بديع المؤيد	للعدلية
محمد كرد علي	للمعارف
شاكر القيم	للتجارة والزراعة والأشغال العامة

وتمزقت البلاد إلى دويلات فتألفت في حكومة دمشق وزارة برئاسة حقي العظم وبمساعدة مديرين عامين من ١٩٢٠/١٢/١ إلى ١٩٢٢/٦/٢٨ على الوجه التالي: السادة:

حقي العظم	للرئاسة
عطا الأيوبي	لمديرية الداخلية العامة
بديع المؤيد	لمديرية العدلية العامة
حمدي النصر	لمديرية المالية العامة
محمد كرد علي	لمديرية المعارف العامة
نصوح البخاري	للشؤون العسكرية
شاكر القيم	لمديرية الأشغال العامة

هذا في دولة دمشق، أما دولة حلب فكان رئيسها كامل باشا القدسي، وحكومة العلويين ومقرها دمشق يديرها الكولونيل (نيجر) ثم الجنرال (بيوت)، ودولة جبل الدروز ويديرها الأمير سليم الأطرش ثم وحدت دويلات دمشق وحلب والعلويين تحت اسم الاتحاد السوري وتألفت الحكومة على الوجه التالي:

٦- حكومة الاتحاد السوري برئاسة صبحي بركات من ٢٩ حزيران ١٩٢٢ - ١٩٢٥/١/١ السادة:

صبحي بركات	لرئاسة الاتحاد
نصري بخاش	لمديرية الشؤون المدنية العامة
محمد علي العابد	لمديرية الشؤون المالية
حسن عزت باشا	لمديرية الأشغال العامة

عطا الأيوبي		لمديرية العدلية

مصطفى نعمت		لمديرية الدرك العامة

وأعلن دستور الدولة السورية فتألفت وزارة برئاسة السيد صبحي بركات بين ١٩٢٥/١/١ - ١٩٢٥/١٢/٣١

٧- السادة:

صبحي بركات		لرئاسة الدولة

نصري بخاش		لوزارة الداخلية

حمدي النصر		لوزارة المالية

جلال زهدي		لوزارة المعارف

الدكتور رضا سعيد		لوزارة الأشغال العامة

واشتعلت الثورة السورية الكبرى فاستقالت الحكومة فاستلم الإدارة بالوكالة السيد (بيير آليب) الفرنسي في ٢٦ نيسان ١٩٢٦ حيث تألفت وزارة الداماد أحمد نامي كما قدمنا التي كان ترتيبها الثامنة، ثم ألف وزارته الثانية في التعديل الوزاري.

بعد البيان الفرنسي والوطني

نعود إلى موقف السيد (بونسو) فهو يسوّف ويماطل ويتّهم السوريين بأنهم هم الذين يعرقلون التفاهم والتصالح والتعايش السليم، هذا هو منطق الاستعمار طبعاً، فالاستعمار تسلط واعتداء على الحقوق المشروعة ونهب وسلب ما لدى الأمم المحكومة والمغلوبة على أمرها، وقهر بالقوة لأولئك الذين يناهضونها ويصدونها عن بغيها وظلمها وتعديها، وتنكيل بالأحرار، وقتل روح المقاومة، وإفقار السكان، وتسليط المدفع، وتسخير العملاء والمرتزقة لأغراضها الاستعمارية في البلاد.

الوفد السوري يقدم تقريره إلى عصبة الأمم

في ١٢ أيلول ١٩٢٧ قدم الوفد السوري في جنيف ردا على بيانات المفوض السامي (بونسو) وبين أن جمعية الأمم تعترف في المادة ٢٢ بوحدة سورية ولا توافق على تجزئتها وبسط الوفد سوء أفعال فرنسا في سورية من تغريم الناس وسلب ما يملكون من الذهب بقوة السلاح.

ولم تهدأ البلاد وعمّت النقمة على الاستعمار ومن يمثله وعلى رأسهم المفوض السامي ففي الثامن من شباط عمد هذا المفوض السامي إلى إقالة وزارة الداماد وكلف الشيخ تاج الدين الحسني بتأليفها. وفي ١٦ شباط ١٩٢٨ تألفت وزارة الشيخ تاج الدين الأولى وهي الوزارة التاسعة، وكان تأليفها على الوجه التالي:

الشيخ تاج الدين الحسني	للرئاسة
سعيد محاسن	للداخلية
جميل الألشي	للمالية
صبحي النيال	للعدلية
محمد كرد علي	للمعارف
توفيق شامية	للأشغال العامة
عبد القادر كيلاني	للزراعة والتجارة

ذهبت وزارة الداماد أحمد نامي كما ذكرنا في الثامن من شباط ١٩٢٨ بعد عامين اثنين من وجودها لأنها لم تحقق رغبات الفرنسيين بالكامل كما إنها لم تستطع أن تصنع شيئاً لخير الشعب.

ولهذا استدعى بونسو الشيخ تاج الدين الحسني في ١٦ شباط ١٩٢٨، كما قدمنا، وكلفه بتأليف الوزارة، وكانت كما ذكرنا الوزارة التاسعة ألفت لتشرف على انتخابات المجلس التأسيسي، ولكن وزير الداخلية سعيد محاسن استقال في ٢٠ أيلول وعدلت الحكومة ثلاث مرات حتى غدت على الوجه التالي:

الشيخ تاج الدين الحسني	للرئاسة والداخلية
توفيق شامية	للمالية
شاكر الحنبلي	للعدلية
محمد كرد علي	للمعارف
بديع المؤيد	للزراعة والأشغال العامة

ولقد أدار الشيخ تاج الدين شؤون الدولة بسياسة جديدة فبذل المال، وأوجد وظائف لأنصاره وللآخرين، وقرب رجال الصحافة وأغدق الأموال على الأشخاص والهيئات التي تؤثر في الناس بمختلف الأساليب، واستخدم الجميع لأغراضه لأنه يعلم أن الناس يكونون في الغالب مع القائم على الحكم ليحققوا بذلك أغراضهم الحياتية، ومصالحهم الذاتية.

وحدد المفوض السامي موعداً لإجراء الانتخابات للجمعية التأسيسية التي عليها أن تضع دستوراً للبلاد، وهو يوم ٢٤ نيسان ١٩٢٨ على أن يكون اجتماع الجمعية يوم ٩ حزيران ١٩٢٨.

وجرت الانتخابات في موعدها المحدد ولكن لم تكن النتيجة كما يريدها الاستعمار والحكومة القائمة بل دخل المجلس عدد كبير من الوطنيين من أعضاء الكتلة الوطنية وعلى رأسهم الزعيم إبراهيم هنانو.

وسارت أكثرية النواب في هذه الجمعية التأسيسية وفق ما يريده الوطنيون، وتألفت لجنة لوضع الدستور يرئسها السيد فوزي الغزي.

كان الوطنيون في منتهى التعقل والاتزان عندما دخلوا هذه الانتخابات، فخاضوا غمرتها ضد السلطة الفرنسية وعملائها، وفور الانتخاب بدأت الجمعية بوضع دستور، وكان متطورا وجيدا.

وظل المفوض السامي معتصماً بصمته العجيب حتى إنه عندما اجتمعت الجمعية اجتماعها الأول في ٩ حزيران ١٩٢٨ خطب فيها السيد (بونسو) مهنئاً بقوله: إنها لساعة جميلة سيكون لها أثرها الخالد في تاريخ سورية، هذه الساعة التي تجتمعون فيها هنا لوضع دستور الدولة ثم أضاف:

((بيد أن العمل الذي تشتركون فيه، يتطلب من الكل عزماً صادقاً للوصول إلى حل يؤمن - ضمن روح التساهل الواسع - الضمانات الضرورية لصيانة كافة الحقوق ولاحترام كافة المصالح))

وكان دخول الوطنيين معركة الانتخابات قد تقرر وصدر بيان حول ذلك موقع من قبل السادة: هاشم الأتاسي، إبراهيم هنانو، فارس الخوري، الدكتور عبد الرحمن الكيالي، حسني البرازي، سعد الله الجابري، عفيف الصلح، إحسان الشريف، وصفي الأتاسي، صلاح الدين الباقي، مظهر رسلان، فوزي الغزي، أحمد اللحام، لطفي الحفار، شكري الجندي.

وكان قد سبق للمفوضية العليا أن دعت اثنين من الزعماء الوطنيين وهما هاشم الأتاسي وإبراهيم هنانو ودارت محاورات تتعلق بمصير البلاد وتحقيق أمانيها واعتدلت الأمور بعض الشيء.

وكان الشيخ تاج الدين الحسني قد ألقى خطاباً في الجمعية التأسيسية تمنى لها النجاح في المهمة التي أوكلت إليها مبدئياً وهي صياغة دستور البلاد، وبعد أن انتخب السيد هاشم الأتاسي رئيساً للجمعية ألقى خطاباً افتتاحياً جاء فيه:

إن لساني لعاجز عن إبداء الشكر لحضراتكم على هذه الثقة التي أوليتموني إياها، وإننا على يقين بأن جميع أعمال هذا المجلس التاريخي ستكون مشبعة بروح الحكمة والرزانة، فنكفل للأمة العزيزة حياة سعيدة ورقياً سريعاً، سدد الله خطواتنا ووفقنا إلى الخير وما فيه الصواب.

بونسو يغلق الجمعية التأسيسية

٢٥

شمَّر النواب عن ساعد الجد، وأعدوا الدستور إعداداً جيداً، ولم يتركوا ثغرات تعطي للمستعمر إمكانية العودة إلى التحكم في شؤون البلاد، فلم يرق ذلك للمفوض السامي وحكومته، وقبيل التصويت على مواد الدستور مادةً مادةً في الجمعية التأسيسية فاجأ (بونسو) المجلس في ٩ آب ١٩٢٨ بأن حكومته أمرته بالطلب إلى الجمعية أن تحذف ست مواد من الدستور هي المواد ٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ١١٠، ١١٢، وقد جاء بنفسه إلى الجمعية لإبلاغها ذلك، مدعياً أن هذه المواد تتعارض ونصوص صك الانتداب الذي صدر عن عصبة الأمم المتحدة والذي بموجبه تحكم فرنسا سورية.

وأيد الشيخ تاج موقف المفوض السامي بضرورة حذف المواد الست المذكورة سابقاً التي كانت قد صيغت على الوجه التالي:

٢ـ إن البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية ذات وحدة سياسية لا تتجزأ، ولا عبرة لكل تجزئة طرأت عليها منذ نهاية الحرب حتى اليوم (أي الحرب العالمية الأولى).

٧٣ـ لرئيس الجمهورية حقُّ العفو الخاص، أما العفو العام فلا يمنح إلا بقانون.

٧٤- يتولى رئيس الجمهورية عقد المعاهدات الدولية وإبرامها، أما المعاهدات التي تتعلق بسلامة البلاد أو مالية الدولة، أو المعاهدات التجارية، أو سائر المعاهدات التي لا يجوز فسخها سنة فسنة، فلا تعود نافذة إلا بعد موافقة المجلس عليها.

٧٥- يختار رئيس الجمهورية رئيس الوزراء ويعين الوزراء بناء على اقتراح رئيسهم، ويقبل استقالتهم ويولي الممثلين السياسيين، ويقبل الممثلين السياسيين الأجانب. ويعين الموظفين والقضاة ويرئس الحفلات الرسمية ضمن حدود القانون.

١١٠- تنظيم الجيش الذي سينشأ يكون بقانون خاص.

١١٢- لرئيس الجمهورية أن يعلن، بناء على اقتراح مجلس الوزراء، الأحكام العرفية في الأماكن التي تحدث فيها اضطرابات أو قلاقل، ويجب أن يعرض إعلان الأحكام العرفية على المجلس النيابي فوراً، وإذا كان المجلس غير منعقد دعاه للاجتماع بوجه السرعة.

هذه هي المواد الست التي اعترض عليها المفوض السامي وأيدته الوزارة التاجية.

وكان الشيخ تاج الدين الحسني يطمح أن يكون رئيساً للجمهورية بعد إقرار دستور للبلاد ولكن الوطنيين اتفقوا فيما بينهم على أن يكون الزعيم إبراهيم هنانو رئيساً للجمهورية والسيد هاشم الأتاسي رئيساً للمجلس النيابي، ولم يرق ذلك للشيخ تاج الدين وكان يتمنى أن يستمر في الحكم، ووقف في الجمعية خطيباً فأيد أقوال المفوض السامي قائلاً: يشق علينا تأجيل قسم من مواد الدستور، ولكن يجب علينا ألا نضيع جهودنا التي بذلناها في هذا السبيل سدىً، على أمل أن تحل هذه المواد والقضايا بالمعاهدة المنتظرة، وإنني والأمة جمعاء نعلق كل الأهمية على تحقيق هذه المطالب، ولكن إذا حسبنا أن مجرد وضع هذه المواد في الدستور يكفي لتحقيقها، فإننا نخدع أنفسنا في وقت تجب فيه

الصراحة، فالحكومة الفرنسية ترى أن هذه المطالب لا تتحقق إلا بالمعاهدة المنوي عقدها قريباً.

طلب المفوض السامي الجواب من الجمعية سلباً أم إيجاباً حتى غاية اليوم التالي فطلب المجلس مهلة أطول فرفض المفوض السامي إطالة المهلة.

وصدر قرار المجلس برفض حذف المواد الست بل تعديلها بحيث توافق رغبات الطرفين فأصدر المفوض السامي في ١٠ آب ١٩٢٨ قراراً بتعطيل المجلس ثلاثة أشهر اعتباراً من ١١ آب ١٩٢٨.

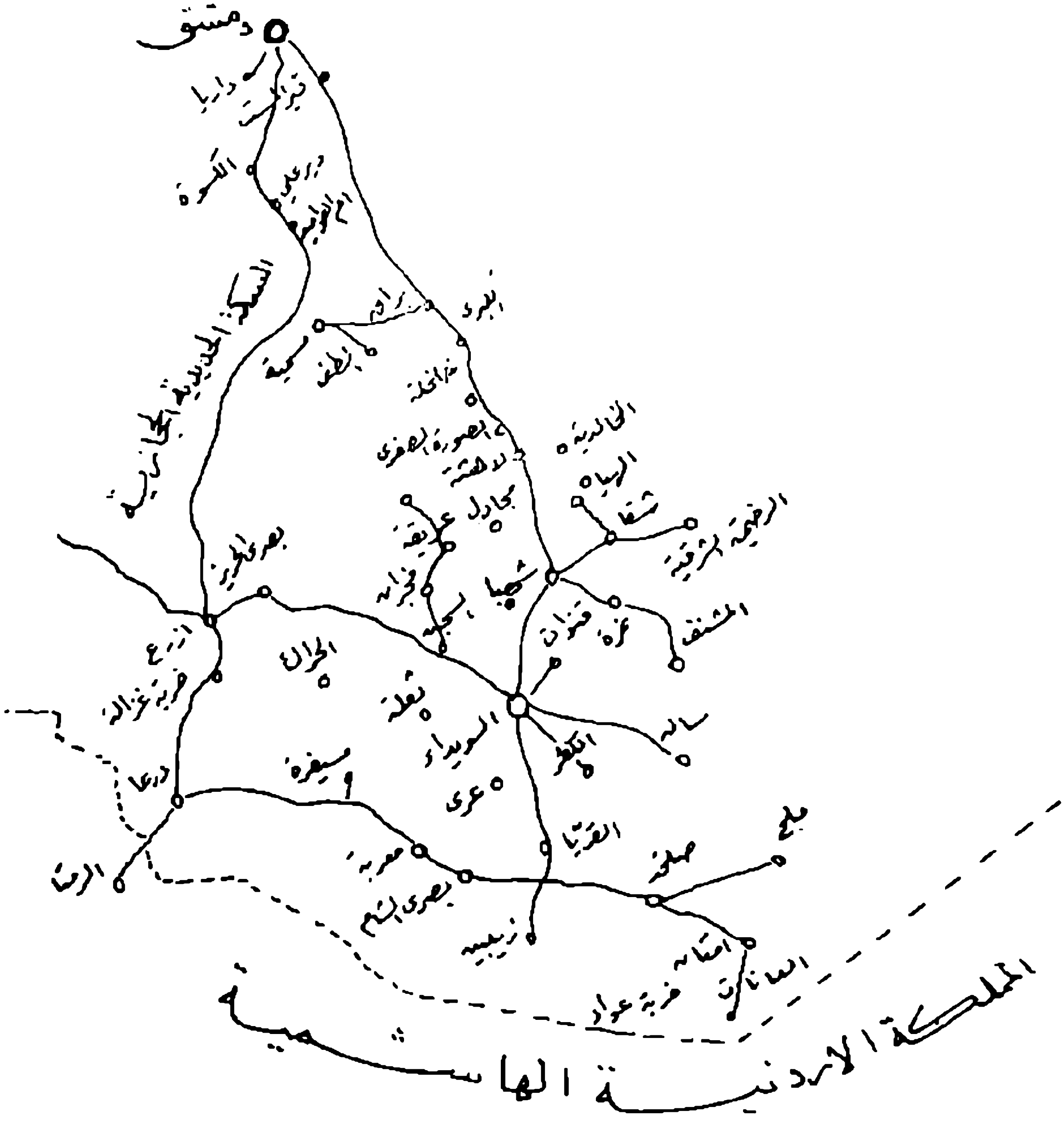
وحين وصل القرار إلى المجلس وتلاه رئيسه على النواب نهضوا وهتفوا بحياة سورية وحياة شعبها واستقلالها.

وتأجل المجلس ثلاثة اشهر أخرى.

وتقدم المجلس بتعديل للمادة الثانية وللمواد الباقية معقول، فرفضه المفوض السامي بكتاب مؤرخ في ٣ شباط ١٩٢٩ وقال في نهايته: ((وليس في ظل سوء التفاهم ولا بجهل الحقائق، يمكن تمهيد الخلاف الذي أوقف أعمال المجلس منذ ستة شهور لهذا تظهر الحاجة إلى الجهود الساكنة.. الثابتة، التي تسعى وراء منفذٍ للصعوبات الحالية، وريثما ينضج التبصر وإمعان الفكر لإيجاد الحلول لهذه القضية الجوهرية، أصبح انعقاد المجلس بدون غاية مفيدة، فلهذا، ولعدم معرفة الساعة التي يمكن فيها الوصول إلى النتيجة المنتظرة في فرنسا وسورية، لقد اتخذت اليوم قراراً يقضي بتأجيل المجلس إلى أجل غير معين)).

وهكذا لم تفد المرونة شيئاً فالمجلس حاول أن يطور المواد الست ويجعلها تتماشى مع رغبة الحكومة الفرنسية، ولكن فرنسا لم تعد تقبل، إنها مراوغة نعرفها عن المستعمرين فقد خبرناهم وعرفناهم جيداً.

فالحقائق التي يدعي المفوض السامي أننا نجهلها قائمة تصرخ في وجهه ووجه حكومته أبداً: اخرجوا من بلادنا أيها الغرباء فلا شأن لكم بنا كما لا شأن



مخطط جغرافي يبين مناطق الثورة في جبل العرب
بقيادة سلطان باشا الأطرش

لنا بكم. هذه هي الحقائق، إنها حريتنا، واستقلالنا وكرامتنا، ووحدتنا، فمن الذي لا يفهم هذه الحقائق؟..

وراحت السلطة تقمع مظاهرات الشعب بالقوة والبطش وتستعين بالمرتزقة المحليين على إرغام الأمة على الخنوع لسلطان القوة.

وأخذ المفوض السامي يتنقل بين باريس وبين سورية ولبنان معتمداً على الشيخ تاج الدين مطلقاً يده في إدارة الحكم يصنع ما يشاء وينفق ما يشاء من خزينة الدولة وأموال الشعب.

وعانى أبناء الشعب الأمرين لأن الحكومة مطلقة اليد فلا مجلس نيابياً يحد من تهورها وبطشها، والسلطة الفرنسية تدعمها بكل قوتها، وكانت الكتلة الوطنية تقود الأعمال النضالية في البلاد ومن أبرز أعضائها السادة: هاشم الأتاسي، إبراهيم هنانو، جميل مردم، سعد الله الجابري لطفي الحفار، مظهر رسلان، حسني البرازي، توفيق الشيشكلي.

وظهرت أحزاب ضد الكتلة الوطنية ومنها: حزب الإصلاح، حزب الميثاق، الحزب الحر المعتدل، الحزب الملكي، وكانت تؤيد الحكومة والسلطة الفرنسية.

وصدر قانون سمّوه قانون قمع الجرائم أو قانون رقم ٤ لمقاومة الوطنيين والمناضلين والشيوعيين وقمع حركاتهم، وقد جعلت السلطة من حق المحاكم المختلطة وحدها أن تنظر في قضايا هذا القانون.

وانتهى عام ١٩٢٩ وأعقبه خمسة أشهر من عام ١٩٣٠ وإذا بالمفوض السامي ينشر قراراً يعلن بموجبه دستوراً يشبه دستور الجمعية التأسيسية لكنه مذيل بمادة سماها القرار المادة (١١٦) وهذه المادة تقول: ((ما من حكم من أحكام هذا الدستور يعارض ولا يجوز أن يعارض التعهدات التي قطعتها فرنسا على نفسها فيما يختص بسورية لاسيما ما كان منها متعلقاً بجمعية الأمم، ويطبق هذا التحفظ بنوع خاص على المواد التي تتعلق بالمحافظة على النظام وعلى الأمن وبالدفاع عن البلاد، وبالمواد التي لها شأن في العلائق الخارجية،

ولا تطبق أحكام هذا الدستور التي من شأنها أن تمس بتعهدات فرنسا الدولية فيما يختص بسورية أثناء مدة هذه التعهدات إلا ضمن الشروط التي تحدد في اتفاق يعقد بين الحكومتين الفرنسية والسورية.

وعليه، إن القوانين المنصوص عليها في مواد هذا الدستور التي قد يكون لتطبيقها علاقة بهذه التبعات لا تناقش فيها ولا تنشر وفقاً لهذا الدستور إلا تنفيذاً لهذا الاتفاق. إن القرارات ذات الصفة التشريعية والتنظيمية التي اتخذها ممثلو الحكومة الفرنسية لا يجوز تعديلها إلا بعد الاتفاق بين الدولتين)).

ومن قراءة هذه المادة بإمعان يبدو جلياً أن جميع السلطات هي في الحقيقة في يد ممثل الحكومة الفرنسية وبموجب هذه المادة أصبح الدستور ألعوبة لا يمكن الاعتماد عليه، ولا السير بموجبه، إذ أن المادة ١١٦ بالمرصاد، والدولة الفرنسية تستطيع أن تعطي كل شيء أو تحول دون أي تقدم سياسي نحو السيادة والاستقلال.

عودة إلى أعمال المفوض السامي (بونسو)

بعد عودة المفوض من باريس استدعى السيد سولومياك في ١٩٣٠/١٢/١ وجعله مندوباً ممتازاً لدى الحكومة السورية، وأوكل إليه دراسة القضية السورية وحلها حلاً مرضياً وعاد إلى باريس في ٦ حزيران ١٩٣١.

ولم يغب المفوض طويلاً إذ عاد في ١٧ ت٢، ١٩٣١ وفي ٢٠ منه أصدر ثلاثة قرارات:

الأول: قرار بتأليف مجلس استشاري.

الثاني: يتعلق بتنظيم مصالح الحكومة السورية تنظيماً جديداً إلى أن ينفذ دستور سورية الجديد.

الثالث: يتعلق بالانتخابات وحلوله هو، أي المفوض السامي، محل رئيس الدولة فيما يختص بأعمال الانتخاب.

وكان في اليوم السابق، أي في ١٩ تشرين الثاني ١٩٣١، قد أصدر قرارا بعزل الشيخ تاج الدين من منصبه بكتاب أرسله إليه جاء فيه ما يلي:

((في الساعة التي يفتح لسورية عهد تنفيذ القانون الأساسي المعلن في ١٤ أيار ١٩٣٠ رأى ممثل الدولة المنتدبة من الضروري أن يقوم بنوع أكثر مباشرة بما له من المسؤولية لأجل تنفيذ صك الانتداب، وغايته القصوى أن تجري هذه الانتخابات في جو أكثر ما يمكن موافقة للتعاون النزيه الذي هو ضروري جداً لتأمين نجاح تطور الانتداب التدريجي وفقاً لمحتويات المادة (٢٢) من عهد عصبة الأمم، ومؤازرة أصحاب النية الحسنة)).

وعهد المفوض السامي إلى السيد سولومياك بأن ينوب عنه في حكم البلاد فأحدث هذا منصباً سماه الأمين العام وأسند إلى السيد توفيق الحيلقي محافظ حوران، وبديع المؤيد للزراعة والداخلية بالوكالة، وتوفيق شامية للمالية، وشاكر الحنبلي للعدلية، ومحمد كرد علي للمعارف.

المجلس الاستشاري

أصدر المفوض السامي قراراً بتأليف المجلس الاستشاري كما قدمنا وكان يتألف من السادة:

جميل الألشي	رئيس الحكومة المؤقتة ١٩٢٠
حقي العظم	حاكم دولة دمشق ١٩٢٠
مصطفى برمدا	حاكم دولة حلب عام ١٩٢٣
صبحي بركات	رئيس اتحاد دول سورية عام ١٩٢٣
	ورئيس دولة سورية عام ١٩٢٦
الداماد أحمد نامي	رئيس دولة سورية عام ١٩٢٦
الشيخ تاج الدين الحسيني	رئيس الوزارة السورية عام ١٩٢٨
رضا بك سعيد	عميد جامعة دمشق

إبراهيم مؤمن	رئيس مجلس سنجق الاسكندرون
سليم جنبرت	رئيس غرفة تجارة حلب
عارف الحلبوني	رئيس غرفة تجارة دمشق
هاشم الأتاسي	رئيس الكتلة الوطنية، ورئيس المجلس التأسيسي عام ١٩٢٨ ورئيس الحكومة الفيصلية عام ١٩١٩.

واجتمع هذا المجلس مرة واحدة حضر أعضاؤه كلهم ذلك الاجتماع ما عدا السيد هاشم الأتاسي لأسباب عدة لم تكن تخفى على المرء فلقد عين السيد الأتاسي دون أن يؤخذ رأيه في ذلك، ولقد ضم المجلس جماعات كانوا عوناً للفرنسيين في فترات كانوا فيها يحكمون البلاد باسم السلطة الفرنسية.

وأعلن المفوض في ذلك الاجتماع أي في (٩) ك١ ١٩٣١ أن الانتخابات (وكانت تجري على درجتين) للدرجة الأولى ستجري في ٢٠ ك١ ١٩٣١، وأن موعد الانتخابات الثانوية هو في ٥ ك٢ ١٩٣٢ وبعد أن أتم بيانه رد عليه الداماد أحمد نامي، وفي اليوم التالي أعلن المفوض مرسوماً بحل المجلس الاستشاري والاستغناء عنه.

رد الكتلة الوطنية على أعمال المفوض السامي ودعوته للانتخاب

في ١٩٣١/١٢/١٠ ردت الكتلة الوطنية ببيان على المفوض السامي تقول فيه: (**(نحن إلى اليوم تحت نظام انتداب وحيد الطرف فرض علينا وليس لنا فيه رأي ولا رضا، ولكننا بحسب المنهاج الذي أعلنه فخامة مفوض فرنسا سندخل في نظام معاهدة ثنائية الطرف يقبله نواب الأمة وإذا لم تكن هذه المعاهدة ضامنة لحقوق الشعب وكافلة لنيل الأماني الوطنية العادلة رفضناها وناضلنا لإنقاذ الوطن من غوائلها.**

تحت هذا اللواء الوطني العزيز قررنا متحدين دعوة الأمة للاشتراك معنا في هذا الانتخاب معتصمين جميعاً بالمبادئ القومية العزلاء من كل سلاح غير

سلاح الحق والإخلاص، معتمدين على تلك الثقة الغالية التي شرفتنا بها أمتنا النبيلة، راغبين أن تقابل كل نية صافية، تبدو من ناحية فرنسا بأصفى منها)).

الانتخابات

جرت الانتخابات في موعدها المعين، أي في ١٩٣١/١٢/٢٠ للدرجة الأولى، وفي ١٩٣٢/١/٥ للدرجة الثانية في ظل القوة الفرنسية الغاشمة واضطهاد الشعب، وإرهاقه وملء السجون بالأبرياء، وكم أفواه الصحف ومنع الاجتماعات والتزوير ومخالفة القوانين وإراقة دماء الشعب، وفاز نواب السلطة الفرنسية في الأقضية وحلب ومنطقة اسكندرونة وفازت الكتلة الوطنية بسبعة عشر نائباً أكثرهم من نواب دمشق وحمص وحماة.

واحتج الشعب السوري على هذه الانتخابات التي زورت في مناطق عدة من البلاد، وأرسلت احتجاجاتها إلى مجلس عصبة الأمم، فأوكلت العصبة إلى لجنة يرئسها السيد (أورتز) دراسة هذه الاحتجاجات فخرج بالنتيجة التالية:

أن اللجنة بعد أن دققت في المضابط المختلفة فيما يتعلق بالانتخابات السورية والحوادث التي رافقتها، وبعد أن أطلعت على ملاحظات الدولة المنتدبة والاستعلامات المتممة التي قدمها ممثل الدولة المنتدبة ترى أن هذه المضابط لا تستدعي اهتمام المجلس.

اجتماع المجلس النيابي

واجتمع المجلس النيابي بتاريخ ٧ حزيران ١٩٣٢، على الرغم من أن الشعب لم يعترف به، فالمظاهرات قائمة على قدم وساق والبلاد تغلي من أقصاها إلى أقصاها.

وانتخب المجلس السيد محمد علي العابد رئيساً للجمهورية السورية.

وفي ١٤ حزيران ١٩٣٢ ألف السيد حقي العظم الوزارة الجديدة واشترك فيها اثنان من أعضاء الكتلة الوطنية هما السيدان جميل مردم، ومظهر رسلان.

وظلت المظاهرات تتوالى دون انقطاع والاضطرابات قائمة وبخاصة في حلب حيث سقط عدد من القتلى والجرحى يوم خرج الشعب لاستقبال الزعيم إبراهيم هنانو بعد عودته من دمشق، سقطوا برصاص الفرنسيين وعملائهم من قوى الأمن.

وبذل الشعب دماءه دون حساب حتى قال الزهاوي، الشاعر العراقي:

قد أثاروها فكانت   للكثيرين سعيرا

لو جمعت الدم ممّن   قتلوا كان غديرا

الميثاق العربي القومي

٢٦

قبل أن نمضي في تسلسل الأحداث في سورية أحب أن انتقل انتقالاً خاطفاً إلى مؤتمر إسلامي عام عقد في القدس غايته استنهاض العالم الإسلامي والعالم العربي لإنقاذ فلسطين يومئذ ممّا يعدّ لها من المصير المظلم.

ففي ١٣ ك١ ١٩٣١ عقد عدد من الرجال العاملين في القضايا العربية مؤتمرا في القدس ووضعوا (الميثاق القومي العربي) وأقسموا جميعاً على احترامه والعمل به، وفيما يلي مواد هذا الميثاق:

المادة الأولى: إن البلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ، وكل ما طرأ عليها من أنواع التجزئة لا تقره الأمة ولا تعترف به.

المادة الثانية: توجيه الجهود في كل قطر من الأقطار العربية إلى وجهة واحدة هي استقلالها التام كاملة موحدة ومقاومة كل فكرة ترمي إلى الاقتصار على العمل للسياسات المحلية والإقليمية.

المادة الثالثة: لما كان الاستعمار بجميع أشكاله وصيغه يتنافى كل التنافي مع كرامة الأمة العربية وغايتها العظمى فإن الأمة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها.

ثم رأى المجتمعون ضرورة عقد مؤتمر عام في إحدى العواصم العربية للبحث في الوسائل المؤدية إلى نشر الميثاق ورعايته وفي الخطط التي ينبغي السير عليها لتحقيقه.

وقد انتدبنا نحن الموقعين على هذا البيان كلجنة تنفيذية تنشر هذا الميثاق في العالم العربي وتهيئ الوسائل لعقد المؤتمر، وتكون صلة المراسلة بين الأقطار العربية في الشؤون المتعلقة بهذا الأمر.

وقد بدأنا العمل مستعينين بالله عز وجل، تشد أزرنا الروح التامة الفياضة التي تجلت في ذلك الاجتماع الخطير والتي تظهر حيناً بعد حين في مختلف الأقطار متذمرة بعنف وقسوة من هذا الطاعون الاستعماري الذي أرهق العرب سيطرة وتسلطاً، ومزق مجموعهم بالقضايا المحلية المولّدة وعطّل سير جهودهم الكبرى، وكاد يصرفهم عن مقصدهم الأسمى.

وبعد كل هذا فقد استفاقت الهمم، واستيقظت ثانية الروح العربية النزاعة لتعمل للقضية الكبرى التي يرمي إليها هذا الميثاق المقدس لإنجاح هذه القضية على مقتضى هذا العهد والله من وراء القصد.

كانون الثاني ١٩٣٢

تواقيع أعضاء اللجنة

محمد عزة دروزة، أسعد داغر، عجاج نويهض، صبحي الخضرا، خير الدين الزركلي، عوني عبد الهادي

ووقع على الميثاق كل من السادة:

محمد رشيد رضا (طرابلس الشام) محمد بهجة الأثرى (بغداد) إبراهيم الواعظ (بغداد) خيرالدين الزركلي (دمشق) صبحي الخضرا (صفد) إبراهيم الخطيب (لبنان) علي عبيد (السويداء) محمد اسحق الدرويش (القدس) علي ناصر الدين (لبنان) صلاح عثمان بيهم (بيروت) محمد العفيفي (القدس) رياض الصلح (بيروت) شكري القوتلي (دمشق) راغب أبو السعود (يافا) أحمد حلمي

باشا (دمشق) سالم هنداوي (إربد) محمد عزة دروزة (نابلس) عوني عبد الهادي (نابلس) محمد طاهر الجقة (عمان) عمر الطيبي (دمشق) محمد علي بيهم (بيروت) معين الماضي (حيفا) نبيه العظمة (دمشق) صالح العوران (الطفيلة) مصطفى الغلاييني (بيروت) حسين الطراونة (الكرك) أحمد الإمام (حيفا) محمد علي الطاهر (نابلس) عوني الكعكي (بيروت) عجاج نويهض (لبنان) عبد الله الداود (السلط) محمد طارق (دمشق) خليل تلهوني (معان) سامي السراج (حماة) محمد بنونه (تطوان - مراكش) سعيد ثابت (بغداد) بشير السعداوي (طرابلس الغرب) سليمان السودي الرومان (إربد) محمد حسين الدباغ (مكة المكرمة) كامل الدحاني (يافا) الشريف عبد الله بن فيصل (الطائف - الحجاز) عبد الرحمن عزام (مصر) إسعاف النشاشيبي (القدس) ماجد الفرغولي (بغداد) أمين التميمي (نابلس) حسن خانكان (حمص) علاء الدين طوقان (عمان) سعيد المفتي (عمان) عبد القهار مذّكر (أندونيسيا) محمد سعيد عبد القادر الجزائري (دمشق) رشيد الحاج إبراهيم (حيفا) عبد القادر الكيلاني (حماة) عادل العظمة (عمان).

إن هذا الميثاق حقاً وكان يجب أن يكون له الأثر الفعال في البلاد العربية لو أن الوعي السياسي لدى الشعوب العربية كان في مستوى القضايا العربية، كما أن الاستعمار الغربي قد أطبق على البلاد العربية كلها والبلد الذي لم يكن مستعمراً استعماراً مباشراً كان يرزخ تحت سيطرة خارجية أجنبية ليست أقل من الاستعمار المباشر شراً.

صبحي بركات ينتخب رئيساً للمجلس النيابي

٢٧

قلنا فيما سبق أن المجلس اجتمع في ٧ حزيران ١٩٣٢ وانتخب السيد محمد العابد رئيساً للجمهورية، وكان قد انتخب السيد صبحي بركات رئيساً للمجلس.

وتألفت الوزارة يرأسها السيد حقي العظم على الوجه التالي:

حقي العظم	للرئاسة والداخلية
جميل مردم بك	للمالية والزراعة
مظهر رسلان	للمعارف والعدلية
سليم جنبرت	للأشغال العامة

وكانت حلب في هذه الفترة توالي الاحتجاج على المجلس المزيف وتحذر الوطنيين من المضي في الأعمال المشبوهة التي يمارسها الفرنسيون وأعوانهم ويتظاهر الشباب والطلاب فلا يدعون للسلطة لحظة راحة.

الزعيم هنانو يخطب في حلب

حين حلت ذكرى المولد النبوي الشريف في ٢٩ تموز ١٩٣٢ أقيمت حفلة قراءة المولد في حي الجلوم في جامع البرهمية في حلب وقد دعا الحاج قدري طاهر الذيل الزعيم الجليل إبراهيم هنانو وإخوانه رجال الكتلة الوطنية لسماع

قراءة المولد النبوي، واستقبل الزعيم العظيم استقبالاً شعبياً كريماً، وبعد قراءة المولد خطب الزعيم هنانو فقال:

أيها الأخوان، أطاطئ الرأس إجلالاً لذكرى النبي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم تلك الذكرى مولد النبي العظيم المبشر بالهداية والسلام وداعياً للحق والوئام.

وبعد ذلك اسمحوا لي أن أقول: ربَّ معترض يعترض بأننا جعلنا الجوامع محلاً للخطب السياسية، والبحث في المسائل القومية، ولكن لو تذكرون أن العرب المسلمين كانوا يجتمعون في الجوامع، وكانوا يجعلون مكان العبادة مكاناً للاجتماع وإلقاء الخطب، وإرشاد الناس في دنياهم، وهدايتهم، لذلك سميت الجوامع لأنها تجمع بين الناس، لذلك فإني أقول لم نأت ببدعةٍ جديدة بل إننا نحيي عوائد العرب لأن هذه الأماكن المقدسة جعلت للنصح والإرشاد وليس للعبادة فقط.

كان خلفاء الإسلام وملوكهم أسلافنا يفعلون ذلك، ونحن إذا أتينا إلى الجوامع لم نكن قد أتينا ببدعة كما يدعي بعض الناس، وإني أقول: إن الدين والسياسة والوطنية شيء واحد.

أتى الإسلام مبشراً بالعدل، مبشراً بالعدل والسلام، فإنه لم يأمر بالعداء لأي دينٍ، كان يحترم جميع الأديان السماوية وهي أديان أهل الكتاب.

لذلك فاعذروني أيها السادة فإني لا أستطيع أن أتكلم وأبحث إلا في السياسة والاجتماع.

إن هذا الشكل الحاضر الذي أرادوا اتحافنا به من مجلس نيابي وتوليد حكومة، فأنا أعلم وأنتم تعلمون، إن هذا المجلس ليس له صفة تمثلنا، والعهد ليس ببعيد حيث سفكت دماء الشباب والتلاميذ، هذا المجلس لا يمثل غير القوة التي انتخبته.

نحن الآن نعترف أن الوضع الحاضر في هذه البلاد هو غير شرعي والمجلس يجب تهديمه، فإن كنتم تحترمون كرامة أنفسكم وحقوقكم يجب

عليكم ألا ترضخوا لمن اعتدى عليكم وعلى كرامتكم، وألا تقبلوا بمجلس لا يمثلكم، ونحن ساعون لتهديم هذا المجلس النيابي المزيف مهما كلفنا الأمر.

أنا أعلم أن القوي يفعل ما يشاء بالضعيف، ولكنه لا يقدر أن ينزع منه إيمانه وعقيدته، أما يكفي القوي أن يتسلط بقوته على البلاد ومرافقها وقوانينها.

القوي يفعل ما يشاء، والضعيف لا يقدر أن يقف أمام القوة، ولكن الحق يعلو ولا يعلى عليه.

ولما كلفنا الفرنسيون بسن الدستور شاؤوا تشويهه وعمله حسبما يريدون. إن القوة تريد أن نرضى لها هذا الموقف، وهذا لا يمكن أن نقبل به وفينا عرق ينبض.

إليكم أيها الشباب أوجه كلامي أنتم رجال المستقبل، الوطن اليوم يستصرخكم ويستنجد بكم، وأنتم عزّل من السلاح فبأي شيء يمكنكم أن تخلصوا هذا الوطن؟.. إنه يمكنكم أن تخلصوه بشيء واحد أقوله لكم وهو: التمرد.

أيها الشباب إذا طأطأتم رؤوسكم أمام الظلم تكونون أنتم المسؤولين عن أعمال الظالم.

نحن نريد من كل هذا النضال والتضحية تأسيس حالة عادلة في هذه البلاد وإيجاد دور تحترم فيه القوانين.

أنا لا أريد أن أحرضكم على التمرد على القانون إذا كان لكم رأي في سنه، فالأمم ليست مكلفة باحترام قوانين ليس لها فيها رأي.

أرأيتم الأعلام والمدافع والطيارات والدبابات والمصفحات في يوم عيد ١٤ تموز؟.. أتدرون لماذا يعيد الفرنسيون هذا العيد ويستعرضون فيه جيوشهم ودباباتهم؟..

إنهم يعيدونه لأن المظلوم تمرد على الظالم مع أن هذا المظلوم كان أعزل من السلاح، وكان ذلك منذ قرنٍ فحمل بعصيه وفؤوسه على سجن الباستيل في باريس وهدمه وجعله قاعاً صفصفاً.

ولكن مع الأسف فإن هؤلاء الذين هدموا الباستيل قبل قرنٍ وربع أقاموا فوق رؤوسنا باستيلا جديداً هو باستيل باب الفرج (إشارة إلى مخفر باب الفرج بحلب الذي كان قائماً أيامئذٍ) فمزقوا فيه أجسام الأبرياء وانتهكوا فيه الأعراض وأباحوا المحرمات.

منذ عشر سنوات كانت كلمة الوطنية لا تعرف إلا في الكتب أما الآن فقد أصبحت مشاعة يعرفها الجميع.

إني أعرفكم معنى الوطنية أيها الشباب، إن الوطنية هي الكرامة وثمن الوطنية هو التضحية.

أكرر قولي إليكم أيها الشباب، قبل كل شيء افتكروا بكرامتكم وثقوا واعتدوا بأنفسكم.

لا تقولوا بأنكم ضعفاء فأنتم أقوياء بإيمانكم وإخلاصكم فأنا أحرضكم على التمرد أمام الظالم أحرضكم وأحرضكم وأحرضكم.

أعمال الوزارة الحقية

استمرت وزارة السيد حقي العظم تدير أمور البلاد وكان أبرز أعضائها هو السيد جميل مردم، فقد تمكن من إلغاء النفقات المستورة، كما تمكن من إعلان العفو العام عن محكومي المظاهرات والانتخابات ومن شملهم القانون رقم ٤ الاستعماري الذي زُج وفق أحكامه كثير من الأبرياء في السجون بأحكام ظالمة صدرت عن المحاكم الفرنسية وذلك في ٢٦ ت٢ ١٩٣٢ أما المبعدون السياسيون فلم يشملهم العفو.

وكان الوزيران الوطنيان جميل مردم ومظهر رسلان هما المهيمنان على أعمال الوزارة.

ورغب الفرنسيون ومن سار في ركابهم أن يسقطوا الوزارة ليتمكنوا من تأليف وزارة أخرى نكون أكثر طواعية واستجابة لأغراضهم.

وفي ١ أيلول ١٩٣٢ ألقي القبض في حلب على جميل إبراهيم باشا وأخيه الدكتور حسن فؤاد والمحامي السيد راشد المرعشي، وعدد كبير من المواطنيين ومن أعضاء الكتلة الوطنية، وزجوا في السجون في حلب منهم الحاج عبد الفتاح البيطار والحاج قاسم جنيد، والسيد علي جاموس والسيد شكري الجابري، والحاج عمر العجوز، والسيد جميل غازي، والسيد شكيب الجابري والسيد عبد الوهاب البري، والحاج علي الحردان.

وأعقب ذلك ألقاء القنابل اليدوية على بعض المخافر في حلب، وعلى منزل رئيس البلدية، وعلى منزل مستشار البلدية الفرنسي (ديملنار).

عودة (بونسو) من فرنسا

في ٢٠ ت١ ١٩٣٢ عاد المفوض السامي من فرنسا، وفي ٢٥ منه صدر قرار من رئيس الجمهورية السورية بتأجيل اجتماع المجلس خمسة أيام وفي ٢٩ منه افتتح المجلس دورته، ولم يحضر النواب الوطنيون فتأجل اجتماعه إلى ٦ ت٢ ١٩٣٢.

بيان الكتلة الوطنية بعد انعقاد مؤتمرها في حمص

في ٢ ت٢ ١٩٣٢ أصدر السيد هاشم الأتاسي باسم الكتلة الوطنية بياناً جاء فيه ما يلي:

أقدم الوطنيون على دخول غمرة الانتخابات، وهدفهم في ذلك العمل على عقد معاهدة مع الحكومة الفرنسية، تضمن استقلال البلاد ووحدتها، فلم نر من الجانب الفرنسي أي مظهر من مظاهر التسهيل لمهمة الحكومة، وتطمين الشعب على مصيره، فرأينا أن الواجب يقضي بانسحابنا من المجلس النيابي.

إلا أن المساعي المبذولة جعلت الوزيرين الوطنيين وفريقاً من إخواننا يعتقدون أن الاستمرار مرة أخرى على السياسة التي انتهجت سيساعد على

تحقيق الأماني القومية، فاستناداً إلى ذلك رأينا لزوم التريث لنقيم دليلاً جديداً على حسن النية.

وإننا نأمل أن يلاقي عملنا هذا ما يستحقه من التقدير والاعتبار من الجانب الفرنسي، وأن يقابل بمثله من التساهل وحسن النية، ونرجو من الشعب الكريم أن يؤازرنا بثقته واعتماده والله ولي التوفيق)).

انعقاد المجلس في ٦ ت٢ / ١٩٣٢

في الموعد المحدد انعقد المجلس النيابي ودخله الوطنيون، وألقى رئيس الوزراء البيان الوزاري وتقدم بمشروع الموازنة العامة لعام ١٩٣٣ حتى ينظر فيه النواب، وطلب ثقة المجلس بالحكومة على أساس ما قدمته من أعمال وما وعدت بتقديمه في المستقبل من تحقيق الأماني القومية، وعقد معاهدة كافلة لتحقيق هذه الأماني.

ويلاحظ القارئ الكريم أن البلاد ما زالت مفككة الأوصال فهناك دولة العلويين ومقرها اللاذقية، ودولة للدروز ومقرها السويداء، وما زال كبار المجاهدين مبعدين كسلطان باشا الأطرش ورفاقه، والحاج فاتح المرعشي وكثيرون من الثوار الذين لجؤوا إلى تركيا. فالبلاد ممزقة وعدد كبير من أحرار البلاد مبعدون، ومن الواجب أن يعودوا إلى البلاد ليشتركوا في تقرير شؤونها وتدبير أمورها.

وناقش النواب البيان الوزاري وطلب السيد نوري الأصفري تأجيل منح الثقة للوزارة.

واعترض السيد حامد الخوجة على تأجيل منح الثقة للوزارة وطلب منحها الثقة على أساس البيان الوزاري.

وأيده السيد نسيب الكيلاني والأستاذ لطفي الحفار بضرورة عدم تضييع الفرص المتاحة بالقيل والقال.

ومددت الدورة بصورة استثنائية لإنهاء الميزانية وتصديقها حتى ٢٣ ك٢ ١٩٣٣ وكان المفوض السامي قد سافر في ٢٢ ت٢ ١٩٣٢ إلى باريس ثم إلى جنيف مقر عصبة الأمم حيث أدلى ببيان أمام لجنة الانتدابات في ١٩٣٢/١٢/١ وعاد إلى سورية في ١٨ ك٢ ١٩٣٣.

وكان بيان المفوض السامي الذي ألقاه في جنيف ينصح بالمراوغة والتمويه والوعود ومناشدة التعاون والثقة بين الحكومة السورية والدولة المنتدبة.

الكتلة الوطنية ترد على بيان المفوض السامي

وجاء في بيان الكتلة الوطنية أن الوطنيين يعلنون تمسكهم بحق البلاد القائم على أساس الوحدة ضمن سيادة قومية واحدة، وأن كل معاهدة أو مفاوضة لعقد معاهدة تحالف مع فرنسا غير قائمة على هذه الأسس لا تكون جديرة بالقبول. وإنَّ الجانب السوري من رجال الكتلة الوطنية لا يشرع بالمفاوضة لعقد معاهدة إلا بعد التثبت من تحقيق الوحدة وقبول المفاوضة على أساسها. ولقد كان المفوض السامي قد صرح أمام لجنة الانتدابات في عصبة الأمم أنه سوف يستمر في سيره ولو اصطدم بصعوبات فجائية من قبل العناصر الوطنية قائلاً (معكم أو بدونكم سوف أتمم مهمتي وأهيئ التطورات اللازمة لإنهاء الانتداب).

وفي ١٦ شباط ١٩٣٣ اجتمع أعضاء الكتلة الوطنية في مؤتمر عقدوه في حلب، حضره السيدان هاشم الأتاسي وإبراهيم هنانو وكثيرون من الشباب الوطني المثقف، واتفقوا أن يكلفوا الوزيرين جميل مردم ومظهر رسلان بتمثيل الكتلة الوطنية في المفاوضات المرتقبة.

الكتلة الوطنية

٢٨

في ٤ ت٢ من عام ١٩٣٢ عقد مؤتمر للكتلة الوطنية في مدينة حمص وأقر النظام الأساسي للكتلة الوطنية الذي جاء فيه:

١ ـ المبادئ العامة

مادة ١ ـ الكتلة الوطنية هيئة سياسية غايتها:

أ ـ تحرير البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية من كل سلطة أجنبية وإيصالها إلى الاستقلال التام والسيادة الكاملة، وجمع أراضيها المجزأة في دولة ذات حكومة واحدة، على أن يبقى للبنان الحق في تقرير مصيره ضمن حدوده القديمة.

ب ـ تأليف المساعي مع العمل القائم في الأقطار العربية الأخرى لتأمين الاتحاد بين هذه الأقطار، على أن لا يحول هذا المسعى دون الأهداف الواجب بلوغها في كل قطر.

ج ـ تأمين الحرية والمساواة في الحقوق والواجبات بين أفراد الشعب كافة على اختلاف طوائفه، ورفع مستوى الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ونشر الثقافة، وبث الأخلاق القومية بين جميع الطبقات مع إنمائها وتغذيتها.

مادة ٢ ـ تعتبر الكتلة الوطنية أن الأمة جمعاء، بكل ما لديها من قوة معنوية ومادية، وقف على هذا الجهاد الوطني حتى تبلغ أهدافها.

مادة ٣- من الواجب المحتم جمع قوى الأمة، وتوجيه جهودها لتحقيق الآمال الوطنية، ولذلك تعتبر الكتلة الوطنية تأليف الأحزاب السياسية مخالفاً لوحدة الجهود.

مادة ٤- لا يجوز مس ولا تعديل هذه المبادئ باعتبارها جوهرية في حياة الأمة، وكيان الكتلة الوطنية، وكل مخالفة لها تسقط صاحبها من حق الانتساب إليها.

٢- التشكيلات

مادة ٥- تقوم الأوضاع الأساسية على ثلاث هيئات:

١- المكتب الدائم.

٢- مجلس الكتلة الوطنية.

٣- المؤتمر العام.

٣- المكتب الدائم

مادة ٦- يتألف مكتب الكتلة الدائم من سبعة أعضاء، وينتخبهم مجلس الكتلة الوطنية من بين أعضائه لمدى الحياة، وقد تألف هذا المكتب من السادة:

هاشم الأتاسي رئيساً، إبراهيم هنانو زعيماً، سعد الله الجابري نائباً للرئيس، جميل مردم بك، شكري القوتلي، الدكتور عبد الرحمن الكيالي، فارس الخوري أعضاء.

مادة ٧- يشرف المكتب على مجرى السياسة العامة ويمارسها مباشرة، ويؤمن الصلات الدائمة في الداخل والخارج، ويسهر على تطبيق المبادئ، وينفذ مقررات المجلس والمؤتمر العام، ويصدر البيانات، ويقبل الشكايات ويفصل في الاختلافات كافة، ويدعو مجلس الكتلة للاجتماعات العادية والاستثنائية، ويراقب سيرة الأعضاء وتطبيق النظام، وأعمال اللجان

الرئيسية والفرعية، ويقبل التبرعات ويعين وجهة صرفها، على أن يوضح ذلك في تقريره العام لمجلس الكتلة الوطنية.

مادة ٨- رئيس المكتب الدائم هو رئيس الكتلة الوطنية، وهو يرئس اجتماعات المكتب والمجلس والمؤتمر، وعند تساوي الأصوات، يكون صوته المرجح.

مادة ٩- إذا انقطع أحد أعضاء المكتب الدائم عن عمله بدون معذرة شرعية مقبولة من المكتب مدة ثلاثة أشهر عُدَّ مستقيلاً من المكتب ويدعى مجلس الكتلة الوطنية لانتخاب من يحل مكانه، وأما إذا كان عذره مقبولاً، أو كلف بمهمة أخرى من قبل المكتب ينتدب من أعضاء المجلس وكيلاً عنه إلى حين عودته وزوال المعذرة وانتهاء المهمة.

مادة ١٠- إذا خلا مركز في المكتب الدائم بسبب من الأسباب ينتخب المجلس من بين أعضائه عوضاً عنه ويكون الانتخاب بالأكثرية المطلقة، ويجب أن يتم انتخاب العضو في خلال شهرين على الأقل.

٤- مجلس الكتلة الوطنية

مادة ١١- يتألف مجلس الكتلة الوطنية من الأشخاص الآتية أسماؤهم (وهم الموقعون أيام إقرار النظام) السادة:

((هاشم الأتاسي، إبراهيم هنانو، سعد الله الجابري، عبد الرحمن الكيالي، لطفي الحفار، شكري القوتلي، نسيب المتني، الشيخ عبد القادر السرميني، فارس الخوري، إحسان الشريف، أحمد اللحام، محمد إسماعيل، عفيف الصلح، ناظم القدسي، رشدي كتخدا، سعد الدين الجابري، فائز الخوري، مظهر رسلان، إسماعيل كتخدا، عبد الوهاب ميسر، نوري الفتيح، نعيم الإنطاكي، ادمون رباط، جميل مردم بك، الدكتور توفيق الشيشكلي، نجيب البرازي، نجيب الباقي، أحمد منير الوفائي، ميخائيل اليان، أحمد خليل المدرس، نجيب الريس، فخري البارودي، حسن فؤاد إبراهيم باشا، عبد القادر شريتح، سليمان المعصراني، عبد الوهاب هارون، مجد الدين الأزهري.

مادة ١٢- يشترك المكتب الدائم مع المجلس في وضع الخطط العامة، ويصادق على الموازنة، ويفصل في جميع القضايا التي يعرضها عليه المكتب ويؤازره في جميع أعماله.

مادة ٢٦- أعضاء الكتلة الوطنية هم جميع الأشخاص القائمين بمبادئها العاملين فيها والمنسوبين إليها بالتسجيل:

وقد أضيف إليهم السادة:

عبد اللطيف البيسار، عبد الحميد كرامي (من طرابلس الشام)، رياض الصلح، عبد الرحمن بيهم (من بيروت)، الدكتور عبد الرحمن شهبندر، الأمير أمين أرسلان الأمير شكيب أرسلان، إحسان الجابري، سعيد حيدر (من بعلبك) نبيه العظمة محمد عارف الحسن الرفاعي (من طرابلس الشام).

٥- المؤتمر العام

مادة ١٥- يتألف المؤتمر العام من أعضاء المكتب الدائم وأعضاء المجلس، ومندوبي اللجان الرئيسية والفرعية.

مادة ١٧- يبحث المؤتمر العام في القضايا التي يعرضها عليه المكتب الدائم، ويناقش الأعمال التي تطرح عليه بقصد تطبيق مبادئ الكتلة الوطنية ونظامها العام، وإنعاش الفكرة الوطنية في البلاد وإظهار قوى الأمة المتحدة.

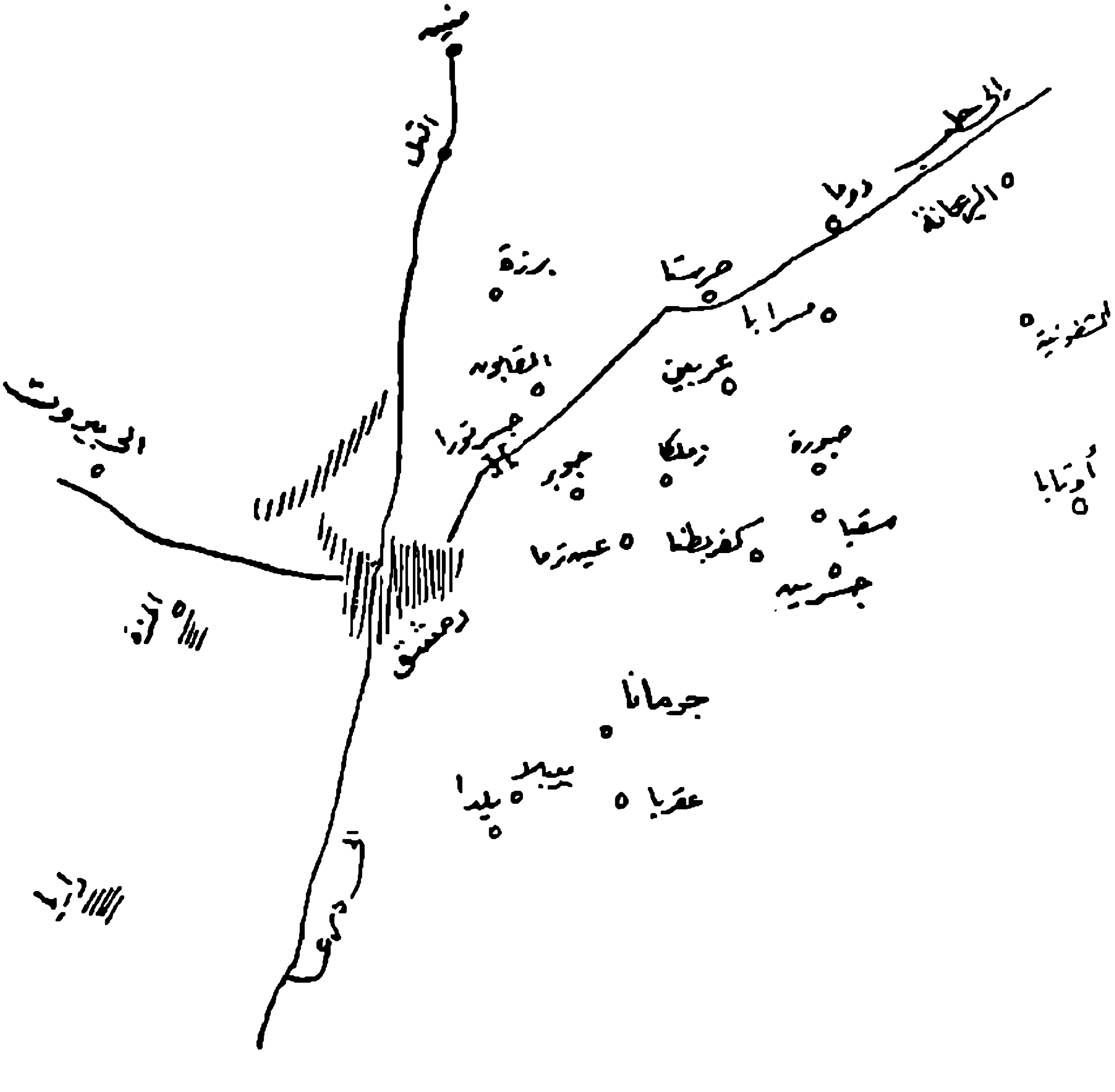
وتأتي تنظيمات اللجان وأحكام عامة، ثم جاء في المادة ٢٩ ما يلي:

مادة ٢٩- على جميع أعضاء الكتلة الوطنية أن يقسموا اليمين الآتي:

((أقسم بالله العظيم على محافظة مبادئ الكتلة الوطنية وعلى توطيد التضامن بين أعضائها والتضحية في سبيل المبادئ، وإطاعة النظم والمقررات الصادرة عنها، والحرص على كيان الكتلة الوطنية وعلى الأخلاق القومية)).

ثم يورد نظام الكتلة الشؤون المالية، والمواد الناظمة لانضباط الأعضاء، وتأليف محكمة عليا ومواد أخرى متممة.

ويتبين من هذا السرد الموجز لنظام الكتلة الوطنية أنها كانت قوية الدعائم، مخلصة في نضالها، قوية بأعضائها الأوفياء لوطنهم وأمتهم.



مخطط جغرافي يبين مناطق الثورة في دمشق والغوطتين

بونسو يراوغ

٢٩

حاولت الكتلة الوطنية بكل أسلوب أن تنتزع تصريحاً رسمياً من ممثل فرنسا بأن الوحدة السورية ستكون بنداً من بنود المعاهدة ولكن (بونسو) كان يماطل ويراوغ، وظل يسعى لدى أنصاره في جبل العلويين والدروز لينظموا العرائض طالبين الانفصال عن أمهم سورية.

وتأجلت المعاهدة.

وفي ٥ نيسان ١٩٣٣ عقدت الكتلة الوطنية مؤتمراً في دمشق في ظروف قاسية جداً، ففي البلاد ثلاثة عشر حزباً أكثرها يسير في ركاب الاستعمار، في هذا الجو المظلم عقدت الكتلة الوطنية مؤتمرها حاملة لواء النضال ضد الاستعمار، وقررت الإيعاز إلى الوزرين الوطنيين جميل مردم ومظهر رسلان بأن يستقيلا كما تقرر مع الانسحاب من الوزارة الانسحاب من المجلس.

وفي ١٩ نيسان ١٩٣٣ قدم الوزيران الوطنيان استقالتيهما إلى رئيس الجمهورية وابتهج الشعب لهذه الاستقالة حتى أنه حمل الوزيرين على الأكتاف إلى منزليهما.

وفي ٢٠ نيسان كان الزعيم هنانو في فندق أمية في دمشق مع إخوانه الوطنيين فسار الشعب نحو الفندق ليظهر ابتهاجه وامتنانه لنضال الكتلة الوطنية.

وفي ٣ أيار أدخل المفوض السامي تعديلاً على الوزارة ثم استقال السيد سليم جنبرت في ١٥ ت٢ ١٩٣٣ فأصبحت الوزارة تتألف على الوجه التالي:

حقي العظم	للرئاسة والداخلية والمعارف
شاكر نعمة الشعباني	المالية
محمد يحيى الأضه لي	للزراعة والتجارة
سليمان الجوخدار	العدلية
لطيف غنيمة	الأشغال العامة

وظن (بونسو) أنه ضمن استقرار الأحوال ولكنه كان في الواقع قصير النظر، عاجز الرأي فضلاً عن سوء نيته ومماطلته، ومراوغته.

أعمال المجلس النيابي

كان المجلس النيابي قد دعي للانعقاد في ٩ أيار ١٩٣٣ في جو من الإرهاب الشديد، وكأن البلاد في حالة حرب، وتغيب عن الجلسة ٢٥ نائباً بينهم نواب الكتلة الوطنية السبعة عشر.

وأضربت البلاد ثلاثة أيام احتجاجاً على انعقاد هذا المجلس.

وطرحت الثقة بالوزارة الحقية فنالتها بأغلبية الأصوات.

وفي ٥ تموز ١٩٣٣ سافر المفوض السامي إلى فرنسا، ولحق به صبحي بركات رئيس المجلس والشيخ تاج الدين الحسني، إذ أبلغهما (بونسو) أن الوزارة الفرنسية قررت نقله من سورية فذهب الرجلان للدفاع عنه واستبقائه في بلادنا ولكن الوزارة الفرنسية كانت قد أصدرت قرارها في ١٥ تموز ١٩٣٣ ونقلت بونسو بموجبه مفوضاً سامياً إلى مراكش، وعينت عوضاً عنه (الكونت ده مارتل) سفير فرنسا في الصين مفوضاً سامياً لفرنسا في سورية.

التنسيق

اطلق هذا اللفظ على عملية غير مشكورة قامت بها وزارة حقي العظم الأخيرة في ٥ حزيران ١٩٣٣ إذ سرحت عدداً كبيراً من الموظفين تسريحاً

تعسفياً دون إجراء تحقيق بحق من سرحتهم مدعية أن الدولة في عجز مالي وأن هذا التسريح هو علاجه.

وهذا غير صحيح لأن الوزارة نفسها دفعت لدول الحلفاء مبالغ طائلة كتعويضات عن الخسائر الحربية التي منيت بها هذه الدول خلال الحرب العالمية الأولى، والتي لم نكن نحن من مشعليها أو مرتكبيها وخربت بهذا التسريح بيوت عدد من الناس وإن كانت الدولة قد أعادت بعد ذلك أكثر الذين سرحتهم.

وفي ٢٦ أيار ١٩٣٣ أغلقت جريدتا الاتحاد في حلب والجزيرة في دمشق.

وفي ٢٦ حزيران أغلقت جريدتا (الأيام) و(القبس).

صبحي بركات في باريس

اغتنم السيد صبحي بركات رئيس المجلس النيابي فرصة وجوده في باريس - وقد ذهب إليها ليدافع عن المفوض السامي (بونسو) - حين علم أنه لا فائدة من مسعاه وأن أمر نقله قد أصبح مبرماً فتحول إلى ممارسة عمل وطني مهما كانت دوافعه فهو عمل وطني جليل إذ أرسل مذكرة إلى الحكومة الفرنسية يطلب فيها:

١- إتباع سياسة حازمة.

٢- إعادة مرفأ طرابلس إلى سورية.

٣- ضم العلويين وجبل الدروز إلى سورية على أساس اللامركزية.

٤- العمل لتحقيق برنامج اقتصادي يهم سكان سورية.

٥- العفو العام عن المحكومين السياسيين.

ولكن هذه المطالب على الرغم من أنها خطوة إلى الأمام ولكنها كانت خطوة فاترة متخوفة مترددة لم تات بأية فائدة تذكر.

طارق هنانو يضرب حتى الجنون

في ١٧ آب ١٩٣٣ قامت مظاهرة في حلب ضد الاستعمار وتجمع الناس في الشارع الكائن أمام فندق بارون، وكان بين المتظاهرين طارق ابن الزعيم هنانو فحين هتف بسقوط الاستعمار إنهال عليه بعض أعوان الحكومة بالعصي فجرى نحو حانوت قريب ليحتمي به، فلحق به الجماعة واقتحموا الحانوت وضربوه فاسرع العامل إلى النور فأطفأه وحينئذ نجا طارق من الموت ولكنه لم ينج من الجنون فهو إلى اليوم في مستشفى المجانين.

وحين جاء بعض رجال الشرطة إلى الزعيم في اليوم الثاني يقولون له أن الذين ضربوا طارق هم الآن قيد التوقيف قال لهم: ومن طلب منكم ذلك؟.. هل أوقفتم الذين صرعوا أبناء الأمة برصاصهم؟.. ابدؤوا بأولئك ثم أوقفوا من شئتم، وما طارق إلا واحد من أبناء هذا الشعب، اذهبوا لست أريد منكم شيئاً.

إن العظيم يظل عظيماً في كل المواقف، لا تخونه شجاعته ولا يفتر عزمه، ولا تخور قواه، طيب الله ثراك أيها الزعيم العظيم فلن يأتي الدهر بمثلك على مدى الأزمان.

أقول ذلك لأنني أقدّر الرجال حق قدرهم، فالزعيم هنانو لم يفتنه منصب ولا جاه ولا مال ولم يختص نفسه بمغنم بل كان ينفق مما يملك حتى نفد كل ما يملك، دفعه في سبيل القضية، وضحى بصحته في سبيل القضية وعرَّضَ حياته للموت في ميادين القتال مراتٍ وللإعدام في المحكمة العسكرية الفرنسية، كل ذلك من أجل القضية.

وصول المفوض الجديد إلى البلاد

في ١٢ ت١ ١٩٣٣ وصل المفوض السامي الجديد (داميان ده مارتيل) إلى بيروت، وكان قد عقد مؤتمراً صحفياً في مدينة الاسكندرية وهو في طريقه إلى سورية.

وحين وصل إلى دمشق كان استقباله كما يستقبل الملوك ذوو النزعات الاستبدادية، فالجيش والمدرعات والمصفحات تحف بموكبه والخيالة المراكشيون شاهرين السلاح تخب خيولهم أمام سيارته، والمدفعية تدوي طلقاتها إيذاناً بمجيئه (الميمون).

ويظهر أن المفوض الجديد لم يفهم العرب جيداً والسوريين بخاصة، ولم يدرك أن هذه المظاهر المتعالية تبعث في نفوس شعبنا الاشمئزاز والقرف والاحتقار، والبغضاء.

وفي ١٩ ت٢ ١٩٣٣ عقدت الكتلة الوطنية مؤتمراً في دمشق وأصدرت بياناً ومما جاء فيه:

أمام هذه المخاطر المحدقة بالبلاد، والمهدد كيانها بالتمزيق والدمار رأينا الواجب الوطني يدعونا أكثر من كل وقت آخر إلى النضال في ساحة الشرف، والدفاع عن حقوق بلادنا المعرضة لخطر جديد داهم.

ولا نحسب أنه يوجد من أبناء هذه الأمة أحد يخرج عليها ويسمح لنفسه أن يكون مطيّةً للمطامع الأجنبية، مهما كانت الظروف التي وصل بها إلى أي مقام من المقامات المسؤولة.

فالكتلة الوطنية المشرفة بثقة هذه الأمة النبيلة قد قررت مواجهة هذا الخطر، بما في صدور رجالها من عزيمة مستلهمة من إيمان الأمة وثباتها في سبيل الدفاع عن حريتها واستقلالها، فسلاح الحق الذي تتقلده الأمة في هذه المعركة هو وحده الضامن لبلوغ غاياتنا الشريفة والله ولي التوفيق.

هاشم الأتاسي

مهاجمة مخفر باب توما

في ٣ ت٢ سارت مظاهرات تأييداً لعروبة فلسطين مرت بمخفر باب توما في دمشق فرشقته بالحجارة فتصدت لهم الشرطة المحلية بالرصاص فقتلت واحداً وجرحت آخرين، وأوقف النائب السيد زكي الخطيب والمحامي الأمير أحمد الشهابي في ٥ ت٢ ١٩٣٣، فاضرب المحامون.

وفي ٥ ت٢ كان موعد اجتماع المجلس النيابي، ودمشق على أشد ما تكون من الهياج، وأعدت السلطة الفرنسية قواتها في كل مكان حول المجلس النيابي، وانتشر رجال الأمن والتحري بكثرة بين المجتمعين والمتفرجين يتحرون الجيوب والملابس، وحين اكتمل عدد الأعضاء تقريباً بدأت عمليات انتخاب الرئيس وأعضاء المكتب، فاستنكف الوطنيون عن التصويت احتجاجاً على وجود المادة ١١٦ في الدستور النافذ.

وانتهت الجلسة لتعقد في ١٩٣٣/١١/٧.

وأغلقت المدن متاجرها وأعمالها وانهالت برقيات الاحتجاج من حلب، وحمص على دمشق، حتى طرابلس الشام أرسلت برقية احتجاج صارخة، وبرقية من نساء دمشق وجاء في البرقية الأخيرة:

((يا نواب الأمة، يا شعب سورية المجاهد، يا أيها الوزراء، اليوم يومكم المشهود، وعلى هذه الساعة يتوقف مستقبل بلادكم التي طالما أريقت في سبيلها دماء طاهرة زكية.

نحن نساء دمشق نستحلفكم بالله الشاهد على كل ما تفعلونه في السر والجهر، نستحلفكم بضمائركم وبشرفكم وأولادكم وبكل عزيز عليكم، وقد قال الله عز وجل: لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)) نستحلفكم بوطنيتكم لا تدعوا الخصم يشتت شملكم وأنتم أبناء وطن واحد، أيها الوزراء وأيها النواب.. برهنوا للأمة أنكم لا تبالون بالمناصب الزائفة تجاه مستقبل أمتكم.

لجنة سيدات دمشق

المفوض السامي يعرض المعاهدة على رجال الحكومة سراً

واستدعى (ده مارتل) إلى بيروت رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، ورئيس المجلس النيابي ووزير المالية ووزير الأشغال العامة، لمقابلته فأطلعهم على نص المعاهدة وحَجَبَها عن أبناء البلاد وزعمائها وقادتها الوطنيين، وقال لهم: هذه هي المعاهدة فإما قبولها وإما رفضها.

ظهر الرضا على أكثر الوافدين فلما انصرفوا رجع السيد سليم جنبرت وزير الأشغال العامة إلى قصر المفوض السامي وقال له: ((إنكم تعلمون أنني من أصدقاء فرنسا وأحبها كما أحب بلادي، ولذا أقول لكم الصدق، وأحذركم من الخطأ، فالمعاهدة كما هي لا يمكن قبولها، وأنا أول من يرفضها)).

وحين خرج قدم استقالته وجمع أوراقه فأسرع إليه السيد (فيبر) والسكرتير العام وقابلاه وطلبا منه أن يسترد استقالته، ثم هددوه، وكان هذا الموقف النبيل هو الذي كشف سر المعاهدة وعلم الناس أن المعاهدة لا تحوي السيادة ولا الوحدة ولا تضمن مصلحة البلاد.

وبعد أن وقع المسؤولون على المعاهدة عادوا إلى دمشق وهم حائرون فيما تورطوا فيه وأخذوا يلقون تصريحات كاذبة هدفهم منها أن يتخلصوا من غضبة الشعب.

لكن (لافاستر) مندوب المفوض السامي في حلب قال لوفد حلبي ((إن المنطقتين اللتين يطالب الوطنيون بضمهما إلى سورية، يعني جبل الدروز واللاذقية قد أوجدناهما لاعتبارات تتعلق بالأمن العام، والأخرى لتأخرها، ولكن الوضع لن يدوم طويلا)).

خطاب هنانو في دمشق حول المعاهدة المقترحة

في اجتماع في دمشق ضم قادة الكتلة الوطنية: هاشم الأتاسي وإبراهيم هنانو وغيرهما من القادة وقف إبراهيم هنانو خطيبا فقال:

((لم تعد القضية أيها السادة قضية نواب بل أصبحت قضية كل فرد من أفراد هذه الأمة.

وقد أراد المفوض السامي في بيانه الذي أذاعه أمس أن يستفتي الأمة السورية، ليعرف موقفها من هذه المعاهدة. لذلك رجوت إخواني عقد هذا الاجتماع الشعبي الكبير لتقولوا فيه كلمتكم الأخيرة بشأن المعاهدة التي يستفتونكم عنها، كم أنا مسرور من هذا الاجتماع الذي أسرعتم إليه مقدرين خطورة الساعة التي نحن فيها.

لو كان في الوقت متسع لزحفت جميع المدن السورية في هذه الساعة إلى دمشق، ولجاءت إليها مئات الألوف لتشترك معكم في هذا الاجتماع، ولكن الوقت ضيق جداً كما تعلمون، وأنتم الفئة المختارة من أبناء هذه الأمة مع الوفود الموجودة في هذا الاجتماع، والتي تمثل جميع المدن السورية، يمكنكم الإعراب عن جميع أماني الأمة وآمالها، وتعيين موقفها من المعاهدة التي نشرت أمس.

وأنا لا أقول لكم الآن شيئاً في هذه المعاهدة بل أترك الكلام لرجال القانون والمحاماة، وهم كثيرون في هذا الاجتماع، ادعُ الكلام إلى هؤلاء وحدهم ليحدثوكم عن هذه المعاهدة من الوجهة الشرعية وليشرحوها لكم تشريحاً دقيقاً، وبعد أن يتكلموا ويفهموكم حقيقتها، أسمع كلمتكم التي لا بد أن توضع في بيان يعلن على الأمة لتعرف موقفها، وعلى كل حالٍ فالأمة بانتظار هذه الكلمة، وهي مستعدة أن تماشيكم في الطريق التي تعينونها)).

وتكلم المحامون والنواب الوطنيون وشرحوا المعاهدة، نصاً نصاً ومادةً مادة وأبانوا للناس نقصها وإنها لا تحقق أماني الأمة.

ثم تألفت لجنة لدراسة المعاهدة ثم صدر بيان برفضها موقع من عدد كبير من قادة البلاد والأطباء، والمحامين، والنواب والمنتخبين الثانويين، والشباب المثقف وأبناء الشعب على اختلاف مشاربه وأعماله وكان مما جاء في هذا البيان:

رابعاً: إن هذه المعاهدة خالية من كل معاني السيادة وهي تقر وتجيز تدخل الفرنسيين بالصغيرة والكبيرة من شؤون البلاد الداخلية الإدارية والمالية، والقضائية، والعسكرية، وحتى التعليمية وتحرمها من سيادتها الخارجية.

وفي ليلة الثلاثاء ٢٣ ت٢ ١٩٣٣ طاف الوطنيون بالنواب ودعوهم إلى توقيع قرار رفض المعاهدة فوقعه ٤٤ نائباً حتى منتصف الليل.

وبلغ السلطة الفرنسية نبأ قرار رفض المعاهدة فطاش صوابها واتصلت بصبحي بركات رئيس المجلس وطلبت منه الإسراع في إعلان تأجيل المجلس فقال لهم أن مثل هذا القرار يجب أن يتخذه المجلس نفسه، وإنه سيفعل ذلك في الغد.

وأصدرت المفوضية قرارا بتأجيل المجلس اربعة أيام.

وفي يوم الثلاثاء صباحاً حضر النواب وقد امتلأت الشوارع بالجنود الفرنسيين وحشدت السلطة رجال الأمن في الساحات والمراكز الحساسة وقرب المجلس النيابي.

وفي الساعة التاسعة افتتحت الجلسة وأسرع مندوب المفوض السامي (فيبر) محاولا انتهاز الفرصة ليعلن قرار المفوضية بتأجيل المجلس أربعة أيام.

وبدأ سكرتير المجلس بقراءة برقيات الاحتجاج الواردة من المدن السورية والهيئات والجمعيات في لبنان ومنطقة العلويين.

وهذه برقية من مئات البرقيات أرسلت إلى المفوض السامي:

السوريون ضحوا بدمائهم، تحملوا ظلم تجارب الأجنبي أربع عشرة سنة ليحققوا استقلالهم ووحدتهم، مجابهتكم إياهم بمعاهدة تجيز بقاء الأوضاع الشاذة مضياع لحقوقهم، لم تبق قيمة لتصريحكم بأنكم تراعون مصالح السوريين، وتعملون بالحق والمنطق، عهدكم تأييد للاستعمار، لم تدشنوه بالصراحة والحرية والإنصاف، إرغامكم الوزارة المأجورة، والمجلس المسخر لتصديق المعاهدة ازدراء بحقوق الشعب وبكرامة ضحاياه، لا نتقيد بغير ميثاقنا، فالأمة التي ترضى بالموت عزيزة، لا ترضى بالحياة ذليلة.

المحامي ادمون رباط، المحامي نعيم انطاكي، الدكتور حسن فؤاد، الدكتور عبد الرحمن الكيالي.

وكان قرار رفض المعاهدة قد بلغ الموقعون عليه خمسين نائباً، وتقدم جميل مردم إلى المنبر، وحاول المندوب (فيبر) أن يسبقه ليعلن تأجيل المجلس

غير أن جميل مردم كان قد بدأ بقراءة القرار برفض المعاهدة، فوافق عليه المجلس بالإجماع.

قرار رفض المعاهدة المزيفة

لفخامة رئيس المجلس النيابي الموقر

((لقد اطلع النواب الموقعون أدناه على نصوص المعاهدة التي وقعت عليها الحكومة وعرضتها على المجلس النيابي لإقرارها فوجدوها مناقضة لرغائب الأمة، وغير ضامنة لمصالحها من وحدة، وسيادة واستقلال، ولذلك فنحن نرى رد هذه المعاهدة، وانتخاب لجنة مؤلفة من خمسة عشر نائباً لكتابة قرار الرد، ونقترح إجراء انتخاب اللجنة وتفضلوا بقبول فائق الاحترام)).

هاشم الأتاسي، مجحم بن مهيد، جميل مردم بك، نوري الأصفري، بسيم القدسي، محمد المفلح، نسيب الكيلاني، صادق المعلم، جميل خلو، جميل الشماط، الشيخ ميزر عبد المحسن، زكي الخطيب، محمد الفتيح، يوسف طيفور، نجيب برمدا، زكي النجاري، أبو الهدى الحسيني، نقولا جانجي، عفيف الصلح، نسيب البكري، فخري البارودي، فائز الخوري، نجيب البرازي، إحسان الشريف، توفيق الشيشكلي، مظهر رسلان، رفيق الحسيني، لطفي الحفار، شمس نصر الله، تركي النرجس، تركي الحمود، إبراهيم ضحية، حكمت الحراكي، يوسف لنيادو، إسماعيل الحريري، حسين عوني، فارس الزغبي، عبيد آغا الكعكجي، نوري المدرس، غالب إبراهيم باشا، طاهر عبد الكريم، حامد الخوجة، أحمد عبد الرحمن، سليم دعاس.

وعقب قرار رفض المعاهدة في المجلس النيابي أذاعت الكتلة الوطنية البيان التالي:

((لقد ظفرت الأمة بأمنيتها، فبعد أن أعلنت سخطها على المعاهدة وعلى موقعيها، أيدها المجلس بقرار خطير، رد فيه هذه المعاهدة الجائرة التي

أرادوا فرضها على البلاد، والتي لا تحقق مطلباً من المطالب القومية التي طالما جاهدت في سبيلها، من وحدة وسيادة واستقلال.

فالكتلة الوطنية تزف هذه البشرى للأمة الكريمة وتدعوها إلى العودة لمزاولة أعمالها مطمئنة راضية متمسكة بحبل الاتحاد والتضامن، في سبيل استقلال هذا الوطن ووحدته والسلام.

هاشم الأتاسي

عمّت الفرحة سورية كلها وهلل الناس وكبروا وأعلنوا فرحتهم في كل مكان، وتأجلت أعمال المجلس إلى ٢٥ ت٢ ١٩٣٣ الساعة العاشرة.

تعطيل الدورة النيابية

حل صباح يوم ٢٥ ت٢ ١٩٣٣ وخف النواب إلى حضور جلسة المجلس وقبل وصولهم سرت إشاعة في البلد تقول بأن المفوض السامي سوف يعطل الدورة النيابية انتقاماً من هذا المجلس الذي رفض المعاهدة المقترحة، وأضربت المدينة وأغلق معهد التجهيز.

وفي الصباح أبلغ النواب قرار المفوض السامي المؤرخ في ١٩٣٣/١١/٢٤ بتعطيل دورة المجلس وحاول النواب أن يعقدوا جلسة في مقر المجلس النيابي فمنعتهم قوى الأمن والدرك.

وسار النواب نحو دار السيد صبحي بركات رئيس المجلس وعقدوا جلستهم هناك ومارسوا عملهم النيابي فصدقوا ضبط الجلسة بالإجماع وقرار رد مشروع المعاهدة الذي أبرمه النواب في ٢١ ت٢ ١٩٣٣.

وتقرر نزع الثقة بالحكومة والاحتجاج على تعطيل أعمال المجلس في دورته الحالية.

وتألفت لجنة لمتابعة العمل النيابي مؤلفة من رئيس المجلس السيد صبحي بركات والسادة هاشم الأتاسي وجميل مردم وفائز الخوري ونقولا جانجي ونوري الأصفري وعفيف الصلح، ونسيب الكيلاني.

وثارت زوبعة بين مندوب المفوض السامي السيد (فيير) والسيد صبحي بركات رد الأخير عليها بما خلاصته:

١- إن جلسة مجلس النواب يوم الثلاثاء ٢١ ت٢ كانت هادئة جداً، وساكنة جداً، ولا يمكن أن تكون جلسة برلمانية في العالم تبحث فيها مقررات الأمة أكثر هدوءاً.

٢- إن الرئاسة قامت بواجبها، وطبقت النظام الداخلي، واحترمت القواعد الدستورية، ولم يطلب منها ولا يمكن أن يطلب منها أكثر من ذلك.

٣- إن الحكومة التي أبلغتها تعليماتك برفض كل مناقشة في المعاهدة، ارتكبت خطأ بسماحها لأحد أعضائها بالدخول باسمها في المناقشة.

٤- إن سعادتك لم تحسن اختيار الوقت المناسب لتتلو قرار فخامة المفوض السامي، وهو ما عرَّض موقف سعادتك إلى هذه النتائج.

٥- إن التحفظات التي أردت إبداءها على محضر الجلسة لا يمكنها أن تقلل من قيمته المشروعة التي تبقى برهاناً قاطعاً لبيان الحقيقة، ولتبقى أساساً لتقرير الموقف.

٦- إن أدهش عبارة لاحظتها في كتابك الأخير هي عبارة التحفظ الأخير، وفيها تعلن عدم الثقة بأمثال هذه المحاضر، حتى ولو صدق عليها المجلس في جلسته القادمة مما يجعلنا نفهم أنك تريد إبطال أعمال المجلس قبل أن يلتئم ويعلن رأيه.

إن من الخطأ الكبير أن يعتقد امرؤ أن المستعمر يمكن أن تلين قناته أو أن يُسلِّم بحقوق الشعوب المستعمرة لأن للاستعمار منطقاً ظالماً لا يعرف العدل ولا الرحمة، حتى ولا الوجدان والضمير.

فأي ذنب ارتكبه الوطنيون حين طلبوا أن تضمن المعاهدة نصاً يتعلق بوحدة سورية وسيادتها، أليس هذان المطلبان شرعيين، ولكن العلة ليست في مطالب الوطنيين بل في التفكير الاستعماري القذر؟..

لقد كتب فرنسي مقالة ترجمتها جريدة القبس ونشرتها في ٢١ أيار ١٩٣٣:

يقول (فلوريه) وهو اسم الكاتب الفرنسي: إن الأمم المتمدنة قد أنفقت كثيراً من المال سواء في العالم القديم أو في العالم الجديد، وبذلت كثيراً من الدماء والجهود الأدبية، ولكن كل هذه التضحيات ذهبت سدى، لأن رفع العبيد إلى مستوى الأحرار مهمة شاقة جداً وتكاد تكون مستحيلة)).

بهذه اللغة وهذا التفكير يريد الفرنسيون أن يعالجوا قضايا الشعوب التي ابتليت بتسلطهم وظلمهم وبغيهم.

الحكومة تتنكر للشعب وممثليه

بدأت الحكومة في ممارسة الأعمال الانتقامية ضد الوطنيين جميعاً ففي ٢١ ك١ ١٩٣٣ عطلت جريدة الأيام وبعد ثلاثة أيام عطلت جريدة القبس.

وفي ٢ شباط ١٩٣٤ حض مستشار دير الزور والجزيرة العشائر ووجوه المنطقة على أن يطلبوا فصل منطقتهم عن الحكومة المركزية.

وفي ٣١ ك٢ ١٩٣٤ أنقصت رواتب النواب وسرحت بعض موظفيه بحجة الاقتصاد في النفقات.

وفي ٤ آذار ١٩٣٤ وصل الكونت ده مارتل إلى حلب عائداً من باريس عن طريق تركيا.

وفي ١٠ آذار ١٩٣٤ أصدر المفوض السامي قراراً بتأجيل اجتماعات المجلس النيابي إلى ١٥ ت١ ١٩٣٤ وعمد إلى الصحف فراح ينشر فيها ما ينوي القيام به من مشروعات عمرانية وقال: نحن موجودون في سورية لأجل السير بشعبها إلى الغاية المنشودة، وأضاف: لقد أظهر البرلمان السوري برفضه مشروع معاهدة التحالف التي عرضت عليه، والغرض منها إمداد سورية بالوسائل التي تؤدي إلى استقلالها أنه لم يبلغ النضوج المرغوب فيه، وإذا أصرت العناصر المعارضة على رفض التعاون الملائم معنا، فإننا سنقوم بعملنا لخير سورية بدون معاونتهم على الرغم منهم لأننا نرى هذا العمل ملائماً لمصلحتنا ومصلحة سورية معاً.

استقالة وزارة حقي العظم وتأليف وزارة تاج الدين الحسني

وفي ١٢ آذار حضر (الكونت ده مارتل) فجأة إلى دمشق، واستقبل رئيس الجمهورية محمد علي العابد ورئيس الوزراء حقي العظم واتفق معهم على تقديم استقالة الوزارة.

وفي ١٥ آذار ١٩٣٤ استقالت الوزارة وأصدر المفوض السامي قراراً بتعيين الشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للحكومة، وقد كان الشيخ تاج الدين في باريس وتمت الطبخة هناك، وتألفت الوزارة على الشكل التالي:

الشيخ تاج الدين الحسني	رئيساً للحكومة ووزيراً للداخلية
هنري هندية	للمالية
حسني البرازي	للمعارف
عطا الأيوبي	للعدلية
الحاج محمد الأضه لي	للزراعة
جميل الألشي	للأشغال العامة

رد الزعيم هنانو على تصريحات داميان ده مارتل

وفي ٢٠ آذار ١٩٣٤ ألقى الزعيم هنانو خطاباً في الجامع الكبير بحلب جواباً على بيانات ده مارتل قال فيه:

((أيها السادة:

علمت أن المدينة مضربة اليوم، ولكني لا أدري هل كان إضرابها تأسفاً على عهد مضى، أم احتفاء بعهد جديد؟.. هل كان حزناً على حكومة أقيلت أم إستياء من حكومة نصبت؟..

إني لا أخال أحد الأمرين، وأظن أن هذا الإضراب هو نوع من أنواع الاحتجاج الصامت على الخطط التي يسعى الفرنسيون لتطبيقها في هذه البلاد، وما داموا هم المسيطرين فليس هناك أقل تأثير لحكومة ذهبت أو لأشخاص

ينصبون، لأن القضية ليست قضية أشخاص بل هي أرفع من ذلك، ونحن لم نعتد البحث في أشخاص صنعتهم السلطة، فكانوا آلات متحركة ينفذون مآربها ويعملون بإشارتها أشبه بأشباح لا إرادة لها.

أجل، أنا أترفع عن هؤلاء القوم، عن شخصياتهم وعن قيمة هذه الحكومات التي تتألف منهم، ولذلك أقول:

على إثر تعيين فخامة الكونت ده مارتل مفوضاً سامياً في هذه البلاد، رأينا أن نتريث في القول والعمل، لنرى ما سيعمله العميد الجديد، بعد أن أخفق سلفه في السياسة التي عهد إليه بتطبيقها، بعد تجربة دامت سبع سنوات، ومن الطبيعي أن تتبدل السياسة بتبدل الأشخاص.

ولكن الحوادث الأخيرة برهنت على أن الخطة التي اعتزم المفوض الجديد تطبيقها هي نفس الخطة التي كان قد جرى عليها أسلافه، لقد قال فخامة العميد في تصريحاته: إن السياسة التي عزم على تطبيقها في هذه البلاد لا تخرج عن نطاق الأساسات المقررة في باريس وجنيف، وستنفذ رغم إرادتنا، إنه لا يحق للسوريين تعيين مدة تحريرهم من سلطة الانتداب أو تقرير مصيرهم.

فنشكره على هذه الصراحة ونحن نصرح بدورنا، أننا لسنا مستعدين للتعاون لأجل تطبيق خطط مرسومة رغم إرادتنا)).

لقد بين الزعيم في خطابه مراحل نضال الشعب منذ ده جوفنيل ماراً بعهد بونسو وكيف أنه أصدر قراراً بحل المجلس التأسيسي، وتعطيل الدستور بتذييله بالمادة ١١٦ التي جعلت السلطات كلها في يد الفرنسيين.

وبين الزعيم هنانو أن للفرنسيين غايات استعمارية مقررة أرادوا تحقيقها بالمعاهدة فلما لم يتمكنوا لم يروا بأساً من التصريح بأنهم عازمون على تطبيقها رغم إرادة الشعب.

ورد الزعيم هنانو على الكونت ده مارتل بأن المشاريع الاقتصادية التي تنوي فرنسا القيام بها لن تجدي البلاد نفعاً إذا لم تنل البلاد استقلالها وحريتها.

وأضاف الزعيم مخاطباً الكونت ده مارتل

وإذا سألتني ما الفائدة من هذا البيان ومن إغلاق المدينة، ومن احتجاج المعارضين، فالجواب: ((رد على ما تكتبه في تقاريرك أنت إلى حكومتك، وإلى عصبة الأمم تقول فيها: إن سورية تقبلت عملك بكل ارتياح وسرور، وإن القوم تركوا السياسة وقضيتهم، وانصرفوا إلى جمع المال واللهو في التبدلات والتغيرات، كما ادعى بونسو يوم أغلق المجلس التأسيسي عام ١٩٢٨.

وإذا لم تؤمن بما نقول فامض بعملك، وغداً ترى نتيجة ما جنته يداك، والزمان بيننا وبينك خير الحاكمين.

احتجاج المجلس النيابي

وكان موعد اجتماع المجلس النيابي قبل قرار المفوض بتعطيل الحياة النيابية هو ٢٠ آذار ١٩٣٤ لهذا فقد أعلن احتجاجه على تعطيل الحياة النيابية ببيان موقع من رئيسه السيد صبحي بركات، وسكرتير اللجنة البرلمانية السيد جميل مردم.

الشيخ تاج الدين يستلم رئاسة الوزارة

وفي ٢٢ آذار ١٩٣٤ استلم الشيخ تاج الدين رئاسة الوزارة فأذاع البيان التالي على كافة الدوائر الحكومية:

((بعونه تعالى تسلمنا مهام العمل في مثل هذه الأيام العصيبة. وقد قبلت القيام بهذا العبء الثقيل، متكلاً على مشاطرتكم وموازرتكم لي، توصلاً لتحقيق غايتنا المنشودة، وتأمين رغبات الأمة المشروعة.

لهذا رأيت لد ى مباشرتي العمل أن أوجه لكم هذا النداء راجياً بذل ما في وسعكم لتسهيل مصالح الأهلين، والسهر على محافظة حقوقهم، والتشدد في تطبيق القوانين، والنظامات، واستفزاز الموظفين الموضوعين تحت أمركم لتأمين هذا القصد النبيل.

وإنـي لعلـى ثقـة بأننـا سـنعالج جميعـا مـا يعـرض لحكومتنـا مـن القـضايا والمصالح بمنتهى التجرد والإخلاص، واضـعين نـصب أعيننـا المـصلحة العامـة وبذل الجهود المستطاعة للوصول إلى هدفنا الأسمى، سـائلين المـولى عزّ وجـل أن يسدد خطانا، ويأخذ بيدنا لما فيه خير البلاد وفلاحها)).

المفوض السامي يزور حلب

وفي ١٠ نيسان ١٩٣٤ حضر الكونت ده مارتـل إلـى حلب لافتتـاح المعهد العلماني الفرنسي، وقد اجتمع بالصحفيين في حلب وأخبرهم أن المجلـس النيـابي سيـستأنف أعمالـه فـي ١٥ ت١ ١٩٣٤، ثـم تحـدث عـن مـشاريعه الاقتـصادية. وأعلمهم بأن رئيس الوزراء سيزور حلب وسيشرح للحلبيين برنامجه.

تحرك صهيوني

٣٠

وفي ١١ نيسان ١٩٣٤ شاع في سورية أن الحكومة السورية والمفوضية العليا قد وافقتا على دخول الصهيونيين إلى سورية كخبراء في الزراعة والعلوم والشؤون الاقتصادية، وإن اتصالا قد جرى مع وايزمن الزعيم الصهيوني الذي حضر إلى بيروت واختلى بالمفوض السامي والسيد (بيرار) مدير بنك سورية ولبنان.

وتلا ذلك تحرك من قبل صهيونيين درسوا الأراضي الزراعية في حوران ودمشق والجزيرة، ثم محاولة الصهيونية شراء اراضي (البطيحة) التي تملكها أسرة اليوسف، وأراضي (الحولة) وفي البقاع والجزيرة. واتضح بعد ذلك أن الصهيونيين عازمون على شراء الأراضي التالية:

١- أراضي ورثة عبد الرحمن باشا اليوسف ومساحتها (٥٠٠) ألف دونم.

٢- أراضي ورثة الأمير عبد القادر الجزائري ومساحتها (١٠٠) ألف دونم.

٣- اراضي آل سرسق وبيهم ومساحتها (١٥) ألف دونم.

٤- اراضي ورثة علي منصور باشا ومساحتها (٥٠) ألف دونم.

٥- اراضي عز الدين بك سليمان من القنيطرة ومساحتها (١٥) الف دونم.

وتكون مساحة الأراضي المنوي شراؤها (٦٧٥) ألف دونم.

وحين توجه عضو الكتلة الوطنية الدكتور عبد الرحمن الكيالي في حلب إلى المندوب السامي فيها السيد (لافاستر) واستفسر منه عن حقيقة هذه الإشاعات أجاب: بأن المفوضية وافقت على إعطاء الصهيونيين إذناً باستئجار واستثمار بعض الأراضي في الجزيرة وحوران دون أن تجعل من ذلك وطناً صهيونياً أو قضية صهيونية.

وفي اليوم التالي عقد اجتماع جماهيري في الجامع الكبير بحلب وتقرر إرسال احتجاج إلى المندوب السامي شديد اللهجة وقعه السادة: الدكتور عبد الرحمن الكيالي، أحمد صديق المدرس، الشيخ عبد الحميد الجابري، الشيخ صادق الرفاعي، صبحي النيال، الشيخ محمد اسحق الكيالي، الدكتور حسن فؤاد، المحامي نعيم الإنطاكي، المحامي عبد الغفور المسوتي.

ونشرت المفوضية الفرنسية العليا البيان التالي:

((لقد وصل إلى علم الحكومة اللبنانية والحكومة السورية ما تشعر به الشعوب اللبنانية والسورية من القلق تجاه الإشاعات والأنباء التي تذيعها الجرائد فيما يختص بعقد اتفاقات مزعومة، بين المفوضية العليا، وبعض المؤسسات الصهيونية، على أن هذه الأخبار كاذبة من جميع الوجوه، فإنه لم تجر أية مفاوضة تتعلق بإسكان جاليات صهيونية في لبنان أو في سورية، بين المفوضية العليا وشخص ما، وما عدا ذلك فالمفوض السامي قد عمد منذ شهر ك٢ ١٩٣٤ إلى اتخاذ مرسومين تحت رقم / ١٦ و ١٧ ل.ر/ وضعا لتحديد وإتمام وسائل المراقبة التي لدى الحكومات المحلية، فيما يختص بمشتريات الأراضي التي قد تحاول عقدها العناصر الأجنبية)).

هذا ما جاء في بيان المفوضية، ولا تستغرب هذه المحاولة من قبل الصهيونيين إذ كان على رأس الحكومة الفرنسية المحامي اليهودي ليون بلوم.

تعليق أحكام المادة (٦٠) من الدستور

٣١

في ١٥ نيسان ١٩٣٤ أصدر المفوض السامي قرارا أوقف بموجبه مفعول المادة (٦٠) من الدستور وذلك بحسب الصلاحية التي أعطته إياها المادة التي وضعها المستعمرون في الدستور وهي المادة (١١٦) الماضي ذكرها والتي نيل بها الدستور السوري. وهي تدور حول وجوب انتخاب نائب مكان نائب متوفي أو مستقيل.

زيارة رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء لمدينة حلب

وأوصى المفوض السامي رئيس الجمهورية محمد علي العابد ورئيس الوزراء الشيخ تاج الدين الحسني بضرورة زيارة حلب وأقنعهما بأن الشعب سوف يستقبلهما استقبال مودة وترحيب، فأرسلت الوزارة وفداً يهيئ للاستقبال. مؤلفا من السادة بهيج الخطيب، ووزير المعارف حسني البرازي، والمفتش العام في الوزارة، ولكن الزيارة أرجئت مؤقتاً بسبب احتجاج أهالي حلب وإرسالهم البرقيات يحذرون الحكومة من مغبة القيام بهذه الزيارة البغيضة، ومن هذه البرقيات:

برقية: الشعب يشكو كثرة الضرائب، يطلب تخفيف الأزمة. اتقوا الله في اموال العباد، أتنفقونها للزينات والحفلات ولا تبالون بآلامهم.

برقيـة أخـرى: تـزدرون حقـوق الأمـة والـوطن، وتطلبـون منـا الرضـا والسلام، والتناقض مهزلة التاريخ، نحتج على قيامكم بالزيارات.

برقية: البلاد تطالب بحقوقها، لا نريد زيارتكم قبل تحقيقها.

وأرسلت عشرات البرقيات أمثالها تطلب إلغاء الزيارة.

وحاولت الحكومة من جهتها أن تحقق الزيارة تحدياً للشعب فاستعانت بعدد ممـن يؤيـدونها ليبـذلوا جهودهم ويـستميلوا بعـض أفـراد الـشعب ولكـن الـشعب انصرف عنهم وازدراهم.

الرحلة البغيضة

فـي ١٩ أيـار ١٩٣٤ تحـرك موكـب رئـيس الجمهوريـة ورئـيس الـوزراء وكانـت طليعـة الموكب تتـألف مـن الـوزير الحلبـي هنـري هنديـة ومعـه سيارات أخوته وذويه ومن أستأجرهم لهذا الغرض.

وفي ٢٠ أيار ١٩٣٤ وصل الموكب إلى حلب، وفي المقدمـة سيارة رئيس الجمهوريـة محمـد علـي العابـد تتبعهـا سـيارة رئـيس الـوزراء وبعـدها سـيارات المـوظفين فـي دوائـر الحكومـة والبلديـة والأوقـاف، وسـيارات النـواب المـوالين للحكومـة، وبعـض المتـزعمين، ومـر الموكـب بـين صـفين مـن رجـال الـشرطة والدرك والحراس الليليين.

وفـي المـساء وصـلوا إلـى داخـل البلـدة، وحلـوا فـي فنـدق بـارون وأخـذوا يستقبلون المهنئين بينما كانت القنابل تنفجر هنا وهناك، وعلى مقربـة مـن شـارع بارون نفسه.

وعندما كـان موكب الرئيسين فـي طريقـه إلـى الأمـاكن التـي يريـد زيارتهـا كان الأولاد يوجهون إلى الرئيسين الشتائم، ويوم زيارة الرئيسين معهد التجهيز فـي حـي الإسـماعيلية (ثانويـة المـأمون حاليـاً) صـفر لهمـا الطـلاب ورمـوا علـى الشيخ تاج بكأس من سائل لم يعرف ما هو.

وقد اشتد هياج الشعب، وحدثني المواطن المناضل السيد محمد الشيباح عن تلك الزيارة العجيبة قال: كنا نؤلف لجنة من لجان الكتلة الوطنيـة، واجتمعنـا في

دار الحاج محمد أبو صالح في حي المشارقة واتخذنا العدة للقيام بمهمة ضد هذه الزيارة مع إخواننا وفق أوامر قادة الكتلة الوطنية.

وفي يوم الجمعة ٢٥ أيار ١٩٣٤ أراد الرئيسان زيارة الجامع الأموي وقت صلاة الجمعة وعزمت الكتلة الوطنية على منع الرئيسين من ذلك بأي ثمن وتحدي السلطة الفرنسية التي أعدت جندها وشرطتها لتنفيذ ما عزم عليه الرئيسان، وليكون لهما مهرجان واستقبال وتجوال في المدينة المناضلة.

ذهبنا إلى الجامع على الرغم من الحراسة المشددة واحتللنا باحته، ثم احتللنا القبلية مع السدة وملأنا كل مكان، وقد بلغ عددنا يومئذ عشرة آلاف مواطن.

وبعد فترة أقبل الزعيم إبراهيم هنانو والسادة: سعد الله الجابري، الدكتور عبد الرحمن الكيالي، الدكتور حسن فؤاد وسائر أعضاء الكتلة الوطنية، ورؤساء اللجان فأخلينا لهم السدة التي كنا نشغلها بناء على خطة مرسومة، وقرئت قصة المولد النبوي، وألقيت خطب ثورية، وهلل الناس وكبروا.

وأقيمت الصلاة وحضر الرئيسان وحاشيتهما ودخلوا غرفة الخدم بجانب باب الجامع الغربي وصلوا فيها ولم يجسروا على تخطي الرواق، وما إن انتهت الصلاة حتى ولوا مدبرين تلاحقهم اللعنات من كل جانب.

وأوقفت السلطة عددا كبيرا من الناس وكنت واحداً منهم وقد لاقيت في مركز التوقيف عذاباً لا تطيقه الصخور فضلاً عمن كان من لحم ودم.

كما أوقفت السلطة السادة: سعد الله الجابري، والشيخ عبد القادر السرميني، وناظم القدسي، والدكتور حسن فؤاد، الحاج مصطفى شبارق، والحاج علي سيرجية، الحاج محمد أبو صالح، وغيرهم وساقتهم إلى المحاكمة وفاقاً لقانون قمع الجرائم رقم ٤ هذا القانون الجائر الذي يلحق بفرنسا الخزي والعار لظلمها وبغيها وبطشها ووحشيتها.

وتوالت المظاهرات بعد ذلك ولم تهدأ المدينة لحظة وهاجمنا رجال الأمن واستطعت أن انتزع مسدس احد رجال الأمن.

وعندما كنا أمام بوابة الوراقة قبل ذلك داهمتنا مصفحة فرنسية فانبرى لها الشاب (أحمد أفتل) وظل يتقدم نحوها حتى اعتلى برجها وقتل قائدها، ولكن مصفحة أخرى رشته فاستشهد كما استشهد (أمين زينو) وجرحت أنا في ذراعي وعالجنا الدكتور نافع السباعي طيب الله ثراه.

وفي ٣ حزيران ١٩٣٤ عاد موكب الرئيسين إلى دمشق بلا وداع.

أما الموقوفون ففي ٢٩ أيار قدموا إلى المحكمة الأجنبية التي ترأسها حاكم فرنسي، وقد قال النائب العام الفرنسي في معرض حملته على الوطنيين الموقوفين أثناء المحاكمة:

نعم أجرموا، أحدثوا الهياج والشغب، أخلوا بالأمن العام، وتعدوا على موظفي الحكومة.

وتنحصر جرائمهم في الاجتماع الذي عقد في دار الدكتور حسن فؤاد، قبل حادث الجامع، وبتهجمهم بالقوة والعنف على رجال الأمن، وعلى موظفي الحكومة، من ضباط الدرك والشرطة، ورجال الأمن وإخراجهم من السدة.

ثم احتلال السدة في الجامع بالقوة لمنع الرئيسين من أداء الصلاة فيها. وهذا الاحتلال وإن يكن لا يريدون أن يجعلوا منه جرماً إلا أنه بكل الأحوال قلة أدب وعدم احترام للرئيسين، وهما أعظم شخصيتين في البلاد السورية.

وأضاف النائب العام: ومما ساعد على هياج الأفكار واضطرابها الخطاب الذي ألقاه سعد الله الجابري في مثل هذا الوسط وهذا المحيط وفي مثل هذه الساعة.

إني أكرر ما قلته بأن هذا العمل، فضلاً عن كونه يشكل جرماً، فإنه قلة ذوق.

وعليه أطلب الحكم على المتهمين جميعاً بموجب القرار رقم (٤).

وحينئذ طلب السيد سعد الله الجابري الأذن من المحكمة للرد على النائب العام الفرنسي وقال:

يا حضرة الرئيس

إن التربية التي يبحث عنها النائب العام، لا نريد أن نأخذها عنه ولا عمّن هو أعلى منه، ولكني أحب أن أتعرض لنقطتين:

الأولى: إني أصرح بأن الرئيسين، رئيس الجمهورية، ورئيس الوزارة كانا يزحفان إلينا، ويستجديان منا حياتهما، فهما والحالة هذه أولى بترك السدة لنا.

الثانية: أما التهم التي نسبها حضرة النائب العام إلي فأنا لا أقبلها، وأرفضها، وهل يعلم حضرته أنني لو لم أكن مسؤولاً أدبياً عن هؤلاء الناس الحاضرين وعن الذين وجدوا في الجامع لكان حدث مالا يسره، وما لا يسر غيره، ولكانت أريقت دماء وجرت أنهاراً، ولامتلأت الشوارع بأشلاء القتلى.

لقد هدأت الشوارع، وهدأ الناس، وهدّأهم معي الزعيم هنانو ورفقائي كما يشهد بذلك جميع شهود الحق العام.

إني أريد أن أقول للنائب العام: إذا كان يريد أن يضيفني في السجون فلا يكون ذلك بواسطة المحكمة لأنها يجب أن تكون فوق كل شيء، وعندها قانون تسير عليه، إن لديك الطرق الإدارية والوسائل العرفية التي ما برحوا يستعملونها معنا منذ أربعة عشر عاماً حتى الآن، ولم ترهبني أبداً.

وقال ناظم القدسي للمحكمة عن احتلال السدة في الجامع: لقد أتينا لنحتلها، ولو كلفنا الأمر أن نحتلها بالقوة لفعلنا. إن السدة ليست ملكاً لرئيس أو غيره.

وقال الشيخ عبد القادر السرميني عندما اتهم بأنه حقر مأموري الحكومة، وجلس في محل معد لرجالاتها:

((إن صلاة الجمعة عند المسلمين يشترط في صحتها الأذن العام، وهذا يبيح لكل مسلم أن يجلس في المحل الذي يريده في الجامع ولا يجيز الدين الإسلامي تخصيص مكان لأحد من الناس، بل الدين يساوي بين الرئيس والمرؤوس، ولا فرق في الإسلام بين الصغير والكبير إلا في التقوى.

وكان محامو الدفاع: أدمون رباط، نعيم الأنطاكي، أدولف كعيكاتي، وجيه الحلاج، فتح الله أسيون، أسعد المحفل، منير العجلاني قد قدم كل منهم دفاعه. لكن السلطة الفرنسية المتمثلة في المحكمة لم تنصت إلى صوت الضمير والحق والعدالة فأصدرت أحكامها التالية:

	سجن	غرامة
سعد الله الجابري	٨ أشهر	٥٠ ل.س
الحاج قاسم جنيد	٦ //	٢٥ //
صبحي زلط	٤ //	٢٥ //
شاكر حاضري	٣ //	١٠ //
محمد محايري	٤ //	٢٥ //
جميل غازي	٣ //	
عادل سياف	٣ //	
الدكتور حسن فؤاد	٥ //	
رشيد رستم	٣ //	
الشيخ عبد القادر السرميني	٢ شهران	

وكانت المحكمة تتألف من رئيس فرنسي اسمه (موغان) وعضو سوري هو (إلياس بليط) وعضو فرنسي اسمه (سبينر)، وممثل النيابة العامة (اتيان هندية) أخو هنري هندية وزير المالية في حكومة الشيخ تاج والمساعد (جوزيف دادور) والترجمان (كميل اجقباش) وكان عقدها في ٣١ أيار ١٩٣٤.

وأخذت برقيات المواطنين تلاحق المسؤولين محتجين على الأحكام التعسفية.

كما أرسل الزعيم إبراهيم هنانو البرقية التالية إلى المفوض السامي وإلى وزارة الخارجية الفرنسية:

((في أثناء اجتماعنا الأول في حلب أظهرتم أنكم راغبون في بذل مجهوداتكم لإقرار الثقة المتبادلة، ولكن عفوكم عمّن اعتدوا على حياتي، ثم إصداركم الأوامر باعتقال سبعين شخصاً من الوطنيين عند خروجهم من جامع حلب، لا لسبب سوى مبادئهم السياسية العالية ثم الحكم عليهم بالسجن كل هذه الأمور تخالف تصريحاتكم وتمحو الثقة التي كنتم تنشدونها للتعاون بيننا، أؤكد لفخامتكم أن سياسة العنف والتهديد تقيم في طريق ذوي النيات الحسنة، عقبات كأداء يصعب تذليلها.

مرض الزعيم هنانو

وفي ١٩ حزيران ١٩٣٤ اشتد المرض بالزعيم هنانو، هذا المرض العضال الذي لازمه من عام ١٩٢٥ فضعف بدنه ونقص وزنه.

وفي ٢١ حزيران ١٩٣٤ أشار عليه أطباؤه أن يقيم في جبل الأربعين في أريحا، فالهواء هناك نقي جاف، وفي مساء ذلك اليوم كان الزعيم في جبل الأربعين.

نقل مندوب حلب /لافاستر/ إلى دمشق

في ٢٢ حزيران ١٩٣٤ نقل السيد (لافاستر) مندوب المفوض السامي في حلب ليكون معاوناً للمفوض السامي في دمشق.

وفي ٢٤ آب ١٩٣٤ أهدت فرنسا وسام جوقة الشرف من درجة كوماندور إلى الشيخ تاج الدين الحسيني.

وفي ٥ أيلول ١٩٣٤ سمحت السلطات الفرنسية لألف وأربعمئة شخص آشوري من العراق بإسكانهم في الجزيرة، وإقطاعهم الأراضي الزراعية من أملاك الدولة دون أن ينتظروا موافقة المسؤولين السوريين.

وفي ١٥ أيلول سافر المفوض السامي إلى فرنسا، والبلاد في حالة سيئة من الفوضى، فالمسؤولون مكروهون والاستعمار يكيد للأمة ولا يقبل بالنزوح عن البلاد مهما كلفه الأمر، وأرسلت الكتلة الوطنية السيد جميل مردم إلى باريس في ١ ت١ ١٩٣٤ ليكون على علم بما يجري هنالك.

وفي ٢٢ ت١ ١٩٣٤ عاد المفوض السامي إلى سورية وأذاع بياناً دعا فيه السوريين إلى التعاون مع فرنسا التي تعمل على إسعاد سورية وخيرها، على حد قوله.

كما عاد جميل مردم إلى سورية أيضاً في ٢٨ ت١ ١٩٣٤.

وفي ٣ ت٢ ١٩٣٤ حضر المفوض السامي إلى دمشق فأصدر قراراً بإغلاق المجلس النيابي إلى أجل غير مسمى وأطلق للشيخ تاج الدين رئيس الوزارة يده في الحكم وحمل حملة شعواء على المعارضة الوطنية.

وفي هذه الأثناء كانت أصوات الوطنيين تتعالى في جبل العلويين وجبل الدروز بضرورة التحاقهم بالوحدة السورية، كما احتجت الكتلة الوطنية على تعطيل أعمال المجلس وكذلك المنتخبون الثانويون، ومدينة حماة، والشباب الوطني وسائر المدن السورية.

ورد المفوض السامي بأن الإصلاحات الاقتصادية التي تنوي القيام بها لن تتم إلا بتعطيل الحياة النيابية.

ووجه السيد صبحي بركات احتجاجاً باسم المجلس النيابي على صرف المفوض السامي ٣٥ مليون ليرة على المشاريع التي قام بها دون علم المجلس وموافقته على هذه النفقات.

وفي ١٠ ت٢ تألفت لجنة اقتصادية من السادة، سامي مردم بك هاني الجلاد، مصطفى عمار، صبحي شبيب، حسني الزين وأصدرت بياناً وجهته إلى المفوض السامي قالت فيه:

((إن كل محاولة للانتعاش الاقتصادي يريد فخامته إجراءها دون وجود استقرار سياسي في البلاد ويتفق فيها مع سلطات غير حائزة على ثقة الشعب، وتأييد نواب الأمة، هي محاولة مقرونة بكثير من المخاطر التي من شأنها أن تزيد في سوء الحالة)).

إضراب البلاد والمظاهرات

وفي ١٧ ت٢ ١٩٣٤ شمل الإضراب المدن السورية احتجاجاً على تعطيل أعمال المجلس النيابي، واحتشد الناس في الجامع الأموي بدمشق وفي طليعتهم فخري البارودي، مظهر رسلان، نسيب البكري، إحسان الشريف، وتقرر إرسال برقية احتجاج إلى المفوض السامي تلاها السيد فخري البارودي على الحاضرين فوافقوا على محتوياتها، وعند خروج الناس من الجامع اصطدموا بقوات الشرطة وقوى الأمن واشتركت النساء في هذه المظاهرة، والقي القبض على عدد من المتظاهرين والمتظاهرات.

وقدم الموقوفون والموقوفات إلى المحاكمة، وصادف أن يكون النائب العام هو السيد (موغان) نفس القاضي الذي حاكم الموقوفين في حلب قبل ستة أشهر. وقد كان النائب العام سفيها لئيماً حين توجه إلى النساء قائلاً لهن: من المؤسف أن نرى هؤلاء الرجال يرسلن بناتهن للتظاهرات في الطرقات، والإخلال بالأمن، إن هذا ضرب من النذالة والجبن، وهذه المرأة التي سألتها وكانت تجاوبني وهي تضحك وتهزأ، قد أنكرت اعترافاتها التي.اعترفت بها أمامي وقد قالت إنها تظاهرات.

وغضب محامو الدفاع لوقاحة القاضي وتصدى له المحامي سيف الدين المأمون قائلاً:

إني ألفت نظر السادة القضاة إلى ما وصمنا به حضرة النائب العام من أننا جبناء، وأريد أن أسجل احتجاجي على ما قال فالسوريون يفتخرون إذ يرون نساءهم يشاركنهم في العاطفة الوطنية، وليس في هذا شيء من العار.

ثم اختلت المحكمة للمذاكرة وأعلنت أحكامها وأكثرها غرامات نقدية.

واحتجت البلاد من أقصاها إلى أقصاها على محاكمة النساء.

خروج سعد الله الجابري ورفاقه من السجن

في ١٨ ت٢ ١٩٣٤ أخرج السادة: سعد الله الجابري، الدكتور حسن فؤاد، ورفقاؤهما من السجن بعد أن لبثوا فيه ستة أشهر إثر حادثة الجامع الأموي

بحلب خلال زيارة الرئيسين لها: رئيس الجمهورية محمد علي العابد، ورئيس الوزراء الشيخ تاج الدين الحسني.

تعطيل جريدة القبس

وفي ٢٧ ت٢ ١٩٣٤ أصدر المفوض السامي قراراً بتعطيل جريدة القبس انتقاماً من صاحبها الذي كتب مقالاً انتقد فيه السيد (موغان) النائب العام الذي تعرض بالإهانة للسوريين وهو على منصة القضاء.

وفي اليوم التالي طلب السيد فخري البارودي القاضي (موغان) إلى المبارزة بصفته نائب عن الأمة، وليريه أن السوريين ليسوا جبناء، ولكن هذا الفرنسي الجلف جبُن ورفض طلب السيد فخري البارودي، بل انهزم هزيمة منكرة لأن هذا التحقير الذي وجهه السيد (موغان) لا يزول بإقامة الدعوى بل لا يغسله إلا حد السيف.

وقد كان رد سيف الدين المأمون المحامي قوياً عندما خاطب (موغان) في المحكمة قائلاً:

((لو كان السوريون جبناء لما حاكمتم خمسة آلاف شخص حتى الآن، حوكموا لأجل ثوراتهم، وكفاحهم، في سبيل استقلالهم وحريتهم والدفاع عن كرامتهم)).

وفي اعتقادي أنه ليس للاستعمار قلب يعي ولا ضمير ولا وجدان. إن الاستعمار في حقيقته لصوصية صارخة وإجرام، ولذا فقد كانت أسلحته قذرة كأهدافه، فمن شعاراته، ((فرّق تسدْ)) وكل مفوض استعماري جاء بشعار، فاللورد اللنبي قائد جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى كان يقول: ((نحن جئنا إلى فلسطين لنكمل عمل الصليبيين)) وشعار الجنرال غورو يوم دخل دمشق ((نحن هنا، ومن لا يقبل بانتدابنا، فليذهب إلى صحاري الجزيرة))، وشعار ده جوفنيل ((الحرب لمن يريد الحرب، والسلم لمن يريد السلم)) كان بلادنا بلاد أبيه، وشعار بونسو ((بكم وبدونكم سأتمم عملي)).

بهذه الشعارات دخلت فرنسا بلادنا فهل سكت الشعب أو استخذى؟.. كلا، أبدا، إنه ظل يناضل حتى طوى الاستعمار أعلامه ومضى غير مأسوف عليه.

وفي ٢٧ ت٢ ١٩٣٤ تم استيلاء السلطة الفرنسية على شركة التبغ والتنباك وجعلها خاضعة لنظام الاحتكار والحصر واحتج الشعب واحتج نواب المجلس، وقامت مظاهرات في المدن السورية ضد هذا الاستيلاء الذي تم في غياب المجلس إذ كان مغلقا بقرار من المفوض السامي.

في ١٠ ك١ ١٩٣٤ ذهبت لجنة من النواب اللبنانيين فقابلت المفوض السامي وسألته إلغاء قرار الاحتكار والحصر فرفض الكونت ده مارتل وأصر على قراره، حتى أنه وجه الكلمة التالية للنائب اللبناني (ميشال زكور) خلال المحادثة: ((إذا لم أجد من المجلس النيابي إخلاصاً للانتداب أرسلكم إلى النزهة كما أرسلت نواب المجلس النيابي السوري عندما أبوا التصديق على المعاهدة، وهذا لا يكلفني أكثر من أربعة أو خمسة أسطر)).

وقد جرت محاولة لشراء اليهود الصهيونيين من الألزاس بفرنسا أراضي في لبنان لكنها فشلت بفضل يقظة الشعب العربي ووقوفه ضد محاولة ده مارتل والصهاينة.

في ٣٠ ك١ ١٩٣٤ أصدر الكونت ده مارتل قرارا منح فيه حكومة الشيخ تاج الدين حق إصدار المراسيم التشريعية ليطوي صفحة أعمال المجلس النيابي مرة واحدة.

ولا بد لنا قبل أن نغادر عام ١٩٣٤ من أن نذكر أن التزوير الفاضح في الانتخابات الذي تم في حلب كان له أسوأ الأثر في نفوس أبناء الشعب فثارت المدينة من أطرافها وتنادى الوطنيون من كل صوب، وتجمهر الناس في كل مكان واحتشد رجال الشرطة والدرك في الشوارع والأزقة وأغلقوا الطرق وسدوا السبل فاشتد هياج الشعب واندفع يدمر قوى الأمن فلاذ هؤلاء بالفرار.

كان ذلك في شهر آذار من تلك السنة، ولم أشأ أن أغفل ما جرى في يوم الجمعة الأول من آذار، فبعد أن اندحر رجال الأمن تجمهرت الألوف أمام منزل

الزعيم هنانو الواقع أمام التجهيز الأولى (ثانوية المأمون حالياً) بحلب. خطب الزعيم في الجماهير وألهب المشاعر احتجاجاً على تزوير الانتخابات وحث الناس على عدم التسليم للسلطة الغاشمة.

وسقط يومها عدد من القتلى يزيد على سبعة عشر شهيداً.

وجرح عدد كبير من الناس حين أقبل الجيش الفرنسي بدباباته وفرسانه ومشاته يطلقون النار على الجموع دون هوادة مما اضطر جموع المتظاهرين للانسحاب إلى الأحياء الداخلية تفادياً للنيران الكثيفة التي كانت تطلق عليهم.

وانطوت صفحة عام ١٩٣٤ والبلاد في فوضى لا يقر لها قرار، والوضع السياسي في غاية الاضطراب.

أما المفوض السامي فإنه كان مشغولاً بمنح الشركات الفرنسية امتيازات لاستثمار خيرات البلاد والتسلط على اقتصادها وإفقارها وتجويعها، ولم ينس نفسه فقد منح حق استثمار شركة التبغ والتنباك إلى شركة فرنسية معظم أموالها تعود لأسرة زوجة الكونت ده مارتل من يهود فرنسا، وقد تقاضى ثمناً لذلك أموالاً طائلة.

وجاء عام ١٩٣٥

وفي ١١ شباط ١٩٣٥ أصدرت الحكومة قراراً بإغلاق نادي بني حمدان الرياضي في حلب، وهو نادٍ يضم خيرة شباب حلب دون أن تبرر سبب الإغلاق، وقد استنكر الشعب هذا التصرف الغبي، فالنوادي في أي بلد دليل تقدم وعامل حضارة لذا فإن إغلاقها يسيء إلى البلد إساءة بالغة.

وفي ٥ شباط ١٩٣٥ أرسلت الكتلة الوطنية تقريراً إلى وزارة الخارجية بدمشق تحتج فيه على هجرة الأشوريين من العراق إلى سورية وإسكانهم في الجزيرة، وعلى موافقة المفوض السامي على قبول الصهيونيين للعمل في سورية، وعلى أشياء أخرى أهمها سوء الإدارة، وامتداد عهد التجارب، وتعطيل الدستور، والاتفاقات المعقودة لصالح الشركات الأجنبية، ومنح الامتيازات، وتعطيل الحريات وإرهاق الشعب بالضرائب والنفقات.

وفي ١٢ و ١٤ شباط ١٩٣٥ طيرت برقيات من جميع أنحاء البلاد محتجة ضد قرار المونوبول (حصر التبغ والتنباك) أجمع فيها مبرقوها على شجب هذا القرار ووجوب إلغائه.

كانت دمشق قد أرسلت في ١٠ شباط ١٩٣٥ برقية احتجاج إلى الملك عبد العزيز ملك الجزيرة العربية تهيب به أن يتدخل لدى الحكومة الفرنسية لمنعها من احتكار نقل الحجاج بواسطة شركة الملاحة الشرقية التي كان معظم مساهميها من الفرنسيين.

وفي ١٦ شباط ١٩٣٥ أضربت مدن سورية ولبنان احتجاجاً على سوء إدارة الكونت ده مارتل وعلى تنفيذه الخطط الاستعمارية في نهب ثروات الشعب ومصادرة حرياته.

وفي ١٨ شباط ١٩٣٥ كتب النائب الفرنسي رئيس الشؤون الخارجية في المجلس النيابي الفرنسي السيد (باستيد)، وكان قد زار سورية واستمع إلى ساستها ومختلف سكانها، كتب مقالاً في جريدة الريبوبليك الفرنسية في باريس حمل فيها حملة شديدة على تقسيم سورية الذي تم في عام ١٩٣٠، ثم إنشاء اتحاد دول سورية المستقلة استقلالاً إدارياً وذلك في ٢٢ حزيران ١٩٢٢، وكان يضم حكومات حلب ودمشق والعلويين، ثم في ٥ ك١ ١٩٣٤ أدغمت حكومة حلب بحكومة دمشق وسميتا باسم دولة سورية، وحمّل السلطة الفرنسية نتائج سياستها الطائشة.

وفي ١٣ شباط ١٩٣٥ أصدرت حكومة حلب، بناء على أوامر وزارة المعارف السورية، قراراً بتقييد افتتاح الكتاتيب التي يعلم فيها القرآن فثار الناس واجتمعوا في الجامع الكبير في ١٥ شباط ١٩٣٥ محتجين فسحبت الوزارة قرارها.

وفي ١٣ شباط ١٩٣٥ أيضاً أصدر وزير المعارف، وكان السيد حسني البرازي، قراراً يفصل عدد من طلاب التجهيز في حلب وهم المناضلون: وهبي

الحريري، أنور الحمصاني، سامي زين الدين، محمد أبو المواهب الكيالي، عزت رحال.

وفي ١٧ شباط ١٩٣٥ تقدمت لجنة الدفاع عن الأوقاف الإسلامية باحتجاج حول السكة الحديدية الحجازية واستثمارها من قبل الفرنسيين وقعه السادة، أحمد منير الوفاني، مصطفى الزرقا، سعد الدين الجابري، عبد الغفور المسوتي، ناظم القدسي، أحمد سراج الدين الترمانيني، عبد القادر السرميني.

في ٢٧ شباط ١٩٣٥ سافر المفوض السامي الكونت ده مارتل إلى باريس، والبلاد التي انتشرت فيها الفوضى بعيدة كل البعد عن الحرية والسيادة، أما المفوض السامي فإنه راح يصرح في باريس بأن المقاومة التي يبديها المعارضون في سورية كالزوبعة في كأس ماء لا تلبث أن تزول.

وفي ٢٩ آذار ١٩٣٥ عاد المفوض السامي الكونت ده مارتل إلى سورية فوصل إلى حلب ماراً بتركيا وتحدث مع الدكتور رشدي آراس رئيس الجمهورية التركية بشأن الحدود والمواصلات الحديدية وغير ذلك.

كتاب مواطن إلى المفوض السامي

في ٢ نيسان ١٩٣٥ كتب السيد انطوان الحاج إلى المفوض السامي الكتاب التالي:

حضرة ده مارتل

إني أكتب إليك هذا الخطاب المفتوح من فندق متروبول، حيث أنا مرغم على أن أقوم ضد جواسيسك بحصار منظم وهذا معناه أني لا أعترف بسلطة قرارك رقم ١٤٤ المؤرخ في أول نيسان والحامل إمضاءك وإمضاء شريكيك (لاغارد) و (مازاس) ذلك:

أولاً: لأن هذا القرار هو عمل حكومي مباشر من حق سلطات البلاد الوطنية. وإن اغتصابك قوانين البلاد يعد خرقاً ذا مسؤولية كبيرة.

ثانياً: إن قرارك المذكور آنفاً قد وُضع رغم إرادة شعب بلادي، تلك الإرادة التي عبر عنها بجلاء سخطه واستياؤه المتزايد.

لقد وصلنا معاً أنا وأنت إلى بيروت بفرق يوم واحد فاستقبلتني الجماهير بأذرع مفتوحة كرسول الحريات الممنوعة، ولكن عند قدومك أنت تعالى الاستياء من كل الجهات، وقامت المظاهرات العدائية ضدك.

فاعلم يا حضرة ده مارتل أنك أنت غير المرغوب فيه، لا أنا.

ثالثاً: أنا لم آت مثلك لأعيش في الرفاهية من الأموال التي أنهبها من شعبي، ولا لأمتع نفسي بالمغامرات السافلة مع الغواني اللواتي - قيل لي - أنك تعشق التلذذ بمجالستهن، لكني جئت لأطلب الحق والعدالة لرجال بلادي الذين يكفرون في سجونك عن الأعمال التي قاموا بها في سبيل مصلحة البلاد العامة، وحريتها الوطنية.

رابعاً: من جهة أخرى أنا لست ممثلاً لطبقة المستثمرين والمحتكرين الماليين، لقد ناداني الشعب السوري فجئت إليه باسم العمال والفلاحين والمفكرين الثوريين الفرنسيين الذين يحتقرونك أنت، ولكن يشرفونني أن بثقتهم وصداقتهم.

إن فرنسا الحقيقة تمد يدها من فوق مناوراتك وجشعك الخسيس لتصافح سورية الشهيدة، وبالرغم من كل ما تقومون به، فإن هاتين اليدين سترتبطان ببعضهما بقوة لتوطيد الحرية والحريات التي قضيتم عليها.

خامساً: إن لمهمتي في سورية طابعاً مقدساً صحيحاً، إنني المدافع الرسمي عن المتهمين الاثني عشر الذين اعتقلوا بعد مظاهرات زحلة، وأودعوا سجن بيروت، وعن المتهمين المودعين في سجن دمشق، واللذين توقفا بموجب قرارك رقم ٤ غير المشروع، وعن المعتقلين العشرة الذين طلبوا استئناف حكمهم أو تمييزه أمام محكمة حلب ضد الأحكام التي لفظت بحقهم وفقاً لقراراتك رقم ٤، و١١٥ ل ر، و ٣٣/٩، وعن أبي سعود رعد المسجون في دمشق منذ ١٥ عاماً، تريد أن تمنعني من قول الحقيقة عالياً

والدفاع عن ضحاياك، أعلم أن الدفاع لا يترك الأبرياء الذين استدعوه من أعماق سجنهم، إني أضحي بحياتي وبحريتي، ولا أخون الحلف المقدس الذي يربطني بالسجناء.

سادساً: أنا هنا، وسأبقى هنا.

لقد خرقت قرارك لأنه يهين الضمير الإنساني

أوقفني

بيروت في ٢ نيسان ١٩٣٥ الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر

أنطوان الحاج

إضراب بيروت وإضراب دمشق تأييداً لها

في ٢٣ أيار ١٩٣٥ أغلقت متاجر بيروت أبوابها احتجاجاً على الرسوم الجمركية الباهظة، وعلى نفقات المصالح المشتركة (وهي نفقات الجيش الفرنسي والموظفين الفرنسيين وتكاليف الاحتلال) وعلى الشركات صاحبة الامتيازات، والاحتكارات، وفداحة الضرائب.

وفي نفس اليوم أضربت دمشق إضراباً عاماً تأييداً لبيروت وتضامناً معها.

وكانت دير الزور قد احتجت على إسكان الآشوريين في الجزيرة في ٢٥ نيسان ١٩٣٥، وحذرت من أن يكون لهذا الإسكان النتائج السيئة التي تمت بتجميع الصهيونيين في سورية الجنوبية - فلسطين -.

وكان المفوض السامي قد سافر إلى باريس في ١٠ أيار ١٩٣٥.

وقبل ذلك أرسل أهالي اللاذقية برقية في ٧ أيار ١٩٣٥ يحتجون فيها على تحكم المندوب السامي الفرنسي باللاذقية في الأوقاف الإسلامية في المنطقة، والذي شرع يبيع أوقاف الحرمين الشريفين وأوقاف جامع السلطان إبراهيم بجبلة.

وفي ٤ حزيران ١٩٣٥ عاد المفوض السامي إلى سورية ولكنه ما لبث إن عاد إلى باريس في ١٣ تموز ١٩٣٥.

وخلال ذلك كانت المفوضية الفرنسية تتلقى كل يوم سيلا من البرقيات والعرائض من المزارعين وغيرهم من الأوساط ذات الفعاليات الاقتصادية في البلاد، ولكنها لا تتلقى أية إجابة فمصالح البلاد الحيوية الحقيقية لم تعد تهم المفوضية إلا ما يتعلق منها بنهب ثروات البلاد وإضعاف سكانها وإذلالهم.

وكان الشيخ تاج الدين الحسني قد سبق المفوض السامي إلى باريس وأنفق في رحلته من النفقات ما أثقل كاهل الخزينة السورية، ولاحقته الاحتجاجات من كل أنحاء البلاد شارحة الحالة التعسة التي آلت إليها البلاد من جراء الحكم الجائر المفروض على البلاد، فالمصانع على قلتها أخذ أصحابها يسرحون العمال، والتجارة معطلة حتى ليكاد الكثيرون من الباعة على مختلف درجاتهم يعجزون عن تسديد الضرائب المترتبة عليهم.

هذا عدا عن البضائع الأجنبية - كاليابانية الرخيصة وغيرها - لم يعد الشعب قادراً على اقتنائها ومع ذلك فالمفوض السامي كلما ذهب إلى فرنسا ملأ الصحف بأحاديث الرخاء والازدهار اللذين ينعم بهما الشعب السوري، في الوقت الذي كان فيه الفلاح لا يجد لقمة القوت، وبعضهم وزع بناته في بيوت الآخرين لعجزه عن الإنفاق عليهن، وبعضهم مدين للمرابين والمصرف الزراعي عدا عن جباة المالية بحيث لا يبقى لدى الفلاح ما يأكله وعياله خلال العام.

أما الناحية السياسية فالاضطراب سائد، والمظاهرات قائمة على قدم وساق، والاضطرابات والاعتقالات والسجون، فلا تفاهم بين السلطة الغاشمة وبين الشعب، وفي الوقت الذي يمد الوطنيون يدهم للمصافحة ترتد اليد الاستعمارية مراوغة ومخادعة، والسياسة مؤقتة دائماً والأعمال مرتجلة، أما الاستقلال والحرية والسيادة فقد غدت أسطورة أو أوهاماً.

أما جمعية الأمم فقد طنشت وكأن الأمر لا يعنيها، والمفوض السامي في سورية هو الآمر والناهي، وهو كل شيء ولكنه في العرف الدولي يعمل بأمر جمعية الأمم والجمعية في نوم عميق، ومن لم يقتنع بما يفعله المفوض السامي

فليس أمامه سوى الثورة إن كان مواطنا شريفا و هذا ما فعله السوريون في البدء وما قاموا به بعد ذلك من ضروب الكفاح السلبي المشروع، إنهم أصحاب حق، والمستعمر هو المعتدي ولن يدوم عدوان مهما طال به الزمن.

حتى الأوقاف الإسلامية سطا عليها الاستعمار، وأخضعها لمشيئته، وكأنه إمام المسلمين وخليفة الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته.

عدوان إيطاليا على الحبشة ومسألة المتطوعين

وخلال هذه الفترة اعتدت إيطاليا على الحبشة الآمنة المسالمة وساقت جيوشها الشرسة لقتل السكان الأبرياء في الحبشة قصد الاستيلاء عليها وضمها لمستعمراتها، ووقفت الدول الاستعمارية أميركا وانكلترا وفرنسا بجانب إيطاليا تؤيدها وتدعمها.

والأدهى من ذلك أن سماسرة إيطاليا وعملاءها حاولوا أن يغروا بعض السذج في سورية للتطوع والذهاب إلى مساعدة الإيطاليين كعمال.

وفي ٢٥ أيلول ١٩٣٥ أذاعت الكتلة الوطنية بياناً تحتج فيه على السلطة الاستعمارية التي تفسح المجال أمام السماسرة الذين يغرون بعض الناس وينقلونهم إلى إيطاليا وإلى إفريقيا لخدمة الاستعمار الإيطالي الظالم.

ولم تجد الحكومة مفراً من إصدار الأوامر إلى موظفي الأمن بمنع هذا العمل الشائن.

عودة الشيخ تاج الدين والمفوض السامي من باريس

في ٤ تشرين الأول ١٩٣٥ عاد الشيخ تاج الدين إلى سورية بعد أن قضى في باريس أربعة أشهر ونصف الشهر، ينفق من مال الخزينة مبالغ طائلة وبعد أسبوع أي في ١١ ت١ ١٩٣٥ عاد المفوض السامي أيضاً.

قضية الأسلحة المهربة إلى الصهيونيين

بعد أيام من عودة الشيخ تاج الدين والمفوض السامي من باريس ظهرت على مسرح السياسة قضية بالغة الأهمية وهي أن أسلحة في صناديق كثيرة

هربها الصهيونيين إلى داخل فلسطين في ظل السلطات البريطانية المتآمرة مع الصهيونية، وهب السوريون ينددون بهذا العمل الخبيث الذي يدل منذ ذلك اليوم على ما بيته الاستعمار والصهيونية متعاونين، وعلى أنهم يدخرون الذخائر ليوم ينتظرونه.

واحتجت البلاد على موقف السلطات البريطانية في فلسطين ولكن العرب لم يدركوا حتى ذلك اليوم أن الاحتجاج لن يجديهم نفعاً في قضية فلسطين.

ولعل أغرب ما جنح إليه الشيخ تاج الدين أنه اصدر (يانصيب) جمعت قيمة أوراقه من الموظفين وغيرهم لتغطية نفقات رحلته الباهظة إلى فرنسا، وكان (اليانصيب) باسم معرض صناعي يراد تأسيسه في دمشق ولا يوجد أي دليل على أن النية هي إنشاء هذا المعرض، وهذه صورة كتاب إلى مختار بإحدى القرى مرسل من مدير الناحية:

إلى مختار قرية ...

بالرغم من الأمر القطعي بالحضور إلى مركز الناحية يوم ٢٥ ت١ لم تحضر فآخر إنذار لك الآن لتحضر بلا أدنى تأخير إلى مركز الناحية ومعك ثمن تذكرتين أي ليرتين سوريتين (كانت الليرة الذهبية تساوي خمس ليرات ونصف سورية) لشراء ما عليكم وإن تأخرت عن الحضور وعن إحضار ما على أهل القرية ثمن أوراق اليانصيب الذي أمرت الحكومة بتوزيعها على الأهالي، ولو بالصورة الجبرية، تجري بحقك الإجراءات الشديدة والسلام.

الإمضاء

مدير ناحية دير حافر

مندوب جديد

ونقل مندوب المفوض السامي السيد (لافاستر) في حلب من سورية وحل محله البارون (فان).

وتبع ذلك تحرك سياسي ضد الأحوال الحاضرة تزعمته الكتلة الوطنية فأصدرت بياناً في ١٩٣٥/١١/١٠ في اجتماع عقد في دار السيد صبحي بركات تم فيه شرح ما تعانيه الأمة من اضطهاد وقهر واستبداد، فالشعب في فاقة شديدة، والعاطلون عن العمل يملؤون الطرق، والمزارعون في حالة مؤسفة والعمال لا يجدون عملاً.

سورية تفقد زعيمها العظيم إبراهيم هنانو

٣٢

في ٢١ ت١ ١٩٣٥ لبى الزعيم إبراهيم هنانو دعوة ربه بعد مرض عضال فقد ظل يعاني من مرض السل منذ عام ١٩٢٢، فكان يصارع الداء ويصارع الأعداء في وقت معاً، لا يبالي بالمرض حتى إذا استحكم فيه ألزمه الفراش وذهبت جهود الأطباء الكثيرين الذين أشرفوا على معالجته دون جدوى.

في ٢٣ ت٢ ١٩٣٥ شيع الزعيم هنانو إلى مثواه الأخير بموكب عظيم مهيب لم تشهد البلاد له مثيلاً، فقد خرجت حلب بجميع سكانها تشيع الزعيم الراحل، ولم تبق عين لم تذرف الدمع على الفقيد العظيم، وعمّ الحزن سورية كلها، فقد خسرت البلاد ركناً عظيماً من أركان نضالها.

كان الزعيم صادقاً في وطنيته، ثابتاً في مبدئه، جريئاً شجاعاً، ذا إرادة هي أقوى من الفولاذ. كان مطاعاً في رجاله وقومه، لا يخالف له رأي، لأن المواطنين جميعاً كانوا يؤمنون بإخلاصه ووفائه وحسن قيادته وخدمته الصادقة لوطنه ولما كان يمتاز به من صدق وتجرد وصراحة وتضحية، وفكر سياسي ثاقب، ونظرة بعيدة شاملة.

واقيم حفل تأبيني تخليداً لذكرى هنانو في ١٠ ك٢ ١٩٣٦ في دمشق في بهو الجامعة السورية شهدته جماهير عظيمة من الأقطار العربية كافة، وافتتح

بآيات من القرآن الكريم، ثم وقف الرئيس الجليل هاشم الأتاسي يلقي الكلمة الأولى فقال:

سادتي:

نحتفل اليوم بألم وخشوع بذكرى فقيد الأمة العظيم الزعيم إبراهيم هنانو متمثلين بقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم حين وفاة ولده إبراهيم ((إن العين لتدمع والقلب ليخشع، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزنون)).

((فاجعة عظيمة حلت بهذه الأمة التي لم يبق في جسمها ناحية لم تصبها السهام، ولكنها ما زالت صامدة للأقدار ماضية في طريقها، واثقة من الفوز فطريق المجد تملؤه الأشواك)).

((ليس في حياة الفقيد العزيز فترة خالية من الجهاد في سبيل الأمة، ولم يتقاعس عن نوع من أنواع التضحية لأجلها، فقد حمل السلاح باذلاً روحه لإنقاذ بلاده من الذل والاستعباد، ثم جاهد باللسان والقلم، وناضل في ميدان السياسة بهمة لا تكل وإيمان لا يتسرب إليه الوهن حتى مكن هذا الجهد المتواصل الداء من جسمه فغالبه بضع سنوات، ولم يكن ذلك ليفت من صلابة عزمه أو يقعده عن العمل، فقد كان شبح المصائب التي تنتاب بلاده المنكوبة ماثلاً أمام عينيه يقض عليه المضاجع ويدفعه للعمل، ثم أغمض الردى عينيه قبل أن تريا وطنه العزيز يتبوأ مكانته بين الأمم السعيدة بحريتها.))

((قضى إبراهيم قبل أن تتحقق الغاية التي سعى إليها طول حياته وضحى في سبيلها كل عزيز ولكنه قضى وقلبه الكبير مؤمن بمستقبل هذه الأمة، موقن بأن روح الوطنية فيها لن تخمد جذوتها بعد اليوم، وإنها واصلة حتماً إلى ما تبتغيه رغم محاولة الأجنبي القضاء على هذه الروح.))

فإذا نظرنا إلى عشرين عاماً خلت رأينا القطر السور[illegible] أقطار الإمبراطورية العثمانية تقدماً ورقياً، وكان يؤمل له مستقبل [illegible] الحرب لوقوفه مع سائر الأقطار العربية بجانب الحلفاء وتضحيت[illegible]رة شبابه

وشيبه في سبيل الاستقلال، ولكن حظه العاثر جعله اليوم أتعس شعوب الإمبراطورية العثمانية. وبينما تتمتع تركيا والعراق والحجاز واليمن باستقلالها ووحدتها وتسير أشواطاً في طريق التقدم نرى سورية مجزأة الأوصال، مهانة الكرامة، مهضومة الحقوق.

((إن الأساليب التي اخترعتها بعض الدول لتبرير استباحتها لحريات الشعوب أصبحت بالية، لا تتفق مع الروح الجديدة في العالم الدولي، فعسى أن لا تصر على إنكار الحقائق المحسوسة، وتعتمد على إقامة علاقاتها مع الشعوب على أسس الصراحة والعدل. وإذا كانت العاطفة الإنسانية وشعور العدل أوحيا للجامعة الدولية أن تهب لمساعدة الحبشة فعليها أن تذكر أن هنالك شعباً آخر أعرق في المدنية وأكثر تقدماً في ميدان الثقافة والعلم وما زال استقلاله مغتصباً وحقوقه مهضومة)).

((على أن الشعوب الجديرة بالحياة لا تعتمد إلا على نفسها في الحصول على استقلالها وبناء مجدها، وقد كان فقيدنا العظيم مؤمناً بذلك فكرس حياته لإيصال أمته إلى تحقيق أمانيها)).

((إن لفي كل صفحة من صفحات حياة إبراهيم هنانو مثالاً يدل على نفس وثابة وروح كبيرة وإخلاص متناهٍ يجدر بكل سوري أن يقتدي به، فخسارة الوطن به أكبر من أن تقدر، ولكن إن مات إبراهيم فالوطن حي لا يموت)).

((هذا الوطن يخلد ذكرى إبراهيم، وذكرى الشهداء الأبرار الذين سقطوا في سبيله وبنوا صرح استقلاله العتيد بأرواحهم، وستهنأ نفوسهم في جنة النعيم لدى مشاهدتهم - في مستقبل قريب إن شاء الله - وطنهم حراً من كل قيد، شاقاً طريقه إلى المجد)).

ومن كلمة الأمير شكيب ارسلان

((إن موت الزعيم هنانو كان عبارة عن حياة، فكل إنسان يتمنى أن يموت كما مات هنانو، وأن تقوم لموته البلاد وتقعد ويكون مأتمه عبارة عن محشر وفي هذا عبرة لمن اعتبر، وذكرى لمن ذكر)).

لقد جاهد هنانو في حياته بالسيف وبالقلم، وصار قدوة لمن اقتدى ومناراً لمن اهتدى، وكان مؤسس استقلال سورية الآتي برغم كل العوائق وإنني أقول الآن: رحم الله إبراهيم هنانو لقد علّم رجالات سورية دروس الوطنية في حياته وبعد مماته)).

ومن قصيدة للشاعر الخالد عمر أبو ريشة يرثي بها الزعيم

سار في زحمة الردى والأماني حُومً تزدري بهول المسير
ويثيرُ الإباء في الخانع الخب فيرتدُ قطعةً من سعير
فإذا بالسيوف في قبضة الصحراء تندى من الإباء المثير
فاشرأبتْ حيرى فلاحَ هنانو فوق مهر ممردِ التضمير
عرفت فيه طارقاً في جبال الألبِ يمشي بالجحفل المنصور
وفتى المجد خالداً يلقم اليرموكَ أشلاء خصمهِ المدحور
قرنتْ ترقبُ الهمامَ وللآمال خفقٌ مسعَّرٌ في الصدور
وهنانو بين النثير من الأشلاء في فوهةِ اللظى والثبور
وحواليهِ حفنةٌ من رجالٍ ثروةُ الموطنِ السليبِ الفقير
تتهادى كالشهبِ من كبدِ الجوز اء في لجةِ الظلام الضرير
هكذا تمهرُ العلى ببساطٍ من دماءٍ وقبةٍ من قبور
رجعَ السيدُ الجريءُ كئيباً ثاكلاً فقدَ عونه والنصير
حاملاً في فؤاده ألمَ الجرح ومستعصماً بروح صبور
ضارباً في الجبال يلتحفُ الليلَ ويغفو على يد الزمهرير
يطعمُ المهر زاده ويروض النفسَ في جوعها الملح الكفور
ولباناته القصيةُ تطغى وإلى نيلهن غيرُ قدير
كعقاب ترى الفريسة في الدوح وتشكو من ضلعها المكسور

* * *

هتفَ الشعبُ بالزعيمِ المفدى ومشى خلفه بطرفٍ بصير
جمعَ الشملَ بعدما مزقتهُ شيعاً غمزةُ الخداع النذير

الهـــلالُ القدســـيُّ ضـــمَّ جناحيـــه على أضـــلعِ الـــصليب الطهـــور

٭ ٭ ٭

يـــا بـــلادي نامـــت محـــاجر راعيـــك وفيـــــه اكتئابـــــة المـــــصدور
أنـــت أدرى هـــل داعبـــت شـــفتيه رعـــشةٌ مـــن هنـــاءة أو ســـرور
أأراحـــت عينيـــه أطيـــاف قـــتلاك وأشـــــباح مـــــصرع الدســـــتور
أتخلـــى عـــن مـــسمعيه بكـــاء النبـــل مـــن بغـــي حـــاكم أو وزيـــر
حـــسرة المجـــد رافقتـــه إلـــى القبـــر وهـــزت مـــن منكـــر ونكيـــر

٭ ٭ ٭

يـــا زعيمـــي يـــا قبلـــة مـــن فـــم الفخـــر ومجلـــى أكليلـــه المـــضفور
قـــبسٌ أنـــت فـــي الحيـــاة وفـــي المـــوت علـــى ســـاحل العلـــى المهجـــور
قـل لمـن يعـشق الحيـاة علـى الـذل ويخـــشى بـــروق عمـــر قـــصير
النـــواعير تنفـــث الـــضجر القاتـــل مـــــا بـــــين دمعهـــــا والزفيـــــر
سـئمت عمرهـا الطويـل فمـا تنـدبُ إلا خلودهــــا فـــــي الـــــدهور

وجاء في خطاب أديب العروبة الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي قوله:

((إن شكت النـاس مـن الأدواء فالأبطـال لا يـشكون، وإن وَهَنَ المرضـى حين العلـة فالأبطـال لا يهنـون، فكأن القوم أرواح لا أجسام، وشكاة أو سقَم لا يغزو إلا الجسم، وقد انساب إلى إبراهيم صِلُّ سُلٍ شرقي فما روعه، وسرى في الحي سُل صلٍ غربي فما فزعه ولقد أقام حليف الصبر شديد البأس شجاع العزم يقاوم السلين، ويكافح الصِلين وهو يردد:

لـــــي مـــــدة لا بـــــد أبلغهـــــا معلومـــة فـــإذا انقـــضت مُـــتُّ
لـــو ســـاورتني الأسْـــدُ ضـــاريةً لغلبتهـــا إن لـــم يَـــجِ الوقـــتُ

((ومات مردي التنين يوم جاء الأجل ((ومـا كـان لنفسٍ أن تموت إلا بـإذن الله)) كمثل موت الغالبين.

سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين)).

من كلمات هنانو

السياسة واسطة لا غاية، وغايتها إسعاد الشعب بتأمين استقلاله وصون كرامته، ولكم كنت أود أن تكون بلادنا في حالة لا تحتاج معها إلى الانشغال كثيراً في السياسة، فنحن نشتغل لا لأجل الوصول إلى كراس ذليلة يمن بها علينا الأجنبي ثمناً للعبودية والنيل من الحرية.

أقول والمرارة تملأ نفسي: إن الحقيقة العملية التي تجلت أمامنا أربع عشرة سنة تنحصر في ثلاثة أمور درج المستعمرون عليها في بلادنا وهي: إفقار، وإذلال، وتجهيل.

بسياسة الإفقار بارت التجارة وتعطلت الزراعة والصناعة.

أما سياسة التجهيل فانظروا إلى مناهج التعليم واسألوا المتخصصين كم بينها وبين ما يقتضيه العصر من الرقي، وقد وصلت الفوضى في المدارس إلى درجة أن يحرم التلميذ من الترفيع لمجرد كونه يدين بعقيدة وطنية أو سياسية.

وفي سياسة الإذلال: أصدروا قوانين منع الحريات تحت اسم (قمع الجرائم) وأناطوا تطبيقها بالمحاكم الفرنسية التي تسلطوا على استقلالها القضائي، ومنعوا من تأليف الجمعيات الحزبية والسياسية، وقضوا على حرية النشر.

لا علاقة للديانات في العلاقات البشرية وإن الذين يدعون حماية الأقليات لا يستطيعون أن يخففوا عنها مثقال ذرة من الأضرار التي تصيب جميع أبناء البلاد)).

هذه بعض كلمات الزعيم الخالد الذي كان شعلة ثورية ضد الظلم العاتي، إنه في ثورته لعنيف عنف الثوري الأصيل مع علم واسع وعقل راجح، وحس مهذب ونزعة طيبة، ونبل وكرم، فما إن انتهى الكفاح العسكري وأسلمته السلطة البريطانية الغادرة التي ألقت عليه القبض في القدس إلى فرنسا حتى أعدّ دفاعه، وخرج من المحكمة مبرءا مما اتهمه به أعداؤه إلا اتهامه بالوطنية والتضحية في سبيل بلاده.

وبدأ كفاحه السياسي كزعيم مفكر جبار لا تلين قناته، وظل يكافح عدوين لدودين المرض والاستعمار حتى ٢١ ت٢ ١٩٣٥، إذ اختار جوار ربه، فسلام على الزعيم الكريم حياً وسلام عليه في الشهداء، وسلام عليه قدوة الثوار والزعماء.

وهذه قصيدة للأستاذ السيد محمد الشريقي في حفلة تأبين هنانو في القدس:

مات الزعيم فلا والله ما رفعتْ	إلا الحياة على النعش الذي حملوا
بند طواه الردى لكنَّ دعوته	ممدودة الظل لم يقصفْ لها أسَلُ

* * *

يا يومَ (جسر الشغور) المُرتجى بسمت	له العروبة وارتاعت له الدولُ
يوم التقينا على العاصي يطالعنا	نصرٌ من الله لا خزي ولا وجلُ
من شاطئ البحر حتى الجسر مجتمعٌ	من النضال على الأبطال يشتملُ
والشعب مندفع والشمل مجتمع	والقول يتبعه الإقدام والعملُ
وأنت في الناس، إبراهيم، مدرهُمُ	يرون في سعيك الجبار ما أملوا
أيامَ لم ترتضِ التقسيم مقتحماً	نار الوغى لم تزحزح عزمك الخيلُ
جددتها حملةً شعواءَ معتزماً	لا أنت مستسلم يخزى ولا وَكِلُ

* * *

يا للمروءة تبكي باسلاً عصفت	به المنون وقرماً خطبه جلَلُ
لم تبكِ فارسَها المغوارَ من جزعٍ	لكنه الذكر تهمي عنده المقَلُ

* * *

إيهِ هنانو وفي ذكراك متسعٌ	للعاملين وتنبيهٌ لمن غفلوا
لقيتَ ربكَ موفوراً على أملٍ	والمرءُ ذكراهُ لا حلي ولا حُلَلُ
والقبرُ منبرُ ماضٍ صمته عِبَرٌ	والموتُ جسرٌ عليه الناسُ تنتقلُ

* * *

يا يومَ سُلِّمَ للعادين معتقلا	وما الدفاعُ عن الأوطان مَثْلَبةٌ
قالوا خرجتَ فقالَ القومُ حسبكم	قالَ القضاءُ: هي الأوطانُ غاليةٌ

وليسَ منهما من خاضَ معمعةً والعربُ إن نوزلوا يومَ الوغى نَزَلوا

وأطلقَ الثائرُ الجبارُ منتصرا وثورةُ الحق حقٌ في الألي عقلوا

والسيفُ يُغمدُ والآسادُ تُعتقَلُ لله والشعبُ يرجو ردّ من نكلوا

إرادةُ الشعبِ شرعٌ ما به زَلَلُ والعدلُ مبتهج والظلمُ منفعلُ

* * *

إيهِ هنانو حباكَ اللهُ جنتَه وجادَ طيبَ ثراكَ العارضُ الهطِلُ

جاهدتَ في الله لم تجزعْ لنازلةٍ فأنتَ للعرب في إقدامهم مَثَلُ

نم مستريحاً فقد أيقظتَ هاجعَنا بدعوة الحق يا ذا الراقدِ البطلُ

لقد كان هنانو المثل الأوفى في الإخلاص الناطق بالحق والصدق والرمز الباقي للزعامة القوية بجبروتها وعنفوانها وإبائها وإقدامها العنيف الثائر، ولقد كان الزعيم العظيم آية في عقيدته الصلبة وثباته القويم، وتجشمه المصاعب والمتاعب في سبيل حرية وطنه وسيادته واستقلاله.

وهذه قصيدة الشاعر الخالد (الأخطل الصغير) الأستاذ بشارة الخوري في تأبين الزعيم:

سقط السيفُ بعد طول العذابِ من يد المجد أحمر الجلباب

فهوتْ أمةٌ عليه تفديهِ بمنخوبِ شيبها والشبابِ

تتلوى تحتَ المصابِ وتُصغي لحديثِ الدموع في الأهدابِ

أبلغُ الشعر دمعةٌ تتلظى فوقَ خدٌ لا صفحة في كتابِ

* * *

أطغى البحر ذو العباب على العر ب فلفّ القصورَ بالأطنابِ

أم هو الحشرُ يوم زلزلتِ الأرضُ على صوت بوقها الصخّابِ

لا وربي بل ذاكَ مصرعُ إبرا شَرَقَتْ مقلةُ المنابر بالدمع

سألوا: من قضى فقلنا حسامٌ هيمَ هزَّ البلاد بالأوصابِ

بل لواءٌ من الكرامة في الذروة عربيُّ الأفعال والأحسابِ

بل كتاب في السماحة والأخلاق إرثُ الأحقاب للأحقابِ

صلـــــتْ عليـــــه أم الكتــــابِ		ورقُّ المحـــــــراب للمحـــــرابِ

ومـــشتْ خلـــف نعـــشه مـــشية الثكلـــى كبـــارُ الأمــــالِ والأرابِ

ســـال الـــسيلُ نفـــسَهُ: مـــا سـيولٌ		مــن انـــاس سـدت علـــيُّ شــعابي

أطرقـوا واجمـين فـي الحلـلِ الـسودِ		كاطيــــافِ جنـــةٍ فــــي ثيـــابِ

سـكرة الحـزن سكرةٌ لـيس يـصحو		المـــرء منهـــا مـــا دام فـــوقَ التـــرابِ

* * *

إي أبـــا طـــارق وعهـدك بالأيــام		عـهـــدُ الـكـفـــاح والأوصـــــابِ

أيَّ داءيـــــك كـــان أفتـــك بالجـــسم وأورى لثـــورة الأعـــصابِ

عزمـــة تقطـــعُ الحديـــدَ وجـــسمٌ		فـــي قمـيص مـن الـضَّنى والعـذابِ

تتلاقــــى عليـــه آمـــالُ شـــعبٍ		بـين دفــعٍ مــن دهرهـا وانجـذابِ

مـــا رأينـــا طيفـــاً أخـفَّ مــن الظـــل		علـــى كاهليـــه شـــمُّ الهـضابِ

كـم نحـولٍ يـشفُّ عـن نفـس جبـار		جـــريء الفعـــالِ ضـــخمِ الرغـــابِ

قـــوة الـــروح والعقيـــدةِ جـــيشٌ		مـن لهيــبٍ وقائـــدٍ مــن صـــوابِ

أيهــــا الــــسيفُ مـــا لـــسيفِ بنـــي حمـــدان فـــي قبـــره أليـــفُ اكتئـــابِ

أدَرى أيَّ مــــاردٍ مــــن معــــدٍ		زلّ مـــن جـــوه وأي عقـــابِ

لطمـتْ صـدرها لـه القلعـةُ الثكلـى		فرقـــتْ لهــا عيــونُ الـــسحابِ

وحنـــا قلبـــيَ الجـــريحُ عليهـــا		كحنـــوِّ النـــدى علـــى الأعـــشابِ

كيـــف أنـــسى يـــداً لهـــا وحبـــاءً		كـــان فيــه الفخــار مــلء إهــابي

أنـــا منهـــا وقلـــب لبنـــان فـــي قلبـــي		وأهدابــــه علـــــى أهـــــدابي

أخـــت مـــروان أيـــن محفلـــه فـــي الأمـــس بـــين الإكبـــار والإعجـــاب

تطبـــعُ الـــشمسُ قبلـــةً بـــين عينيـــه وتعطـــي يمينهـــا للركـــابِ

والمنايـــا علـــى رؤوس العـــوالي		تتلقـــى مـــن فيـــه فـصلَ الخطـــابِ

فـــي خميـــسين مـــن وقـــارٍ وحلـــمٍ		وربيعـــين مـــن نـــدى وثـــوابِ

والليـــالي ضـــواحكٌ والأمـــاني		ســـابحات علـــى الفـــساحِ الرحـــابِ

مـــا خـــلا الغيـــل مـــن دمـــشق إلـــى الـــشهباء مـــن حـــافزٍ ومـــن وثّـــابِ

وسلاحٌ من الحقوق المدمّاة ... نسيجُ القلوبِ والألبابِ

شهرت مثله فرنسا على الظلمِ ... فرنّته من دمٍ مخضابِ

* * *

يا دماءَ الشباب ما أنتَ إلا ... ذائبُ الطيبِ يا دماءَ الشبابِ

ادفقي رحمةً وأنساً وكوني ... جدولَ السفح أو هزارَ الغابِ

لا تضنّي على الحرابِ وإن آذتك ... بل عطّري رؤوس الحرابِ

لا لضعفٍ لكنْ لتبرئةِ الحق ... إذا رميمَ بين ظفرٍ ونابِ

قطرةٌ منكِ يا دماء على الحلمِ ... احتقار لغضبةِ القرضابِ

كم سياجٍ من الحديدِ تعفى ... وسياجٍ باقٍ من الآدابِ

* * *

وكانت كلمة المجتهد الأكبر سماحة الشيخ محسن الأمين من أروع الكلمات التي ألقيت في حفلة تأبين هنانو، إذ قال:

((إن الوطنية الصادقة التي حمل الزعيم الراحل مشعلها، والجهاد المقدس الذي قاد فيالقه، والإخلاص الذي تجسم فيه هو الذي حشد الجموع الزاخرة من أبناء البلاد التي اجتمعت على إكبار هذه النفس الجبارة والسير على تعاليمها الخالدة.

لقد عاش هنانو عيشَ البطل الذي لا يني لهول ولا يلين لكرب ولا يحجم عن عسير، وغالب الحياة مغالبة القرم في جسم يلوح كالخيال، وسقط في ميدان الجهاد الشريف بعد أن ناء جسده الواهي عن حمل هذه الروح الكبيرة.

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجسام

مضى إبراهيم هنانو بعد أن ملأ سمع الحياة وأملى على الناس دروساً في المفاداة والتضحية سوف تخلد في كل صدر وتتردد على كل لسان، وما هذه المآتم التي تقام في أنحاء البلاد العربية إكباراً للراحل العظيم إلا دليلاً على رسوخ هذه التعاليم في النفوس.

لم يكن إبراهيم هنانو ملكاً ولا حاكماً، ولا مثرياً يتزلف الناس بحبه، ولكنه كان عظيماً بنفسه، سامياً بروحه، كبيراً بإخلاصه، مفادياً بكل ما لديه في سبيل القضية التي وقف حياته عليها، وهكذا يكتب الخلود للعاملين، فرحم الله تلك الروح الكبيرة، وعوض الأمة بزعمائها خيراً)).

وهذه قصيدة الشاعر الأستاذ رشاد رويحة:

جنـودك أيـن أنـت مـن الجنـود ... أتـوا يتساءلون عـن العميـدِ
وفكرتـك التـي ناضـلت عنهـا ... نـضال رسـول إيمـان وطيـدِ
ورايتـك التـي خفقـت فكانـت ... شـعار جهـاد أحـرار مجيـدِ
وشـعب قـام منـك وقمـت منـه ... مقـام الوالـدين مـن الوليـدِ
وإخـوان بـررت بهـم وبـروا ... فمالـك لا تطـل علـى الوفـودِ
أأنكـرت الجميـع وكنـت فينـا ... وفـاؤك مـضرب المثـل الشرود
أم استنكرت واستهجنت منـا ... جهـاداً يـستحيل إلـى جمـودِ
وقـالوا: مـات إبـراهيم، كـلا ... فـإبراهيم عنـوان الخلـودِ
هنـانو والحيـاة جميـل ذكـر ... أفـوق جميـل ذكـرك مـن مزيـدِ
وحـسبك غايـةً فـي المجـد عـيش الأبـي وميتـة البطـل الـشهيدِ
بـلادك خلـف نعـشك يـوم ساروا ... بـه سـارت منكـسة البنـودِ
تحاشـاك الـردى وجهـاً لوجـه ... وكـان أمـس مـن حبـل الوريـدِ
فأضـمر غيلـة واسـرَّ غـدراً ... ودسَّ الـسمّ فـي الـداء الوئيـدِ
لقـد أبليـتَ فارقـد مطمئنـاً ... سـنأخذُ عنـك بالهـدي الرشـيدِ

* * *

دعـوا العبـرات تـسكبها الغـواني ... ووفـوا للعروبـة بـالعهودِ
فمـن حـقّ العروبـة أن تقوهـا ... عـوادي كـل شـيطان مريـدِ
ومـن حـقّ العروبـة أن تعيـدوا ... لهـا مـا كـان مـن ماضـي الجـدودِ

اشتداد المظاهرات وشراسة القوى الاستعمارية

٣٣

وفي ١٩٣٦/١/١٨ افتتحت السلطة الفرنسية عامها بإغلاق مكاتب الكتلة الوطنية في جميع المدن السورية، فلم يطق الشعب احتمال هذه اللطمه المباغتة، فأغلقت المدن السورية كلها في نفس اليوم معلنة احتجاجها على أعمال السلطة الغاشمة.

وزادت السلطة في شراستها إذ اختطفت في اليوم التالي السيد فخري البارودي من بيته ونفته مع المحامي السيد سيف الدين المأمون إلى الحسكة.

أما في حلب فقد دخلت السلطة منزل الدكتور حسن فؤاد، وضربت المجتمعين فيه من المواطنين، وأطلقوا الرصاص عليهم، كما ألقوا القبض على مئة وخمسين شخصاً أوثقوهم وساقوهم إلى السجن، وفيهم بعض قادة الكتلة الوطنية كجميل إبراهيم باشا، وحكم أكثرهم بالسجن سنة، وبالنفي سنتين.

وكان عدد من الشباب الوطني قد قاوم جنود السلطة وتصدوا لهم بالمسدسات وعلى رأسهم الثائر الصامد السيد حسين خربوطلي الذي إن رأيته اليوم، وقد تجاوز الرابعة والثمانين، علمتَ أن حملة المبادئ العالية نصيبهم منها أن يكونوا ضحاياها فقط، وبقدر تعاظم إخلاصهم يتعاظم حرمانهم فهل هذا عدل أو هل في هذا منطق؟!!..

وكان هذا المناضل العنيد قد بدأ نضاله بتأليفه منظمة الكف الأسود التي عملت حتى عام ١٩٣٦ كما قاتل في جسر الشغور.

وقد سجن وعذب مدة مجموعها تسع سنين، كما كان حوله رجال عرفوا بالشجاعة والحمية والتضحية، ولعل من أبرزهم السيد محمد الشياح، والحاج محمد الخطيب (زعرور) والأخير عذب وسجن ثلاث سنوات إثر مداهمة منزله وإلقاء القبض عليه وعلى المناضلين فيه.

القتلى والجرحى في كل مكان

خلال هذا الإضراب العام الذي تم في ١٩٣٦/١/١٨ واستمر قامت مظاهرات عمت المدن السورية فسقط سبعة قتلى في دمشق، وخمسة في حلب بينهم فتاة، وفي حماة سقط ثلاثة وعشرون، وفي حمص سبعة قتلى وفي دير الزور سبعة، أما الجرحى فقد زاد عددهم على الثلاثمئة.

وزجت السلطة ألوف المواطنين في السجون.

وفي ١٩٣٦/١/٢٨ تألف وفد من المواطنين لمقابلة المفوض السامي الكونت ده مارتل في الساعة ١١ قبل الظهر ولم تسفر المقابلة عن نتيجة وغادروا المفوضية بعد أن قدموا إلى المفوض قائمة بالمطاليب التي لا محيد عنها.

وتلا ذلك عريضة أخرى قدمها تجار دمشق في ١٩٣٦/١/٢٩ حول المطاليب الوطنية نفسها تقريباً.

إنهاء الإضراب وحالة البلاد عامة

جرت مقابلة بين وفد من دمشق والمندوب السامي دعا فيها الأخير إلى الهدوء واعداً أن القوانين ستعدل فاستجاب الزعماء لرغبة المندوب ودعوا الشعب إلى فتح المتاجر والأسواق في ١٩٣٦/٢/٢.

وعمدت السلطة إلى مكاتب الكتلة الوطنية ففتحتها، وفي اليوم التالي عادت إلى إغلاقها. كما عمدت الحكومة المحلية في نفس اليوم أي في ١٩٣٦/٢/٢ إلى

طرد ٨٦ طالبا من دمشق، و١٨ طالبا من حلب، واعتقلت الدكتور محمد السراج في ١٩٣٦/٢/٦ في حلب ونفته واعتقلت بعده الدكتور توفيق الشيشكلي من حماة وسجنته في مستشفى الشرفة لمرضه.

وأذاعت الكتلة الوطنية في ١٩٣٦/٢/٩ بيانا حملت فيه على السلطة الاستعمارية الغاشمة ونددت بسياستها الظالمة.

وراحت البلاد تتخبط في حالة من الاضطراب رهيبة، والاعتقالات قائمة على قدم وساق وقد طفح الكيل، وكلما تقدم الوطنيون أشواطاً في طريق التعاون والتفاهم للمضي نحو الهدف المنشود، وهو استقلال البلاد، أصدر المفوض بلاغات كاذبة مخادعة دون تبصر أو روية، والأمة صابرة، ولكنها تغلي كرهاً للمستعمرين، وهي تعلم أن أمامها قوة استعمارية لا يستهان بها، ولكنها لن تتهاون في المطالبة بحقها في حريتها واستقلالها، لأن المسألة تتعلق بمستقبل أمة، وحياة أمة، وشرف أمة مجيدة عريقة لها ماضيها الحضاري العظيم.

فها هي ذي البلاد العربية مجزأة، حتى سورية التي هي جزء من البلاد العربية مجزأة إلى دويلات لها وزارات وحكومات ورؤساء يسيرهم مستشارون فرنسيون هم الكل في الكل، والانتخابات معطلة والدستور معطل والمجلس النيابي مغلق، والضرائب عجائب، وموارد الدولة تذهب إلى المستعمرين، ودماء المواطنين تسيل في كل الساحات.

حرية القول مصادرة وكذلك حرية الاجتماع، وقتلى وجرحى ومعذبون ومسجونون ومضطهدون في طول البلاد وعرضها والدولة المستعمرة التي جاءت لبناء البلاد وإرشاد أهلها هي التي تبيد وتهدم وتدمر، وتستهتر بمطالب الشعب.

ولكن المفوض السامي الكونت ده مارتل كان يزداد عناداً ولؤماً يوماً بعد يوم.

احتجاج نقابات المحامين

وفي ١٢ شباط ١٩٣٦ قدمت نقابة المحامين بحلب عريضة إلى المفوض السامي أعلنت فيها أنها قد اختارت يوم (١٥) من شباط ١٩٣٦ موعدا لتنفيذ

إضرابها واحتجاجها على أعمال السلطة الجائرة، ولتعلن بذلك سخطها على الأساليب التي تدار بها البلاد من حيث حرمانها من استقلالها ووحدتها.

وقررت نقابات المحامين في دمشق وحوران وحمص وحماة ودير الزور والجزيرة الإضراب أيضاً في ١٩٣٦/٢/١٥ يوماً واحداً لنفس الغرض نقمة على الحالة التي بلغتها سورية والتي لم تعرف البلاد حالة أسوأ منها حتى في عهد استبداد الأتراك العثمانيين.

كما إنَّ البلاد أصبحت تدار من قبل موظفين صغار وكتبة عاديين يستخدمهم المفوض السامي دون أن يرجع في وضعها إلى إرادة غير إرادته هو.

أما الحرية الشخصية فقد دفنت منذ زمن طويل لأن المفوض السامي أصدر قراراً بتاريخ ١-١-١٩٣٦ أجاز لنفسه حق اعتقال الناس وتوقيفهم وإبعادهم عن مواطنهم وإلزامهم بالإقامة في أماكن يعينها هو، ونشأ عن ذلك ازدياد الاعتقالات الكيفية، والتعذيب الجسدي في دوائر الأمن العام المرتبطة بالمفوض السامي، كذلك انتهاك حرمة المساكن، فكان عمال السلطة الاستعمارية يدخلون أي المنازل شاؤوا في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار يقبضون على الناس في بيوتهم ويسوقونهم أمام القضاء الأجنبي.

وقد عطل المستعمرون حرية الفكر ومنعوا تشكيل الهيئات والجمعيات السياسية كلها في جميع أنحاء الدولة السورية، وخنقت الصحافة وروقبت المطابع، تحت طائلة عقوبات شديدة بين السجن والغرامات الباهظة.

وعلى الرغم من كل ما حل بالبلاد، فقد اجتمع رجال من دمشق بلغوا الستين رجلاً وألفوا وفداً قابل المفوض السامي ليدرس معه حالة البلاد الرهيبة، ويتعاون معه على إيجاد مخرج لها من هذا المأزق فاستقبلهم المفوض السامي بخشونة ومهانة وردهم على أعقابهم.

والحق أن سورية كانت أيامئذٍ تعيش تحت كابوس ديكتاتورية أقل منها ديكتاتورية (هتلر الألماني) أو(موسولوني الإيطالي).

وقد مني المفوض السامي بفشل عام في كل محاولاته.

وحاول أن يفرض معاهدة على المجلس النيابي فرفضها المجلس وقذف بها في وجهه.

ولكن لم يكن يهمه ذلك فموظفوه هم المصدّقون والمؤسسات والشركات الاستعمارية ملأت دماغه بالتضليل، هذا عدا عن جهله نفسية العربي وطموحه في ماضيه وحاضره، ولم يكن همه سوى الإنغماس في الملذات التي أغدقتها عليه جهات مختلفة.

أما دولته فهي أيضاً كانت تتخبط في سياستها الاستعمارية الشرسة ولهذا لم تعمل أبداً على إزالة أسباب الاضطرابات في سورية ومنح سورية حقّها في نيل حريتها واستقلالها.

تململ الأخوة العلويين من الوضع القائم

٣٤

وكان الأخوة العلويون قد نددوا بسياسة التمزيق التي سار عليها الكونت ده مارتل وطال عليهم أمد ابتعادهم وانعزالهم لذا فقد وجهوا كتاباً إلى المفوض السامي عن طريق الصحف، وقد جاء في هذا الكتاب:

((نحن العلويين في أنطاكية ما كنا ولن نكون راضين بتمزيق وحدة البلاد العربية، وإن كان هنالك من تدفعهم مصالحهم الذاتية إلى الرضا بهذه التجزئة فهم لا يمثلون الكتلة التي ينتمون إليها، وهي منهم براء))

ثم يضيف مرسلو الكتاب قائلين:

ولو اطلعنا على تاريخ العلويين واستعرضنا ما لهم من الماضي المجيد والأعمال الخالدة، والتضحيات الكبيرة في حقل القومية العربية لوجدناهم أبداً مناضلين عن الحق العربي، مستميتين في الذود عن حياض هذه الأمة وإعلاء شأنها.

وإن ننس لا ننس قيام العلويين في وجه الحروب الصليبية وكفاحهم المستميت في رد تلك الحملات الأجنبية، ودفاعهم الشديد عن سلامة البلاد. وما هذه المزارات التي يقدسها العلويون ويسمونها ((بالفدائية)) إلا قبور أولئك الشهداء الذين فدوا بلادهم بأرواحهم، واشتروا حرية أمتهم بدمائهم النقية. والتاريخ ينبئنا أن العلويين هم أكثر من ناضلوا في رد تلك الحملات

الأجنبية عن كيان الوطن العربي، كذلك لم يعرف العثمانيون يوماً أنهم استطاعوا أن يخضعوا العلويين لنفوذهم إلا يوم حملوا عليهم تلك الحملة الكبيرة وكسروهم فاجتمع على أثرها رؤساؤهم في منزل أحدهم وأضرموا النار فيه وماتوا ميتة النبل تحت لواء الحرية، وعافت أنفسهم الرضوخ للحكم الأجنبي، والبقاء في حياة ملؤها الذل والعبودية)).

وذيل الكتاب بتواقيع السادة: زكي أرسوزي، رمضان نجيب، إبراهيم فوزي، نادر نجيب، حسن زرقا، صلاح الدين أحمد سليمان حجي، محمد إبراهيم، وآخرين كثيرين.

والحقيقة التي لا ريب فيها أن هذه المنطقة من بلادنا، منطقة الجبل العلوي واللاذقية وباقي الساحل، هذه المنطقة الممتدة غربي البلاد من أقصاها إلى أقصاها تدين بعقيدة واحدة هي عقيدة الحرية والاستقلال التام، ولقد كانت ثورة الشيخ صالح العلي إحدى الثورات الطليعية الأولى في بلادنا والتي ذكرنا عنها الشيء الكبير.

ولقد زاد المستعمرون الطين بلة فبثوا المبشرين الدينيين في المنطقة العلوية، سلطانهم من سلطان السلطة يعدون من تبعهم وتنصر بالوظائف والمراكز، وأغرب من ذلك أن تعمل الحكومة المحلية في مساعدة هؤلاء المبشرين سراً وعلانية لتثبت أقدامهم في قرى الجبل.

ولكن هؤلاء المبشرين كانوا يجهلون بلا شك أن سكان هذا الجبل العلوي يؤثرون الموت على التخلي عن عقيدتهم الإسلامية لأن الشعب الإسلامي العلوي هو من صميم العرب والإسلام، وإن العلويين كانوا ولا يزالون أباة للضيم متمسكين بقوميتهم العربية وعقيدتهم الإسلامية، ووطنهم السوري.

وهب شباب وطنيون في اللاذقية، على رأسهم السادة: رشاد رويحة وأسعد هارون، وتوفيق هارون، وعدنان الأزهري يتصدون لتصريحات السيد (روبير ده كه) التي قدمها إلى جمعية الأمم بالنيابة عن سورية، وبينوا له أن فرنسا قد خيبت آمال العرب لأنها أساءت التصرف بالأمانة التي ائتمنتها عليها جمعية

الأمم من أمر السير بسورية إلى الأمام، معترفة أن سورية دولة مستقلة مفتقرة مؤقتاً إلى الإرشاد الذي عهدت به إلى فرنسا فمهمة فرنسا في سورية هي مهمة إرشادية لا غير.

والحقيقة أن المستعمرين أمعنوا في تجزئة البلاد تجزئة مشينة بالإضافة إلى ما نهبوه من الخزينة السورية والأموال المودعة لحساب سورية في المصرف العثماني بحجة أنهم يستوفون ديون الحرب، هذا عدا عن بوار الصناعة والزراعة والتجارة، وراحوا يمتصون دماء الشعب في كل مرافقه فالغنم للمستعمرين، وعلينا الغرم.

وهناك شباب وطنيون أيضاً من شباب اللاذقية هبوا يدعمون إخوانهم وكان على رأسهم ماجد صفية، وأدهم فوز، وأحمد شيخ خيمي وفؤاد ساعي، ومحمد مواهب نتيفة، حيث أرسلوا إلى (روبير ده كه) مندوبنا إلى جمعية الأمم، وهو مندوبنا دون أن نختاره نحن، أرسلوا إليه يطالبون حكومته بإعادة دستور الأمة الذي سنته الجمعية التأسيسية، وإعلان وحدة البلاد واستقلالها.

احتجاج البلاد العربية

تعالت الاحتجاجات من البلاد العربية، من مجلس الشيوخ في العراق، والمجلس النيابي العراقي وذلك في ١٣ شباط ١٩٣٦، وأضرب طلاب الجامع الأزهر في مصر في ١٥ شباط ١٩٣٦ احتجاجاً على ما يجري في سورية من مظالم.

ورفع احتجاج حول أحداث سورية من قبل اللجنة الدولية للدفاع عن السلم خلال شباط ١٩٣٦ موجهاً إلى جمعية الأمم في جنيف، وأضربت مدن لبنان وفلسطين احتجاجاً على أعمال السلطة في سورية في ١١ شباط ١٩٣٦.

واخذت وكالات الأخبار في العالم تنقل أخبار الأحداث الدامية في سورية وتذيعها في جميع أنحاء المعمورة.

وقاد السادة محمد جميل الجمل ومحمد سعيد صافي، وجمال فرحاني ويعقوب الحلبي وإخوانهم إضراباً في طرابلس يحتجون به على اعتقال الزعماء الشباب في سورية.

توقيف جميل مردم ونسيب البكري

في ١١ شباط ١٩٣٦ حضر الكونت ده مارتل إلى دمشق وأمر بالقاء القبض على السيدين جميل مردم ونسيب البكري باعتبارهما محرضين رئيسين وعلى إثر اعتقالهما تفاقم الاضطراب كما تكررت المظاهرات في المدن العربية في مختلف الأقطار في بغداد والقاهرة وعمان والقدس، واجتمع المجلس النيابي الأردني في جلسة خاصة، وأرسل مذكرة للحكومة المنتدبة يحتج فيها على ما حدث في سورية، وصلي على أرواح الشهداء الذين سقطوا في سورية صلاة الغائب.

الإضراب في فلسطين

في ١٢ شباط ١٩٣٦ تسلمت السلطة العسكرية إدارة الأمن العام وأذاع القائد الأعلى لجيوش الشرق الفريق (هوتزنجر) بياناً منع بموجبه التظاهرات وهدد بالبطش والقوة ومنع كل اجتماع يزيد على أربعة أشخاص.

واستمر القمع الدامي يرافقه إضراب عام شامل وإغلاق الأسواق من قبل الشعب الذي لم تخمد ثائرته، وتساقط القتلى خلال الكفاح في المدن كلها، ومظاهرات الطلاب لا تنقطع، وألوف العرب في الأقطار العربية الشقيقة يبرقون إلى حكوماتهم وإلى الحكومة الفرنسية وجمعية الأمم والحكومات الكبرى مستنجدين داعين لنصرة سورية الجريح.

وزادت السلطة الطين بلة حين عطلت في ١٤ شباط ١٩٣٦ صحف القبس والشعب في دمشق، والجهاد، والاتحاد في حلب، كمّاً للأفواه وتنكيلاً بالحريات.

ولكن كل ذلك لم يفت في عضد السوريين فصمودهم لا يزال كما هو لم ينقص ذرة واحدة، وهم يحتملون الأخطار والمكاره، ويقابلون النار بصدروهم مصممين على تحقيق أمانيهم في الحرية والاستقلال مهما كان الثمن غالياً وبقي الإضراب مستمراً على الرغم من مرور ثلاثين يوماً على بدئه وقد تعطلت الأعمال التجارية تماماً في الشرق كله لا في سورية وحدها.

بدء التفكير في إجراء مفاوضات بين سورية وفرنسا

٣٥

في ٢٠ شباط ١٩٣٦ اجتمع رئيس الشؤون الخارجية الفرنسية السيد باستيد بالسيد فلاندان رئيس الوزراء الفرنسي وتم الاتفاق بينهما على تأليف لجنة لدرس القضية السورية ووضع تقرير عنها.

واعترف السيد باستيد بأن السوريين إنما يطلبون الاستقلال والوحدة ولا شيء غيرهما، وقال في حديث له: نحن - الفرنسيين - علينا أن نتعاون مع سورية، وأن تكون علاقاتنا مع ذلك الشعب العريق بالمدنية قائمة على أقصى ما يكون من الاحترام والثقة، وقد تسنى لي أن أتحدث إلى النواب السوريين، وخاطبتهم بكلمة ((زملائي الأعزاء)) فتأثروا كثيراً لكلمتي وأعلنوا أمامي على الفور حبهم الصّادق لفرنسا، هذا مثال بسيط، ولكنه ذو مغزى عميق، ويجب ألا ننسى أن سورية ليست مستعمرة فرنسية بل هي بلاد مشمولة بالانتداب)).

ويبدو أن بعض الضمائر في الأوساط الفرنسية بدأت تستيقظ، وشرع رجال من سياسييهم يطرحون حلولاً للقضية السورية كما أخذوا يعملون علناً لحث السلطات الفرنسية على اجتناب الأعمال الوحشية الدموية وأن تعمل هذه السلطات على إعادة النظام النيابي وأن تعيد إلى الشعب كرامته، وثبت لدى هذه

الفئة أن ليس من مصلحة فرنسا في شيء أن تستمر أعمال القمع الوحشية في سورية.

أعمال لجنة التحقيق

سبق أن ذكرنا أن لجنة قد ألفتها الدولة الفرنسية برئاسة السيد باستيد رئيس لجنة الشؤون الخارجية في المجلس النيابي الفرنسي اتصلت بالسيد هريو رئيس المجلس فتلا عليها مستندات عديدة وأخباراً عن سورية كلها تدين المفوض السامي الكونت ده مارتل.

وقد تكلم السيد (لونجيه) فحمل على الكونت ده مارتل وتابعه النائب (بيزنت).

وفي نهاية الدراسات قدمت اللجنة تقريراً تقترح فيه باجماع الآراء - ما عدا صوتاً واحداً هو صوت النائب ((براندون)) - إنه من المحتم والمفروض تغيير مندوب فرنسا في سورية.

وأحيل تقرير لجنة الشؤون الخارجية إلى لجنة ما وراء البحار.

الإضراب الخمسيني

٣٦

وكانت قد تشكلت في دمشق لجنة وطنية للإشراف على مقاطعة شركة الجر والتنوير (الترامواي والكهرباء) وهي شركة أجنبية استثمارية، وذلك عقب حفلة التأبين التي أقيمت لذكرى الزعيم هنانو في ١٩٣٦/١/١٠ في دمشق، فاعتقلت السلطة رئيس اللجنة السيد فخري البارودي وتطورت الحوادث وتفاقمت حتى حل يوم ١٩٣٦/١/٢٠ حيث أضربت دمشق إضراباً عاماً شاملاً وأغلقت متاجرها ومصانعها وجامعتها ومدارسها الثانوية والابتدائية الرسمية والخاصة، وسارت مظاهرة ضخمة من جميع طبقات الشعب، وتصدت لدبابات السلطة وسقط بعض الشهداء، وسيق عدد كبير من المواطنين إلى المحكمة المختلطة يرئسها فرنسي وحكموا بالسجن والغرامة، **وسأل رئيس المحكمة غلاماً اُخذ متهماً بضرب إحدى الدبابات بحجر، قال له الرئيس بسخرية.. كنتَ تريد تحطيمها بحجرك، فأجاب الغلام ((أنا أعلم أن الحجر الذي بيدي لا يؤثر على السلحفاة الفولاذية المخيفة ولكني أردت أن أسمع أوروبا دوي هذا الحجر وصداه)).**

واضربت المدن السورية كلها في نفس اليوم، وشاركت المدن اللبنانية سورية في إضرابها، وتألفت لجان محلية كان عملها إمداد العمال الذين أصبحوا عاطلين عن العمل من جراء امتداد الإضراب بالمال والطعام.

واستمر الإضراب والناس مغلقون مرافقهم ومتاجرهم، والنفوس تزداد حقداً على المستعمرين، ونقمة على عتوهم وجبروتهم وظلمهم، فقد جندل جنود الاستعمار عشرات الشهداء حتى ليعجز القلم عن وصف الجو الحزين الذي كان يلف البلاد من أقصاها إلى أقصاها، فالأسى كان مخيماً في كل بيت وفي كل حي من كل مدينة وفي الريف.

وفي يوم ٢٥ شباط ١٩٣٦ داهمت السلطة بعض المحلات التجارية في حلب وضربت المصلين في المساجد، وأخذت تتحرى البيوت بيتاً بيتاً، وأغلقت بيت الأمة الكائن في سويقة علي، أمام مخزن البادنجكي.

وكانت السلطة الفرنسية قد أوقفت في ١٥ شباط ١٩٣٦ كلا من السادة سعد الله الجابري والدكتور حسن فؤاد، والمحامي الأستاذ نعيم الأنطاكي لرفضهم التوقيع على ورقة يتعهدون بها أن يفتحوا البلد.

وعجيب أمر هؤلاء المستعمرين، ترى هل يرضون لأمتهم ما يفعلون بالأمم الأخرى المنكوبة بهم؟!.. ولكن المستعمرين فقدوا العقول، والضمائر وروح العدل، والنيات الحسنة، والإنصاف، إنها مزايا لا يعرفها المستعمرون ومن لف لفهم فيا ويل الأمم المغلوبة والمبتلاة بالاستعمار.

كانت السيدة نباهة ابنة الزعيم هنانو تقيم مع والدها وأخيها طارق في بيت الأمة في حلب فأمرت السلطة الفرنسية بإخراجهما، وأرسلت عدداً من رجال الأمن ليحتلوا بيت الأمة مقر الكتلة الوطنية فاحتل رجال الأمن غرفة من المنزل الكبير وختموا على باقي الغرف بالشمع الأحمر.

وفكر أعضاء الكتلة في أن يتخذوا منزلاً آخر كمقر لاجتماعات الكتلة الوطنية فعرض الدكتور حسن فؤاد منزله، وهو منزل واسع يقع قرب باب النصر.

وأخذ الوطنيون يعقدون الاجتماعات في منزل الدكتور حسن فؤاد.

وعكف الشباب على شهود هذه الاجتماعات يومياً دون أن يحسبوا أي حساب للسلطة الفرنسية أو لقوى الأمن ورجال الدرك والشرطة.

وبعد مضي ثلاث ليالٍ على إغلاق بيت الأمة ذهب الثائرون السادة محمد شياح، وأحمد سريو، وعبد السلام أسود، ومحمد علي سريو، وحضروا الاجتماع مع بعض أبناء الشعب وكان السيد محمد نجيب باقي، وهو من الوطنيين الأوفياء الأجواد، حاضرا تلك الجلسة.

وتقرر في هذا الاجتماع ان يحتل الشعب بيت الأمة بالقوة، وانتدب لهذه المهمة السادة حسين خربوطلي قائداً للعملية، ومحمد شياح، وأحمد سريو، ومحمد علي سريو، ومحمد دهبي، وعزو الحجار، ونظمي الملقي وأخوه عبد الله، وعبد المجيد سيريس، ومصطفى حمصاني.

واتفق هؤلاء الفدائيون على الاجتماع في جامع العدلية ظهر اليوم التالي.

وفي الموعد المعين تم الاجتماع، وبعد صلاة الظهر صلى الفدائيون ركعتين على نية التوفيق وخرجوا دون أن يلفتوا الأنظار إليهم لأن العملية في حقيقتها عملية انتحارية لا يعلم أحد نتائجها.

وقبل وصول الجماعة إلى بيت الأمة بعشرة أمتار شعر بهم رجال الأمن، فهرب عدد منهم والتجأ إلى جامع الحاج موسى الذي يقابل مقر بيت الأمة هرباً من معركة لن يربحوها أبدا، وقد أيقنوا أن الفدائيين سيدمرونهم تدميرا ثأرا لأخوانهم الشهداء وانتصارا لقضيتهم.

ومضى الفدائيون قدما، فاستسلم رجال الأمن على الرغم من كثرتهم، وصودرت مسدساتهم وذخيرتهم، ولما امتنع أحد رجال الأمن عن تسليم مسدسه أصيب بجراح فاستسلم ودفع بمسدسه الحربي إلى الفدائيين.

وتابع الجماعةَ سيرهم بعد أن رفعوا الشمع الأحمر عن الأبواب. وكانت السلطة قد ارسلت قواتٍ كثيفة لنجدة رجال الأمن ولكن الذي ضرب كان قد ضرب.

واتجه الفدائيون نحو دار الدكتور حسن فؤاد، ليقدموا تقريرا شفهياً بالواقعة التي احدثت ضجة في المدينة، وأفهمت المسؤولين المستعمرين أنهم

ليسوا في مأمن من أيدي رجال الكتلة الوطنية والوطنيين جميعاً، وأنهم بصفتهم أعداء الشعب فإن مصيرهم المظلم ليس ببعيد.

وتكهرب الجو وازداد الإضراب قوة على قوة.

واستطاع السيد حسين خربوطلي أن يثبت للسلطات عند استجوابه أنه وجماعته ليس لهم ضلع في الحادث، وعجز رجال الأمن عن إثبات شيء ضد الفدائيين.

إذا الشعب يوماً أراد الحياة   فلا بدّ أن يستجيب القدر

لقد صدق أبو القاسم الشابي.. لقد أراد شعبنا الحياة فها هو يجعل استقرار الفرنسيين في بلادنا مستحيلاً، إن كل شيء في البلاد بات يكره المستعمرين يكرههم حتى العظم، ولامقام لهم في ديارنا.

وظل المستعمرون على سياستهم القمعية الرهيبة ومنع تحرك السكان وضرب كل تجمع بالقوة مهما كان هدف هذا التجمع، ففي ١٧ شباط ١٩٣٦ توفي السيد عطا العظمة وسمحت السلطة بتشييعه بموكب عادي سار فيه مرافق رئيس الجمهورية، ووزير العدلية السيد عطا الأيوبي، ورئيس مجلس شورى الدولة السيد حقي العظم، والسادة فارس الخوري ولطفي الحفار ونصوح البخاري، وبديع المؤيد، وأساتذة الجامعة.

وهاجم الجنود السنغاليون موكب التشييع، وأصيب وزير العدلية بضربات أثناء الهجوم، كما أصيب الآخرون، وبقيت الجنازة قرب جامع البساتنة حيث قام الآخرون بدفن الفقيد.

فصل السيدين فارس الخوري وأخيه فائز الخوري من الجامعة

في ١٩٣٦/٢/١٥ صدر قرار من المفوض السامي يقول فيه:

بناء على القرار رقم ٢٤٤٩ ...

ولما كان الشخصان المقصودان في هذا القرار قد اشتركا بموقفهما وحركاتهما في إثارة حركة اضطراب سياسي ظهر أن نتائجها كانت مضرة بصورة خاصة بطلاب الجامعة الذين تقع عليهما مهمة تثقيفهم وتنويرهم يقرر:

المادة الأولى: يفصل السيدان فائز الخوري وفارس الخوري الأستاذان في معهد الحقوق بدمشق من وظيفتهما اعتباراً من تاريخ وقف التدريس في الجامعة.

استقالة الوزارة التاجية

في ١٩٣٦/٢/٢٣ استقالت الحكومة التاجية.

في ١٩٣٦/٢/٢٤ تألفت وزارة جديدة برئاسة السيد عطا الأيوبي، وعضوية السادة أدمون حمصي للمالية، ومصطفى الشهابي للمعارف ومصطفى القصيري للأشغال العامة والاقتصاد، وسعيد الغزي للعدلية.

في ١٩٣٦/٢/٢٥ سافر المفوض السامي إلى بيروت منتظرا ما سوف يتمخض عن تبديل الوزارة، ولكنه لم يغير شيئاً من نواياه وخططه الاستعمارية ولا ينوي تغييرها.

ففي اليوم الذي استلمت فيه وزارة الأيوبي حكم البلاد صرح المفوض السامي في حديث له قائلاً:

((إن مهمة فرنسا في الشرق منذ عدة أجيال هي المحاماة عن العناصر المسيحية فوجودها للآن في سورية ولبنان هو النتيجة الطبيعية لهذه المهمة التاريخية.))

وظل هذا الرجل ينطق بأقواله صادراً عن ذهنية غربية حقاً مدعياً أن العقبة كانت عدم وجود مفاوض سوري يستطيع أن يدافع عما اتفق عليه.

ولكن الحكومة الفرنسية نفسها بدأت بتغيير موقفها. ففوضت عن طريق الكونت ده مارتل رئيس الوزارة أن يهيء الأسباب لإعادة الحياة النيابية، ويشرع بانتهاج سياسة ترمي إلى إقامة معاهدة بين فرنسا وسورية، مستوحاة من المعاهدة العراقية البريطانية، تمهد لدخول سورية في عصبة الأمم كدولة مستقلة ذات سيادة.

وكان الإضراب لا يزال مستمرا في طول البلاد وعرضها.

وفي ١٩٣٦/٢/٢٩ عقدت جلسة في بيروت في دار المفوضية حضرها المفوض السامي الكونت ده مارتل والسيد هاشم الأتاسي، والسيد (كيفر) نائب المفوض السامي والدكتور عبد الرحمن الكيالي، وفائز الخوري، وعفيف الصلح، ورئيس الوزراء السيد عطا الأيوبي مع وزرائه.

وبين السيد هاشم الأتاسي للمفوض السامي أنَّ سورية إنما تريد معاهدة صريحة في مفهومها وحدودها وحقوقها، كما عرض أن تجري مفاوضات المعاهدة في باريس مع الحكومة الفرنسية مباشرة، فوافق الطرف الفرنسي على ذلك.

وأخيراً تم الاتفاق على أن يذهب وفد مؤلف من خمسة أشخاص إلى باريس، ثلاثة من الكتلة الوطنية واثنين من أعضاء الحكومة وهما السيدان أدمون حمصي، ومصطفى الشهابي.

وتقرر أن يصدر المفوض السامي عفواً عاماً عن المحكومين السياسيين خلال يومين من تاريخ هذا الاجتماع، وأن تعلن الكتلة الوطنية إنهاء الإضراب بعد يوم واحد من تنفيذ العفو العام.

ثم دار الحديث بين المتفاوضين المؤقتين عن الوحدة وإعادة العلويين وجبل الدروز ولواء اسكندرون إلى سورية وإلغاء التجزئة الحالية، واعترف الجانب الفرنسي بأنه لا يمانع بتحقيق الوحدة.

وقد أثنى المفوض السامي على وطنية الشعب السوري ووقع الاتفاق على كل ذلك في ١ آذار ١٩٣٦.

في ١٩٣٦/٣/٢ أذاعت الحكومة بياناً إلى الشعب السوري أعلنت فيه ما تم الاتفاق عليه بين الجانبين الفرنسي والوطني، وفي نفس اليوم أذاعت الكتلة الوطنية بياناً عن الاتفاق وبينت بوضوح أن المعاهدة المرتقبة لن تقل بحالٍ من الأحوال عن المعاهدة العراقية البريطانية. وإن الحياة النيابية الحرة ستعود فور عودة الوفد المفاوض من باريس.

وابتهجت البلاد وعمت الفرحة وعاد المبعدون السياسيون، وخرج الوطنيون من السجون والمعتقلات، وكان الشعب في كل مكان يهتف بحياة الوطن والطاعة للكتلة الوطنية.

وتقرر إنهاء الإضراب الذي دعي بالإضراب الخمسيني لأنه استمر خمسين يوماً، وعين لذلك يوم الأحد ٨ آذار ١٩٣٦ حيث نزل الزعماء إلى الأسواق باحتفال شعبي في كافة المدن السورية، وأعلنوا فتح المتاجر وعادت حركة البيع والشراء إلى سابق عهدها.

وتآخى أبناء البلاد تآخياً قلبياً لم تشهد البلاد له مثيلاً، وقطعوا على المستعمرين قولهم ((إنما جاؤوا لحماية الأقليات)) ورد إخواننا المسيحيون هذا الافتراء الاستعماري بشدة ووطنية مثالية وكذبوا ممثل فرنسا في قوله حين قال ((إن مهمة فرنسا في سورية هي حماية العناصر المسيحية)).

لقد ردوا بصلابة قائلين: نحن مسيحيي سورية لسنا أقلية جنسية ولا أقلية حقوقية. فإن الدم الذي يجري في عروقنا، واللغة التي ننطق بها، والأصل والتاريخ المشترك تؤلف وحدة جامعة بيننا وبين مواطنينا المسلمين الذين كنا وإياهم سواسية في تحمل الضيم في الأجيال الماضية، ولا نزال كذلك إخواناً في العمل لإشادة وطننا الواحد، وإننا وإياهم متحدو الأماني، وأمانينا أن نرى بلادنا حرةً مزدهرة مستقلة ومعترف بسيادتها من قبل الدول.

تأليف الوفد المفاوض

أعلنت الكتلة الوطنية أسماء أعضاء الوفد وهم السادة: هاشم الأتاسي رئيساً، وفارس الخوري، وجميل مردم، وسعد الله الجابري أعضاء، وعين السيد أحمد اللحام خبيراً عسكرياً، والأستاذ نعيم الأنطاكي أميناً للسر، بالإضافة إلى مندوبي الحكومة السيدين: أدمون حمصي، ومصطفى الشهابي.

وصدرت المراسيم الجمهورية بتأليف الوفد المفاوض برئاسة السيد هاشم الأتاسي.

وفي ١٤ آذار ١٩٣٦ سافر الكونت ده مارتل ورئيس غرفته السياسية السيد (كيفر) إلى باريس عن طريق تركيا.

وفي ٢٢ آذار ١٩٣٦ سافر الوفد السوري المفاوض إلى باريس مودعاً بالثقة والآمال.

وفي ٢٥ آذار ١٩٣٦ مر الوفد السوري بإيطاليا فاستقبل فيها استقبالاً ودياً.

وفي ٢٦ آذار ١٩٣٦ وصل الوفد السوري إلى باريس، وقد استقبله عند نزوله من القطار المفوض السامي الكونت ده مارتل والسيد (سان كنتان) نائب رئيس القسم الشرقي في وزارة الخارجية الفرنسية، ومندوب عن وزارة الخارجية، والسيد بيير آليب، والسيد الفونس أيوب، وفريق كبير من الطلاب العرب والسوريين وجمهور من رجال الصحافة.

ويوم وصول الوفد إلى باريس عقد اجتماع في وزارة الخارجية حضره المفوض السامي.

وفي يوم السبت ١٩٣٦/٣/٢٨ استقبل الوفد من قبل السيد (فلاندان) وزير الخارجية ثم السيد (البير سارو) رئيس الوزارة الفرنسية.

وفي ١٩٣٦/٣/٢٩ استقبل الوفد رئيس الجمهورية السيد (البير لوبران).

وأقبلت شخصيات فرنسية سياسية منهم الجنرال (غورو) حاكم باريس العسكري وأول مفوض سام في سورية، والجنرال (ويغاند) والسيد (هنري بونسو) والكونت (روبير ده كه) وغيرهم.

ودارت المذاكرات التمهيدية بين أعضاء الوفد، ورجال وزارة الخارجية الفرنسية طيلة النصف الأول من شهر نيسان ١٩٣٦ ثم انتقلوا إلى المفاوضات بأسلوب هادئ تحاشى فيه كل من الطرفين أي اختلاف غير جوهري، وكان الوفد موحد الكلمة يعمل بروح وطنية عالية، ووعي كامل.

ومضى شهر أيار دون أية نتيجة غير أن وزارة (سارو) قد استقالت إثر الانتخابات النيابية في فرنسا وحلت محلها وزارة (ليون بلوم) وهو رئيس

الحزب الاشتراكي الوطني، وفي أوائل حزيران باشرت الوزارة الجديدة أعمالها.

الحالة في البلاد

أما في سورية فلم يكن يحدث ما يثير القلق سوى بعض الحوادث الطفيفة، فكانت الكتلة الوطنية تتصدى لها وتعفى آثارها قبل أن تستفحل كحادثة منع المسكرات في حلب. فقد عمد بعضهم إلى دعوة الناس إلى نبذ المشروبات الروحية وفي هذه الدعوة خير ولكنها تطورت إلى شيء من التهديد البسيط، وخشيت الكتلة الوطنية من أن يؤول ذلك إلى فتنة وشر وغايات أخرى فوقفت في وجهها فزال الخطر وانتهى الأمر.

وحادثة أخرى قتل فيها أحد جباة المالية وجنديان من رجال الدرك كانا معه وأرادت السلطة الفرنسية أن تتخذ من هذه الحادثة دليلاً على أن البلاد لا تزال متأخرة ولكن الكتلة الوطنية استطاعت أن تكشف الدافع إلى هذه الجريمة النكراء وهو مستشار العشائر الفرنسي.

وأخذ ضباط الاستخبارات يثيرون بعض القلاقل هنا وهناك ولكنهم لم يفلحوا في مساعيهم.

المعاهدة السورية الفرنسية

٣٧

في ٩ أيلول ١٩٣٦ وقعت المعاهدة بين سورية وفرنسا في (قصر الساعة) بباريس.

وفي ٢٧ أيلول ١٩٣٦ عاد الوفد السوري من فرنسا ماراً بتركيا وحين وصل القطار إلى محطة بغداد في حلب كان في استقبال الوفد الكونت ده مارتل المفوض السامي وأعوانه ومستشاروه العسكريون وفرقة من الجيش الفرنسي وفرقة من الدرك السوري ورجال الكتلة الوطنية وألوف لا تحصى من أبناء الشعب، ورجال الحرس الوطني الذين كانوا يشرفون على الأمن والنظام والكشافة والأعلام ترفرف في كل مكان والزينات تملأ الشوارع والحوانيت والدور والدوائر الرسمية، وتألفت لجنة الاستقبال وعلى رأسها السادة الدكتور عبد الرحمن الكيالي، جميل إبراهيم باشا، رشدي الكيخيا، ناظم القدسي.

وحضر وجهاء المدينة ورجال الحكومة، ورجال الكتلة الوطنية مع الوفود من كافة المدن والبقاع السورية، وكان يوماً مشهوداً ومهيباً.

وحين وصل الوفد السوري تقدم المفوض السامي الذي كان قد حضر خصيصاً من بيروت لاستقبال الوفد وتعانق مع رئيس الوفد السيد هاشم الأتاسي وتبادل المستقبلون التهاني مع كافة أعضاء الوفد، وسار الجميع على الأقدام حتى وصلوا إلى فندق بارون حيث استعرضوا مواكب الجماهير مدة أربع

ساعات. فقد مر سبعون ألف رجل بنظام عسكري رائع مع أعلامهم وراياتهم ولافتاتهم يهزجون والفرحة تملأ القلوب والجوانح.

وقد ألقيت قصائد عدة ترحيباً بالوفد السوري المناضل عند عودته، ولعل من أروعها قصيدة الشاعر الكبير الأستاذ حليم دموس التي قال بها:

على ضفافكَ لاح النصر يا بردى ... فصافح الوفد، بل هنئ به البلدا
وامسحْ دموعك، وابسم للأُلى فتحوا ... بابَ العرين وعادوا للحمى أسُدا
سلاحُهمُ من نسيج الحق لحمتُهُ ... وصوتهم من يقين المؤمنين غدا
فتحٌ مبينٌ وأيامٌ محجَّلةٌ ... عليهما علم استقلالنا عقِدا
ومن تكنْ كرجال الوفد غايتَه ... فكوثرُ الخلدِ يسقى أينما وردا
أدى إلى الوطن الغالي رسالته ... فما ونَى عزمه يوماً وما قعدا
وما انتهى ظفرٌ إلا إلى ظفر ... كالنسر يسمو إلى أجوائه صعدا

* * *

في هدأةِ الليل صوتٌ رن في أذني ... الله أكبر!.. هذا وفدُنا وفدا
وافى من الغرب نحو الشرق منتصراً ... من ضفة السين حتى ضفتَي بردا
من أرض باريس للفيحاء يحرسه ... بعد المهيمن شعبٌ قط ما رقدا
ومن تؤيده الأرواح لا عجب ... إن كان مقترباً أو كان مبتعداً
فسجلي يا دمشقُ اليوم سلسلةً ... من المفاخر لا نحصي لها عدداً

* * *

يا أيها الوفدُ يا من لستُ أذكره ... إلا ذكرتُ مضاء السيف منجردا
اليومَ بدءُ جهادِ العرب فاستبقوا ... إلى العلى، وأعدوا للعلى عددا
الأمس مر وهذا اليوم منطلق ... فما الذي ستلاقيه البلادُ غدا
أعيذكم من خلافٍ في سياستكم ... فربّ خلف رمى البغضاء والحسدا
حذار من نزعات السوء تضعفكم ... فمنكم الشعب يبغي قوةً وهدى
إن السفينة تجري وهي آمنة ... من العواصف إن مدّ الإلهُ يدا

* * *

استحلفُ القوم لا مستثنياً أحدا بالله، بالعرب، بالأحرار، بالشهدا
كونوا حديداً، وكونوا كتلة دحرت هوج الرياح فولت تطلب المددا
كأنما الشاعر الكندي خاطبكم بقافياتٍ لها بين القلوب صدى
بكى الشباب على ذلٍ وحين رأى حديد قمصانكم يومَ الجهاد شدا
وإنما الشعبُ جسم روحه فِرَقٌ من الشباب اكتسى من عزمه زَرَدا
والعلم قائده والحق رائده كالماء متحداً والجمر متقداً

ّ ّ ّ

يا سابقَ الوفد والأرواحُ تتبعه هذي جماهير قومي للبلاد فدى
كأنما البحرُ فوق البر مندفقٌ عواطفاً تسبق الأمواجَ والزبدا
قلْ للأحبة إن صحت معاهدة وفى لنا الغرب يا قومي بما وعدا
أخلصتمُ السعيَ في سرٍ وفي علنٍ وليس يذهبُ سعيُ المخلصين سدى

يقصد بالشاعر الكندي المتنبي الذي يقول:

مفرشي صهوة الحصان ولكن قميصي مسرودة من حديد

المعاهدة السورية الفرنسية يقدمها رئيس الوفد إلى الأمة السورية

أيها السوريون الأبرار

سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

لقد جاهدتم أقدس جهاد، وناضلتم أشرف نضال، وحملتم لواء الحرية والاستقلال، فأراد الله أن يتم عليكم نعمته فادركتم هذا اليوم، وهو من أيامكم الغُر، بل هو يوم من أيام العرب التاريخية المشهودة.

في هذا اليوم تعلن نصوص المعاهدة وقد ختمنا بها مرحلة طويلة شاقة من مراحل جهادنا في سبيل الاستقلال، هذا الاستقلال الذي طالما جاهدنا لإدراكه. توطدت أسسه بهذه المعاهدة، وهي كما ترون ضامنة لأمانيكم المشروعة وفاتحة أمامكم باب الحرية تلجون منه إلى حياة طليقة لا يسود في جميع نواحيها غير العدل والمساواة.

إن معاهدتنا هذه أقرت علاقاتنا مع دولة فرنسا إقراراً مستنداً على الحق والإنصاف ومستوحى من مبادئ حليفتنا الديمقراطية الحرة، وفيها مجال لجلاء الغامض من كفاءات السوريين وساحة فسيحة لانطلاق مزاياهم وما عرف عنهم تاريخهم المجيد من مقدرة ونبوغ، وهم في تعاهدهم مع دولة فرنسا الحرة مدعوون منذ اليوم إلى أداء رسالتهم التاريخية في خدمة السلم العالمي، والإنسانية المتمدنة.

إن هذه المعاهدة وضعت أساس السيادة والاستقلال ووطدت أركان الوحدة.

وسوف يكون لنا جيش وطني يحمي هذه المؤسسات في داخل البلاد وخارجها، ولا يضيرنا في شيء بقاء بعض القوى الفرنسية في موقعين من البلاد ريثما يتم لنا تأليف هذا الجيش الوطني المقدس، وليس في بقاء تلك القوى أي أثر من الآثار الماسة بالسيادة والاستقلال فهي باقية في بلادنا بموافقتنا، وبرضانا لأجل محدود، ولن يكون لها أي تدخل في شؤون البلاد، ولا أي اتصال بمجرى حياة الأمة وأمورها.

وإذا كنا لا نزال في مطلع حياتنا الاستقلالية، وكان يعوزنا في بعض النواحي الفنية رجال الاختصاص والفن فسوف نأتي بهؤلاء الخبراء من بلاد فرنسا حليفتنا الحرة وصديقتنا الكريمة لمساعدتنا في أعمالنا الإنشائية الدقيقة، ويتم ذلك بطلب منا ولا يكون لهؤلاء الفنيين إلا مهمة الخبراء الفنية المحضة.

وقد كان دستورنا الذي وضعته الجمعية التأسيسية سنة ١٩٢٨ نص على أن حقوق الأفراد والجماعات مضمونة ضمن حدود القانون، وذلك في عهد أخذناه على أنفسنا في دستورنا وأيدناه في معاهدتنا، وهكذا لن يكون في سورية طبقات ممتازة ولا أفراد ينعمون بامتيازات خاصة بل يكون السوريون سواء أمام القانون لا يميز أحدهم على الآخر إلا من حيث الكفاءة والإخلاص.

ومثل ذلك ما نص عليه دستور الجمعية التأسيسية من جهة إدارة بعض المناطق بأنظمة خاصة تتفق مع أحوالها الاجتماعية والثقافية، وما كان ذلك إلا لضمان رفاه السوريين، وكفالة سعادتهم ضمن حدود القانون ونحن نؤمل أن يكون من وراء هذا النظام وتطبيقه تشجيع لمن يبقى خارج نطاق الوحدة على الرغبة فيها والانضمام إليها.

أما القضاء فسيكون واحداً في سورية، واللغة العربية هي اللغة التي يتقاضى بها الناس تحت لواء العدل والمساواة مع حفظ حقوق الأجانب واحترامها.

ولا يسعني وأنا ألقي على المعاهدة هذه النظرة السريعة إلا أن أشير بكثير من الإعجاب والشكر إلى موقف رجال فرنسا الأحرار ذلك الموقف الكريم النبيل حين تخلوا عن نفقات الانتداب التي بلغت بضع مليارات، كما إنهم أدركوا موقفنا المالي الحرج فأطلقوا لنا حريتنا الاقتصادية، وهي كما لا يخفى ركن النهضة القومية، وأساس الحرية السياسية، فسنكون أحراراً في ضبط مكوسنا (جماركنا) وإدارتها، لا يسيطر علينا في ذلك إلا المصلحة الاقتصادية السورية.

هذا بعض ما في المعاهدة من مزايا وهي كما ترون أيها السوريون صك الحرية والسيادة والاستقلال مهرته الأمة بجهودها، ودماء شهدائها الأبرار، والوفد السوري الذي ائتمنتموه على هذا الموقف فخور جداً ومغتبط كثيراً بهذه العاقبة الطيبة والنتيجة المباركة، وهو يأمل أن تكونوا في المستقبل كما كنتم في الماضي عنوان الصبر والثبات ورمز التضحية والمفاداة.

واذكرو دائماً أن المعاهدة ليست غاية بل هي واسطة لرفاه الشعب وسعادة البلاد.

أيها السوريون

إن العالم أجمع ينظر إليكم في يومكم هذا ونحن لا نرتاب ولا يخامرنا شك أو شبهة في أن هذه الأمة ستثبت للشرق والغرب أنها جديرة بالاستقلال،

وقادرة على حمايته وصيانته، وذلك بالخطة التي تسلكها في العهد القريب، لا نخدع أنفسنا ولا نريد أن ينخدع أحد السوريين بحراجة هذا العهد وخطورته فهو مملوء بالمصاعب، محفوف بالمكاره، يتطلب أقصى الجهد لكبح جماح الشهوات وكبت النزوات والنزعات.

أيها السوريون

اليوم يومكم فقفوا وقفة الرجل الواحد، وذودوا عن استقلالكم وحريتكم بتضامنكم واتحادكم، ونبذ حفائظكم وأحقادكم، فنحن نباهي بكم الأمم، ونعلن على الملأ أجمع أنكم نلتم هذه النتيجة الباهرة بصبركم وجهادكم فهو فوز عظيم يزيد الشعب إيماناً ورسوخاً في عقيدته.

أيها السوريون

تنبهوا واحذروا وكونوا بالمرصاد، فالموقف السياسي العالمي في منتهى الخطورة، ولن يستقيم لهذه الأمة أمرها إلا إذا تراصت صفوفها في هذا اليوم العصيب، فإلى التضامن والاتحاد أدعوكم، وإلى التضحية والمفاداة استفزكم فهو يوم له ما بعده والعاقبة للصابرين.

دمشق الخميس ٢٢ تشرين الأول ١٩٣٦

رئيس الوفد السوري

هاشم الأتاسي

أعمال الفرنسيين وأنصار الانتداب لخلق الفتن بين أبناء البلاد

٣٨

لم يرتح الموظفون الفرنسيون في سورية وأنصارهم إلى إبرام معاهدة قد تقضي على مصالحهم وسرقاتهم واستغلالهم فتحركت بعض دوائر الأمن العام الفرنسي وضباط الاستخبارات، وعلى رأسهم الفريق (هوتزنجر) وبعض الفرنسيين وراحوا يتآمرون لخلق جو من الفتن والحوادث المفتعلة غير أن الكتلة الوطنية التي كانت في مستوى المهمة الملقاة على عاتقها كانت بالمرصاد لكل هذه الحوادث، فما هي إلا أن تحاول فئة ما بذر بذور الفتنة حتى تبادر إلى تهدئة النفوس واستئصال الشر والقضاء على الفتنة في مهدها، ومقاومة الدسائس.

ففي حلب - كما قدمنا - قامت فئة تحض الناس على منع المسكرات وهو أمر نافع دون شك فالخمرة ضارة بالجسم وبالحياة الاجتماعية كلها، غير أن الأسلوب الذي استعمل لمكافحة المشروبات هذه المرة كان أسلوباً يراد به إثارة الفتنة العمياء.

ففي ١١ حزيران ١٩٣٦ خطب أحد الناس في الجامع الأموي الكبير، واتهم آخر بأنه قبض مئتي ليرة ذهبية ليساعد أصحاب الخمارات على فتح خماراتهم وممارستهم بيع الخمور بحرية تامة.

وهو ادعاء يراد به الفتنة وصرف الناس عن المعاهدة، وإثارة الفتنة الطائفية، فبادرت الكتلة الوطنية إلى محاكمة هذا الرجل الذي خطب في الجامع الأموي، وكان عضواً في الكتلة الوطنية ففصلته بعد أن ظهر جلياً أن ادعاءه باطل من أساسه.

ووقعت حادثة أخرى أدهى وأمر وهي أن رجال المفوضية الفرنسية، وعلى رأسهم السيد (دافيد) مندوب المفوض السامي بحلب، أوحوا إلى بعض المواطنين فكرة تأليف جمعية تشكيلاتها شبه عسكرية في حلب والجزيرة غايتها الظاهرة الدفاع عن مصالح طائفية معينة، ولكن الهدف الحقيقي كان إثارة الفتنة في حلب والبلاد كلها.

كان أفراد هذه المنظمة يرتدون قميصاً أبيض فوق سروال أزرق، وكثر عدد المنتسبين إلى هذه المنظمة على الرغم من أن عدداً كبيراً من الشباب المنتسبين كانوا ولا يزالون أوفياء لوطنهم، ولهم من ثقافتهم وعلمهم وبعد نظرهم ما كان يمكنهم من معرفة ما يختبئ تحت هذه المنظمة من أهداف تخريبية مدمرة.

ونهضت الكتلة الوطنية، وعالجت موضوع هذه الفئة بحزم وأمانة ووعي، ولكن الأحداث تلاحقت، ففي ١١ ت١٩٣٦/١ مر أحد المواطنين بسوق الأحد - وهي سوق عامة تقام يوم الأحد - فاعتدى على امرأة كانت تبيع البرغل فتدخل الحاضرون، وتلاسنوا وتشاجروا، وتأخر رجال الشرطة عن حسم النزاع فقتل خمسة من الطرفين المتنازعين وجرح خمسة وعشرون شخصاً.

وعلى إثر ذلك تنادى كل فريق، ودعوا إلى السلاح، وكادت سيول من الدماء البريئة تهرق والأرواح تزهق لولا مبادرة رجال الكتلة الوطنية وعلى رأسهم الدكتور عبد الرحمن الكيالي والدكتور حسن فؤاد، والشيخ عبد القادر السرميني الذين ذهبوا بأنفسهم فوقفوا بين الجماعتين وصدوا كل فريق ومنعوا الجميع من ارتكاب أية حماقة إلى أن أقبلت قوى الدرك والشرطة ورجال الحرس الوطني وحالوا دون حدوث أي أمر مكروه غير الذي حدث.

وحُلَّت المنظمة المذكورة بعد أن تبين لأصحابها خطأ ما زعموه وما يحاولون القيام به، وثابوا إلى رشدهم وعادوا إلى صفوف الأمة، وكانت فتنة صرفها الله بحكمته وكرمه وعطفه.

الانتخابات العامة سنة ١٩٣٦

وجرت الانتخابات العامة في ١٤ ت٢ ١٩٣٦ في سورية ففازت قائمة الكتلة الوطنية.

إثارة قضية لواء الاسكندرونة

٣٩

وفـي هـذه الفتـرة الحرجـة مـن حيـاة الـبلاد أثـارت تركيـا قـضية لـواء الاسكندرونة، وطالب مندوبها في عصبة الأمم بعدم تصديق فرنسا على هذه المعاهدة حتى يبت في قضية اللواء.

وكان قد دعي المجلس النيابي للاجتماع في أوائل كانون الأول ١٩٣٦، وانتخب السيد هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية، وتألفت الوزارة السورية في ٢١ ك١ ١٩٣٦ برئاسة السيد جميل مردم وضم إليه وزارة الاقتصاد وعضوية سعد الله الجابري للداخلية والشؤون الخارجية، وشكري القوتلي للمالية والدفاع الوطني، وعبد الرحمن الكيالي للعدلية والمعارف.

وقبيل ذلك بأيام تألف وفد في ١١ ك١ ١٩٣٦ برئاسة الدكتور عبد الرحمن الكيالي وعضوية السيدين إحسان الجابري، وحسن جبارة للسفر إلى (جنيف) في سويسرا لملاحقة قضية لواء الاسكندرونة أمام عصبة الأمم، وكانت نسبة سكان اللواء يومئذ كما يلي: ٣٨% أتراك والباقون عرب وأرمن.

فلم تكن في اللواء يومئذٍ أكثرية تركية.

وعقدت جلسة عصبة الأمم بحضور الوفد السوري، وكان على راس الوفد التركي وزير الخارجية السيد رشدي أراس وذلك في ١٩٣٦/١٢/١٤.

عقدت الجلسة الثانية في اليوم التالي ١٩٣٦/١٢/١٥ وطالب الوفد التركي بفصل اللواء عن الحكومة السورية ومنحه الاستقلال، وهذا مخالف لقرارات عصبة الأمم حول اللواء.

ولم تصدر عصبة الأمم أي قرار، بل كلفت الفرقاء أن يجتمعوا في باريس للمداولة فيما بينهم، واجتمع الوفد السوري والوفد التركي بممثلي فرنسا الذين دافعوا عن حق سورية في لواء الاسكندرونة أمام عصبة الأمم بجانب الوفد السوري.

وفي ١٩ ك١ ١٩٣٦ جرى اجتماع تهميدي بين الوفد السوري وممثل فرنسا وغاب الوفد التركي.

وفي ٢١ ك١ ١٩٣٦ عقد اجتماع بين الوفد التركي وممثلي فرنسا وغاب الوفد السوري عن الاجتماع.

ولم تسفر هذه المذاكرات عن نتيجة إذ قال السيد شوفيل الفرنسي للوفد السوري: إن الأتراك يصرون على وضع لواء الاسكندرونة تحت تصرفهم ونفوذهم، وإن فرنسا ليست مستعدة لإهراق نقطة دم من جيشها إذا أثارت تركيا الحرب عليها في اللواء.

وأبلغ الفرنسيون الوفد السوري أنه بإمكانهم العودة إلى سورية لإبلاغ حكومتهم بما تم.

وعاد الوفد السوري حيث قدم تقريراً لحكومته في ٧ ك٢ ١٩٣٦ مبيناً فيه موقف الأتراك من قضية اللواء وأن الفرنسيين لن يقفوا موقفاً حازماً في هذه القضية وإن كانوا قد بدؤوا بدءاً صحيحاً حين دافعوا عن ضرورة بقاء اللواء سورياً أمام عصبة الأمم في ١٤-١٥/ ك١ ١٩٣٦.

والواقع أن سورية لم تكن مستعدة لمثل هذه المفاجأة القاسية فلم يمض على المعاهدة التي أبرمت بينها وبين فرنسا - ولما تصدق بعد - سوى أيام قلائل، وسيلغى الانتداب بموجبها بعد ثلاث سنوات، ولهذا فإن سورية لم تستطع أن

تعطي هذه القضية ما تستحقه، وتركيا مصرة على انتزاع اللواء، والصحافة التركية تلح على حكومتها بضرورة الحاق اللواء بتركيا، وعمدت إلى مناورة ساذجة فقد طالبت أولاً باستقلال اللواء حتى تتمكن هي بعد فترة من الوثوب عليه وإلحاقه بها.

وعمدت سورية إلى إرسال وفود أكثرها من حلب إلى اللواء لتقوية معنويات العرب هناك، وتشجيعهم على مقاومة الدعاية التركية، وسعت الحكومة السورية إلى سحب السيد (دوريو) وكيل المندوب السامي في اللواء الذي كان خصماً عنيداً لسورية وعوناً للدعاية التركية ولتحركات الأتراك ومن يسير معهم.

وعمدت الحكومة كذلك إلى عزل السيد حسني البرازي الذي عينته الدولة الاستعمارية حاكماً للواء وذلك بإعطائه إجازة صحية غير محدودة، كما عينت فرنسا السيد (غارو) سفيرها في مصر حاكماً للواء وكان هذا الرجل يقاوم نفوذ تركيا.

ونتيجة المداولات بين الجهات المعنية أرسلت لجنة إلى اللواء لدراسة أحواله ثم عادت إلى مرجعها في عصبة الأمم، غير أن تقريرها الذي رفعته لم يُعمل به.

وفي ١٧ نيسان ١٩٣٧ قدم رئيس الوزراء السيد جميل مردم تقريراً عن قضية اللواء بين فيه آخر ما تم في هذا الموضوع وأن السيد (ساندلار) السويدي مقرر قضية لواء الاسكندرونة قدم تقريراً إلى عصبة الأمم ووافق عليه مجلس العصبة ومنح فيه اللواء استقلالاً تاماً في أموره الداخلية على أن تقوم سورية بإدارة أموره الخارجية، وجعلت الإدارة الجمركية واحدة، وكذلك النقد (العملة)، وجعلت اللغة التركية لغة رسمية بجانب اللغة العربية، ووضع اللواء تحت مراقبة مجلس عصبة الأمم على أن يمثله فيه مندوب فرنسي وغير ذلك مما يشير إلى أن سورية لم تعد تحكم اللواء ولم يعد اللواء سورياً.

وأرسلت سورية وفداً برئاسة رئيس مجلس الوزراء إلى باريس لمعالجة قضية اللواء ولكن كل ذلك لم يجد نفعاً فلقد اختارت تركيا الفرصة المناسبة لإثارة قضية اللواء، لأن الحكومة السورية ليس لها في الحكم سوى أشهر قليلة ولم تصدق المعاهدة بعد.

وفي ٣١ أيار ١٩٣٧ اجتمع المجلس النيابي السوري وقرر عدم الاعتراف بكل ما يقرر في عصبة الأمم حول لواء الاسكندرونة. وأعلن أن كل محاولة رَمَت أو ترمي إلى نزع السيادة السورية عن جزء من الأراضي السورية خرق صريح لدستور أقرته عصبة الأمم نفسها، وإن الأمة السورية التي علقت على الضمير الدولي أسمى آمالها لا تعترف بأي حلٍ يمزق وحدتها. وأرسلت الحكومة قرار المجلس النيابي إلى عصبة الأمم، غير أن كل هذه المساعي الدبلوماسية لم تأت بأية نتيجة إيجابية.

وفي ٢٩ حزيران ١٩٣٧وافقت فرنسا على إلحاق اللواء بتركيا بحجة أن ذلك يضمن ولاء الأتراك للغرب ويحفظ مضائق الدردنيل والبوسفور.

وحين قابل رئيس الوزراء السيد جميل مردم الغازي مصطفى كمال رئيس تركيا يومذاك بحضور رئيس الوزراء عصمت أينونو وسفير فرنسا عدو سورية السيد (بونسو) الذي كان مفوضاً سامياً في سورية لم يظفر بأية نتيجة إيجابية.

وفي ٣٠ حزيران غادر المندوب الفرنسي السيد (دوريو) اللواء تمهيداً لتسليمه إلى تركيا.

وبذل الأتراك جهوداً عظيمة ليستميلوا بعض الأوساط الدولية إلى جانبهم، واشتروا عدداً من الصحف الاستعمارية الفرنسية، فأخذت تكتب المقالات مؤيدة المطالب التركية.

وفي ١٠ تشرين الأول ١٩٣٧ جاءت لجنة دولية للقيام بعملية إحصاء لمعرفة الأكثرية السكانية في اللواء فلم يتمخض عملها عن نتيجة مُرضية.

وكانت نذر الحرب العالمية الثانية تبدو واضحة في أوربا والعالم ولهذا فإن دول الغرب آثرت ضمناً أن تحتل تركيا اللواء.

وفي ١٦ ت٢ ١٩٣٧ زار اللواء وفد تركي للبحث مع السلطة الفرنسية في كيفية تطبيق الحلول التي اقترحتها عصبة الأمم.

ولم يطل الأمر كي تأخذ المؤامرة أبعادها الكاملة، ففي ٢٩ ت٢ ١٩٣٧ أنزل العلم السوري عن مباني الحكومة في اللواء.

ولم تسحب سورية مندوبها من اللواء على الرغم من أن الحوادث كانت تجري ضد آمالها في الاحتفاظ بهذا الجزء الغالي من سورية.

وفي ١١ ك٢ ١٩٣٨ أعلنت عصبة الأمم أن موعد الانتخابات في اللواء سيكون في ٢٨ آذار ١٩٣٨.

وتم الاتفاق بين تركيا وفرنسا وانكلترا على إلحاق اللواء بتركيا ولكن حتى ذلك الحين لم يتم ذلك عملياً.

ففي ١٧ آذار ١٩٣٨ اشترك نواب اللواء مع إخوانهم نواب الأقطار السورية الأخرى في جلسة المجلس النيابي، وكأن شيئاً لم يحدث في جو اللواء على الرغم من أن فكرة احتلال اللواء عسكرياً كانت قد درست على مستوى رئاسة الجمهورية ثم عدلت تركيا عنها.

وفي ٣ نيسان ١٩٣٨ دارت مذاكرات بين سفيرنا في أنقرة السيد عادل أرسلان وبين وزارة الخارجية التركية تمت بموجبها اتفاقية مبدئية على تقسيم اللواء بين تركيا وسورية فرضيت بها سورية لكنها لم تجب على تلك الاتفاقية بشيء، فظلت حبراً على ورق، ومن يدري أنه لو أرسلت سورية موافقتها فلربما وقفت تركيا موقفاً سلبياً لأنها تطمع في الحصول على اللواء كله.

ولعل أسوأ ما في هذه القضية أنها جاءت والبلاد تحت ظل معاهدة لم توقع بعد ولم ينفذ منها إلا الشيء اليسير فماذا تصنع سورية؟!.. وأي السهام ترد وهي لم تستعد بعد ولم تؤلف قوة تدافع بها عن نفسها وحدودها؟..

وفي ١٨ نيسان ١٩٣٨ وصلت اللجنة المكلفة بالإشراف على الانتخابات إلى اللواء، هذه الانتخابات التي ستقرر هوية اللواء وباشرت عملها في ٣ أيار ١٩٣٨.

وبدأ الأتراك في اللواء يجمعون أمرهم ويدعون الناس إلى تأييدهم ونشروا دعوتهم في صفوف العرب بالذات فرُفِضت الدعوة وهبَّ العرب في اللواء يدافعون عن عروبته، ولكنهم كانت تنقصهم الخبرة والتصميم، بالإضافة إلى أن سورية الأم لم تكد تضمد جراحها التي ما تزال دامية من جراء كفاحها الطويل ضد الاستعمار، والبلاد العربية الأخرى أكثرها يرزح تحت نير الاستعمار، والمستقل منها غير مكترث بالقضية.

وجرت محاولات لتمزيق الصف العربي في اللواء واستعمل التضليل والخداع تحت سمع اللجنة الموفدة من عصبة الأمم وبصرها.

وجرت الانتخابات في جو محموم قاس، فقد قتل الأتراك جنديين من رجال الدرك، وأخذوا يعتدون على القرى العربية وعلى الشباب العرب.

وارتكب زعماء الأتراك في ٢٦ أيار ١٩٣٧ جريمة اليمة في قرية (عيرانجي) العربية وهي تقع قرب الحمامات حيث قتل عدد من العرب وجرح آخرون دون ذنب جنوه.

ولا ندري لماذا وقف الفرنسيون من هذه الأحداث وأمثالها موقف المتفرج، وكان الأتراك كلما امعنوا في اعتداءاتهم على العرب ازداد الفرنسيون تقاعساً وانكماشاً واستذلالاً.

وقدم السيد (غارو) مندوب المفوض السامي استقالته لأنه لم يصبر على هذا الذي كان يجري فتسلم القومندان (كوله) السلطة الإدارية في اللواء إلى جانب السلطة العسكرية.

ولم يكتف الفرنسيون بمواقفهم المريبة في اللواء بل عمدوا إلى إثارة الفتنة في الجزيرة فتم اختطاف المحافظ السيد توفيق شامية.

وفي جبل الدروز اضطر المحافظ السيد نسيب البكري لمغادرة مقر عمله في السويداء، وأخذوا يثيرون الطوائف بمختلف الأساليب والسبل لتعكير صفو الأمن، وتدمير الجهود السلمية التي حققت المعاهدة التي وقعت بين فرنسا وسورية وهي -على نقائصها - كانت خيراً من لا شيء.

نتائج الانتخابات في اللواء وما تم بعد ذلك

وكانت نتائج الانتخابات على الرغم مما رافقها من حوادث الإرهاب بجانب العرب، فاحتج الأتراك وثاروا وهددوا باحتلال اللواء فبذل القومندان (كولـه) مندوب المفوض السامي مساعيه لترضية العناصر التركية، خوفاً واستخذاءً.

ولهذا فقد احتج العرب والأرمن في ٩ حزيران ١٩٣٨ لدى عصبة الأمم وشرحوا الموقف بجلاء وبينوا مواقف ضباط الاستخبارات الفرنسيين المشينة، وكيف أن السيد (غارو) نفسه قد صرح لممثلي اللواء بأن فرنسا، بناءً على طلب حليفتها بريطانيا العظمى وبعض الدول، ودفعاً لحدوث ما لا تحمد عقباه، عقدت اتفاقاً نهائياً بينها وبين تركيا لمنح الأتراك الأكثرية في اللواء مهما كلف الأمر.

غير أن كل هذه الاحتجاجات لم تجد نفعاً، وفي ٩ حزيران ١٩٣٨ صدر قرار بإبعاد مندوب الحكومة السورية السيد فؤاد مفرج عن اللواء بالقوة.

وفي ١٠ حزيران احتج الشعب في سورية على موقف الحكومة الفرنسية.

وفي ١٤ حزيران استقال العضو الانكليزي في لجنة الانتخابات احتجاجاً على التدابير الجائرة التي اتخذت خلال الانتخابات.

وفي ١٩ حزيران دخلت مفرزة تركية وعسكرت في اللواء إلى جانب الجيش الفرنسي بحجة حفظ النظام، وبموجب اتفاق مسبق بين تركيا وفرنسا.

وتألفت إدارة مؤقتة تشبه الدولة إلى حدٍ ما في اللواء على رأسها السيد طيفور سوكمان.

وفي ٢ ت٢ ١٩٣٨ أعلن مجلس حكومة اللواء تسميته باسم دولة (هاتاي) وما لبثت (هاتاي) أن انضمت إلى تركيا وأصبحت ولاية من ولاياتها وضاع اللواء من أيدي العرب.

ولأجل أن يكون ضم اللواء إلى تركيا ثابتاً ورسمياً فقد وقع اتفاق في ٢٤ حزيران ١٩٣٩ بين فرنسا وتركيا تقرر فيه سلخ اللواء من سورية وإلحاقه بتركيا.

وقامت المظاهرات في سورية احتجاجاً ولكن متى كان الاحتجاج يجدي؟!!.. إن الأتراك حين أرادوا اغتصاب اللواء ساقوا إليه فرقهم العسكرية، وهددوا الدولة المنتدبة (فرنسا)، وضيقوا عليها الخناق في المفاوضات فلم تجد مفراً من الاستسلام لمطالب الأتراك فتم انتزاع أجمل وأغنى بقعة عربية في الوطن العربي كله، واحتلت تركيا اللواء ونكلت بأهله العرب وشردتهم وطردت الكثيرين منهم فمضوا يضربون في الأرض تائهين.

أما في سورية الأم فقد عزلت فرنسا الكونت ده مارتل في ٢٧ ت١ ١٩٣٨ وعينت مكانه السيد (بيو) وتم على عهده سلخ اللواء نهائياً عن سورية، غير أن ده مارتل سلفه هو الذين أضاع اللواء بسياسته الملتوية، ففي ٢٣ حزيران ١٩٣٩ تم فصل اللواء رسمياً عن سورية وإلحاقه بتركيا.

وقد ناضل المسلمون والمسيحيون جنباً إلى جنب للاحتفاظ بعروبة اللواء، وخير مثال لهذا التضامن أنه حين منع الأتراك العرب من دخول المساجد في أنطاكية للصلاة فتح المسيحيون كنائسهم حيث قام المسلمون بأداء صلاتهم فيها.

وفي ٢٣ شباط من عام ١٩٣٩ حلت وزارة جديدة محل وزارة السيد جميل مردم (التي استقالت بسبب مماطلة الفرنسيين في تنفيذ بنود المعاهدة) برئاسة السيد (لطفي الحفار) الذي احتفظ بوزارة المعارف، بالإضافة إلى منصب الرئاسة، ومظهر رسلان للداخلية والدفاع الوطني، وفائز الخوري للمالية والشؤون الخارجية، ونسيب البكري للعدلية، وسليم جنبرت للاقتصاد الوطني.

وظلت سورية بلا قوة تحميها وتحمي استقلالها فاضطرت الوزارة إلى الاستقالة في ٦ نيسان ١٩٣٩ وتألفت وزارة جديدة برئاسة السيد (نصوح البخاري) الذي احتفظ لنفسه بوزارتي الداخلية والدفاع الوطني، وعضوية خالد العظم للعدلية والشؤون الخارجية، وحسن الحكيم للمعارف، ومحمد خليل المدرس للمالية وسليم جنبرت للاقتصاد الوطني.

ولم يطل عمر هذه الوزارة بل كانت كسابقتها إذ استقالت في ٣ تموز ١٩٣٩.

وفي ١٠ تموز ١٩٣٩ صدر قرار من قبل المفوض السامي الجديد السيد (بيو) بتأليف حكومة من المديرين يرئسها السيد بهيج الخطيب فاحتفظ لنفسه بمديرية الداخلية، وعضوية حسني البيطار لمديرية المالية، وعبد اللطيف الشطي لمديرية المعارف العامة، ويوسف عطا الله لمديرية الاقتصاد الوطني، وخليل رفعت لمديرية العدلية.

كما صدر قرار بتعليق الدستور، وتعطيل الحياة النيابية، وفي ٧ تموز استقال رئيس الجمهورية السيد هاشم الأتاسي وبذلك استطاع الاستعمار أن يقضي على الحكم الوطني الذي كان في حقيقته دور انتقال من حكم انتدابي إلى حكم استقلالي، وكانت مهمته تنفيذ المعاهدة التي أقرّها مجلسنا النيابي ولم يقرها المجلس النيابي الفرنسي مكراً وخداعاً، وكان مقرراً حسب المعاهدة أن تكون الفترة الانتقالية ثلاث سنوات ينتهي في نهايتها الانتداب جملة وتفصيلاً، وتدخل سورية عصبة الأمم.

غير أن استقالة السيد هاشم الأتاسي وضعت نهاية الحكم الوطني في هذه الفترة، هذا الحكم الذي انتظرته سورية أربعة قرون فلما ظفرت به البلاد تنكرت فرنسا وخانت وعودها وتحرك الجيران وتفننوا في الكيد، وتألب أعداء الأمة في الداخل وأجهزوا على الحكم الوطني، وقد بذلت الكتلة الوطنية كل جهودها بإخلاص لنجاح هذا الحكم فإذا كان قد ظهر من بعض أعضائها ما يؤاخذون عليه فهذا يمكن أن يحصل حتى في أرقى الأمم حضارة ومدنية وتقدماً.

وعلى كل حال فإنّ الألم على ضياع الحكم الوطني كان ممضاً والأسباب بعضها بارز، وبعضها خفي، ولعل رأس تلك الأسباب نقص الوعي القومي والسياسي في الشعب يومئذ، وجهل الناس لقواعد الحزبية الصحيحة إذ أن كثيرا من الناس كان يرى في انتسابه إلى أحد الأحزاب سعياً وراء مغانم ذاتية ليس غير، حتى أن بعضهم كان يرى أن الاستقلال معناه إطلاق يده بحيث يعيث في البلاد فساداً ولا يجوز لأحد ان يصده عن أي منكر يرتكبه، ألم يكن مناضلاً ومقارعاً للاستعمار؟.. والاستقلال عنده هو أن يحقق نزوات نفسه الفاجرة أو تحقيق مكاسب لا شرعية.

هذا عدا عن أن الزعامة القوية العاقلة قد تلاشت بعد وفاة هنانو بالإضافة إلى أن البلاد ليس لديها جيش تعتمد عليه في الملمات، وقصر نظر الأقليات، وانحراف بعضها عن الخط الوطني، والمعارضة الجوفاء التي لم يكن لها هدف سوى خدمة أغراضها بدون تحكيم العقل فيما تفعله، وعدم الترفع عن الأغراض الذاتية الرخيصة.

والذي يؤلم النفوس هو أن بعض الناس لا يزالون يفهمون الحكم أنه وسيله لجر المغانم والمكاسب الذاتية، والقليل جداً هم الذين يفهمون الحكم تبعات وتكاليف وأعباء وأمانة في الأعناق ليس بعدها أمانة.

ومسؤولية عظمى تقع على من بيده الحكم في البلاد.

والشيء المؤسف أيضاً أن تثار قضية الاسكندرونة في هذه الظروف الاستقلالية فتمتنع الوزارة الفرنسية عن تصديق المعاهدة الفرنسية السورية بسببها ثم يتمكن العسكريون الفرنسيون من إقناع حكومتهم بعدم تصديقها أبداً، ويتلاشى الأمل المعسول ويتسلم حكم البلاد مجلس المديرين الذي يرئسه السيد بهيج الخطيب يوم استقالة رئيس الجمهورية السيد هاشم الأتاسي وهو يوم ٨ تموز ١٩٣٩.

ومضت البلاد تتخبط في ظل حكم جائر تديره أجهزة تعمل بتوجيه مباشر من السلطات الفرنسية، وعاد التسلط الفرنسي إلى أسوأ مما كان عليه وكأن البلاد لم يكفها ما قاسته من البلايا والمحن.

نشوب الحرب العالمية الثانية

٤٠

أعلنت الحرب العالمية الثانية في ٢ أيلول ١٩٣٩ فازدادت وطأة الفرنسيين ثقلاً على البلاد. وفي ٣ أيلول دخلت انكترا الحرب إلى جانب فرنسا.

وظلت سورية تحت حكم مجلس المديرين الذي يرأسه بهيج الخطيب الذي أصبح مسيطراً على شؤون الدولة كلها، ينفذ مطالب المستعمرين حرفياً بنفس منحرفة عن أبسط قواعد الأمانة الوطنية.

وكانت الحرب العالمية الثانية قد اشتعلت كما قدمنا، ولم تصمد فرنسا طويلاً أمام الزحف الألماني الكاسح ففي ٥ حزيران ١٩٤٠ اخترق الألمان خط ماجينو واحتلوا الجهات الشرقية من فرنسا.

أما في سورية فإن السلطة الفرنسية زادت إمعاناً في اضطهاد الوطنيين فاعتقلت نجيب الريس صاحب القبس، وابن عمه منير الريس، والأمير عادل ارسلان، وعارف النكدي الذي كان أميناً عاماً لوزارة العدل.

واحتل الجيش الألماني مدينة نانسي الفرنسية في ١٨ حزيران ١٩٤٠، وقبلها كان قد احتل مدناً فرنسية أخرى، وفي ٢١ حزيران ١٩٤٠ هاجمت إيطاليا فرنسا على طول الحدود الإيطالية، إذ كانت قد أعلنت الحرب عليها في ١٠ حزيران ١٩٤٠ وسقط الجنرال بيو صريعاً في إحدى المعارك ضد الألمان وهو ضابط فرنسي عرفته حلب أول من عرفت من العسكريين الفرنسيين.

وزج المستعمرون عدداً من الوطنيين في السجون، ولم توفر مدينة من المدن السورية إلا واعتقلت منها عدداً، وازدادت ضراوة المستعمرين عندما أصبح الألمان على أبواب باريس.

وفي ٢٥ حزيران ١٩٤٠ استسلمت فرنسا وتوقف القتال بينها وبين ألمانيا وإيطاليا، وقامت في فرنسا حكومة فيشي وعلى رأسها المارشال (بيتان) فأرسلت فيشي مندوباً سامياً جديداً إلى سورية هو الجنرال (دانتز).

مصرع الدكتور الشهبندر

وفي أوائل تموز اغتيل المناضل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي كان قد اشترك في معارك الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥.

وفي ٩ تموز ١٩٤٠ أذاع الكولونيل (كويتو) قائد شرطة دمشق بلاغاً جاء فيه:

أوقف في ٩ تموز أحد قتلة الدكتور الشهبندر ويدعى سعيد الحصري الملقب هندي وهوبائع متنقل من سكان حي الشاغور بدمشق، وهو الذي كان يراقب دار الشهبندر في ساعة ارتكاب الجريمة، وقد اعترف اعترافاً كاملاً وأقر بأسماء المتواطئين معه وهم:

١ - أحمد بن محمد عصاصة من مواليد دمشق ١٩١٩ صانع موبيليا من سكان باب سريجة. وهو رئيس الجماعة.

٢- صالح شيخ معتوق من حي المهاجرين يشتغل مع والده، له دكان في سوق الخياطين.

٣- أحمد بن توفيق الطرابيشي الملقب بأبي قاسم كوّى طرابيش في سوق الحميدية من أهالي باب سريجة وعمره (٢٦ سنة).

٤ - عزة شماع، صانع احذية عند أبيه في سوق الحميدية من محلة السمانة عمره (١٨ سنة).

وألقي القبض على هؤلاء جميعاً وأخذ التحقيق معهم مجراه القضائي وحكموا بالإعدام ونفذ فيهم الحكم.

والشيء الذي أريد تبيانه هو أن هؤلاء الذين قتلوا الدكتور عبد الرحمن الشهبندر لم يكونوا على صلة برجال الكتلة الوطنية من قريب أو بعيد. بل كانوا يهتمون بقضايا الوطن من وجهة نظرهم، فرأوا أن جميل مردم وغيره من رجال السياسة يومئذ يستحقون الموت على ما فعلوه خلال حكمهم، وعندما فكروا في أنّ قتل النفس شيء حرمه الله تراجعوا قليلاً وانتظروا حلاً يقنعهم بأنهم لن يأثموا إذا ارتكبوا اغتيالاً ما.

وكان الدكتور عبد الرحمن شهبندر رحمه الله قد ضاق ذرعاً بالسياسيين الذين وضعوا أيديهم على كل شيء، وهو المجاهد الذي خاض الثورات مطّرح ومُهمَل، وعزَّ عليه ألا يكون على رأس إحدى منظمات الدولة وهو بها جدير. فمال بطبيعة الحال إلى بهيج الخطيب يؤيده ويؤيد من يحميه وهذا من مفارقات الأقدار.

المهم أن الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الزعيم الوطني الثائر أصبح يقترن اسمه مع بهيج الخطيب، يحضر الحفلات الرسمية إلى جانبه، ويخطب في المجتمعات مؤيداً السلطة بعد أن كان عدوها رقم واحد، ويؤيد رئيس مجلس المديرين، ويقول في نهاية إحدى خطبه:

إن كان رفضاً حبُ آل محمدٍ فليشهد الثقلان أني رافضي

وحين سمع أولئك الشباب ما تمثل به الشهبندر كبر عليهم الأمر وذهبوا إلى أحد من يؤمنون بدينه وورعه فوجه إليه أحمد عصاصة سؤالاً عن مسلمٍ يساعد الكافرين ويمتدحهم علناً ويقول: إذا كان حبهم كفراً فأنا كافر! ما هو حكمه في الإسلام فأجاب الرجل عن سؤال عصاصة: حكم الإسلام فيه أنه كافر.

وحينئذ اتفق الجماعة على قتل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وصار ما صار.

والأدهى من ذلك أن رئيس مجلس المديرين بهيج الخطيب لم يرق له أن يموت هؤلاء وتنطوي القضية دون أن يستغلهم استغلالاً يوافق هواه. فأتى

بأحمد عصاصة وقال له: يا أحمد أنت تعلم أن الحكم سيصدر عليكم قريباً وفي حالتكم لن يكون الحكم أقل من الإعدام، فإذا فعلت ما سأعرضه عليك سعيت في تخفيف الحكم إلى أقل مدة ممكنة، أو استصدرت لكم عفواً خاصاً من المفوض السامي وأنت تعرف أنني قادر على ذلك.

وفكر أحمد في النجاة من الموت ويا ليته فكر في ذلك قبل الاغتيال، ثم أجاب على عرض رئيس مجلس المديرين بالإيجاب.

قال له بهيج: لا أريد منك سوى أن تقول أن بعض رجال الكتلة الوطنية هم وراء حادثة اغتيال الشهبندر، وذكر له أسماء جميل مردم، سعد الله الجابري، لطفي الحفار، شكري القوتلي، وقال له يمكنك أن تقول أن الشخص الذي كان يتصل بكم هو عاصم النائلي، رئيس غرفة جميل مردم عندما كان رئيساً للوزراء.

ونفذ أحمد عصاصة ما عرض عليه بهيج الخطيب بالحرف فأرسلت مذكرات جلب للسادة المذكورين فهرب جميل مردم وسعد الله الجابري ولطفي الحفار إلى العراق خوفاً من أن يعتقلوا ويهانوا وبقي شكري القوتلي الذي أخذت إفادته دون أن يعتقل.

وفشلت طبعاً خطة رئيس مجلس المديرين لأن القرائن كلها والاعترافات الأولية الثابتة والصادقة لم يكن فيها مطعن ولذا سقطت الاتهامات من نفسها.

وغريب جداً أن يعمد رئيس الدولة إلى مثل هذه التدابير التي هي أبعد ما تكون عن المروءة والضمير النقي. فلماذا يلجأ إلى ضروب من الظلم والكيد ظننا أننا تخلصنا منها فور القضاء على الحكم العثماني الظالم، ففي تلك الفترة كانت أمثال ذلك الكيد واللؤم ممكنة ومتوقعة، ولكننا بعد أن تخلصنا من حكم الظالمين فلماذا ظللنا نمارس الظلم نفسه؟!

ولأجل المقارنة فقط أورد هذه الحادثة كمثال على مظالم تلك العهود أيام حكم العثمانيين تلك هي حادثة مقتل أسعد باشا العظم.

كان والد أسعد باشا العظم من ريف حماة من كبار الأغنياء، وقد كان والياً على ولاية دمشق عدة سنين فبنى فيها قصر العظم المشهور الذي هو اليوم متحف التقاليد الشعبية.

كان رجلاً إدارياً استطاع، وهو أمير للحج، أن يقود قافلة وحجاج الشام في أمان من عدوان البدو، إذ تمكنت بينه وبينهم عرى المودة والصداقة فأحبوه لكرمه وأخلاقه فحفظ بذلك قوافل الحجاج من القتل والنهب.

وفي سنة ١٧٥٧ صدر أمر سلطاني بنقل أسعد باشا إلى حلب ونقل والي حلب راغب باشا إلى الشام، وكان الأخير عالماً كبيراً كما جاء في تاريخ الغزي المسمى (نهر الذهب في تاريخ حلب).

وكان من عادة الدولة يومئذ أن تعهد بإمارة الحج إلى من تسند إليه ولاية الشام، فأحب راغب باشا أن يحتاط لأمره، فكتب إلى أسعد باشا يعرض عليه أن يبيعه ما لديه من إبل وخيام وسواها من لوازم الحج التي لم يعد أسعد باشا بحاجة إليها بعد أن أصبح والياً على حلب ومن مصلحته أن يتخلص منها.

لكن أسعد باشا رفض أي يلبي طلب راغب باشا وأجابه على رسالته إجابة خشنة على غير عادته، فلما قرأ راغب باشا جواب أسعد باشا ثار غضباً، وآلمه الأسلوب الذي كتب به الرفض، ففيه امتهان لشخصه وانتقاص لقدره ولكنه كتم ألمه في نفسه منتظراً فرصة للانتقام والغدر.

ووصل إلى علم راغب باشا أن الباب العالي (أي مقام السلطان) يعد مرسوماً بتعيينه في وظيفة سامية في حاضرة الخلافة غير أنه أمر رجاله بالاستعداد للسفر إلى الشام، وخلال عمليات الاستعداد جاء سلاحدار السلطان ليبلغ راغب باشا أنه رفع إلى رتبة الصدارة العظمى، وهي أرفع رتبة في الدولة، وغدا راغب باشا في مكان السلطة الرئيسية.

ووصل أسعد باشا إلى حلب وتسلم منصبه فيها، وكان الرجل إدارياً حازماً، وحاكماً مصلحاً قل مثيله في تلك الأيام، وعينت الدولة العثمانية والياً تركياً على الشام كان ضعيف الإدارة قليل التجربة فهاجم البدو قافلة الحج وظن

رجال السلطان أن هذا الحادث ليس بعيد التأثر بالوالي السابق أسعد باشا العظم. وأن له ضلعا في الحادث، وراحت الأقوال التي تحمل طابع الاتهام غير الصحيح تتردد هنا وهناك، واستطاع الصدر الأعظم راغب باشا أن يوغر صدر السلطان على أسعد باشا.

بعد أشهر نقل أسعد باشا والياً إلى مدينة سيواس في وسط الأناضول فضج الناس في حلب وأظهروا استياءهم وغضبهم، واستجابت السلطة لرغبتهم فأبقت أسعد باشا في منصبه مؤقتاً تنتظر الفرصة المواتية لنقله.

ومرت أشهر أخرى نقل في نهايتها أسعد باشا والياً إلى سيواس.

وباشر عمله الإداري بكفاءة نادرة وأقبل على عمله بهمة وحزم وإخلاص.

وفجأة دعي أسعد باشا إلى اسطنبول حاضرة السلطنة للاستعانة بآرائه وتجربته، فقد هاجم البدو قافلة الحجاج الشاميين ونهبوها وقتلوا عدداً من الجند المرافقين للمحمل الشريف.

ونقل رسالة ولي الأمر رجلان من حرس السلطان الخاص المعروفين بـ (بالبستانجيلر) واستجاب الرجل لدعوة رجال الدولة وأمر بإعداد لوازم السفر والاستعداد للسفر إلى العاصمة.

وغادر أسعد باشا سيواس مقر ولايته صحبة الرسولين وجماعة صغيرة من رجاله.

وفي الطريق إلى العاصمة كان الرسولان يبالغان في خدمة أسعد باشا ورعايته، وحين وصل الركب إلى قرية قريبة من (بروسه) عرضا على الباشا أن ينزل فيستريح ويستحم في حمامها.

ووافق أسعد باشا على الفكرة وقد انهكته الرحلة وما لقيه خلالها من إرهاق وهو شيخ قد أدركته السن.

ودخل أسعد باشا الحمام ودخل معه الرسولان للعناية به وليكونا تحت أمره.

وخلع الوالي ثيابه فغدا عارياً إلا من (إزار) عقده على وسطه، وفجأة ضربه أحد الرسولين السلطانيين على رأسه، فطرحه على الأرض فاقد الشعور، وذبحه الثاني واحتز رأسه ثم حمل الرسولان الرأس ومضيا به إلى من أرسلهما.

وصودرت أموال أسعد باشا الموجودة في دمشق وممتلكاته كلها.

هذه صورة من الخسة والغدر ما زالت تتكرر، فالاغتيال السياسي تستمر فصوله الكريهة، على مر الأيام برغم خسته ونذالته، بل هناك ما هو أدهى، إنه هذا الظلم الصارخ الذي يقتل فيه البريء، ويُتَّهم الآمن دون أن يرتكب ما يبرر اتهامه، وسوق الأبرياء إلى السجون أو إلى ساحات الموت.

ألا قاتل الله السياسة إنها ليس لها مبدأ ولا شرف، ولا ضمير، متلونة كالحرباء، خائنة نذله، لا تقيم وزناً للمروءة ولا تعترف بأي مبدأ أخلاقي، فكان مكيافيلي صاحب كتاب (الأمير) الذي أقر مبدأ (الغاية تبرر الواسطة) يعيش في كل العصور.

إنني أكره الظلم مهما كان الثوب الذي يرتديه والصورة التي يتبدى فيها، فلقد ذقت طعمه إذ حكم عليَّ الفرنسيون بالسجن عامين مع الأشغال الشاقة ظلماً وعدواناً، وشهد على اتهامي أربعة من الشرطة عملاء الاستعمار وقد اعتذر لي بعضهم وندم فكان إذا رآني أسرع إلى تقبيل يدي تائباً مستغفراً طالباً مني أن أعفو عنه، ولقد عفوت عنهم، فليس هؤلاء سوى ضحايا يحركهم عدو الشعوب الأكبر الاستعمار.

ولعلّ أعظم الدوافع التي تدفع بعض الناس إلى ارتكاب الظلم والغدر هو الطمع والشره إلى المال أو للحصول على منصب وإني لا أزال أذكر رجلاً من رجال الشرطة أسلم أخاه المحكوم بالموت إلى حبل المشنقة طمعاً في الحصول على وظيفة شرطي، وقد عينه الفرنسيون شرطياً بعد إعدام أخيه.

وخلال الحكم العثماني الأسود انقسم الناس في البلاد إلى انكشارية، وسادة، فالانكشارية كانوا أعوان السلطة العثمانية، وكانوا كما وصفهم مؤرخ

معاصر (خيولاً جامحة تطفر حرة طليقة في مراعي الفوضى) ومن هؤلاء كان يتألف جيش الدولة.

وكان الانكشارية في أول نشأتهم مثالاً للجيش النظامي الباسل، الذي استطاع أن يستولي على مساحة واسعة من أوروبا وأقرّ سيطرة الدولة العثمانية على بقاع واسعة من الأرض.

ولست أريد التوسع في تاريخهم إذ ليس ذلك من أهداف هذا الكتاب، ولكني أريد أن أذكر قصة واحدة تدل على لؤمهم وشراسة طباعهم، ففي عام ١٧٩٧ (كما ذكر الغزي في كتابه نهر الذهب الجزء الثالث) أن معركة جرت بين الانكشارية والسادة في حلب التجأ في نهايتها السادة إلى جامع (الطروش) فحوصروا فيه حتى أشرفوا على الهلاك فطلبوا الأمان فأمنهم الانكشارية، وفتحوا أبواب الجامع، فما كان من الانكشارية إلا أن فتكوا بهم حتى أن انكشارياً ظفر بأخيه السيد فَهَمَّ بقتله، فتوسل أخوه أن يغيثه بجرعة ماء قبل أن يفتك به، فما كان من شقيقه إلا أن بال على فمه ثم قتله.

الفيشيون في سوريا

٤١

ظلّ الفيشيون في سورية عاماً كاملاً يمثلون في بلادنا دولتهم الذليلة التي ترزح تحت نير الاحتلال الألماني، ومع ذلك كانوا يعاملوننا بخشونة وفظاظة وكأنهم لم يكونوا يرزحون تحت جزمة الاحتلال الألماني والإيطالي.

وفي أوائل شهر حزيران ١٩٤١ دخلت الجيوش البريطانية سورية ومعها فرقة من قوات فرنسا الحرة وهو الاسم الذي أطلق على الحكومة الفرنسية في المنفى والتي كان يرئسها الجنرال ديغول وكانت القوة التي دخلت سورية بقيادة الجنرال (كاترو) وقد طردت قوات (فيشي) من سورية.

وفي ٨ حزيران ١٩٤١ أعلن الجنرال (كاترو) في بيان أذاعه استقلال سورية ولبنان وفي ٢٨ أيلول ١٩٤١ عاد الجنرال - وقد أصبح مندوباً سامياً لفرنسا الحرة في سورية - فأعلن استقلال سورية التام وسيادتها وعين السيد تاج الدين الحسني رئيساً للجمهورية، وكان هذا التعيين أسلوباً غير دستوري.

وكانت قد تألفت وزارة خلفت حكومة المديرين وذلك في ٣ نيسان ١٩٤١ برئاسة السيد خالد العظم للرئاسة والداخلية، وعضوية: حنين صحناوي للمالية، وصفوة قطر آغاسي للعدلية، نسيب البكري للاقتصاد الوطني، محسن البرازي للمعارف.

وكانت هذه الوزارة قد ألّفت قبل دخول الحلفاء إلى سورية ولهذا فإنها استقالت في ١٥ أيلول ١٩٤١.

وتألفت وزارة أخرى برئاسة السيد حسن الحكيم في ٢٠ أيلول ١٩٤١ واحتفظ لنفسه بوزارة المالية، وأعضاؤها السادة: زكي الخطيب للعدلية، فائز الخوري للشؤون الخارجية، بهيج الخطيب للداخلية بالوكالة، فيضي الأتاسي للتربية الوطنية، عبد الغفار الأطرش للدفاع الوطني، محمد العياش للاقتصاد الوطني، منير العباس للأشغال العامة، حكمت الحراكي للإعاشة.

واستقالت هذه الوزارة في ١٨ نيسان ١٩٤٢ لتخلفها وزارة السيد حسني البرازي التي ألفت بتاريخ ١٨ نيسان ١٩٤٢ برئاسته محتفظاً بوزارة الداخلية إلى جانب الرئاسة، وأعضاؤها السادة: فائز الخوري للمالية والشؤون الخارجية، الأمير حسن الأطرش للدفاع الوطني، حكمت الحراكي للإعاشة، خليل مردم للمعارف، راغب الكيخيا للعدلية، محمد العياش للاقتصاد الوطني، منير العباس للأشغال العامة، منير العجلاني للدعاية والشباب.

وكانت البلاد تعيش تحت الحكم الفرنسي المباشر تقريباً على الرغم من إعلان استقلالها وسيادتها فهذه شكليات لم تمس الجوهر أبداً، فالمستعمرون هم المتحكمون في البلاد والعباد.

وفي ٨ كانون الثاني ١٩٤٣ استقالت وزارة السيد حسني البرازي لتخلفها وزارة برئاسة جميل الألشي في ٨ ك٢ ١٩٤٣، واحتفظ الرئيس لنفسه بوزارة الداخلية، وأعضاؤها هم السادة: فائز الخوري للشؤون الخارجية، الأمير مصطفى الشهابي للمالية، منير العجلاني للشؤون الاجتماعية، الأمير حسن الأطرش للدفاع الوطني، منير العباس للأشغال العامة والعدلية بالوكالة، حكمت الحراكي للإعاشة، محمد العايش للاقتصاد الوطني.

وبعد تأليف هذه الوزارة بأيام توفي رئيس الجمهورية الشيخ تاج الدين الحسني بعد مرض قصير فنشأت عن وفاته المفاجئة أزمة سياسية واضطرابات لهذا استقالت الوزارة وكلفت السلطة الفرنسية السيد عطا الأيوبي بتأليف وزارة

انتقالية تشرف على انتخابات دستورية، فألف السيد عطا الأيوبي وزارته في ٢٥ آذار ١٩٤٣ كما قام باعمال رئيس الدولة، وأعضاء الوزارة هم السادة: الأمير مصطفى الشهابي للمالية والاقتصاد الوطني والإعاشة (وهذه الوزارة الأخيرة أوجدتها ظروف الحرب) فيضي الأتاسي للمالية والعدلية والشؤون الاجتماعية، نعيم الأنطاكي للشؤون الخارجية والأشغال العامة.

وجرت الانتخابات العامة وفاز فيها الوطنيون وعادت الحياة النيابية إلى البلاد، وانتخب السيد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية في ١٧ آب ١٩٤٣.

وفي ١٩ آب ١٩٤٣ عهد رئيس الجمهورية إلى السيد سعد الله الجابري بتأليف الوزارة فألفها على النحو التالي:

سعد الله الجابري للرئاسة، جميل مردم للشؤون الخارجية، لطفي الحفار للداخلية، نصوح البخاري للمعارف والدفاع الوطني، خالد العظم للمالية، مظهر رسلان للأشغال العامة والإعاشة، توفيق شامية للزراعة والتجارة.

وعمت الفرحة البلاد من أقصاها إلى أقصاها فالحكم الوطني عاد إلى البلاد قوياً مهيباً، واستلمت الحكومة صلاحياتها كدولة مستقلة، وعقدت اتفاقية نقل المصالح المشتركة (الجمارك وغيرها) في ١٩٤٣/٢/٢٢ وطلبت سورية عن طريق وزارة خارجيتها إلى الدول الأخرى الاعتراف بها، واستجابت لها عدة دول منها الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية، إذ اعترفتا باستقلال سورية في ٢٥ تموز ١٩٤٤ والصين وغيرها من الدول.

وفي ٧ ت١ ١٩٤٤ وقع ميثاق الجامعة العربية في الاسكندرية بمصر واعتبر نافذ المفعول في ٢٢ آذار ١٩٤٥.

وفي ١٣ تشرين الأول ١٩٤٤ استقالت وزارة السيد سعد الله الجابري لتخلفها وزارة السيد فارس الخوري التي تألفت على الوجه التالي: فارس الخوري للرئاسة والداخلية والأشغال العامة، جميل مردم للشؤون الخارجية والدفاع الوطني والاقتصاد، خالد العظم للمالية والإعاشة، عبد الرحمن الكيالي

للعدلية والمعارف، وفي ٤ آذار ١٩٤٥ انضم إلى الوزارة السيد صبري العسلي للداخلية وأحمد الشراباتي للمعارف.

وحين شارفت الحرب على أن تضع أوزارها أخذت سورية مراعاة وضع الحلفاء واتخذت بعض المواقف ضد المحور (ألمانيا، إيطاليا، اليابان).

وأعلنت سورية الحرب على دول المحور في ٢٦ شباط ١٩٤٥ ليحق لها الاشتراك في هيئة الأمم المتحدة التي أعلن يومذاك بأنها ستضم الدول التي أعلنت الحرب أو ستعلن الحرب على دول المحور قبل آذار ١٩٤٥.

وبناء على قرار سورية في ٢٦ شباط وجهت الولايات المتحدة في ٢٥ شباط ١٩٤٥ دعوة إلى سورية بالنيابة عن الدول الحليفة لحضور مؤتمر سان فرنسيسكو الذي سيوضع فيه ميثاق هيئة الأمم المتحدة، فأرسلت سورية وفداً برئاسة رئيس وزرائها السيد فارس الخوري العالم الحقوقي، وعميد السياسة السورية في كل أدوارها والذي هو بحق أكبر وأقدر مفكري هذه الأمة.

وقبل سفر السيد فارس الخوري إلى سان فرنسيسكو قدم استقالة وزارته فعهد رئيس الجمهورية إلى السيد فارس الخوري تأليفها ثانية فتألفت الوزارة على الوجه التالي وذلك في ٩ نيسان ١٩٤٥: فارس الخوري للرئاسة جميل مردم للشؤون الخارجية، سعيد الغزي للعدلية والإعاشة بالوكالة، نعيم الأنطاكي للمالية، صبري العسلي للداخلية، أحمد الشراباتي للمعارف والاقتصاد الوطني، حكمت الحكيم للأشغال العامة.

سفر رئيس الوزراء للاشتراك في الندوة الدولية

وفي ١٠ نيسان ١٩٤٥ تشكل وفد سورية إلى مؤتمر سان فرنسيسكو برئاسة السيد فارس الخوري، رئيس الوزراء، وعضوية الأستاذ نعيم الأنطاكي وزير المالية، والدكتور ناظم القدسي وزير سورية المفوض لدى الولايات المتحدة الأميركية، والدكتور فريد زين الدين والمهندس نور الدين كحالة كخبير، والدكتور توفيق سعيد الهنيدي أميناً للسر.

وفي ١٣ نيسان ١٩٤٥ سافر الوفد السوري إلى سان فرنسيسكو.

في ٢٤ نيسان ١٩٤٥ وصل الوفد السوري وافتتحت الندوة الدولية في ٢٥ نيسان إذ حضرها ست وأربعون دولة وافتتح المؤتمر الرئيس الأميركي يومئذ (هاري ترومان) الذي كانت له اليد الطولى في قيام دولة الصهاينة في فلسطين العربية.

وفي ٢ أيار ١٩٤٥ القى رئيس وزراء سورية السيد فارس الخوري كلمة باللغة الانكليزية وافتتحها بثنائه على الرئيس الراحل روزفلت (الذي توفي في ١٢ نيسان ١٩٤٥) ثم ذكر استعداد سورية والبلاد العربية لتلبية نداء البشرية من أجل تفاهم متبادل بين الشعوب، ومن أجل حل المشاكل العالمية بروح العدل.

العدوان الفرنسي ١٩٤٥

٤٢

استدعت فرنسا مندوبها في سورية الجنرال كاترو في ٧ حزيران ١٩٤٣ وعينت بدلا منه السيد جان هللو الذي لم يلبث سوى أشهر معدودات إذ استبدلته بالجنرال (بينه) في آذار ١٩٤٤.

ومنذ مجيء (بينه) بدأت السلطة الفرنسية تماطل وتتلكأ في تنفيذ قرارات هيئة الأمم حول استقلال البلاد.

وفي ١٠ آذار ١٩٤٥ عقد اجتماع بين الجنرال (بينه) ووزير الخارجية السورية السيد جميل مردم أعلن الجنرال في نهايته أنه سيسافر إلى فرنسا للتشاور مع حكومته.

وفي ٤ أيار ١٩٤٥ أرسلت فرنسا فرقة عسكرية مؤلفة من (٨٠٠) جندي لدعم قواتها في سورية مما يشير إلى تغير النيات.

واحتجت سورية بمذكرة أرسلتها إلى المندوب السامي الجنرال (بينه) في ٦ أيار ١٩٤٥ على إرسال هؤلاء الجنود وطلبت عدم تكرار ذلك.

لكن فرنسا في ١٧ أيار ١٩٤٥ أرسلت قوة عسكرية ثانية مؤلفة من (٥١٠٠) جندي دون الالتفات إلى احتجاج سورية وغضبها.

وكانت الهدنة قد أعلنت في ٨ أيار، وانتهت الحرب العالمية الثانية بانتصار الحلفاء فانتهز المستعمرون هذه الفرصة ليعلنوا عن لؤمهم وغدرهم، فاحتفلوا بالنصر احتفالاً تخللته أعمال استفزازية شرسة.

وفي ٩ أيار ١٩٤٥ أخذت دباباتهم تجوب شوارع المدن السورية تتبعها سيارات قد امتلأت بالجنود الفرنسيين والمرتزقة يهزجون ويطلقون النار في الهواء وظاهر أمرهم أنهم يبتهجون بالنصر ولكنهم كانوا يحاولون استفزاز الشعب والتحرش به وإثارة نقمته كي يتم الاصطدام بين الشعب والمستعمرين وتعود البلاد إلى الاحتلال العسكري من جديد.

ومما زاد في الطين بلة أن الجنرال (بينه) قابل رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي في ١٧ أيار ١٩٤٥ بحضور وزير الخارجية السيد جميل مردم ليعلن بأن فرنسا مستعدة لتسليم الجيوش الخاصة بسورية ولبنان بشرط منحها قواعد بحرية في لبنان وقواعد جوية في سورية مع ترك قيادة الجيش بإمرتها إلى إشعار آخر.

وأبدى الرئيس دهشته واستغرابه للموقف الفرنسي الجديد.

وفي اليوم التالي ١٨ أيار قدم الجنرال مذكرة بما طلبه بناء على رغبة السيد شكري القوتلي.

وفي ١٩ أيار اجتمعت الحكومتان السورية واللبنانية في شتورا في لبنان، وقررتا بعد دراسة الموقف قطع المفاوضات مع الجانب الفرنسي لأنه لم تعد هناك فائدة ترجى منها وأبلغتا الجانب الفرنسي ذلك.

وفي ٢٠ أيار أرسلت الحكومة السورية إلى المندوب السامي الجنرال (بينه) رداً على مذكرته، وصرحت في هذا الرد أنها لا تستطيع متابعة المفاوضات على الأسس الواردة في المذكرة الفرنسية، وأنها لا تعتبر استقدام جنود فرنسيين إلى سورية ولبنان بدون إذن سابق من الحكومتين يمس سيادة البلاد واستقلالها ويعتبر ظاهرة ضغط لا يمكن قبولها، وتطلب سحب جميع القوات الأجنبية من أراضيها وتسليمها جيشها في أقرب وقت.

ثم بادرت الحكومة السورية فأرسلت نسخاً عن المذكرتين الفرنسية والسورية إلى الحكومات الصديقة والدول الحليفة وألقت تبعة إخفاق المفاوضات على كاهل الجانب الفرنسي.

ولم تقف الحكومة السورية عند حدود المذكرة التي أرسلتها إلى الجنرال (بينه) المندوب السامي الفرنسي بل عقدت اجتماعاً مع الجنرال باجيت قائد جيوش الحلفاء في الشرق الأوسط، والسيد (شون) وزير بريطانيا المفوض في سورية وبسطت لهما الموقف الخطير الذي وصلت إليه البلاد من جراء الأعمال الاستفزازية التي يقوم بها المستعمرون وعملاؤهم، كما أرسلت مذكرات مماثلة إلى كل من انكلترا وأمريكا والاتحاد السوفييتي والدول العربية الشقيقة.

وازدادت أعمال الاستفزاز من قبل الفرنسيين وقابلها الشعب بالصمود وعقد النية على تحطيم قوات المستعمرين مهما بلغت من الشدة والشراسة، وتشكلت قيادات وطنية لإكراه الفرنسيين على الجلاء، وأخذ أبناء الشعب يتدربون على استعمال السلاح، وانضم النواب والمواطنون إلى فرق المقاومة وحملوا السلاح ووضعوا أنفسهم تحت تصرف القيادة الوطنية مصممين على الدفاع عن الوطن مهما كان الثمن غالياً.

وفي ٢٢ أيار أصدر الجنرال أوليفا روجه السفاح بلاغاً سرياً على جميع وحداته العسكرية طالباً منها الاستعداد لقمع الشعب وهذا هو:

بلاغ هام من دائرة الأركان الحربية الفرنسية رقم ٢٤ ب

أيها الضباط والجنود الفرنسيون، أيها العاملون تحت العلم الفرنسي بعد الانتصار الباهر الذي أحرزته جيوشنا تحت قيادة الجنرال ديغول، وحررت أراضيها المقدسة من نير العدو، وبعد التضحيات التي قدمها شعبنا من أجل الحريات العامة وحريات الشعوب الصغيرة بصورة خاصة رأت الحكومة الفرنسية عطفاً على التقاليد التحررية التي أخذتها على عاتقها منذ أجيال أن تخدم سورية ولبنان كما خدمتهما حتى الآن بأن تتعاقد معهما، وتمد لهما يد المساعدة لئلا تكونا عرضة لمطامع دول مختلفة، وبعد المفاوضات الطويلة

رأت الحكومة الفرنسية أن تعرض على الحكومتين السورية واللبنانية شروط معاهدة فيها كل السخاء من الجانب الفرنسي إلا أن الجانبين السوري واللبناني لم يجدا في كل بند من هذه البنود إلا الاستعمار المطلق.

ولما كانت الأزمة بدأت تستفحل أرى من الواجب أن ألفت نظركم جميعاً إلى الاستعدادات التي يجب أن يقوم بها جيش الشرق ليكون محافظاً على شرف فرنسا أولاً، وعلى الأمن العام الذي أخذه على عاتقه ثانياً مؤكداً أن أقل مخالفة لهذه الأوامر تؤدي إلى الإحالة السريعة على المحكمة العسكرية لأن الوقت العصيب لا يسمح بالعطف على الخونة والناقضين لشرفهم العسكري.

١- يقضي واجب فرنسا العسكري بإبادة عناصر الشعب التي تريد إخراج فرنسا المنتصرة من هذه البلاد.

٢- يجب احتلال جميع دوائر الحكومة السورية ومؤسساتها الثقافية.

٣- يجب منع الاتصال مع جميع الدول العربية المجاورة.

٤- يجب تجريد جميع أفراد الشعب من الأسلحة والآلات الجارحة في ظرف (٤٨) ساعة.

٥- يجب أن تدار البلاد من قبل حاكم عسكري، وتفتح المحاكم العسكرية إلى أن تنظر الدول المنتصرة في قضيتي سورية ولبنان، وتعيد المياه إلى مجاريها.

على جميع القوى العسكرية الفرنسية - السنغال - الهجانة ..... فرق المتطوعة أن تكون على استعداد ليلاً نهاراً.

عندما ترسل الأوامر اللازمة التي لا يمكن تبليغها إلا خطياً لا هاتفياً (لاجتناب الأوامر المدسوسة) على الفرق المرابطة داخل المدينة أن تكون متجهة إلى الدوائر الحكومية الأقرب إليها، وتقاد هذه القوى من قبل قائدها الذي يجب أن يصل إلى المركز المطلوب مهما كلفه الأمر من ضحايا وعتاد. وإذا أبدى الأهالي أو العناصر المتطوعة في خدمة الحكومة السورية أية

مقاومة فعليه أن يقابلها بالمثل، مع العلم بأن مقاومة الأهالي التي عرفناها منذ (٢٥) سنة وتعودناها لن تدوم سوى وقت قصير، ومع ذلك يجب أخذ يقظة الشعب وتدريبه الحديث بعين الاعتبار.

فالقوى الموجودة في دار المفوضية في الصالحية تتجه نحو قصر الرئاسة لتقوده إلى المحل المخصص له، والقسم الثاني من هذه القوى يقصد دور الوزراء القريبين منهم، والقوة المرابطة في شارع بغداد تتجه لحماية مدرسة اللاييك واحتلال وزارة الدفاع الوطني ووزارة المعارف، وتساعد القوى الموجودة في دائرة الأركان الحربية في احتلال البرلمان السوري وتساعدها في ذلك الدبابات والسيارات المصفحة، والقوى المرابطة في شارع النصر يقع عليها القسم الأكبر من هذا الهجوم الليلي، إذ يقضي واجبها باحتلال دوائر الحكومة والشرطة والبلدية، مستعينة بالقوة المرابطة في ندوة الفرنسيين جانب جسر بردى.

بعد بدء الاحتلال بوقت قصير تعطى الأوامر للقوى العاملة الموجودة في الثكنة الحميدية والمزة لاحتلال المدينة احتلالاً تاماً بينما تقوم دوائر الأمن العام الفرنسية بمساعدة موظفيها المخلصين بإلقاء القبض على من كان سبباً لإثارة الشعب على الحكومة الفرنسية الظافرة.

على فرق المرتزقة والهجانة المرابطة خارج المدينة وعلى أطرافها مراقبة الطرق المؤدية إلى دمشق وتفتيش جميع السيارات قبل دخولها المدينة لإيقاف تسرب الأسلحة الذي أصبح كثيراً في المدة الأخيرة من شرقي الأردن والعراق.

أما الجسور المختلفة المؤدية إلى المدينة كجسر المزة وجسر تورا فيجب المحافظة عليها من قبل سيارات مصفحة ودبابات كي لا يتمكن الأهالي من نسفها، وعرقلة وصول الإمدادات العسكرية إلى المدينة، وإذا لاحظت قوى المرتزقة المرابطة خارج المدينة وصول نجدات من جبل الدروز وجبال العلويين عليها أن تبيدها دون إنذار سابق.

أما السلاح الجوي فلدينا منه ما يكفي لدب الرعب في قلوب السكان، وإذا اضطرت الحال فيجب إلقاء قنابل محرقة على أماكن التجمعات كالمدرسة التجهيزية، والقلعة، ويجب الحذر من الدنو لأن لدينا معلومات تقول بأن هناك أسلحة يمكن أن تصل إلى الطائرة إذا كانت على أقل من (١٠٠٠) متر، ولدينا معلومات بأن الأهالي يحملون قنابل يدوية شديدة الانفجار، بينما هنالك محاولات لإحراق المراكز العسكرية وقطع أسلاك الهاتف والتيار الكهربائي. أما إذا تفوقت القوى الوطنية في بعض المراكز فعلى الجنود أن يتلفوا ما لديهم من أسلحة إذا لم يتمكنوا من استعمالها.

ولا يغرب عن البال أن المرتزقة بالنظر لولائهم الشديد للحكومة الفرنسية الظافرة هم أكثر الجنود عرضة لنقمة الأهلين، فعلى القواد أن يأخذوا هذه النقطة بعين الاعتبار.

أما المتطوعة العرب في جيش الشرق فلا يمكن الاطمئنان إليهم إذ تدل المعلومات على أن هنالك حركة تدعو إلى مقاطعة أهالي الضباط والجنود المذكورين، وإذا أضيف إلى ذلك موقف الحكومة السورية المرضي من هؤلاء ندرك أن انضمامهم إلى القوى الوطنية لا يمكن أن يكون مستحيلاً أما عائلات الضباط والجنود الفرنسيين فيجب ترحيلها إلى المزة بانتظار وصول النجدات والمعدات الحربية، وقد أرسلت تعليمات خاصة إلى باقي المدن السورية ليكون العمل مشتركاً وفي آنٍ واحد.

على قواد الفرق المختلفة تطبيق هذه الأوامر بحذافيرها.

لتعش فرنسا، وليعش الجنرال ديغول

في ٢٣ / ٥ / ١٩٤٥

قائد المنطقة الجنوبية

الجنرال أوليفا روجه

وقام الفرنسيون في ٢٠-٢١ أيار ١٩٤٥ بقتل عدد من المواطنين في حلب منهم الطالبان أحمد القدسي وعبد العزيز حاووط، واشتدت استفزازات الجنود الفرنسيين، وفي ليلة ٢٢ أيار ١٩٤٥ صبّ الفرنسيون نيرانهم على دورية من

رجال الشرطة كانت تمر بشارع رامي في دمشق، وألقوا عليها أربع قذائف يدوية أصابت بعض أفرادها إصابات خطيرة. فأرسلت الحكومة السورية مذكرة في ٢٤ أيار ١٩٤٥ إلى المندوب السامي تحذره فيها من نتائج هذا التصرف فرفض تسلم المذكرة ووضع الفرنسيون عدة مدرعات أمام دار البرلمان.

وتشاء الأقدار أن يكشف ما بيته الفرنسيون من غدر، إذ وقع بأيدي السلطات السورية بيان سري ثانٍ وجهه الجنرال أوليفا روجه قائد منطقة دمشق العسكرية هذا نصه:

بلاغ إلى الفرنسيين

لقد وقعت ثلاثة اعتداءات في ثلاثة أيام على أشخاص فرنسيين، فطعن ضابط وموظف بخنجر من الخلف، وهاجم نحو عشرين رجلاً من الغوغاء أحد الضباط وكادوا يجهزون عليه، ومتى أضفنا الرقيب غير الفرنسي الذي جرد من سلاحه وقتل في السوق فإن عدد ضحايانا يصبح أربعة في أربعة أيام. فسلامة الفرنسيين، والعسكريين من الجنود الخصوصيين ليست مضمونة خارج المراكز التي يرابطون فيها، فأرجوهم مرة أخرى ألا يعرضوا أنفسهم لخطر محقق بدون أن يكون في وسعهم أن يدافعوا عن أرواحهم، وينبغي عدم التجول على انفراد، ويجب السير جماعاتٍ مسلحة، وإذا تعذر اجتناب الأعداء فيجب على الأقل أن يدفع المعتدون ثمناً غالياً، وينبغي المضي في ذلك دون اكتراث لأن المعتدين قتلة مأجورين وأدوات في يد عصبةٍ من السياسيين الذين يطلقونهم الآن علينا بعدما استخدموهم ضد خصومهم السياسيين، ونحن نعرف من هم الذين يقودون، ولدينا أسماء الذين ينفذون الأوامر، فأطلب من الفرنسيين أن يصبروا بضعة أيام وقد لا يتجاوز صبرهم بضع ساعات وعند ذلك نشرع في المجزرة الكبرى، وليكن كل واحد مستعداً وسنصفي الحساب كله بضربة واحدة.

دمشق في ٢٦ أيار ١٩٤٥

التوقيع

الجنرال أوليفا روجه

المجزرة

٤٣

في الساعة الخامسة عشرة من ٢٩ أيار ١٩٤٥ وجه الجنرال أوليفا روجه إنذاراً إلى رئيس مجلس النواب السيد سعد الله الجابري فيه تهديد ووعيد، كما طلب فيه أن تقوم حامية البرلمان من رجال الشرطة والدرك بتحية العلم الفرنسي عند إنزاله في المساء عن دار الأركان الفرنسية المواجهة للمجلس النيابي.

رفض السيد سعد الله الجابري إنذار الجنرال، وأوعز إلى حامية المجلس ألا تستجيب إلى طلب الجنرال، كما أبلغ النواب قراره بإلغاء جلسة المجلس النيابي التي كان موعدها الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم، فقد شعر بأن الجنرال صمم على ذبح نواب الأمة وإبادتهم.

في الساعة الخامسة والنصف من مساء ذلك اليوم بدأ الفرنسيون بتطويق المجلس النيابي ثم قاموا بقذفه بقنابل الهاون والدبابات بوحشية دموية.

واقتحمت المصفحات حديقة البرلمان فتصدت لها حاميته بشجاعة وشرف وراحوا يقاتلون بسلاحهم البسيط والذخيرة القليلة.

وبعد أن اقتحم الفرنسيون باب البرلمان وقتلوا حراسه كانت الساعة قد شارفت على السابعة، وهانذا أترك وصف المجزرة لأحد أفراد الشرطة الذي كتبت له الحياة من جديد قال:

في الساعة السابعة مساء بدأ الرصاص والقنابل يتساقط على المجلس من مختلف الجهات، وكنت مع ثلاثة من رفاقي على سطح البرلمان فأخذنا نطلق الرصاص دفاعاً عن أنفسنا، وبعد دقائق سقط رفاقي الثلاثة صرعى برصاص الغدر، كما سقط سبعة من رفاقنا على باب البرلمان، وكانوا مكلفين بحراسته من الخارج، وبعد أن سقطوا على الأرض هجم عليهم الفرنسيون وقطعوا أوصالهم إرباً إرباً، وانقطع التيار الكهربائي بسبب القصف الشديد كما تخربت أسلاك الهاتف، وانعزلنا عن العالم الخارجي تماماً. وحين نزلت إلى داخل البرلمان أصابني رصاص الرشاشات في رأسي ويدي ورجلي وراحت الدماء تنهمر من جسمي كالسيل فزحفت إلى القاعة المطلة على حديق البرلمان.

وشاهدت المفوض المرحوم سعيد القهوجي ورفاقه، وقلت لهم: أسعفوني فتقدم مني المرحوم مشهور المهايني، وأخذ يمسح دمي بمنديله، وقال للمفوض سعيد القهوجي: تعالَ نسعفه في إحدى الدور المجاورة، غير أن الرصاص والقنابل كان يزداد تساقطها علينا، ولم يكن بإمكان أحدٍ منا أن يخرج من قاعة البرلمان، ودخلت المصفحات الفرنسية إلى حديقة البرلمان وكان رفاقي يصرخون بصو ت واحد ((الله أكبر)) وراح رفاقنا يفرغون رصاص بنادقهم في وجه القوات الفرنسية الجارفة التي دخلت إلى الحديقة وراء المصفحات، وكان رفاقنا يتساقطون واحداً بعد آخر، ولما نفدت ذخيرتنا من الرصاص دخل الفرنسيون إلى القاعة يحملون السواطير، والسلاح الأبيض، والرشاشات وأخذوا يطلقون النار على كل من يرونه منا، وقد سقط أحد رفاقي بجانبي شهيداً فهجم عليه الفرنسيون وأخذوا يفتشون في جيوبه، ويديه فوجدوا في أصبعه خاتماً عجزوا عن سحبه فقطعوا إصبعه، وأخذوا الخاتم. وكان رفيقنا الوكيل عبد الله برهان باش إمام، في إحدى القاعات فخرج بحالة استسلام، فطلب منه الفرنسيون أن يقدم التحية لديغول وفرنسا، فرفض رفضاً قاطعاً وصاح بهم قائلاً: هذه بربرية، فما كان منهم إلا أن انهالوا على رأسه ضرباً بالسواطير فانفصل رأسه عن جسمه ومشت جثته بلا رأس بضع خطوات ثم سقطت على

الأرض. ثم جاؤوا بواحدٍ آخر من رفاقنا وطلبوا إليه أن يقدم التحية للعلم الفرنسي فرفض فأطلقوا عليه الرصاص فوقع على الأرض جثة هامدة، وراح الفرنسيون يفتشون غرف المجلس ومعهم مصابيح كهربائية، وعادوا إلي حيث كنت ومعهم المفوض سعيد القهوجي والشرطيون مشهور المهايني ومحمود الجبيلي وإبراهيم الشلاح، وخمسة من رجال الدرك. وبعد أن سلبوهم نقودهم، وكل ما معهم، أمروهم بأن يحيوا فرنسا فرفضوا جميعاً وقالوا: نحن لا نحيي فرنسا الهمجية المتوحشة فأوقفوهم في صف واحد وأطلقوا عليهم الرصاص دفعة واحدة وسقطوا جميعهم على الأرض يتخبطون بدمائهم، وأخذوا يفقؤون أعين الشهداء بحرابهم ويمثلون بهم تمثيلاً وحشياً، فيضربون أعضاءهم بالسواطير ويفصلونها عن أجسامهم، وفي ساعة أو أقل تحول المجلس النيابي إلى مقبرة رهيبة يخيم فوقها الموت من كل جانب.

ثم جاءت سيارة من سيارات الفرنسيين فألقوا في داخلها بجثث الشهداء والقوني فيها أيضاً وأخذونا إلى مكان لا أعرفه إذ كنت قد فقدت وعيي وبعد يومين عرفت بأنني في المستشفى.

وقد قتل في مجزرة المجلس النيابي الرهيبة يوم ١٩٤٥/٥/٢٩ الشهداء المفوض سعيد قهوجي، الدكتور حكمت تسابحجي، ضابط الدرك محمد طيب شريك، الشرطيان مشهور المهايني، ومحمود الجبيلي، عريف الدرك برهان باش إمام، عريف الدرك طارق أحمد مدحت، جنود الدرك: شحادة إلياس الأمير خليل جاد الله، إبراهيم فضة، محمد حسن هيكل، يحيى محمد اليافي، زهير منير خزنه كاتبي، ممدوح تيسير الطرابلسي، محمد أحمد أومري، محمد خليل البيطار، سعد الدين الصفدي، ياسين نسيب البقاعي، زيد محمد ضبعان، عيد فلاح شحادة، احمد مصطفى سميد، أحمد محمد القصار، إبراهيم عبد السلام، جورج احمر، محمد عادل المدني، واصف إبراهيم هيثو، عبد النبي برنية، سليمان ابو سعد.

ولـم يكتـف الفرنـسيون بمـا فعلـوه فـي المجلـس النيـابي فـضربوا بـالنيران المؤسـسات الرسـمية، والمنـازل الآمنـة، واسـتعملوا لـذلك المـدافع والرشاشـات والبنادق والطائرات التي قصفت قلعة دمشق فسقط مـا يزيـد علـى مئـة قتيـل مـن السجناء ورجال الدرك.

واستمر العدوان فـي اليـوم التـالي ٣٠ أيـار ١٩٤٥ واسـتمر قـذف المنـازل الآمنة بالنار وقتل المواطنين الأبرياء.

وبعد ظهر الحادي والثلاثين من أيار ١٩٤٥ أبرق رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل إلى الجنرال شارل ديغول رئيس حكومـة فرنـسا الحـرة المؤقتـة بناء على المعلومات التي تلقاهـا مـن وزيـره المفوض المستر (هون) وجـاء فـي هذه البرقية ما يلي:

((نظـراً للحالـة الحرجـة التـي أدى إليهـا الأمـر بـين جيوشـكم وبـين دول الشرق، ونظراً للقتال الدامي الذي يجري، فإننا أمرنا بملء الأسف القائد الأعلى للجيش البريطاني التاسع في الشرق الأوسط بالتدخل لمنع مواصلة إراقة الدماء، وذلك حرصـاً على الأمن في الشرق الأوسط كلـه الذي تجري فيـه المواصـلات للحرب مع اليابـان، وتحاشياً للاصـطدام بين القوات البريطانيـة والفرنسية فإننـا نطلب منكم أن تأمروا حـالاً الجيوش الفرنسية بوقـف إطـلاق النـار والعودة إلـى ثكناتها وحالما يتوقـف إطـلاق النـار ويعود النظـام فإننـا نكون مـستعدين لإجراء محادثات ثلاثية في لندن)).

ووافقت الدول الحليفة على قرار الحكومـة البريطانيـة، وتوقـف الفرنـسيون فوراً عن العدوان ولزموا ثكناتهم.

وتحـرك الـرأي العـام العـالمي ضـد الأعمـال البربريـة التـي قـام بهـا المـستعمرون فـي سـورية، وسـاء شـعوب العـالم أن يعمـد الفرنـسيون إلـى هـذه الأعمـال التـي لا مبـرر لهـا ضـد شـعب يطالـب بحقـه المـشروع فـي الحريـة والاستقلال.

ورافق هذا كله انسحاب المتطوعين السوريين في الجيش الفرنسي حاملين معهم أسلحتهم ومعداتهم حتى الأسلحة الثقيلة.

غير أن الفرنسيين كانوا قبل انسحابهم إلى ثكناتهم قد نهبوا ما في بعض دوائر الدولة ومؤسساتها العامة حتى المساجد.

وخلال الحوادث لم يتورع الفرنسيون عن إطلاق النار على الآمنين دون تمييز بل هم أطلقوا النار على سيارات الإسعاف التي كانت تحمل الجرحى، كما ضربوا المستشفيات كيلا يجد الجرحى من يسعفهم.

وحاول الجنرال بينه المفوض السامي الفرنسي أن يختلق الأعذار لما ارتكبته قواته في سورية فأصدر بياناً ملأه بالأكاذيب والمفتريات.

وفي ١٣ حزيران رد وزير خارجية سورية على المفوض السامي السيد (بينه) ببيان كذّب فيه ادعاءات المفوض السامي ونقض مفترياته بالحجج الدامغة والأرقام والأسماء وفند مزاعمه الباطلة.

التحركات الثورية في محافظات القطر

٤٤

كانت الحوادث الثورية قد اشتدت في حلب، وحوصر الفرنسيون في ثكناتهم بعد أن سقط عدد من القتلى منهم: أحمد القدسي، وعبد العزيز حاووط، وأحمد عمر، وعبد الرزاق محمد باقي، ومحمد راتب سماني، ومحمد بن عبدو الأبرش، والسيدة فورتينة بندلي، ومعزز بنت الحاج حسين إبراهيم باشا.

وقد حاول مندوب المفوض السامي بحلب أن يشعل نار الفتنة الطائفية فاستدعى بعض إخواننا من بعض الأحياء المسيحية وعرض عليهم تزويدهم بالسلاح فرفض هؤلاء الأخوة عرض المندوب وأفهموه أن هذه الأساليب الاستعمارية القذرة لم تعد تخفى على أحد.

أما في حماة فقد تكرر اعتداء الجنود على المواطنين فاشتدت حركة المقاومة الوطنية وتم تشكيل فرق الحرس الأهالي المسلح لمقاومة الفرنسيين.

وفي ٢٧ أيار ١٩٤٥ بدأت المناوشات بين الفرنسيين وبين المقاتلين الوطنيين في حماة وعندما اشتد الحصار على الفرنسيين شرعوا يضربون المدينة بالمدفعية والرشاشات فاشتدت نقمة الوطنيين واندفعوا نحو الثكنات بفدائية منقطعة النظير وقتلوا سبعة من الفرنسيين، ثم ارتفع عدد القتلى من العدو حتى بلغ ٣٩ قتيلا و٦٣ جريحاً، أما الوطنيون فقد استشهد منهم ثلاثة وجرح ١٧ مواطناً.

وفي مساء يوم ٢٧ أيار ١٩٤٥ سيَّر الفرنسيون قوة مسلحة كبيرة إلى حماة فاعترض الشعب الثائر طريقها في مدخل حلب الجنوبي فعادت على أعقابها إلى حمص بعد خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، وغنم الثوار هذه الأعتدة التي كانت ضرورية جداً.

وسقط من أبناء الشعب شهيدان و ٤١ جريحاً، واحتل يومئذٍ ثوار حماة مطار المدينة ورفعوا العلم السوري وأنزلوا العلم الفرنسي.

وفي ٢٩ أيار ١٩٤٥ ألقت إحدى الطائرات الفرنسية مناشير تنذر المواطنين إن هم تعرضوا للقوات الفرنسية القادمة إلى حماة.

وفي ٣٠ أيار ١٩٤٥ حلَّقت فوق حماة طائرة استكشاف فرنسية فأسقطها المواطنون.

وكانت حملة فرنسية قد وصلت إلى مشارف حماة في صباح ٣٠ أيار ١٩٤٥ فتصدى لها الحرس الوطني وظل القتال مستمراً حتى المساء فانهزم الفرنسيون بعد أن تركوا على أرض المعركة (٦٧) قتيلاً بينهم قائد الحملة القومندان (سيبيس) وثلاثة ضباط، ولحق المواطنون بالفرنسيين ليمنعوهم من التجمع ثانية فأردوا منهم ٣٧ جندياً في جهة كرم الجنكي قرب المكابس والمحطة.

وخسر الثوار في تلك المعركة (٥١) شهيداً أغلبهم استشهد بنار القنابل التي ألقتها الطائرات الفرنسية، وقد خسر الفرنسيون طائرتين عدا عن أصناف الأعتدة الأخرى.

وضيق الوطنيون الحصار على الثكنات الفرنسية وأقبل أبناء الأرياف وانضموا إلى إخوانهم المقاتلين وأنزلوا بالفرنسيين خسائر جسيمة.

وفي ٣ حزيران تدخلت القوات الانكليزية، وتوقف عدوان الفرنسيين على المدينة وجرى استعراض عسكري في ٢ حزيران مشى فيه (٥٠٠) ثائر احتفالا بالنصر على العدو المستعمر.

وحدث مثل هذه المعارك الدامية في كل مدينة بل في كل مركز قضاء.

ففي (جرابلس) من أقضية حلب تألفت قوة شعبية وطنية وحاصرت الثكنة الفرنسية فرفعت حاميتها العلم الأبيض متظاهرة بالتسليم، وعندما اقترب المقاتلون من الثكنة أطلق الفرنسيون نيران بنادقهم ورشاشاتهم على المواطنين غدراً فاستشهد عدد منهم، وأقبلت نجدة من الرجال المقاتلين من حلب فضيقوا الحصار على الثكنة، وفي الليل انسحبت الحامية الفرنسية محاولة الالتجاء إلى تركيا ولكنها اصطدمت برجال المقاومة فاستسلمت واستولى الوطنيون على أسلحتها وعتادها.

وفي نفس الشهر أيار ١٩٤٥، ثار الوطنيون في قصبة اعزاز وأمدتهم حلب بنجدة على رأسها قائد درك المحافظة واحد الضباط الذين التحقوا بالقوى الوطنية فحاصروا الحامية الفرنسية وأرغموها على الاستسلام بأسلحتها وعتادها.

وفي مدينة إدلب في التاريخ نفسه قتل عدد من المناضلين فهاجمت القوات الوطنية ثكنة الفرنسيين في إدلب واستطاع ضابطان فرنسيان أن يصلا إلى دار الحكومة فأطلق أحد الجنود الدرك النار عليهما فأرداهما قتيلين ثأراً للشهداء من ابناء وطنه.

وفي صباح ٢٤ أيار ١٩٤٥ تم رفع العلم السوري وإنزال العلم الفرنسي عن الثكنة الفرنسية في كفر تخاريم، واستسلمت حاميتها، واستولى الوطنيون على أسلحتها وعتادها.

وخف المقاتلون من كفر تخاريم وسلقين لنجدة إخوانهم في جسر الشغور ونشبت معركة دامية بينهم وبين الفرنسيين سقط خلالها أربعون قتيلاً من الفرنسيين. واستشهد عدد من المواطنين وأكثرهم من العزل الآمنين.

ولقد مدت حلب يد العون للأقضية والملحقات حولها وأمدتهم بالأموال والرجال وكان من هؤلاء السيد صالح الصباغ وجمهور من إخوانه أبناء حلب الشهباء الأشاوس.

وفي ٢٩ أيار ١٩٤٥ هاجم الفرنسيون دار المحافظ فدارت معركة دامية بينهم وبين المواطنين انتهت بهزيمة الفرنسيين والتحاقهم بمعاقلهم.

وفي ٣١ أيار ١٩٤٥ صب الفرنسيون نيران مدافعهم ورشاشاتهم على الدور الآمنة والمدارس ودور العبادة فقتلوا الكثير من المواطنين.

وفي ٦ حزيران ضرب الفرنسيون مدينة الرقة بالمدفعية على الرغم من الإنذار البريطاني.

وفي ٥ حزيران قصف الفرنسيون مدينة اللاذقية بالمدافع فاستشهد (٢٣) مواطناً وجرح خمسون.

وفي أواخر أيار هاجم الوطنيون مقر المستشار الفرنسي في درعا فالتجأ مع الجنود إلى الثكنة العسكرية، وحاصر المواطنون الثكنة واستطاع الفرنسيون أن ينسحبوا في الليل إلى (إزرع) وفي (إزرع) استسلم المستشار الفرنسي مع قواته إلى محافظ حوران بعد أن سقط عشرة من القتلى الفرنسيين واستشهد عدد من المواطنين.

وفي حمص تم جلاء الفرنسيين عنها بعد معركة بين القوى الشعبية وبين الفرنسيين سقط فيها عدد من الشهداء وتم تطهير حمص من كل مستعمر أو عميل.

أما في جبلة فقد سقط أحد المتظاهرين شهيداً فحمله رفاقه ليواروه التراب ومروا أمام دار الحكومة وبالقرب منها مقر المستشار الفرنسي فاستشهد مواطن وجرح عشرون وتمكن المواطنون إثر تلك الجريمة الشنعاء أن يطهروا جبلة من المستعمرين.

وفي ٢٧ أيار بدأ المواطنون في جبل العرب بحصار الثكنة العسكرية الفرنسية في السويداء، فاستسلمت بضباطها وجنودها، ورفع العلم السوري على الثكنات العسكرية في السويداء وصلخد وشهباء وعقب دخول القوات البريطانية مدينة السويداء جرى تسليمهم الأسرى الفرنسيين.

وقد قدر عدد الشهداء الذين سقطوا في ساحات الكفاح فيما بين أوائل أيار وأوائل حزيران من عام ١٩٤٥ (٦١٦) شهيدا و(٢٠٧٢) جريحا، أما القتلى من الفرنسيين فلم يكن ليقل عن هذا العدد.

انكلترا تتدخل

تدخلت انكلترا وأوقفت المجازر الدموية وراح الناس يثنون عليها ويمتدحونها ويؤملون أن يتم جلاء الفرنسيين التام خلال شهر حزيران ١٩٤٥ ولكن انكلترا أبت إلا أن تمارس عادتها دون خجل فعقدت اتفاقية مع فرنسا وهي اتفاقية (بيدو - بيفن) وهي تقول بالجلاء التدريجي لقوات الجيشين الفرنسي والبريطاني بشرط الاحتفاظ بقوات كافية لضمان السلامة التامة في الشرق (وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا).

سورية في مجلس الأمن

٤٥

لكن سورية قدمت طلباً إلى مجلس الأمن الدولي يوم ١٩٤٥/١٢/٣١ تطلب فيه عقد جلسة خاصة لمناقشة قضية الجلاء العاجل عن أراضيها.

عقد المجلس اجتماعات دامت من ١٤ ك٢ ١٩٤٦ حتى ١٨ شباط ١٩٤٦ وكان مجلس الأمن يومذاك يتألف من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وانكلترا وفرنسا والصين كأعضاء دائمين، ومن الأعضاء الستة: أستراليا، البرازيل، بولونيا، مصر والمكسيك وهولندا.

وكان مندوبنا يومذاك السيد فارس الخوري وعقدت جلسات المجلس في لندن وكان يرنس وفد مصر وزير خارجيتها يومئذٍ عبد الحميد بدوي.

وقدمت شكوى سورية وتتلخص في أن الجيوش الفرنسية والبريطانية لا تزال في سورية ولبنان بالرغم من أن حالة الحرب قد انتهت (إذ أن الحرب انتهت مع ألمانيا في ٨ أيار ١٩٤٥ ومع اليابان في ١٤ آب ١٩٤٥) وأن وجود هذه الجيوش يشكل مساساً خطيراً بسيادة الدولتين العضوين في الأمم المتحدة، وقد يؤدي إلى منازعات خطيرة، وقد برهنت الحوادث في ٢٩ أيار على أن الجيوش الفرنسية في سورية كانت تهدد السلام بصورة دائمة في هذه المنطقة.

وقد أشارت سورية ولبنان إلى اتفاق (بيدو - بيفن) الذي يخالف نصوص ميثاق الأمم المتحدة وروحه ويطلبان أن يقرر مجلس الأمن جلاء الجيوش الأجنبية عن سورية ولبنان.

وعقد اجتماع في وزارة الخارجية البريطانية في ١٣ شباط ١٩٤٦ حضره السيد أرنست بيفن وزير الخارجية البريطانية، والسير الكسندر كادوغان مندوب بريطانيا في مجلس الأمن، وفارس الخوري رئيس الوفد السوري، وحميد فرنجية رئيس الوفد اللبناني، ونجيب الأرمنازي وزير سورية المفوض في بريطانيا، وكميل شمعون وزير لبنان المفوض في بريطانيا، وجرى البحث فيما إذا كان من الممكن الاتفاق بين السوريين واللبنانيين من ناحية وبين الفرنسيين من ناحية أخرى على موضوع الجلاء وتحديد الزمن اللازم له.

وحصل خلاف بين وزير الخارجية اللبنانية السيد حميد فرنجية وبين السيد كميل شمعون، فقد رأى الأخير وجوب التساهل وأنه لا يرى مانعاً من بقاء القوات البريطانية في بلاده مخالفاً بذلك رأي السيد حميد فرنجية.

وانفض الاجتماع دون اتخاذ أي قرار على أن يبلغ العرب البريطانيين رأيهم النهائي ليحملوه إلى الفرنسيين.

وبعد التداول أرسل الوفد السوري واللبناني قرارهما بوجوب الجلاء التام عن الأراضي السورية واللبنانية دون أية شروط.

وفي صباح ١٤ شباط ١٩٤٦ عقد اجتماع بين السوريين واللبنانيين من جهة وبين البريطانيين والفرنسيين من جهة ثانية ولم يتوصل الطرفان إلى أي اتفاق.

وبقيت القضية تحت تصرف مجلس الأمن الدولي.

واجتمع مجلس الأمن الدولي بعد يومين برئاسة السيد ماكن الاسترالي ووافق على إدراج الشكوى في جدول الأعمال، ودعي الطرفان المتنازعان للمناقشة.

وتكلم السيد حميد فرنجية باللغة الفرنسية فبين أن وجود جيوش أجنبية في أراضي دولة مستقلة ذات سيادة بدون موافقة هذه الدولة قد كان دائماً سبباً للنزاع، وأن وجودها لا يبرره شيء.

وتكلم السيد فارس الخوري وبرهن أن الحكومتين السورية واللبنانية قامتا بجميع المحاولات لحمل الدولتين الكبيرتين، انكلترا وفرنسا، على سحب جيوشهما ولكن هذه الجيوش لا تزال في أراضي سورية ولبنان ضد رغبة الحكومتين السورية واللبنانية، فعلى المجلس أن يصدر قراراً واضحاً وجازماً بأنه لا حقّ لهاتين الدولتين في إبقاء جيوشهما في سورية ولبنان.

وتكلم السيد جورج بيدو فذكر فضل فرنسا على سورية.

وتكلم السيد كادوغان فقال أن اتفاق ١٣ كانون الأول ١٩٤٥ غير مرض. منة في المئة من وجهة نظر أي كان، وأن الجيوش البريطانية إنما دخلت سورية لإعادة النظام في نهاية أيار.

ثم تكلم السيد حميد فرنجية في اليوم التالي فردّ على مندوب فرنسا أن الاعتراف باستقلال سورية ولبنان قد تم وكان عملاً منصفاً وليس مجرد عطف. وقد اعتبرتنا الدول المشرفة على مؤتمر سان فرنسيسكو دولتين مستقلتين حين دُعيتا إلى الاشتراك في هذا المؤتمر.

وأيد المندوب الأميركي السيد إدوار ستاتينيوس انسحاب الجيوش الأجنبية من سورية ولبنان.

وانتقد المندوب السوفياتي السيد أندريه فيشنسكي بشدة المذكرة التي قدمها الجنرال (بينه) المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان في ١٨ أيار ١٩٤٥ والتي يرفض فيها جلاء فرنسا عن سورية ولبنان، ثم انتقد بحزم وصرامة اتفاقية ١٣ كانون الأول ١٩٤٥ التي تمت بين فرنسا وانكلترا، وتنص على بقاء جيوش فرنسا وانكلترا في سورية ولبنان إلى أن تنظم السلامة المشتركة في الأمم المتحدة، وهذه الفكرة غير موجودة لدى الأمم المتحدة اطلاقاً، وقال متهكماً: كل هذا يجري تحت اسم احترام السيادة وهو يحتاج إلى قاموس جديد في الحقوق الدولية.

وتكلم السيد ممدوح رياض مندوب مصر، فاتهم فرنسا بالانتهازية وتساءل: لماذا تحمل فرنسا وانكلترا نفسيهما مسؤولية السلامة المشتركة؟!..

وأيدت بولونيا سورية ولبنان.

وأيد مندوب البرازيل إجراء المفاوضات بين الفريقين المتنازعين!!

وكذلك فعل مندوب هولندا راجياً أن تنسحب الجيوش الأجنبية بعد انتهاء المفاوضات.

ورد السيد حميد فرنجية فقال: إن اقتراحات مندوب هولندا وعبارات السيد (بيدو) غير مرضية.

وقال السيد فارس الخوري أنّ حكومته لا تريد الدخول في مفاوضات كالتي يريدها المندوب الفرنسي، فليس من حاجة لذلك، إذ قد تؤدي المفاوضة إلى تعقيد الموقف، وأنه يكفي أن يوصي مجلس الأمن بأنّ يتم الجلاء ضمن وقت محدد، وأن تبقى القضية على جدول أعمال المجلس حتى يتم الجلاء.

وعاد المندوب الفرنسي جورج بيدو ليذكر بمصالح فرنسا الثقافية وبالانتداب ومسؤولياته وبالفراغ الذي حصل على إثر إعلان استقلال سورية ولبنان.

وقال حميد فرنجية رئيس وزراء لبنان: أن الانتداب بنظر سورية ولبنان قد مات ودفن منذ توقيع ميثاق الأمم المتحدة، ولذلك فإننا لا نعترف بحق إنسان أن يناقش على أساس ذلك الانتداب.

وطلب السيد فيشنسكي المندوب السوفياتي (أن يكون الانسحاب حالاً) بدلاً من القول (عندما يصبح ممكناً من الوجهة العملية) فرفض اقتراحه.

وطرح قرار أميركي أدخلت الصين بعض التعديلات عليه وهو كما يلي:

((إن مجلس الأمن يأخذ بعين الاعتبار التصريحات التي أدلى بها ممثلو الدول الأربع المختصة وتصريحات المندوبين الآخرين في المجلس ويعبر عن ثقته بانسحاب الجيوش الأجنبية من سورية ولبنان حالما يصبح انسحابها ممكناً من الناحية العملية، وأن مفاوضات لهذه الغاية سيشرع بها من دون أجل، وهو يطلب من الدول ذات العلاقة أن تثابر على إبلاغه تطورات هذه المفاوضات.))

ولم ينل هذا الاقتراح الأكثرية المطلوبة ولكن فرنسا وانكلترا أخذتا على عاتقهما تنفيذه طواعية وانتهت جلسة مجلس الأمن.

وكانت قد قامت الجمهورية الدستورية في فرنسا وتنحى شارل ديغول عن الحكم، وعلى الرغم من أن الرجل كان يتمتع بكثير من المنطق والتصرف العقلاني إلا أنه كان يؤلمه موقف بريطانيا في سورية ولذلك فإنه لم يلن ولم يقبل بترك سورية والجلاء عنها حتى تنحى عن رئاسة الجمهورية الفرنسية وبات الفرنسيون مستعدين للجلاء بشرط أن يكون ذلك بالتفاهم والتراضي حفاظاً على شرف فرنسا وكبريائها.

وفي اجتماع تم بين السيد أرنست بيفن وزير خارجية انكلترا ومعاونيه وبين السيدين حميد فرنجية وفارس الخوري أعلن السيد بيفن أن انكلترا ستسحب جيوشها من سورية ولبنان دون أن تنتظر انسحاب الفرنسيين، وقال إن الفرنسيين يدَّعون أن وجودهم ضروري لحماية نصارى لبنان من طغيان الأكثرية الإسلامية المحيطة بهم. وكان جواب رئيسي الوفدين السوري واللبناني قاطعاً فذكر السيد فارس الخوري، وهو نصراني بروتستانتي من أصل أرثوذكسي، إن دعوى حماية النصارى مضرة بالنصارى أنفسهم لأنها تجعل الأكثرية الإسلامية تنظر إليهم نظرة عداء باعتبارهم سبباً لتدخل الأجانب في ديارهم، وقال الأستاذ حميد فرنجية رئيس الوفد اللبناني وهو نصراني ماروني مؤكدا أن محاولة إثارة الخلاف بين المسلمين والنصارى له غرض واحد وهو التفريق بين الطائفتين لمقاومة الحركة الوطنية.

واقتنع بيفن بوجهة نظر رئيسي الوفدين السوري واللبناني.

وقررت انكلترا الانسحاب تنفيذاً لرغبة مجلس الأمن.

وعرض رئيسا الوفدين السوري واللبناني على مجلس الأمن ما تم من مشاورات، وذكرا للمجلس أن السيد فيشنسكي مندوب الاتحاد السوفياتي لم يوافق على قرار مجلس الأمن لأن المجلس لم يأخذ بمقترحاته في جعل الجلاء فوريا فأصبح قرار مجلس الأمن معطلاً بسبب اعتراض الاتحاد السوفياتي.

ولكن فرنسا وانكلترا أبدتا رغبتهما في الانسحاب وأعلنتا تمسكهما بقرار مجلس الأمن، ولذا لم يبقى سوى الاتفاق على كيفية الجلاء وهذا أمر سهل ميسور.

وسافر الوفد اللبناني إلى باريس لإجراء المفاوضات مع الفرنسيين بشأن الجلاء وعاد الوفد السوري إلى دمشق وقد فوض الأستاذ فارس الخوري زميله حميد فرنجية ليفاوض عن الوفد السوري فإذا جاءت نتيجة المفاوضة حسنة اعترف السوريون بها، وإلا كان لهم موقف آخر.

ووفق حميد فرنجية في حمل الفرنسيين على الجلاء في شهر نيسان عن سورية ولبنان وتقرر أن يكون الجلاء عن سورية في ١٣ نيسان ١٩٤٦ وذلك بمساعدة السيد بيسون الذي كان المدير العام لبنك سورية ولبنان.

الجــــلاء

٤٦

وتم جلاء آخر جندي فرنسي وبريطاني عن سورية في الساعة التاسعة من صباح ١٥ نيسان ١٩٤٦ بعد احتلال دام ربع قرن.

وجرى الاحتفال بالجلاء صباح ١٧ نيسان ١٩٤٦ شهدته وفود من الدول العربية الشقيقة، واعتبر هذا اليوم عيداً رسمياً قومياً ووطنياً للجمهورية العربية السورية الفتية، والحمد لله رب العالمين، والخلود للشهداء الأبرار، والمجد والعلاء لأبناء سورية البواسل ولسائر أبناء العروبة، ومن يحيا في بلاد العرب من سائر الأجناس بقدر وفائهم لهذه البلاد الخيرة الوفية الطيبة.

لقد أشرق يوم ١٧ نيسان بنور الحرية الساطعة على وطننا، وها هوذا علمنا يخفق في الأعالي فتخفق معه قلوب الملايين طرباً وابتهاجاً، إنه يوم الحق والعدالة، يوم الاستقلال والعزة، لقد دالت دولة الباطل واضمحلَّ سلطانه، فهنيئاً لسورية الحبيبة بيوم النصر العظيم يوم ١٧ نيسان.

لقد غرسنا شجرة الحرية بأيدينا وسقيناها بدمائنا وها هي ذي تبسط ظلالها الوارفة على أرجاء سورية كلها، والفضل الأول في هذا كله لشهدائنا الأبرار، ومناضلينا الأحرار، وشعبنا الصامد الأبي.

لقد اتحدنا أمام طغيان الاستعمار هلالاً وصليباً، كلنا سواء في ميدان الوطنية: فلاحنا المكافح الصابر والمقاتل العنيد وعاملنا الكادح الوفي والمقاتل

الصامد وطلابنا الذين افتدوا وطنهم بدمائهم وأرواحهم وهم في عمر الزهور وأساتذة البلاد ومعلموها الذين بثوا في نفوس طلابهم معاني العزة القومية والروح الوطنية، الكل في ميادين النضال سواء، التجار والباعة الصغار والجنود وقوى الأمن.

لقد فتك السفاح جمال باشا بعدد من أحرار العرب فلفظوا أرواحهم على أعواد المشانق في دمشق وبيروت فكان الشهداء يقبلون على الاستشهاد وهم يصرخون مرحباً بالمشانق، مرحباً بأرجوحة الأبطال وليحى العرب.

وبقي العرب في بلاد العرب وزال الغزاة الطغاة، نعم لقد كان الثمن الذي دفعناه غالياً غير أن الحرية غالية ولا يغلو عليها شيء في الوجود، والوطن عزيز يفتدى بالدماء والأرواح، ولقد خضبنا أديم الوطن بالنجيع الطاهر، وتوالت الثورات حتى قال الجنرال (ويغاند) في كتاب ألفه عن سورية: لقد شهدت في عهد وجودي في سورية ثلاثمئة ثورة.

فمنذ ثورة الشيخ صالح العلي، ثم ثورة الزعيم هنانو التي تلتها، والثورات المتلاحقة بعدها لم يبق شبر من أرض الوطن إلا وقد خضبته الدماء، دماء الأحرار من أبناء سورية البطلة.

والواجب على الأجيال القادمة أن تحافظ على هذا الاستقلال الذي افتديناه بالدماء والأرواح، وأن ترعاه الرعاية التامة والا تفرط بحريتها مهما كان الثمن.

وعلى الأجيال القادمة أن تكون واعية وعياً تاماً، فلقد ترك الاستعمار في الوطن العربي - قبل أن يرحل - مشكلة هي ادهى وأمر من كل مشكلة أخرى، لقد جاء باليهود من جميع انحاء العالم فأسكنهم فلسطين قلب الوطن العربي وحقق للصهاينة حلمهم، لقد حقق لهم وطناً على حساب العرب، على حساب الملايين من المشردين العرب في أنحاء الأرض. لقد خرج سكان فلسطين هائمين على وجوههم، وحل مكانهم يهود غربيون وشرقيون احتلوا فلسطين ظلماً وبغياً بعد مجازر دموية رهيبة قتلوا فيها الأطفال، وبقروا بطون النساء،

وحصدوا الأرواح حصدا، وأخافوا السكان عمداً ليحملوهم على مغادرة قراهم ومدنهم لأنهم يريدون أرضاً بلا سكان، فهم مستعمرون مستوطنون وكانت قسوتهم البربرية منقطعة النظير.

هذه الوحشية البربرية شحنت قلوب العرب بالحقد على الصهاينة، هذا الحقد الذي سينفجر ذات يوم حرباً ماحقة لا يعرف إلا الله عدد ضحاياها فماذا يمكن أن يفعله العرب؟

لقد أجرى أحد الصحفيين الأميركيين استفتاء في مدرسة إسرائيلية طلابها بين الثامنة والحادية عشرة وطرح عليهم السؤال التالي:

إن يوشع بن نون حين دخل مدينة أريحا قتل سكانها جميعاً حتى الأطفال فلو كنت أنت مكان يوشع بن نون أمام قرية أو مدينة عربية فهل تفعل فعله أم ماذا؟

وكان الجواب (٨٢%) من الطلاب هو: أفعل ما فعله يوشع بن نون.

هذا هو الأسلوب الدموي الذي ينشأ عليه الطفل الإسرائيلي فأي عربي يمكن أن يطمئن إلى وجود إسرائيل، لقد كنا في منتهى الصواب حين ناضلنا ضد فرنسا ولم نقبل المساومة، وقضينا على كل محاولة أو تنازل، وعلينا أن نتنبه حيال قضية فلسطين، فاليهود يريدون أرضاً ومهما تغيرت أساليبهم فهم حريصون على أن يضموا كل عام بل كل يوم أرضاً جديدة إلى الأراضي التي احتلوها.

إن أساليبهم جهنمية ولا شك أنهم من الدهاء والخبث والمكر بحيث لا يستطيع العرب أن يجاروهم مهما بلغوا من الدهاء، فليحزم العرب أمرهم وليكونوا يدا واحدة على عدوهم، والعرب يملكون القدرات الهائلة التي يمكنهم بها أن يحرروا فلسطين فلماذا التردد والحيرة والتخاذل؟..

إن قضيتنا الحاضرة الرئيسية هي قضية فلسطين وهي التي شغلت وتشغل وسوف تشغل أكثر من جيل واحد قبل أن تُحَلَّ حلا صحيحا، والحل الصحيح

هو في عودة جميع الذين نزحوا إلى وطنهم فلسطين ومن الوفاء للوطن ألا يتخلف منهم أحد عن العودة مهما كان له صلات مادية في البلد الذي نزل فيه، فاليهود أتوا إلى فلسطين مدعين أن أجدادهم قبل ألفي عام كانوا قد سكنوها فترة، عادوا إليها من أصقاع الأرض كل منهم له لغته وعاداته وتقاليده، تركوا ثرواتهم والبلاد التي نشؤوا فيها وعادوا ليحققوا حلماً ظلوا يعيشون فيه ألفي عام.

والبلاد العربية لن تنجو من الفتن والأخطار والقلاقل والحروب ما دام في قلبها هذه الجماعة الصهيونية الفاشيستية ولعل من الخير حتى لليهود أنفسهم أن تتلاشى فكرة الدولة العنصرية اليهودية، فالتجمعات والدول العنصرية لن يكون لها في عصرنا والعصور القادمة وجود، ومن الخير لليهود أنفسهم أن يدركوا هذه الحقيقة قبل أن يفوت الأوان، ولن يجديهم الندم حين لا ينفع الندم.

إذا عاد النازحون إلى بلادهم، وتألفت دولة عربية على تراب فلسطين، تكون القضية قد انتهت، ويمكن حينئذٍ أن يعيش السكان العرب وغير العرب متآخين، وتنمحي الأحقاد وتزول الضغائن ويزول بزوالها خطر الحروب عن المسكونة بجميع أقطارها. فالحروب القادمة لا تبقي ولا تذر، ومن الخير للبشرية جمعاء أن تتدخل الشعوب فتحل قضية فلسطين حلاً عادلاً، ويعود كل حق إلى صاحبه، فلا يبقى مظلوم ولا مغبون ولا مشرد، ويعيش الجميع في ظل دولة واحدة لا فضل فيها لفردٍ على آخر إلا بما يبذله من خدمة للأمة والوطن سواء كان عربياً أم يهودياً، وعلى اليهود أن يتخلصوا من الصهيونية، فهي التي قادتهم وستقودهم إلى الهلاك والدمار.

أنا واثق بأن كثيرين من اليهود يخجلون ويأسفون ويتبرؤون مما ارتكبه أبناء ملتهم من مجازر تنخلع من هولها القلوب كمجازر دير ياسين وكفر قاسم وغيرهما، والتي كانت الغاية منها أن يفرّ العرب خوفاً وهلعاً تاركين قراهم ومدنهم وحقولهم حفاظاً على أرواحهم وأرواح أبنائهم، وحين خلت الأرض من سكانها العرب احتلها اليهود وطناً جديداً لهم أخذوه ظلماً واغتصاباً وبغياً، دون

أن يكونوا في حاجة إليه فقد كانت لهم أوطان، ولدوا وولد أجدادهم فيها، يعيشون في ربوعها منعمين محترمين مكرمين.

فإذا كان قد ظهر في العالم جزار مجنون فاصطدموا به، فهذا لا يعني أن أوربا وأميركا فيها الكثير من أمثال هذا الطاغية الفاشستي المجنون.

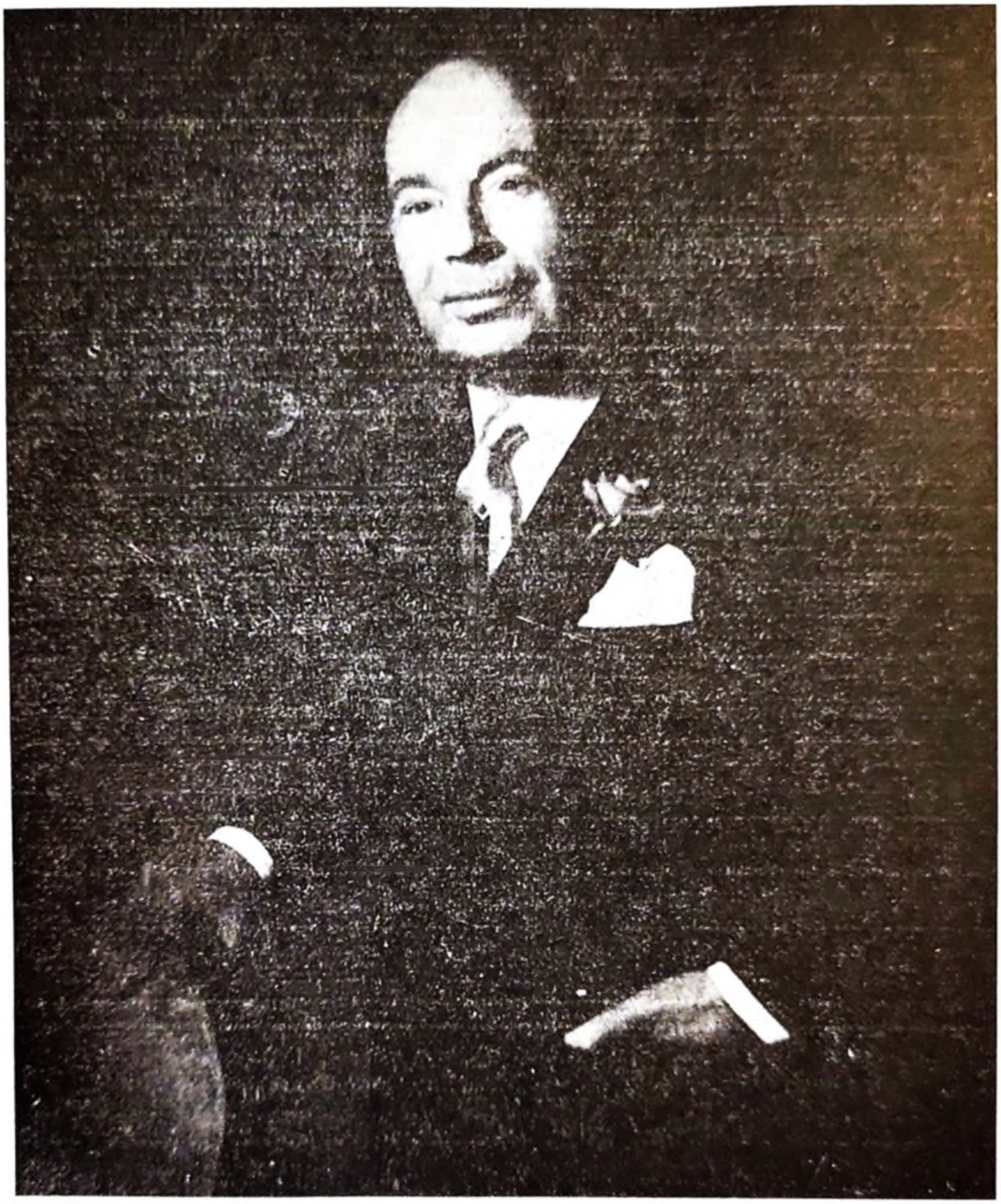
إن هتلر الذي فتك ببعض اليهود كان باغياً ظالماً ولا شك في ذلك، ولكن المؤسف حقاً أن يكون اليهود أشدّ منه بغياً وظلماً وفتكاً، وأسوأ من هذا كله أن يدفع العرب ثمن بغيه وفتكه باليهود.

ليس أمامنا اليوم إلا طريق واحدة وهي أن ننهي قضية فلسطين بحلٍ سليم منطقي يبدأ برد الحقوق المغتصبة إلى أصحابها، وينتهي بسيادة الأمن والسلام في الربوع المقدسة حيث يعيش الناس من جميع الأجناس في ظل إخاء وطني لا يشوبه حقد ولا تعكر صفوه البغضاء.

والله نسأل أن يلهمنا الصواب ويهدينا إلى سواء السبيل، إنه على ما يشاء قدير.

علي رضا

الملحقـــات



المحامي الكبير المرحوم السيد فتح الله الصقال



الدكتور نافع السباعي الذي كان يطبب
جرحى الثوار سراً معرضاً نفسه للحكم
بالإعدام قياماً بواجبه نحو وطنه وأمته



الشيخ صالح العلي بطل الثورة
في الساحل وجبال العلويين



قائد الثورة السورية الكبرى الزعيم
سلطان باشا الأطرش



الزعيم الخالد إبراهيم هنانو



شيخ الثوار الحاج فاتح المرعشي الذي أنفق
ثمانين ألف ليرة ذهبية في سبيل استقلال وطننا



الثائر العظيم السيد نجيب سخيطة
البطل الصابر الصامد



الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الثائر الكبير



الثائر الشجاع الحاج طاهر جراب أحد
الأخوة الثوار الثلاثة



السيد فوزي الغزي العالم الحقوقي وعضو
الكتلة الوطنية في دمشق وأحد كبار المناضلين



الأمير شكيب أرسلان عضو المؤتمر السوري
والكاتب العربي الكبير



الحاج عمر واعظ

كان منزله في حلب مأوى للثوار يعالج
فيه جرحاهم وقد أنفق أمواله في سبيل استقلال بلاده



الحاج عثمان قواس كاله .. مناضل كبير في
حلب، كان يعمل سراً في تزويد الثوار بالسلاح
تحت طائلة الإعدام



السيد فخري البارودي
عضو الكتلة الوطنية في دمشق
والزعيم الوطني الشعبي



السيد طاهر يكن
كان يؤمن مبيت الثوار عنده ثم يوصلهم إلى
منازلهم



السيد محمد الشياح
المناضل الصامت صاحب الأعمال
البطولية في حلب الشهباء



الحاج صالح صباغ
من كبار المناضلين بحلب



الثائر عبد الرحمن عيد رئيس
رابطة رجال الثورة في حلب



السيد جميل غازي
المناضل الجريء الذي كان شعلة
من النشاط الثوري الوطني



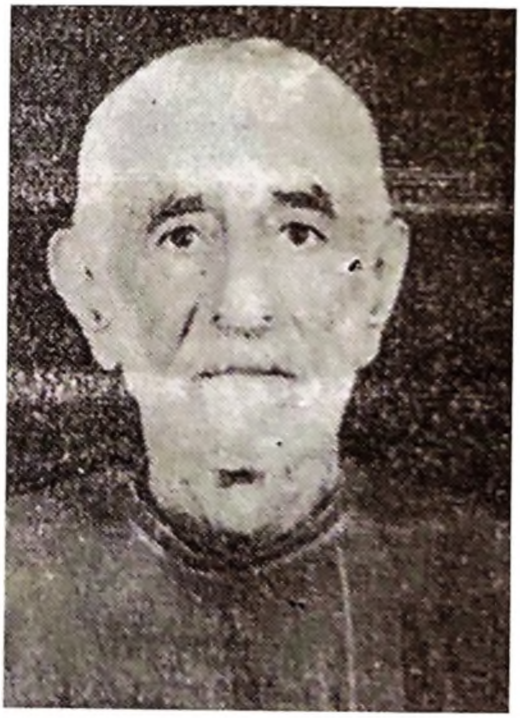
المناضل الوطني الكبير السيد
عبده المصري
صاحب المواقف الوطنية بحلب



الشيخ يوسف السعدون القائد
الثوري الشجاع والركن المساعد
للزعيم الخالد في حروبه الوطنية



الثائر السيد إبراهيم قدور



الثائر السيد الموسى سرحان



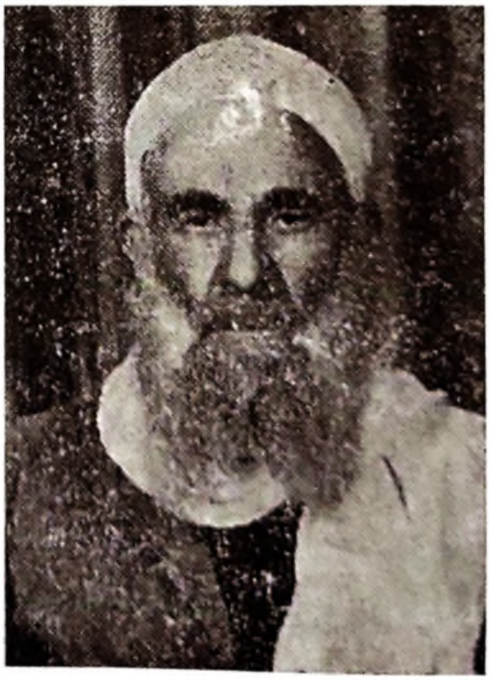
السيد علي زيدان
من المناضلين الوطنيين بحلب

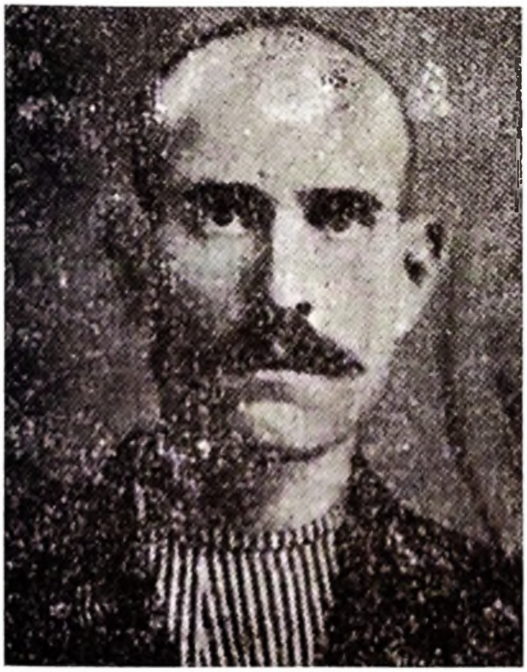


الثائر أحمد ناصيف تامر



السيد ذكي عثمان
الوطني الثائر من احسم (جبل الزاوية)





الحاج محمد خطيب صاحب المواقع الكثيرة ضد الفرنسيين
ولقد سجن وعذب وشرد في سبيل وطنه الغالي

مراجع الكتاب

بيانات شفهية دقيقة أدلى بها عدد كبير من الثوار الذين ما يزالون على قيد الحياة مدّ الله في عمرهم.

صحف: القبس والأيام، والاتحاد، والنذير وغيرها من الصحف السورية، وبعض الصحف الأجنبية.

مذكرات الثائر نجيب عويّد.

مذكرات الثائر إبراهيم الشغوري	إبراهيم الشغوري
كفاح الشعب العربي السوري	محمود هندي
سجل الخلود	جميل العلواني
المراحل	الدكتور عبد الرحمن الكيالي
محاكمة الزعيم هنانو	المحامي السيد فتح الله الصقال
فارس الخوري وأيام لا تنسى	للفرحاني
الكتاب الذهبي	منير الريس

المحتوى

هذا الكتـاب

أقدّم هـذا الكتـاب قبـسا يتعـرف علـى ضـوئه النـاس جميعـاً علـى حقيقة وخفايـا النـضال الـوطني العـسكري والـسياسي في سـورية، هـذا النضال الذي امتدّ من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٤٦، إذ تم في الخامس عشر مـن نيسان جلاء آخر جندي فرنسي عن سورية الحبيبة، بعد كفاح مريـر، وقتال دموي.

إنّ هذا الإستقلال الغـالي الـذي مهرنـاه بـدمائنا وأرواحنـا، ودمـوع أطفالنـا ونـسائنا، سـيجعل وطننـا منيعـا صـامداً قويـاً، وسـوف يكـون المواطنون أقدر على العمل لمستقبل كريـم عزيـز ليس فيه مستسلم ولا ضنين بالتضحية، وسنتحمل جميعاً مرارة الكفاح القومي بعناد حتـى يتحرر الوطن المغتصب (فلسطين) من العدو المستوطن الدخيل.

المؤلف

(عن الطبعة الأولى)

هذا الكتاب

أقدم هذا الكتاب قبساً يتعرف على ضوئه الناس جميعاً على حقيقة وخفايا النضال الوطني العسكري والسياسي في سورية، هذا النضال الذي امتدّ من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٤٦، إذ تم في الخامس عشر من نيسان جلاء آخر جندي فرنسي عن سورية الحبيبة، بعد كفاح مرير، وقتال دموي.

إنّ هذا الإستقلال الغالي الذي مهرناه بدمائنا وأرواحنا، ودموع أطفالنا ونسائنا، سيجعل وطننا منيعاً صامداً قوياً، وسوف يكون المواطنون أقدر على العمل لمستقبل كريم عزيز ليس فيه مستسلم ولا ضنين بالتضحية، وسنتحمل جميعاً مرارة الكفاح القومي بعناد حتى يتحرر الوطن المغتصب (فلسطين) من العدو المستوطن الدخيل.

المؤلف

(عن الطبعة الأولى)